بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : أبوالخير تراسون كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيـــدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في تخصص العقيـــــدة

عنوان الأطروحة : " التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه " .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعـــلاه — والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٨/ ١٠/١٤٢٣هـــ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ، فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

والله الموفق ،،

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ عبد العزيز المرشدي	الاسم : د/ علي بن نفيع العلياني	الاسم : د/ سالم محمد القرني
التوقيع	التوقيع	التوقيع ....

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

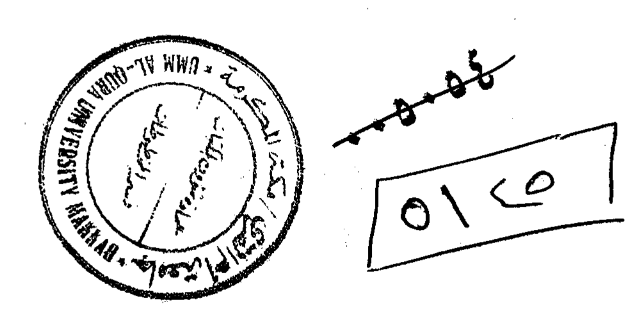
الاسم : د/ عبد العزيز بن أحمد الحميدي

التوقيع ....

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
مكة المكرمة



التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في قسم العقيدة

إعداد الطالب

أبو الخير تراسون

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد العزيز بن عبد اللطيف المرشدي

١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢م .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

موضوع البحث : التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه .

قد اخترت هذا الموضوع لأنه متصل بإحدى الاتجاهات الموجودة في عصر الفقهاء الأربعة ، وأعني بذلك الاتجاه الصوفي المنحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وما آل إليه من تشويه تعاليمه الطيبة في بعض النفوس هذه ناحية ؛

ومن ناحية أخرى كان الهدف من هذا البحث هو الإسهام في التوضيح لحياة الأئمة الأربعة ، وزهدهم في هذه الحياة ، والمشاركة في الدفاع عنهم في قضايا عقدية وسلوكية لم تعرف عنهم .

وقد احتوت الرسالة على **مقدمة وبابين وخاتمة** ، وبينت في المقدمة أهم الدوافع التي دفعتني إلى الكتابة .

أما **الباب الأول** فقد عقدته للتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وتحته ثلاثة فصول ، تحدث الفصل الأول عن مفهوم التصوف ونشأته ومصادره وآثاره ، وتحدث الثاني عن مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، وتحدث الثالث عن أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين كمعرفة الله ، والحب الإلهي، والولاية والكرامة ، والفناء ، والشريعة والحقيقة ، والسماع ، والأحوال والمقامات

وأما **الباب الثاني** فقد خصصته لموقف الفقهاء الأربعة من التصوف ، وتحته أربعة فصول ، تكلم الفصل الأول عن الإمام أبي حنيفة وموضوعات التصوف ، وتحدث الثاني عن الإمام مالك وموضوعات التصوف ، وتحدث الثالث عن الإمام الشافعي وموضوعات التصوف، أما الرابع فتحدث عن الإمام أحمد بن حنبل وموضوعات التصوف ، وكشفت المباحث تحت هذا الباب عن بطلان ما نسب إلى الأئمة الأربعة في التصوف .

أما النتائج التي توصلت إليها فأهمها ما يلي :

١- إن مفهوم التصوف الذي صدر من بعض الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين أخذ جانبا من جوانب حسن الخلق ، وتزكية النفوس ، والزهد والتقشف ، وإن كان في مفهومهم بعض المآخذ والانحرافات .

٢- إن الهدف من التصوف في القرن الثالث الهجري هوالاتصال بالله ﷻ ، كما أن الحب الإلهي أصبح معلما وطريقا اتجه إليه أهل التصوف .

٣- إن زهد الأئمة الأربعة كان زهدا إيجابيا ، حيث كانوا لا يقعدون عن الكسب والعمل ، أو يهجرون المال والعيال ..

٤- لقد أنكر الأئمة الأربعة التغبير ، لأنه سماع منهي عنه ، كما حرصوا – رحمهم الله – وأتباعه على حماية التوحيد من كل شائبة .

٥- إن كثيرا من الروايات والأعمال المنسوبة إلى الفقهاء الأربعة في التصوف لا تصح ، لأنهم لم يأمروا باقتداء طريق أهل التصوف ، وإنما عثر عنهم تمسكهم بالكتاب والسنة ، وأمروا بالاعراض عن أقوالهم إذا خالفت الأحاديث الصحيحة.

Abstract

Title : Sufism in the second and third centuries after hijrah and the stand of the four Imaams regarding it.

This topic was chosen by me because this is related to one of the beliefs during the time of the four scholars. What I mean is that the direction that the people practicing Sufism took during that time were diverted away from the right path of Islam. And the result of this was the distortion of the teaching of Islam to some people. The purpose of this dissertation was to contribute in the explanations regarding the life of the four scholars and the ascetic lives they have lived in this world. This is also intended to help clarify the issues regarding the faith and practices which were attributed to the four scholars, but were not known to them and were not practiced by them.

This dissertation contains an Introduction, a body which was divided into Two Sections, and a conclution. The First section talked about Sufism in the second and third centuries. There are three Chapters under this section. The First Chapter discussed about the concept of Sufism, its roots, sources, and influences. The Second Chapter discussed how Sufism developed and progressed until the end of the third century. The Third Chapter discussed about the significant issues concerning the lives and practices of the people of Sufism in the second and third centuries, i.e: The Recognation of Allah, The Love for Allah, ect.

The Second Section talked about the four Scholars and their stands on Tasawwuf. This section was divided into four chapters, Each Chapter talked about each Imaam and the subjects on Tasawwuf: Chapter One, of Imaam Abu Haneefah; Chapter Two, of Imaam Maalik ; Chapter Three of Imaam Shafi'ie; and Chapter Four, of Imaam Ahmad ibn Hanbal. It was found out under these four chapters that the most of the things ascribed to these four Imaams regarding Tasawwuf were not true.

The Conclusion enumerated the important findings and the most important were:

- The certainty that the concept of Tasawwuf came from scholars of Sufism in the second and third centuries taking some of the good concepts regarding behaviorism, purification of the soul, and the living of the ascetic life, even though they were found to be erroneous practices and have diverted away from the right path;
- The purpose of Tasawwuf in the third century, which was to establish a direct relationship with Allah and to have love for Allah, served as a milestone for all the Sufis during that time;
- The ascetic lives of the four Scholars were found to be positively good and in consonance with the sunnah because they didn't just sit down, waited and left their families rather they have endeavored to find work, etc;
- The four scholars have denied music because this is forbidden in Islam, and they were strict including their followers and they have adhered to the principles of Islamic Monotheism and shun away from anything that destroys it;
- Most of the stories and acts referred to the four Imaams regarding Tasawwuf were found to be not true because they have not commanded to follow the ways of the Sufis. Rather, as what have been seen of them and what they have taught, they have been strict in the implementation of Kitaab and Sunnah and they ordered the nonrecognition of their teachings whenever these were found to be against the authentic hadeeths of the Prophet Mohammad sallallaahu 'alaihi wasallam.

Aboulkhair S. Tarason

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُونَ ﴾ [1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [2] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [3] .

أما بعد : فإن الله ﷻ قد بعث نبيه محمدا ﷺ برسالة الإسلام الخالدة ، وأكمل به الدين كما قال ﷻ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [4] .

لقد بين النبي ﷺ تعاليم الإسلام السمحة خير بيان ، وبلغ الدعوة إلى الناس كافة ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ووفق الله- لإجابة دعوته المباركة – من شرح الله صدره للإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وظل المسلمون على عقيدة صحيحة – بفضل الله ﷻ – كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وبهذه الصورة المشرقة عاش المسلمون الأوائل في ظل الدين الحنيف سعداء متحابين ، وسجلوا أروع الأمثلة في المجالات كلها ، إلا أن مجريات التاريخ أحدثت أمورا تسبب بها تفكك الأمة وتفرقها حينما ظهرت – بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وما تلاه من حروب- بدعتان متقابلتان : بدعة الخوارج المكفرين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعض الصحابة ، وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته ، أو نبوته أو إلاهيته ، ثم تتابع خروج الفرق بعد

---

(1) سورة آل عمران ، الآية (١٠٢) .

(2) سورة النساء ، الآية (١) .

(3) سورة الأحزاب ، الآيتان (٧٠- ٧١) .

(4) سورة المائدة ، الآية (٣) .

ذلك ، حيث حدثت بدعة المرجئة والقدرية في خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم تبعتها بدعة الجهمية المعطلة والمشبهة الممثلة في أواخر الخلافة الأموية ، فكانت هذه الفرق هي أصول أهل البدع التي تفرعت عنها باقي الفرق الأخرى .

ومع مطلع القرن الثاني الهجري لدعوة الإسلام بدا في الأفق ما ينذر بظهور جيل من المسلمين اختلط ببيئات أخرى لها معتقداتها وشرائعها وحضاراتها ، وهذا لا يعني أن الجيل الأول كانوا بمعزل عن المدنيات والثقافات السابقة ؛ لكنهم كانوا مكتفين بما لديهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، إذ الاعتصام بهما كفيل بتحقيق هدايتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة .

غير أن الفترة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين كانت مختلفة ، إذ بعد أن أقبلت الدنيا على المسلمين وفتح الله لهم الأمصار ، ونشطت الحركة الثقافية ، وكثرت الترجمات ، وطغت الحياة المادية على الحياة الروحية ، حدثت ردة فعل عنيفة عند كثير من المسلمين ، فاتجهوا إلى الزهد والتقشف ، وحب العزلة والانقطاع للعبادة ، والبعد عن هذه الحياة الزائفة الملهية ، محاولين التمسك بتعاليم الكتاب والسنة .

لكن هذا الاتجاه الجديد ؛ وفي منتصف القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين ما لبث أن انحرف عن طريقه الصحيح ، حيث امتزجت الثقافات الإسلامية بغيرها من الثقافات الدخيلة ، فظهرت نظريات دينية ابتعدت قليلا أو كثيرا عن تعاليم الإسلام السمحة ، وتبلور ذلك في تيارات فكرية متعددة ، كان من بينها **الاتجاه الصوفي** .

هذا الاتجاه له أثره البالغ في مجرى الحياة الإسلامية ، ونعني به الاتجاه الصوفي المنحرف عن طريق الإسلام الصحيح ، وما آل إليه من تشويه تعاليمه الطيبة في بعض النفوس ، وأثره السيئ على الأمة الإسلامية ، وخاصة بعد القرون الأولى المفضلة .. وهذا من الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، علما بأن حال الأمة الإسلامية لايكون ميئوسا منها ، بحسب ما نرجو من الله العلي القدير ونتضرع إليه ، ما دام في المسلمين أناس مخلصون ، يعملون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا يبتغون إلا رضوان الله فأولئك هم الصادقون في إيمانهم وعملهم ، وهم مناط رجاء هذه الأمة ومحط أملها في خطوات الخير في تصحيح معتقدات الناس الفاسدة ، وتحقيق وحدة المسلمين وجمع كلمتهم هذه ناحية .

ومـــن ناحية أخرى كان الهدف من هذا البحث هو الإسهام في التوضيح لحياة الأئمة الأربعـــة ، وزهدهـــم في هذه الدنيا ، الذي يعطي تصورا واضحا نحو التعامل مع الحياة ، والاســـتفادة من النعم التي سخرها الله ﷻ لعباده المؤمنين ، ثم المشاركة في الدفاع عنهم – رحمهم الله – في قضايا عقدية وسلوكية لم تعرف عنهم .

ومن المعلوم أن الأئمة الأربعة – رحمهم الله – قد اشتهروا بالتمسك بالكتاب والسنة والتحلي بالخلق الحسن ، إلا أن هناك أفكارا وأعمالا نسبت إليهم تقتضي البحث والتحقيق ، بـــل إن فئة من الكتاب من ينسب إليهم الفكر الصوفي المنحرف ، مع أن مواقفهم مخالفة لأفكار المتصوفين الذين حادوا عن المنهج الصحيح .

ولهـــذا ، لا بـــد مـــن البحث في هذا الموضوع ليزول اللّبس والخلط بين المفاهيم في أعمـــال القلوب والزهد في هذه الحياة من جهة ، وبين التصوف بنظرياته وأحواله ومقاماته من جهة ثانية ، ثم المقارنة – ما أمكن – في بعض المفاهيم عند الفقهاء الأربعة والمتصوفة .

لذلـــك استعنت بالله العلي القدير على جمع مادة هذا البحث ، والدخول في خضم موضـــوعه ، ولا أقـــول إنني قد جمعت جميع أطرافه ، فإنه في رأيي أكبر وأوسع من ذلك ؛ لأنـــه موضوع كبير ومتصل بالأعلام الكبار ، ولكن بذلت قدر استطاعتي في جمع ما يسره الله تعالى لي جمعه من موضوعات التصوف ، ثم القيام بقراءتها ، وترتيب موادها ، وتوزيعها على فصول الرسالـــة التي هي بعنوان :

" التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وموقف الفقهاء الأربعة منه "

وقد سرت في هذه الرسالـــة على النحو الآتي :

١- جمعـــت المـــادة العـــلمية مـــن الكتب التي هي مظنة وجود تلك المواد في أهم موضوعات التصوف .

٢- أوردت بعـــض موضـــوعات التصوف على حدة لأحد الأئمة ابتداء بالإمام أبي حـــنيفة ، ثم الإمام مالك ، ثم الإمام الشافعي ، ثم الإمام أحمد بن حنبل – رحمهم الله – ثم أبطلت ونفيت كل ما نسب إلى أحدهم من الفكر الصوفي .

٣- أكـــثرت من نقل الأقوال وخاصة أقوال الصوفية لبيان الموضوع ، كما أكثرت من إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

٤- تـــرجمت لبعض الأعلام في الهامش ، وقد أعدت توضيح الشخصية لبعض أعلام التصوف في متن الرسالـــة .

٥- عـــزوت الآيـــات القـــرآنية الواردة في الرسالة بذكر رقمها ، واسم السورة في الحاشية .

٦- خرجت الأحاديث والآثار الواردة في البحث .

٧- وضحت بعض المصطلحات والكلمات الغريبة .

٨- عمـــلت الفهارس للآيات القرآنية ، وللأحاديث النبوية والآثار، والمصطلحات والكلمات الغريبة وللأعلام المترجم لهم ، وللمصادر والمراجع ، وللموضوعات .

وقد جاءت الرسالة مشتملة على مقدمة وبابين وخاتمة .

أمـــا المقدمة : فقد بينت فيها أهم الدوافع التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع ، والمنهج الذي سرت عليـــه .

وأما الباب الأول : فقد عقدته للتصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين وقسمته إلى ثلاثة فصول :

الفصـــل الأول : مفهـــوم التصوف ، ونشأته ، ومصادره ، وآثاره ويحتوي على خمسة مباحث

المبحث الأول : تعريف التصوف

المبحث الثاني : نشأة التصوف

المبحث الثالث : عوامل نشأة التصوف

المبحث الرابع : مصادر التصوف

المبحث الخامس : آثار التصوف

الفصل الثاني : مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

المبحث الثاني : خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

المبحث الثالث : ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

المبحث الرابع : أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الفصل الثالث : أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين ويشتمل على ثمانية مباحث :

المبحث الأول : معرفة الله تعالى

المبحث الثاني : الحب الإلهي

المبحث الثالث : الولاية

المبحث الرابع : الكرامة

المبحث الخامس : الفناء ووحدة الشهود

المبحث السادس : الشريعة والحقيقة

المبحث السابع : السماع

المبحث الثامن : الأحوال والمقامات

وأما الباب الثاني : فقد خصصته لموقف الفقهاء الأربعة من التصوف ورتبته على أربعة فصول :

الفصل الأول : الإمام أبو حنيفة والتصوف ، وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

المبحث الثاني : الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الثاني : الإمام مالك بن أنس والتصوف ، وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام مالك وحياته

المبحث الثاني : الإمام مالك وموضوعات التصوف

المبحث الثالث :بطلان ما نسب إلى الإمام مالك في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الثالث : الإمام الشافعي والتصوف ، ويحتوي على أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام الشافعي وحياته

المبحث الثاني : الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إلى الإمام الشافعي في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

الفصل الرابع : الإمام أحمد بن حنبل والتصوف ، ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أحمد وحياته

المبحث الثاني : الإمام أحمد وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : موقفه من أعلام التصوف

المبحث الرابع : بطلان ما نسب إلى الإمام أحمد في التصوف

المبحث الخامس : موقف بعض تلامذته من التصوف .

وفي الخاتمة : ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث ، وبعد ذلك ألحقت بالرسالة فهارس تفصيلية وتشمل : فهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث النبوية ، وفهرس الآثار ، وفهرس المصطلحات والكلمات الغريبة ، وفهرس الأعلام المترجم لهم في الحاشية ، وفهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

هذا هو جهدي المتواضع ، ذلك أنني مهما بذلت واجتهدت وتوصلت به إلى هذا المستوى ، فإنني أعترف أنه لم يبلغ حد الكمال ولا قاربه لأنه موضوع كبير ، ثم إن كل عمل بشري يعتريه النقص ، - والكمال لله وحده - وكل ما أرجوه من الله ﷻ أن أكون قد وفقت في عرض الموضوع ، وأتيت ببعض النماذج الموضحة للحالة الدينية التي يعيشها بعض الجيل في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وأبطلت ما نسب إلى الفقهاء الأربعة في موضوع من موضوعات التصوف .

وقبل أن أختم أرى من الواجب **أن أقدم شكري وتقديري إلى حكومة المملكة العربية السعودية** ، وجميع القائمين على جامعة أم القرى وعلى رأسهم معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور ناصر بن عبد الله الصالح ، وسعادة عميد كلية الدعوة وأصول الدين ، الأستاذ الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي ، وسعادة رئيس قسم العقيدة الدكتور عبد العزيز بن أحمد الحميدي ، وكافة الأساتذة والإداريين لما يبذلونه من نفس ونفيس لخدمة أبناء المسلمين في أنحاء العالم ، ولما يقدمون لهم من علوم ونصائح وخدمات جليلة في خدمة الإسلام والمسلمين ، فبارك الله لهم في مساعيهم ، وسدد خطاهم ، وجزاهم خير الجزاء .

كما لا أنسى أن أقدم شكري وتقديري لشيخي الفاضل/ سعادة الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن عبد اللطيف المرشدي ، الذي قام بالإشراف على هذه الرسالة ، فقد كان أستاذا محبا لي ، وصابرا لمتابعة سيري في هذا البحث ، فلم يدخر وسعا في تقديم توجيهاته

وإرشـــاداته القـــيمة لي ، وأسأل الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء ، وأن يجعل عمله في موازين حسناته يوم القيامة .

وخـــتاما : أســـأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا إلى سواء السبيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الطالب / أبوالخير تراسون

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم العقيدة

الباب الأول

التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

وتحته ثلاثة فصول

الفصل الأول : مفهوم التصوف، ونشأته، ومصادره، وآثاره

الفصل الثاني : مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري

الفصل الثالث : أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الفصل الأول

مفهوم التصوف، ونشأته، ومصادره، وآثاره

وتحته خمسة مباحث

المبحث الأول : تعريف التصوف

المبحث الثاني : نشأة التصوف

المبحث الثالث : عوامل نشأة التصوف

المبحث الرابع : مصادر التصوف

المبحث الخامس : آثار التصوف

المبحث الأول

تعريف التصوف

قـــبل أن نتعرض لتعريف التصوف في اللغة والاصطلاح ، فلا بد أن نبحث أولا عن أصل اشتقاق كلمته أو كلمة الصوفى.

لم تـــتفق كـــلمة الباحـــثين عـــلى الأصل الذي أخذت منه لفظة الصوفي من ناحية الاشـــتقاق ، وظـــلت أقوالهم متباينة في ذلك ، حيث من الصعوبة بمكان أن يحددوا مصدرا معيـــنا لهذه الكلمة - حتى وإن كانوا من الصوفية أنفسهم - ، إلا أنهم ذكروا لنا عدة آراء لتوضيح المصدر الذي قد تصاغ الكلمة منه.

فالرأي الأول : أن هذه الكلمة " التصوف" نسبة إلى الصفاء [١]، لأن الصوفية — في رأيهـــم - قوم صفت نفوسهم من كدورات الدنيا وعلائقها . هذا الرأي وإن كان مقبولا مـــن حيـــث المعنى إلا أن الكلاباذي [٢] والقشيري [٣] وشيخ الإسلام ابن تيمية رفضوا هذا الاشـــتقـــاق لعدم ملاءمتـــه مع قواعد اللغـــة ، إذ لو صح لغويا لَحُقّ أن يقال صفائية أو صفوية [٤] في النسبة إليـــه .

الـــرأي الثاني : أن تكون منسوبة إلى " صوفة " وهو اسم رجل قد انفرد بخدمة الله ﷻ عند بيته الحرام ، واسمه (الغوث بن مر) ، سمى بذلك لأن أمه نذرت لئن عاش لتعلقنّ برأسه صوفة ، ولتجعلنّه ربيط الكعبة ، ففعلت ، فقيل لـــه : " صوفة " ولولده من بعده ،

---

(١) انظـــر : الرســـالة القشيرية ، لأبي القاسم عبد الكريم القشيري ، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد الطبعة الثانية ، دار الخير ، (بيروت ، عام ١٤١٦ هـــ) ص ٢٧٩ .
والتعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبي بكر محمد الكلاباذي (مكتبة الكليات الأزهرية) ص ٢٨ .
وفي التصوف الإسلامي وتاريخه ، لرينولد نيكولسون ترجمة أبي العلا عفيفي (طبعة القاهرة ١٣٨٨ هـــ) ص٦٦ .

(٢) هو محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري ، أبو بكر، شارك في بعض العلوم، من آثاره : التعرف لمذهب أهل التصوف (ت ٣٨٠هـــ) ، انظر : الأعلام للزركلي ، ط٩ بيروت (دار العلم للملايين) ٢٩٥/٥ .

(٣) هو أبو القاسم عبـــد الكريم بن هوزان القشيري الصوفي ، صاحـــب كتاب الرسالة ، ولطائف الإشارات في التصوف ، وهو من شيوخ التصوف في خراسان (ت ٤٦٥هـــ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، ط ١١ ، بـــيروت (مؤسسة الرسالة ١٤١٩هـــ) ٢٢٧/١٨ ، والأعلام ٥٧/٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ، تحقيق محمود الطناحي وغيره ، (مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـــ) ٢٤٣/٣ .

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبدا لرحمن النجدي ، ١٠ / ٣٦٩ .

فانتسب إليه قوم في الجاهلية فسموا صوفية ، وقد انقطعوا إلى الله ﷻ للعبادة في المسجد الحرام ، فمن تشبه بهم فهم الصوفية [(١)] .

وهذا الرأي وإن كان لا يعارض اللغة إلا أنه يفهم منه أن المتصوفة ينتسبون إلى أناس لم يعرفوا الإسلام ، وإن سلمت هذه النسبة فإن هؤلاء القوم قد حكموا على أنفسهم بأنهم منتمون إلى أقوام في الجاهلية [(٢)] ، وبالإضافة إلى ذلك أن الصوفة الذين خدموا الكعبة لم يكونوا معروفين ، وإلا كان ا لأحرى أن ينسب إليهم زهاد النبوة ، ولكن لم يثبت أنهم سموا بذلك ! .

الرأي الثالث : أن تكون منسوبة إلى أهل الصُّفة الذين كانوا يقعدون في مؤخرة مسجد رسول الله ﷺ ، [(٣)] حيث آوى إليها في أول الإسلام جماعة من المهاجرين الفقراء الذين لا ملاجئ لهم ، فأذن لهم النبي ﷺ بالإقامة فيها ريثما يجدون ما يكفيهم .

وقد رأى بعض المتصوفة – ومن نحا نحوهم – أن التصوف منسوب إلى صفّة مسجد رسول الله ﷺ ، وهم يريدون بذلك إرجاع التصوف إلى عصور تاريخية متقدمة ؛ بل يستهدفون ربطه بعصر النبوة زاعمين في الوقت نفسه أن الرسول ﷺ قد أقرّ طريقتهم على منهج الفقر و العزلة و التواكل .

ومن أجل التدليل على هذا الرأي المذكور يقول السهروردي[(٤)] : إن أهل الصفّة " قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة ، وكان رسول الله ﷺ يحث الناس على مواساتهم ، ويجالسهم ويأكل معهم " [(٥)] .

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق د. السيد الجميلي . الطبعة الثانية ، بيروت (دار الكتاب العربي ١٤١٥ هـ) ص ٢٠٠ .

(٢) انظر: الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د. محمد جميل غازي ، القاهرة (مطبعة المدني) ص١٢ .

(٣) انظر : اللمع ، لأبي نصر السراج الطوسي ، تحقيق د/ عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقي سرور ، مصر (دار الكتب الحديثة ١٣٨٠ هـ) ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ .

(٤) هو عمر بن محمد بن عبد الله أبو حفص شهاب الدين البكري السهروردي ، من كبار الصوفية وله كتب في التصوف مثل : عوارف المعارف (ت٦٣٢ هـ) ، انظر : الأعلام ٥/٢٢٣ .

(٥) عوارف المعارف ، الطبعة الأولى ، بيروت (دار الكتاب العربي ١٩٦٦ م) ص ٦١ – ٦٢ .

وهـــذا القول قد يكون مخالفا للصواب لأن أهل الصفة لم يكونوا منقطعين عن الناس مـــن أجل الزهد الصوفي ؛ بل كانوا مداومين لمجلس رسول الله ﷺ يتلقون منه العلم والفقه في الديـــن، ويكتســـبون إذا مـــا وجدوا فرصة العمل الطيب ، كما يخرجون مع المجاهدين للجهاد في سبيل الله إذا دعا الأمر إلى ذلك . وقال ابن الجوزي[١] عنهم : "وهؤلاء القوم إنما قعـــدوا في المســـجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن ذلك الحال وخرجوا " [٢] .

ويكفـــي في إبطال هذا الرأي أيضا[٣] أنه لا يساير أوضاع اللغة الصحيحة ، هذا ما أيـــده القشيرى حيث لا يسلم بصحة هذه النسبة فيقول : " فالنسبة إلى الصُفّة لا تجيء على نحو الصوفي " [٤] كما أن ابن الجوزي رفض هذا الرأي فيقول : " إن نسبة الصوفي إلى أهل الصُـــفّة غلط لأنه لو كان كذلك لقيل صُفّي [٥] ". ولكن مع ذلك لا يمكن إلغاء أثر سلوك أهـــل الصفة وزهدهم في سير الحياة عند الصوفية في القرنين الثاني و الثالث الهجريين ، بل ربما كانت حياتهم القائمة على الجهاد في سبيل الله والزهد نموذجا لمن أتى بعدهم .

الرأي الرابع : أن تكون منسوبة إلى الصفّ الأول لما لهم من سابقة وتقدم في العبادة، " لأنهـــم في الصـــف الأول بـــين يدي الله ﷻ بارتفاع هممهم ، وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بين يديه " [٦] . وحاولوا إيجاد علاقة بين هذه التسمية والتي قبلها من جهة ، وبين حـــالهم مـــن جهة أخرى فقالوا : " والصفاء يؤدي إلى الصف فمن صفت قلوبهم لله تعالى يكرمهم الله ﷻ ويصطفيهم ، فيصبحون في الصف الأول عنده يقدمهم على سواهم " [٧]

---

(١) ا لإمام العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي الحنبلي ، صاحب التصانيف الكثيرة (ت٥٩٧ هـــ) انظر : سير أعلام النبلاء ٢١ /٣٦٥ ، و ا لأعلام ٣ /٣١٦ — ٣١٧ .

(٢) تلبيس إبليس ، ص٢٠١ .

(٣) انظر : كتاب " أبو حامد الغزالي والتصوف " لعبد الرحمن الدمشقية ، حيث أبطل هذه النسبة من عدة وجوه ، الطبعة الأولى ، الرياض (دار طيبة ١٤١٦ هـــ) ص١٣٦ — ١٣٧ .

(٤) الرسالة القشيرية ص٢٧٩ .

(٥) تلبيس إبليس ص٢٠١ .

(٦) عوارف المعارف ص ٦١.

(٧) التصوف منشؤه ومصطلحاته ، سعد السحمراني ، ط١ بيروت (دار النفائس ١٤٠٧هـــ) ص ١٩ .

فـــالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة ؛ [١] إذ لو كانت النسبة صحيحة لكان حقها أن تقال صَفِّية .

الـــرأي الخامس : أن تكون نسبة هذه الكلمة إلى صوفانة ، وهي بقلة زغباء قصيرة ، ونســـبوا إليها لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو بنبات الصحراء ، وأيضا هذا لا يصح لغويا لأنه لو كان كذلك لقيل للواحد منهم صوفاني لا صوفي [٢] .

الـــرأي الســـادس : أن تكـــون مشتقة من كلمة سوفيا اليونانية ، [٣] وقـــد قال به أبوالـــريحان البيروني[٤] ، وكلمة سوفيا باليونان هي الحكمة في العربية ، وبها سمي الفيلسوف فيلسوفا أي محب الحكمة ، فيكون الصوفية عندهم قد لقبوا بذلك الاسم ، وقال بهذا القول أيضـــا جماعـــة من المستشرقين وغيرهم . إلا أن (نولدكه)[٥] استبعد هذه الصلة لأسباب لغوية يونانية حيث إن حرف السين اليوناني يمثل في العصور المتأخرة بحرف السين العربي في جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد ، فلو كانت مشتقة من أصل يوناني لكان بقاء الصاد في أولها خروجا على القياس على أقل تقدير [٦] .

ثم إن العرب – كما يقول الدكتور زكي مبارك – : " كانوا مولعين بحفظ ما يدخل لغـــتهم مـــن الألفاظ الأجنبية ولو كان التصوف من سوفيا اليونانية لنصوا عليه في كثير من مؤلفـــاتهم ؛ فـــلم يبق إلا أن يكون ورودها في كلام البيروني ضربا من الاغراب ، استهوى المفتونين في عصرنا بتراث الأجانب مما حملهم على رد كل كلمة عربية إلى أجنبي حين يرون لها مشابهة في لغة أجنبية " [٧].

---

[١] انظر : الرسالة القشيرية ص٢٧٩ .

[٢] انظر : تلبيس إبليس ص٢٠١ .

[٣] انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإســـلام ، للدكتور علي سامي النشار، الطبعة السابعة ، مصر (دار المعارف ١٩٧٨م) ٣ /٤٢ .

[٤] هو محمد بن أحمد أبوالريحان البيروني الخوارزمي ، فيلسوف رياضي مؤرخ (ت٤٤٠ هـــ) انظر : الأعلام ٥ /٣١٤ .

[٥] نولدكه(ثيودور) ولد في همبورغ، (ت ١٩٣٠ م)من مشاهير المستشرقين الألمان ، اشتغل خصوصا في اللغات السريانية والعربية والفارسية. انظر : الأعلام ٩٦/٢ .

[٦] مجلة المستشرقين الألمان ٤٨ /٤٥ (١٨٩١) نقلا عن دائرة معارف الدين والأخلاق ، مادة : الصوفية.

[٧] التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ، للدكتور زكي مبارك، بيروت (دار الجيل) ١ /٦٦ .

الـــرأي السابع : أن تكون منسوبة إلى الصِّفة وتكون كلمة التصوف عند من سلك هـــذا الاتجـــاه تعني الاتصاف بالصفات الحميدة ، وترك الخصال ا لمذمومة [١] ، وقريب من هـــذا المعنى فإن هناك من ينسبها إلى الصفوة والمصافاة والاستصفاء ... وكل ذلك وغيرها من الاحتمالات الضعيفة فضلا عن عدم استقامتها على قواعد اللغة العربية.

الـــرأي الـــثامن : أن تكـــون نسبة هذه الكلمة إلى الصوف لأنه كان لباس الزهاد والنســـاك والعـــباد ، ولباس الرسل والأنبياء[٢] . ويقول الطوسي[٣] : - وهو من المؤرخين القدمـــاء للتصـــوف ورجالاته - " الصوفية عندي نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء - عـــليهم الصلاة والسلام - ، وشعار المساكين المتنسكين " [٤] ويؤكد ذلك بأن الصوفية يتخـــلقون بكـــل الأخلاق الفاضلة ، ويتسمون بكل الأحوال الشريفة ، وهم معدن جميع العـــلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة .. فلا محل لتمييزهم بحال دون حال ، ولا بخلق دون خـــلق ، ولا بعـــلم دون عـــلم ، فكانت هذه اللِّبسة اسما مجملا عاما مخبرا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال المحمودة . كما نسب الله طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام إلى ظاهـــر اللبسة فيقال لهم : الحواريون إذ كانوا قوما يلبسون البياض ، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال " [٥] .

ورأى الكلابـــاذي " أن مـــن جعل مأخذه من الصوف استقام له اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وصوفي على وزن عوفي أن عافاه الله فعوفي " [٦] .

كمـــا أن الســـهروردي اخـــتار هـــذا الرأي فقال : " إنه يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق ، يقال : تصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص، فنسبوا إلى ظاهر اللبسة ، وكان ذلك أبين في الإشارة وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف

---

[١] انظر : نشأة التصوف الإسلامي، د.إبراهيم بسيوني. مصر (دار المعارف١٩٦٩ م) ص٢٤ .

[٢] انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص٣٠ ، والتصوف الإسلامي لزكي١/ ٤٢ .

[٣] أبو نصر ، السراج عبد الله بن علي الطوسي، زاهد من شيوخ الصوفية (ت٣٧٨ هـــ) الأعلام ٤/ ١٠٤ .

[٤] اللمع للطوسي ص١٤ .

[٥] المصدر نفسه ص٤٠ –٤١ .

[٦] التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٣٤ .

كـــان غالبا على المتقدمين من سلفهم " [١] . فالتصوف مصدر الفعل الخماسي المصوغ من صوف للدلالة على لبس الصوف ، ومن ثم كان التجرد لحياة الصوفية يسمى صوفيا [٢] .

وهـــذا الرأي أكثر ما اطمأن إليه الباحثون لوجود نصوص كثيرة تشهد بذلك ، من ذلـــك أن إبراهـــيم بن أدهم[٣] كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو في طلبه، فهتف به هاتف يا إبراهيم أ لهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم هتف به أيضا من قـــربوس [٤] سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فترل عن دابته وصادف راعيا لأبيه، فأخذ جبة الراعي من صوف ولبسها ، وأعطاه فرسه وما معه ثم دخل البادية [٥] .

فالصـــوف مـــن لـــباس الرعاة ، وابن أدهم حين جاء ه النداء ترك فرسه وما معه وتصوف. وهو ما تحدث عنه اليافعي[٦] : من أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لكونه أقرب إلى التواضع والزهد [٧] . كما ذكر ذلك ابن قتيبة[٨] وابن سعد [٩] " أن الصوف كان لباس الفقراء والتائبين والمذنبين " [١٠] .

وقـــال ابن الجوزي : " كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب ، كان الزهد حُرقة فصار اليوم خِرقةٌ ، ويحك صوِّف قلبك لا جسمك ، واصلح نيتك لا مرقعتك " [١١] . و الصوف في هذا الكلام علامة الزهد . وسئل أبوعلي ا لروذباري[١٢] فقيل لـــه :

---

(١) عوارف المعارف، ص١٦ .

(٢) الإسلام والتصوف ، مصطفى عبد الرزاق وماسينيون. القاهرة (دارالشعب١٣٩٩ هـــ) ص١٤ .

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم ،كان من الزهاد من أهل بلخ بخراسان (ت١٦١ هـــ) انظر: طبقة الصوفية ص٢٧ ، والرسالة القشيرية ص٣٩١ ، وحلية الأولياء ٧/ ٤٢٦ ، وسير أعلام النبلاء ٧ /٣٨٧ .

(٤) قربوس : حنو السرج ، أي قسمه المقوّس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره ، جمع قرابيس .

(٥) الرسالة القشيرية ص٣٩٢ .

(٦) هو عبد الله أسعد بن علي اليافعي ، مؤرخ باحث متصوف (ت٧٦٨ هـــ) ، الأعلام ٤ /٧٢ .

(٧) التصوف الإسلامي في الآداب والأخلاق ص ٤٢ .

(٨) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، (ت٢٧٦ هـــ) انظر : سيرأعلام١٣ /٢٩٦ ، والأعلام٣ /١٣١

(٩) هو محمد بن سعد بن منيع ، أبو عبد الله البغدادي (ت ٢٣٠هـــ) انظر : سير أعلام ١٠/٦٦٤ .

(١٠) عيون الأخبـــار، لابن قتيبة ، القاهرة ، (دار الكتب ١٣٤٣هـــ) ص ١٣٦ ، وطبقات ابن سعد ، بيروت ، دار صادر ٣٤٨/٨ ، وعوارف المعارف،ص٦٠ –٦١ .

(١١) المدهش، لابن الجوزي، بيروت(المؤسسة العالمية ١٩٧٣ م) ص٤٣٥ .

(١٢) هو أحمد بن محمد الروذباري، صحب الجنيد وابن الجلاء (ت٣٢٢ هـــ) انظر: طبقات الصوفية ص٣٥٤ .

"من الصوفي ؟ فقال : من لبس الصوف على الصفا . فلبس الصوف عنده علامة الزهد – أيضا – ولكنه لا يغني عن الصفاء " [١] .

وحكي أن أبا سليمان الداراني [٢] (ت ٢١٥ هـ) – وهو من الصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين – " قال لرجل لبس الصوف إنك قد أظهرت آلة الزاهدين فماذا أورثك هذا الصوف ؟ فسكت الرجل ، فقال له : يكون ظاهرك قطنيا وباطنك صوفيا " [٣] ، وقد انتقد لبس الصوف المبالغ فيه قائلا : " إذا رأيت الصوفي يتنوّق في لبس الصوف فليس بصوفي ، وخيار هذه الأمة أصحاب القطن أبو بكر الصديق وأصحابه " [٤] .

ودخل معروف الكرخي[٥] (ت ٢٠٠ هـ) على أبي الحسن بن بشار وعليه جبة صوف فقال له أبو الحسن : "يا أبا محمد صوفت قلبك أو جسمك صوف قلبك والبس القوهي [٦]على القوهي ". وعن النضر بن شميل[٧] يقول : قلت لبعض الصوفية : تبيع جبتك الصوفي ؟ فقال : إذا باع الصياد شبكته بأي شيء يصطاد ؟ " [٨] .

فلبس الصوف- إذن -كناية عن الشظف والحرمان والفقر، وعلامة الزهد الانقطاع إلى الله ﷻ ، والتبتل في العبادة ، فنسبة الصوفية إلى الصوف هو الأصح ، لأن النسبة صحيحة من حيث اللغة والمعنى إذا اعتبرنا لباس الصوف تعبيرا رمزيا عن اتجاه المتصوفين في الزهد واختيار الحياة الخشنة وعدم الركون إلى الدنيا ونعيمها . وقد مال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وابن خلدون[٩] ورجحاه.

---

(١) تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، بيروت (دار الكتاب العربي) ١/٣٣١ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عطية الداراني ، من أهل داران إحدى قرى دمشق ، (ت ٢١٥هـ) ، انظر : طبقات الصوفية ص٧٥ ، والرسالة القشيرية ص٤١١ - ٤١٢، وسير أعلام النبلاء ١٠/١٨٢

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٤٤ .

(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير ، ط٢ ، بيروت (مكتبة المعارف ١٩٧٧م) ١٠/٢٩٢ .

(٥) هو أبو محفوظ ، معروف بن فيروز الكرخي (ت٢٠٠ هـ) انظر : طبقات الصوفية ص٨٣ .

(٦) القُوهِيُّ : ضرب من الثياب بيض . المعجم الوسيط ٢ /٧٦٨ .

(٧) العلامة الإمام الحافظ ، ثقة صاحب سنة (ت٢٠٣ هـ) ، سير أعلام ٩ /٣٢٨ ، والجرح والتعديل٨ /٤٧٧ .

(٨) تلبيس إبليس ص٢٤٤ .

(٩) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة (ت٨٠٨ هـ) .

فقال الأول : "وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم : القراء فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية الفقراء ، واسم الصوفية هو نسبة إلى الصوف هذا هو الصحيح "[١] . أما الثاني فقد دافع عن هذه النسبة من طريقين : أولهما أنه لو استعرضنا طوائف الناس كالصناع والزراع والعمال لا نجد أن طائفة منهم يغلب على أفرادها لبس الصوف كما غلب على طائفة الصوفية ، وثانيهما أن هذه الطائفة كانت تلبس الصوف زهدا وتورعا عن لباس فاخر الثياب ، أما سائر الناس من غيرهم فيلبسونه لا لهذا الغرض الذي ينشده الصوفي ، حينئذ يكون تميزهم بلبس الصوف أمرا واضحا[٢] . غير أن هذه الميزة قد تغيرت في هذا الزمان وأصبح من يرتديه ظاهر المظهر والملبس لا ظاهر الذل والتقشف والتواضع .

وأكد هذا الرأي كثير من العلماء المعاصرين[٣] وغيرهم من المستشرقين [٤] المتخصصين في دراسة التصوف أن هذا هو الاشتقاق الوحيد الذي تبرره اللغة ويتفق مع الواقع. يقول ماسينيون[٥] : " وينبغي رفض ما عدا ذلك من الأقوال التي قال بها القدماء والمحدثون في أصل الكلمة حيث كان من الثابت أن الصوفية أخذوا من اللباس كشعار للزهد والخشوع عن رهبان النصارى ونساكهم " [٦] . ودل على ذلك قول الجاحظ[٧] : " أن النصراني يلبس الصوف حين يتنسك " [٨] . وقول حماد بن أبي سليمان [٩]لما قدم

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١ /١٩٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، طبعة القاهرة ، (دار المصحف) ص٣٣٤ .

(٣) أمثال: مصطفى عبد الرزاق، ود.محمد مصطفى حلمي، ود.عبد الحليم محمود، وزكي مبارك وغيرهم...

(٤) أمثال : نولدكه ، ومارغليوث ، ونيكولسون ، وما سينيون ... وغيرهم .

(٥) ماسينيون (لويس) (ت١٩٦٢ م) مستشرق فرنسي ، وعضو في المجامع العلمية في بلدان عديدة ، اهتم بنشر مؤلفات الحلاج ، وترك آثارا في الصوفية...انظر: الأعلام ٢٤٧/٥ .

(٦) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٦٦ .

(٧) هو أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، اطلع على جميع العلوم المعروفة في عصره ، وهو من شيوخ المعتزلة (ت٢٥٥ هـ)، انظر : الأعلام ٥ /٧٤ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١ /١٠٣ .

(٩) فقيه العراق، العلامة الإمام، روى عنه تلميذه أبو حنيفة (ت١٢٠ هـ) ، انظر: سير أعلام النبلاء ٥ /٢٣١ .

بصـــرة [١] جاءه فرقد السبخي[٢] وعليه ثياب صوف فقال له حماد : "ضع عنك نصرانيتك هــذه " [٣]. ويــراد بذلــك التنسك ، فيفهم من ذلك – إذن – أن من أسباب التسمية بالتصوف هو تقليد النصارى من رهبانهم ونساكهم .

ويــرى أبو نصر الطوسي " أن أهل بغداد هم الذين اخترعوا هذه الكلمة " [٤] ولكن نيكولســون[٥] يقــول : " مهما يكن من الغموض الذي يحيط بأصل كلمة التصوف فإن الظاهــر قــد شاع استعمالها في آخر القرن الثاني الهجري " [٦] بدليل أن إبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني والنضر بن شميل قد استخدموا الكلمة .

ويوضح الدكتور عبد الحليم محمود بأن هذه الكلمة " التصوف "لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي الذي نفهمه الآن ، وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا ، إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين " [٧] .

وأمـــا الدكتور مصطفى حلمي فيقول : "ومهما كان الرأي في أصل الكلمة وتاريخ ظهورهـــا ومدلولاتهـــا فإنـــنا لا نعرف لها أثرا في الكتاب أوالسنة، ويثبت لمن يطالع كتب التاريخ أنها ما جاءت في كلام الصحابة والتابعين ، وما عرفت في خير من القرون ، ومن ثم فهي تعرض البدع المستحدثة " [٨] .

وخلاصـــة الكلام أن كلمة التصوف محدثة لم تكن معروفة ، ولا موجودة في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ، وإن كان بعض الأعلام في القرنين الثاني والثالث الهجريين قـــد تحدثوا عن لبس الصوف ، ثم لابد من الإشارة إلى أن لبس الصوف ليس فيه فضيلة ولا شـــرف ؛ إذ لـــو كان في لبسه فضيلة أو سمو مكانة عند الله ﷻ لفضله رسول الله ﷺ على

---

(١) بصرة : مدينة عراقية تقع جنوب العراق بالقرب من التقاء نهري دجلة والفرات على بعد ١٣٠ كم من الخليج العربي . انظر : الموسوعة العربية العالمية ٤/٤٣٦ .

(٢) هو أبو يعقوب ، فرقد السبخي ، وصفه أبو نعيم بأنه المعرض عن الفاني الوبي، المقبل على الآتي البهي (ت ١٣١ هـ) ، انظر : حلية الأولياء ٣ /٥٢ . وطبقات ابن سعد٧/ ٢٤٣ ، والجرح والتعديل٧ /٤٦٤ .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي ٣ /١٤٦ .

(٤) اللمع للطوسي ص٤٢ .

(٥) نيكولسون (رينولد ألين) مستشرق انكليزي ، له دراسة نقدية في التصوف(ت١٩٤٥ م) الأعلام٣/٣٩ .

(٦) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦٨ .

(٧) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي، د.عبد الحليم محمود، ط ٢ القاهرة(١٣٩٤هـ) ص١٧٥

(٨) التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث، د.مصطفى حلمي ، الإسكندرية (دار الدعوة) ص١١ .

غيره من اللباس ، والذي ثبت عنده أنه كان يفضل لباس الحِبَرة المصنوعة من القطن ، كما جاء في حديث أنس ﷺ "كان أحب الثياب إلى النبي ﷺ أن يلبسها الحبرة "متفق عليه [١] . بل ورد عنه ﷺ ما يدل على كراهيته لبس الصوف نظرا لخبث رائحته كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت : "جعلت للنبي ﷺ بردة سوداء ، فلبسها فلما عرق وجد ريح الصوف فقذفها ، وكان تعجبه الريح الطيبة" [٢] .

وكان من الأفضل في هذا المقام استعمال الكلمات التي عبر بها الأوائل واستمدوها من مصادرها ومنابعها ، كألفاظ التزكية ، و الإحسان ، والإقتداء بالسلوك التي كانت تلازم رسول الله ﷺ في حياته كلها ، والتي يمكن التعبير عنها بأعمال القلوب ، أو إخلاص النوايا ، ذلك أن التزكية والإحسان وإخلاص النية والخشوع والتواضع وتقوى الله ﷻ ومراقبته ومحبته ﷻ .. حقائق شرعية علمية دينية ثابتة في الكتاب والسنة .

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ، في اللباس ، باب (١٨) ٤٥٢/١١ (ح٥٨١٣) . ومسلم في اللباس ، باب فضل لباس الحبرة ١٦٤٨/٣ (ح ٢٠٧٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس ، باب في السواد ٤ /٣٣٩ (ح٤٠٧٤) ، وأحمد في المسند٦ /١٣٢ ، ١٤٤، ٢١٩، ٢٤٩ ، وأورده الألباني في " سلسلة الأحاديث الصحيحة" (رقم ٢١٣٦) .

تعريفه في اللغة والاصطلاح

أولا : تعريفه في اللغة :

قال الجوهري : " الصوف للشاة ، والصوفة أخص منه ، وصوفة أي حي من مضر وهو الغوث بن مر بن أدين بن طابخة بن الياس بن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ، ويجيـــزون الحجـــاج أي يغيضون بهم . ومنه قول الشاعر: حتى يقال أجيزوا آل صوفانا . وكـــبش صاف أي كثير الصوف . وصاف السهم عن الهدف يصوف ويصيف عدل عنه . ومنه قولهم : صاف عني شر فلان وأصاف الله عني شره "[١].

نفهـــم من خلال هذه التعريفات اللغوية المتقدمة أن كلمة صوف تأتي بمعنى الصوف المعروف للشاة ونحوها ، أو بمعنى الميل إلى شيء والعدل عنه .

ورأى ابـــن فارس أن الباب كله يرجع إلى الصوف المعروف ، وفي ذلـــك يقـــول : " الصـــاد والـــواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف ، يقال :كبش أصوف وصوف صائف وصاف كل هذا يكون في كثير الصوف ، ويقولون : أخذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته[٢] "[٣] .

وذهب أحمد المقري إلى أن كلمة صوفية كلمة مولدة لا يشهد لها قياس ولا اشتقاق في الـــلغة[٤] . وإلى هـــذا مـــال القشيري من الصوفية ، وقال في رسالته : " والأظهر أنها كاللقب "[٥] وكذلك ابن خلدون حيث قال في مقدمته : إنه إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف لأنهم في الغالب مختصون بلبسه[٦].

وأمـــا محمـــد الصادق عرجون فرأى أنه لقب منقول تعريبا من لغة غير عربية ، فهو حـــادث مع حدوث الألفاظ الدخيلة التي وفدت على العربية مع الأفكار والمعاني والمذاهب

---

(١) الصحاح ، لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت (دار العلم والملايين١٣٩٩ هـــ) ٤/١٣٨٨-١٣٨٩ .

(٢) نقرة : جمع نُقَرٌ ونقار ، وهي ثقب القفا في الرأس .

(٣) معجم مقايس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ثانية (١٣٩٠هـــ-١٩٧٠ م) ٣/٣٢٢ .

(٤) المصباح المنير ، لأحمد المقري، ط أولى بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٤هـــ) ١/٣٥٢ .

(٥) الرسالة القشيرية ص٢٧٩ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ، ص٤٦٧ .

والآراء في القرن الثاني من الهجرة ، ولم يعرف معرفة لقبية لطائفة من الناس بعينها قبل ذلك في تـــاريخ الإســـلام ، وقد يكون عرض له شيء من التصرف اللساني لصقله تخفيفا كما عرض لكثير من الألفاظ الوافدة [١].

ثانيا : تعريفه في الاصطلاح :

إذا كـــان الكتاب لم يتفقوا على أصل كلمة التصوف واشتقاقه فإنهم كذلك مختلفون في الـــتعريف به وتعيين مفهومه ، حيث أوردوا له تعاريف كثيرة ومتباينة ، وهي لا تعطي معنى دقيقا له ، والذي يليق به تسميته بصفة التصوف أو ماهيته[٢]؛ إذ من العسير أن نعتمد عـــلى ما جاءت إلينا من تعاريف لا تفي بالمعنى المطلوب ،لخروجها عما ألفناه في التعاريف الجامعة المانعة .

وقد أدرك هذه الحقيقة المتصوفة أنفسهم حتى قال الدكتور عبد الحليم محمود في هذا الصدد : "لم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد " [٣] . بل ذكر السراج الطوسي عن بعض أئمة التصوف أنه لما سئل عن حده فأجاب بأكثر من مائة جواب ، وجمع في كتابه نحوا من ثلاثـــين تعـــريفا[٤]، وجمع قريبا من ذلك الكلاباذي[٥] ، بينما جمع القشيري نحوا من ستين تعـــريفا[٦] ، أما السهروردي فقد بالغ في ذلك فيقول : "وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول ؛ بل ذكروا أن الأقوال المأثورة في حد التصوف زهاء الألفين " [٧].

وفـــيما يـــلي نماذج من التعريفات ، فنأخذ أولا من تعاريف التصوف لدى الصوفية أنفسهم منها :

١ — مـــا قالـــه معروف الكرخي (ت٢٠٠ هـــ) : " التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق[٨] ، فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف" [٩].

---

(١) التصوف في الإسلام منابعه وأطواره ، لمحمد الصادق عرجون، (مكتبة الكليات الأزهرية) ص٦٣ .

(٢) كما عبر بذلك ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس ص٢٠٢ .

(٣) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص١٥٣ .

(٤) انظر: اللمع للطوسي ص٤٥-٤٨ .

(٥) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٣٤-٣٥ .

(٦) انظر: الرسالة القشيرية ٢٧٩-٢٨٣ .

(٧) انظر: عوارف المعارف ص٥٣-٥٨ .

(٨) الرسالة القشيرية ص٢٨٠ .

(٩) عوارف المعارف ص٥٣ .

٢ – قـــول أبي سليمان الداراني (ت٢١٥ هـــ) : " التصوف أن تجري على الصوفي أعمال لا يعلمها إلا الحق ، وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو " [١].

٣ – وقول بشر الحافي [٢] (٢٢٧ هـــ) : " الصوفي من صفا قلبه لله " [٣].

٤ – وما عرفه به ذو النون المصري[٤](٢٤٥ هـــ) : " الصوفي هو من إذا نطق كان كلامـــه عـــين حالـــه ، فهو لا ينطق بشيء إلا إذا كان هو ذلك الشيء ، وإذا أمسك عن الكلام عبرت معاملته عن حاله ، وكانت ناطقة بقطع علائقه (الدنيوية)عن حاله " [٥].

٥ – وقول سهل التستري[٦](ت٢٨٣ هـــ) : " الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر " [٧].

٦ – وقـــول الجنيد[٨] (ت ٢٩٧ هـــ) : "التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة " [٩] وقولـــــه : " التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصـــفات البشرية ، و مجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الربانية ، والتعلق بعلوم الحقيقة ، واتباع الرسول في الشريعة " [١٠] .

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٢٨ .

(٢) هو بشر بن الحارث الحافي بن عبد الرحمن المشهور بالحافي ، الإمام الزاهد ، كان ذا شأن في المجاهدة، قال عـــنه إبراهـــيم الحربي: ما أخرجت بغداد أتم عقلا منه ولا أحفظ للسانه ، انظر: الرسالة القشيريةص٤٠٤، وطبقات الصوفيةص٣٩ ، وسير أعلام ٤٦٩/١٠ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢٨ .

(٤) أبو الفيض ذوالنون المصري، شيخ الديار المصرية ، كان لا يتقن الحديث ، وكان واعظا فصيحا.. وقد رمي بالـــزندقة، واعتـــبر أول مـــن تكلم في معرفة الأحوال والمقامات..انظر :طبقات الصوفية ص١٥، وطبقات الشعراني ٥٩/١، والرسالة القشيريةص٤٣٣ ، وسير أعلام ٥٣٢/١١ .

(٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص٢٨-٢٩ .

(٦) سهل بن عبد الله التستري، شيخ العارفين الصوفي الزاهد، انظر: طبقات الصوفية ص٢٠٦ .

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف ص٣٤ .

(٨) أبوالقاسم الجنيد بن محمدبن الجنيد، سمع الـــحديث ، ودرس الفقه ، وصحب السري السقطي حتى صـــار شيخ زمانه وسيد الطائفة في التصوف، ومذهبه في التصوف مبني على الكتاب والسنة، حيث نقل الذهبي عنه قولـــــه : " علمـــنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث و لم يتفقه لا يقتدى به انظر: الرسالة القشيرية ص٤٢٠، وطبقات الشعراني ٧٢/١، وطبقات الصوفية ص١٥٥، وسير أعلام٦٦/١٤

(٩) اللمع للطوسي ص٤٥، والرسالة القشيرية ص٢٨٠، وعوارف المعارف ص٥٤ .

(١٠) التعرف لمذهب أهـــل التصوف ص ٣٤ .

٧ – وتعريف أبي الحسين النوري[١] (ت٢٩٥ هـ) : " التصوف ترك نصيب النفس جملة ليكون الحق نصيبها " وأن " التصوف ترك كل حظ للنفس " [٢] .

٨ – أما سمنون المحب[٣](ت ٢٩٧هـ) فقد عرف بأن " التصوف هو أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء " [٤] .

هذه نماذج من تعريفات الصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وهي في الحقيقة لا تعطي معنى دقيقا للتصوف ، ومع ذلك يمكننا أن نلحظ – من خلال التعريفات السابقة – الرغبة القوية من قبل الصوفية في التوجه إلى الله ﷻ ، وإن كان التطبيق والممارسات إثر ذلك شيئا آخر يخالف تلك المقاصد السامية.

كما لو أمعنا النظر في التعاريف فإننا نرى في ثناياها الألفاظ الغامضة المبهمة ، التي تحتاج إلى بيان وتوضيح ، فمثلا معروف الكرخي قد عرف التصوف بأن معناه هو الأخذ بالحقائق ، فكلمة الحقائق تحتمل عدة احتمالات ، ولا ندري ماذا يقصد بها ، ولعله يعني بذلك العلم الصوفي الذي يقولون عنه علم الحقيقة ، وكذلك اليأس مما في أيدي الخلائق فيه إيهام وغموض، فنحتاج إلى بيان المراد؛ إذ من المحتمل أن يكون عدم الفرح بموجود في هذه الدنيا ، وترك جميع ما في أيدي الناس.. وهذا قريب مما يقصده سمنون حين عرف التصوف بأنه التجرد عن كل الأملاك ، والتحرر من أي أحد أن يملكك .

ولاشك أن هذا مخالف لتعاليم الإسلام الحنيف ؛ لأنه لم يأمرنا بالتجرد من أملاكنا كلية، بل حث علينا أن نعطي كل شيء حقه دون إفراط أو تفريط ، أو غلو أو تنطع ، أو إهمال جانب على حساب جانب آخر . كما أن الإسلام لم يأمرنا بتعذيب الجسد ، ولا بلباس معين ؛ بل أباح لنا أن نأكل من الطيبات وحرم علينا الخبائث فقال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لله إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٥]وقال

---

(١) أبو الحسين أحمد بن محمد النوري ،كان من أقران الجنيد، كبير الشأن حسن المعاملة واللسان .انظر : طبقات الصوفية ص١٦٤، والرسالة القشيرية ص٤٣٨،.وطبقات الأولياء ص٧٢ ، وسير أعلام ١٤/٧٠ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٦٦ .

(٣) سمنون بن حمزة المحب ، سكن بغداد ، ومات قبل الجنيد ، وكان أكثر كلامه في المحبة . الرسالة القشيرية ص٤٠٧، وطبقات الصوفية ص١٩٥، وحلية الأولياء١٠/٣٢٩ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

ﷻ :﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) وقال ﷻ أيضا: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ.. ﴾ (٢)وقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن خير الطعام هو الطعام الذي يأكله الإنسان من عمل يده فقال : ((ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود – عليه السلام -كان يأكل من عمل يده)) (٣).

وأما الجنيد فقد عرف التصوف بأن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة ، إن كان يريد بذلك أن يقطع ا لإنسان جميع علاقاته عن بني جنسه ، فهذه دعوة باطلة ؛ لأننا لسنا مأمورين بالهرب عن البشر والاختفاء عنهم في الأربطة والزوايا كما يفعل بعض المتصوفة المتأخرين، وأما تعريفه بأن التصوف تصفية القلب عن موافقة الخليقة والابتعاد عن الأخلاق الطبيعية التي فطر الإنسان عليها والسعي إلى التخلص من الصفات البشرية وعدم إعطاء النفس حقها مما تطلبه وأن يكون متعلقا بعلوم الحقيقة ومتبعا الرسول في الشريعة فهو شبيه بتعريف بشر الحافي ، أو بتعريف الداراني وذي النون المصري وسهل بن عبد الله التستري.

وهذه كلها مبالغة في الأمر المشروع ؛ بل تكليف للإنسان فوق وسعه وطبيعته البشرية ، وبلا شك أن نوعا من هذه التزكية والمجاهدة حتى وإن عبرت عن الرغبة الأكيدة في الإقبال على الله ﷻ ، والزهد في الدنيا وترك دواعي الشهرة ، والميل إلى التواضع فإنها منافية لما جاء به الرسول ﷺ من عند العليم الخبير ، لأن الإنسان سيظل بشرا مهما عبد الله تبارك وتعالى ، وتقرب إليه بألوان من ا لطاعات والعبادات لله ﷻ .

" وأما ما عرفه به أبو الحسين النوري فهو تعريف قاصر مخل بالمعنى المطلوب فإن عبارته : ترك نصيب النفس جملة عامة في كل ما يصلح أن يكون نصيبا للنفس من خير أو شر في الدنيا والآخرة ، و لم يحدد الشيء الذي يتركه الصوفي والذي لا يتركه ، أما إذا قصد ترك كل الحظوظ على إطلاقها فهذا لا يعتبر مبدأ إسلاميا ؛ إذ ليس من الإسلام أن يترفع

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣١) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٥٧) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح، في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، ٥/ ٢٢(ح٢٠٧٢)

المـــرء عـــن طـــلب رضا الله ﷻ ومحبته ونحو ذلك ، وهذه من حظوظ النفس إذ فيها غاية السعادة لـــها "[١] .

أضـــف إلى ذلـــك أن الرســـول ﷺ بعث بالحنيفية السمحة ، ولهذا لما جاءه الناس واســـتأذنوا بالـــتفرغ الكامل والزهد والاعتكاف والجهاد في سبيل الله كل أيامهم فنهاهم الرسول ﷺ عن ذلك التوجه ، أو هذا التشدد والانطواء حين كان رسول الله ﷺ يقول لهم : ((ولكـــني بعـــثت بالحنيفية السمحة))[٢]، وحين يقول أيضا : ((إن لربك عليك حقا ، ولنفســـك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه))[٣]وحين يقول لسعد ﷺ : ((إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس))[٤]

وهكذا تبين لنا أن أي باحث لا يستطيع أن يظفر بتعريف جامع مانع للتصـــوف " ذلـــك لأن التصوف لم يكن لـــه في يوم من الأيام طريقة منظمة محددة أو معينة من الناحية النظرية أو العملية؛ بل كان له في كل عصر مفهوم خاص "[٥].

فنجد العلماء والباحثين اختلفت مواقفهم ، فالبعض يعرف التصوف ببداية الطريق ، والآخـــر يعرفه بالغاية والهدف أو ما يصطلحون على تسميته بنهاية الطريق ، ورأينا البعض يتحدث بلسان الحال الذي ينفعل به، أو المقام الذي يستقر فيه في وقته .

فـــلو أخذنا مثلا بعض أقوال الصوفية أنفسهم فإننا سنعثر على عدة عبارات بعضها صريح المعنى ، والبعض الآخر مبهم غامض كقول الجريري[٦] : " التصوف هو الدخول في كـــل خلق سني ، والخروج من خلق دني "[٧]وهو يعبر بأحوال البداية . وعبر الجنيد بأحوال الـــنهايـــة بقولـــه : "هـــو أن يميتك الحق عنك ويحييك بـــه "[٨] . وأشـــار أبو حمزة

---

(١) موقـــف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ، للدكتور أحمـــد محمد البناني ، ط أولى جدة (دار العلم للطباعة ، ١٤٠٦هـــ ١٩٨٦ م) ص٧٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٦٦/٥من حـــديث أبي أمامة ، وحسنه السخاوي في المقاصد ٢١٤ .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح، في كتاب الصيام،باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع٧٢٦/٤ (ح١٩٦٨)

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الوصايا ، بـــاب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يكففوا الناس ٦/ ١٢ (ح٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية ، باب الوصية بالثلث ١٢٥٠/٣ (ح١٦٢٨) .

(٥) تاريخ التصوف في الإسلام ، د.قاسم غني، مكتبة النهضة المصرية (١٩٧٠م) ص ٢٦٩ .

(٦) أبو محمد الجريري ، كان من كبار أصحاب الجنيد (ت ٣١١هـــ)، طبقات الصوفية ص٢٥٩ .

(٧) الرسالة القشيرية ص٢٨٠، وعوارف المعارف ص٥٥ .

(٨) عوارف المعارف ص٥٦ .

البغدادي[1] إلى أن علامة التصوف الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفي الكاذب العكس[2] .

وأما تعريفه بأصوله ومبانيه فلعل قول رويم [3]معبر عن ذلك حينما بين التصوف بأنه " مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار" [4] .

ومن العبارات السابقة تتضح أن كل واحد من الصوفية يعبر عما وجد في نفسه من معان ودلالات ، كما أن تعريفاتهم يكتنفها الغموض ، ولا تخلو من ملحوظات لا يفهمها إلا المتمرس بأساليبهم ومناهجهم؛ ولكن لابد من التنويه بأن هذه التعاريف المتنوعة لا يطلقها المتصوفة جزافا من دون قصد منهم أو هدف ، أولا علاقة بمعتقداتهم أو تأييد بمذاهبهم وسلوكهم .

لذا ، لابد من التنبيه والتوضيح إذا تحدثنا عن هذه الكلمة " التصوف " أن هناك من المبتدعين من يتستر وراءها قاصدين لذلك نشر معتقداتهم، وتوطيد طرائقهم، وبلبلة أفكار الناس ، ولا يعني بذلك رفض الجانب الأخلاقي فيه الموافق للكتاب والسنة ، حيث إن البعض يتجه في تعريفه إلى هذا الجانب كما حدد أبو الحسين النوري بأنه "خلق" وقال : "ليس التصوف رسما ولا علما ولكنه خلق" [5] ثم علل ذلك بقوله : لأنه لو كان رسما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علما لحصل بالتعليم ...

هذا الاتجاه الأخلاقي شائع في الزمن القديم والحديث ، ومع ذلك فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيرا دقيقا ، هذا ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم محمود فقال : "والواقع أننا لو نظرنا إلى كثير من الأشخاص الذين اشتهروا بالسمو، وفي الجانب الأخلاقي الكريم، واتصفوا بأروع الصفات الأخلاقية ، واتخذوا الفضيلة مذهبا وشعارا ، فإننا نجدهم أشخاصا

---

(١) أبوحمزة البغدادي البزاز،كان من أقران الجنيد، فقيها عالما بالقراءات ، (ت ٢٨٩هـ) انظر : طبقات الصوفية ص٢٩٥، والرسالة القشيرية ص٣٩٥ وتاريخ بغداد ٣٩٠/١ .

(٢) الرسالة القشيرية ص٢٨٠ .

(٣) أبو محمد رويم بن أحمد ، من جلة المشايخ ، مقرئ فقيه كبير الشأن (ت ٣٠٣هـ) طبقات الأولياء ص١٨١ ، والرسالة القشيرية ص٢٩٠، وطبقات الصوفية ص١٨٠ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٨٠ .

(٥) طبقات الصوفية ص١٦٧ .

مثاليين في المحيط الأخلاقي وفي المجتمع، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا محالة من الصوفية " [١]

وأضاف قائلا : " وهذا الحسن البصري[٢] (ت ١١٠ هـ) من أروع وأجمل الشخصيات الأخلاقية العالية ، ولقد كان مثلا صادقا للشعور الأخلاقي في طهره وصفائه ، وكان ينشر الفضيلة بوعظه المؤثر ومنطقه القوي وسلوكه المثالي ، ومع ذلك فلم يكن الحسن البصري صوفيا بالمعنى الدقيق لكلمة صوفي " [٣] .

تعريف التصوف عند علماء الإسلام

١ – يقول ابن الجوزي : عبر الصوفية عن صفة التصوف بعبارات كثيرة ، وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة [٤] .

٢- ويعرف شيخ الإسلام ابن تيمية التصوف بأنه " نوع من الصديقية فهو أي الصوفي الصدِّيق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق ، كما يقال صديقو العلماء وصديقو الأمراء فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم " [٥]

ويوضح الدكتور أحمد البناني هذا التعريف فقال : بأن " (الصديقية) وهي الدرجة العالية التي تجيء بعد (النبوة) في الترتيب ، هذه الدرجة يطلبها الصوفية كما يطلبها بقية أفراد المجتمع المسلم من علماء أو صناع وأمراء ونحوهم، كل بما اختص به من طريق يطلب به مرضاة الله، ولا يصح أن يقتصر الوصول إلى درجة الصديقية على سلوك طريق التصوف وحده ، وهذا يعني أن للتصوف معنى محددا في ذهن الشيخ وإن كان لم يشرحه في عبارة واضحة محددة " [٦] .

---

(١) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص١٧٧ .

(٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، الفقيه الزاهد ، المتشمر العابد ، الواعظ ، كثير العلم .. انظر : طبقات ابن سعد٧/١٥٦، وحلية الأولياء٢/١٥٣ ، وسير أعلام ٤/٥٦٣

(٣) أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي ص ١٧٧ .

(٤) انظر : تلبيس إبليس ص٢٠٢ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/١٧ .

(٦) موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٧٧ .

٣- ويعرفه ابن خلدون بأنه " العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ﷻ والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد للخلوة في العبادة " [١] .

٤- ويعرفه الجرجاني[٢] بأنه " الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيرى حكمها من الظاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للمتأدب بالحكمين كمال " [٣] .

٥- أما الدكتور مقداد يالجن فيعرفه بأنه " اتجاه روحي - نظريا وعمليا - في الحياة للوصول إلى الله تعالى والفوز برضاه " [٤] .

نفهم من تعريفاتهم السابقة أن كلمة " التصوف " لها دلالات أخلاقية سامية ؛ حينما استخرجوا منها المثل العليا ، والقيم الفاضلة ، والخلق الحسن.. وكأنهم يتوجهون نحو السلوك وتزكية النفوس ، ووصف التصوف بأنه تجريد العمل لله ﷻ ، والزهد في الدنيا ، وترك دواعي الشهرة ، والعدل إلى التواضع والإحسان .

وقد يصح هذا المفهوم إذا ارتبط بالصوفية في عهدها الأول ، أي قبل أن تتعرض للفكر الوافد ، وقبل أن تدخل عليها تحريفات الطرائق والرسوم ، والبدع والفلسفات والشركيات والانحرافات .

ولهذا فهم شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الكلمة لا تذم على الإطلاق، وأن اختلاف الأسماء لا يعنيه بقدر ما يهتم بمدى اتفاقها مع الشرع ، مهما اختلفت أسماؤهم : قراء أو زهادا أو نساكا أو صوفية ماداموا يسيرون في طريق شرع الله ووفق ما شرعه الله ﷻ ، وبلغه إلينا رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما جعله يدخل بعض شيوخ الصوفية المتقدمين ضمن دائرة ما يسميه بالتصوف الشرعي[٥] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٦٧ .

(٢) هو علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني ، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية (ت ٨١٦هـ) انظر : الأعلام٥/٧ .

(٣) كتاب التعريفات ، للجرجاني ، ط أولى بيروت(دار الفكر ،١٤١٨هـ) ص٤٤ .

(٤) فلسفة الحياة الروحية، د.مقداد يالجن ، ط ثانية الرياض (دار عالم الكتب ،١٤١٠ هـ) ص٧٣

(٥) انظر:ابن تيمية والتصوف ، د.مصطفى حلمي ، ط ثانية الإسكندرية (دار الدعوة،١٩٨٢م)ص٣٧ ومجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية٥/٨٣، ومجموع فتاواه ١١/ ٢٠-٢٢، ٢٧- ٢٨ .

وأيـــده بذلك الإمام الشاطبي[١] حيث قال : " وأما الكلام في دقائق التصوف فليس بـــبدعة على الإطلاق ، ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق ؛ بل الأمر ينقسم ، ولفظ التصوف لا بـــد مـــن شـــرحه أولاً حـــتى يقع الحكم على أمر مفهوم ، لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين.. "[٢] ثم ذكر- رحمه الله- المعاني الصحيحة والفاسدة في التصوف[٣] .

وقال عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف : "وإن كان ثمة ألفاظ مجملة – التي لم ترد في الكتاب والسنة بنفي ولا إثبات – في باب الاعتقاد، كالحيز والجوهر والجسم ..الخ فكذلك في باب السلوك توجد ألفاظ مجملة كالتصوف والفناء والفقر ونحوه.

وقـــد تقرر أن موقف السلف الصالح من الألفاظ المجملة في الاعتقاد هو التفصيل، فلا يطـــلقون نفيهـــا ولا إثباتها إلا إذا بُيِّن ،ما أثبت بها فهو ثابت، وما نُفي بها فهو منفي، فهم يـــنظرون في مقصـــود قائـــلها فإن كان معنى صحيحا قُبِلَ؛ لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها "[٤] .

ثم اســـتدل بموقـــف شيخ الإسلام ابن تيمية الصحيح من هذه الألفاظ حيث كان يقول : " وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها ، فهـــذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فإن أراد بها معـــنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وإن أراد معنى يخالف خبر الرسول أنكره ، ثم التعبير عن تـــلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها ، بحيث يحصل تعـــريف الحق بالوجه الشرعي ، فإن كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة "[٥] .

وقال محمود النووي : " وإنما الذي يعنينا أن نركز عليه ونوجه إليه ما تدل عليه هذه الكـــلمة مـــن أوصاف ترجع كلها إلى مراقبة الله ﷻ ، وإيثار ذكره بالليل والنهار في السر

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، الفقيه الأصولي اللغوي المفسر..(ت٧٩٠ هـ) ، الأعلام١/٢٢٣ .

(٢) الاعتصام ، للشاطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط أولى بيروت(دار الكتاب العربي ١٤١٧هـ)١/١٥٨

(٣) المصدر نفسه ١/١٥٨-١٦٠ .

(٤) معالم السلوك وتزكية النفوس ، لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف ، ط أولى الرياض (دار الوطن ١٤١٤هـ) ضمن رسائل ودراسات في منهج أهل السنة(٤٦) ص٣١ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٢/١١٤ .

والعـلن، والضراعة إليه ﷻ في كل شيء ، والاستغناء به عن الخلق والزهد في الدنيا لا على كراهيتها ورفضها بالكلية كما يتوهم كثير.. ولكن على معنى عدم حبها والمنافسة في طلبها ، وإيـثارها على جوانب البر ، ومن هذه المعاني كلها يحصل للنفس تهذيب ، ويتكون فيها خلق رفيع "[١] .

ولعل هذا ما دفع الإمام ابن القيم إلى القول في كتابه " مدارج السالكين " ناقلا عن صـاحب[٢] منازل السائرين : " واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هـو الخـلق "[٣] . وهـو ما جعل بعض الصوفية يتجهون نحو الجانب الأخلاقي للدين ، ويهتمون به أيما اهتمام ، قائلين بأن أي علم من العلوم لا يقترن بالخشية من الله ﷻ والمعرفة به فلا جدوى منه .. فما أكثر ما تجد من العلوم في الكتب بحيث يسهل عليك تحصيله ، أما الأخـلاق فتحصـيلها عسـير لأنها تكون ثمرة ممارسة شاقة ، وصراع بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء ليلزمها جادة الصواب .

ومـع ذلـك فـالأجدر أن نعـبر بالتعبير الشرعي الواضح مثل التزكية والإحسان والإخـلاص وتقوى الله ومراقبته ﷻ وحسن الخلق ...لأنها حقائق شرعية وثابتة في الكتاب والسـنة ، فلـنأخذ ما جاءنا من كتاب ربنا ﷻ وسنة نبينا محمد ﷺ وهدي سلفنا الصالح حـتى لا نقع فيما وقع به من قبلنا كما حكى الله ﷻ لنا عن أهـل الكتاب فقـال ﷻ : ﴿ وَآتَيْـنَاهُم بَيِّـنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِـي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[٤] .

---

[١] مقدمته في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص٧ .

[٢] وهو: عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي ، مصنف كتاب ذم الكلام أيضا (ت ٤٨١هـ) انظر : سير أعلام النبلاء ٥٠٣/١٨ ، ومعجم المؤلفين ، للكحالة ١٣٣/٦ .

[٣] مدا رج السالكين، لابن القيم الجوزية ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، ط رابعة بيروت (دار الكتاب العربي ١٤١٧هـ) ٣٠١/٢ .

[٤] سورة الجاثية ، الآيتان (١٧- ١٨) .

المبحث الثاني
نشأة التصوف

تعـــددت آراء العلماء والباحثين حول نشأة التصوف ، والبيئة التي نبتت فيها بذرته الأولى ، وهـــم لا يجمعون في ذلك على رأي؛ بل كل ذهب وجهة خاصة ، وأخذ يستدل عليها ويؤكد صحتها ، وتتلخص تلك الآراء في ثلاثة اتجاهات :

الاتجـــــاه الأول : أن التصــوف إســلامي النشأة والمنبت ، وأن أصوله العقدية والســلوكية مستمدة من الكتاب والسنة ، وفعل السلف الصالح ، وأن هذا الاسم قد وجد مــــنذ القـــرن الأول الهجري ، ويتزعم أصحاب هذا الرأي أبو نصر السراج الطوسي وابن خلدون . وقد استدل السراج على هذا الرأي بروايتين أوردهما في كتابه " اللمع " .

الـــرواية الأولى : أن الحسن البصري – رحمه الله – كان يعرف هذا الإسم ، حيث أدرك جماعة من الصحابة ، ورأى صوفيا في الطواف فأعطاه شيئا فلم يأخذه .

والرواية الثانية : أن سفيان الثوري[١] – رحمه الله – قال : لولا أبو هاشم الصوفي[٢] مـــا عـــرفت دقيق الرياء[٣] . غير أن أبا نصر لم يوضح وجه الدلالة في هذه الرواية على أن التصوف وجد في عهد مبكر في الإسلام ؛ بل هي دليل على خلاف ما أورده ، لأن سفيان الـــثوري ولـــد في عـــام (٩٧هـــ) ، وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن التقاءه بأبي هاشم

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق ، إمام الحفاظ سيد العلماء العاملين في زمانه ، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد (ت ١٦١هـــ) ، انظر : سير أعلام النبلاء٧/٢٢٩ .

(٢) أبو هاشم عثمان بن شريك الكوفي الصوفي (ت١٥٠هـــ) ، وقد جاء في حلية الأولياء ١٠/١١٢ إن سفيان الـــثوري جـــلس إليـــه فحمد طريقته وملازمته للصفاء والوفاء، ثم قال: مازلت أرائي، وأنا لا أشعر إلى أن جالســـت أبا هاشم فأخذت منه ترك الرياء ، ولعل هذا ما يجعل الكتاب يذهبون إلى أن أبا هاشم أحق أن يكون أول من سمي (صوفيا) . ويؤيد ذلك ما قرره كامل الشيبي في كتابه " الصلة بين التصوف والتشيع" ٢/٢٩١ من أن الشيعة يسمون أبا هاشم مخترع الصوفية . ويقول نيكولسون في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣ " إنـــه تقدمه رجال كان لهم قدم في الزهد والورع وحسن التوكل وفي طريق المحبة ، ولكنه أول من تســـمى بالصوفي " . وقد اختلف الباحثون في أمره ، فيرى الدكتور النشار في نشأة الفكر ٣/٢٧٨ أنه سني المذهـــب ؛ بينما يرى إحسان إلاهي في التصوف (المنشأ والمصادر) ص ١٤٥ أن أبا هاسم زنديق دهري ، حيث كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ، ويقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى ، وقيل : إنـــه كـــان أمويا وجبريا في الظاهر ، وباطنيا ودهريا في الباطن ، وكان مراده من وضع هذا المذهب أن يثير الاضطراب في الإسلام ، وعلى كل فهو متهم بالزندقة والدهرية .

(٣) اللمع للطوسي ص٤٢-٤٣ .

الصوفي لم يتم في القرن الأول الهجري ، ذلك أن أبا هاشم الصوفي توفي عام (١٥٠هـ) ، فلا بد أن يكون لقاءهما كان في أثناء المائة الثانية للهجرة [١] ، لأن أبا هاشم في أواخر المائة الأولى لم يتجاوز عمره ثلاث سنوات ؛ إذن لم يكن اسم التصوف معروفا في القرن الأول الهجري ، وإنما ظهر هذا الإسم في القرن الثاني ، وقد مال إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قال : " في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك – أي الزهد – بلفظ " الصوفي " لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد " [٢] .

وأما ابن خلدون فقد برر رأيه في نشأة التصوف حيث يقول : " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك في الصحابة والسلف، فلما فشي الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة " [٣] . ومنذ ذلك الحين غلبت التسمية على هذه الطائفة من الزهاد فيقال : رجل صوفي وللجماعة الصوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له المتصوف وللجماعة المتصوفة [٤] .

نفهم من ذلك أن سلوك بعض العباد المسلمين في صدر الإسلام ، والذي كان يتمثل في الزهد والتقشف وكثرة العبادة والتقرب إلى الله ﷻ بالأعمال الصالحة ؛ هذا السلوك هو الأساس التاريخي لظاهرة التصوف التي انتشرت في ذلك العصر وهذا غير صحيح ، لأن هذه الظاهرة كانت بطريقة مشروعة ، وكان الهدف منها تهذيبا للنفس وتزكية للروح ، ولم تكن تحت لواء الصوفية المنحرفين ، فكل ما يفعله السلف الصالح من الزهد وكثرة التعبد والاجتهاد في تزكية النفس أمر مطلوب لأنه داخل في تعاليم ديننا الحنيف [٥] .

---

(١) انظر : موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية ص٨٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩/١١ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٤٦٧ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص٢٧٩ .

(٥) انظر: الصوفية معتقدا ومسلكا ، د. صابر طعيمة ، ط أولى الرياض (دار عالم الكتب ١٤٠٥هـ)ص٤٥

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية أشار إلى الذين اجتهدوا في سبيل تربية النفس وتهذيب السلوك وكانوا مبتعدين عن البدع والشرك والخرافة بأنهم مجتهدون في طاعة الله ﷻ، ومتمسكون بسنة رسول الله ﷺ ويقول في شأن هؤلاء : " والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه ، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج[1]- مثلا - فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق المستقيم مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره .. فهذا هو أصل التصوف "[2] .

" ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم ، فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف- أي المستفيدين من دخل الأوقاف الموقفة على الصوفية فحسب - فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز.. ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط : أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم ، والثاني : التأدب بالآداب الشرعية في غالب الأوقات ، والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جماعا للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقا فإنه لا يستحق ذلك " .

وأما صوفية الرسم فهم المقتصرون على النسبة، فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم "[3] .

---

(١) الحسين بن منصور الصوفي ، كان جده مجوسيا ، صحب سهل التستري و الجنيد ، وقد تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ لسوء سيرته، ونسبوه إلى الحلول والزندقة ، قتل مصلوبا بعد أن قطعت يداه ورجلاه وضرب ألف سوط وأحرقت جثته ونثر رمادها في نهر دجلة سنة ٣٠٩هـ. انظر: طبقات الصوفية ص٣٠٧، وسير أعلام النبلاء ٣١٣/١٤، وطبقات الشعراني ٩٢/١ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/١١ .

(٣) المصدر السابق ١٨/١١-٢٠ .

أما ما يراه ابن خلدون من أن التصوف هو الزهد وأن أصوله التي بني عليها موجودة في مسالك الصحابة والتابعين فهذا الرأي مخالف للصواب ؛ ذلك أن التصوف غير الزهد كما هو واضح من كلام الطوسي نفسه بأن الصوفية لا تنفرد بنوع من العلم حتى تنسب إليه كالفقهاء إلى الفقه أو الزهاد إلى الزهد(١) .

وهذا السهروردي صرح بذلك قائلا : التصوف غير الزهد والزهد غير الفقر ، فالتصوف اسم لمعاني الفقر والزهد مع مزيد أوصاف أو إضافات لا يكون بدونها الرجل صوفيا وإن كان زاهدا أو فقيرا(٢) ، كما صرح به أيضا الدكتور عبد الحليم محمود فيقول : إن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا غير أن الزهد في الدنيا شيء والتصوف شيء آخر ، وإن الصوفي كثير العبادة ولكنك قد تجد أشخاصا كثيرين يقيمون الصلوات المفروضة ويكثرون من النوافل ، ويداومون على العبادة ، ولا يعني ذلك أنهم من الصوفية .. و إن الأخلاق الكريمة ملازمة للمتصوف وللصوفي ، ولكن ليس معنى ذلك إنها هي التصوف(٣) .

والجدير بالذكر أن ابن الجوزي مع اعترافه بأن الصوفية من جملة الزهاد إلا أنه قرر أنهم انفردوا عن هؤلاء الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسمات ، ولهذا بحث الزهد في فصل والتصوف في فصل آخر(٤) .

صحيح أن رسول الله ﷺ أزهد خلق الله ﷻ في الدنيا وزخارفها ، وتبعه في ذلك أصحابه الكرام – رضي الله عنهم – إلا أن جل اهتمامهم ابتغاء مرضاة الله ﷻ ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، آخذين من الدنيا ما أباح الله لهم ، ومنتهين عما نهى عنهم ، سالكين منهج الاعتدال دون إفراط أو تفريط، وإسراف أو تقتير وكانوا بين ذلك قواما، لأنهم أدركوا دعوة القرآن الكريم التي تهتم بمراعاة التوازن بين متطلبات الدين من جهة ، ومطالب الحياة من جهة أخرى .

ولهذا كان الرسول ﷺ ينهى بعض أصحابه عن الغلو في العبادة ، وقد رد رسول الله ﷺ التبتل على عثمان بن مظعون ﷺ ولو أذن له لا اختصى(٥) ، وأنكر ﷺ نفرا من

---

(١) انظر : اللمع للطوسي ص٤٠ .

(٢) انظر : عوارف المعارف ص٥٤ .

(٣) أبحاث في التصوف ص١٧٩-١٨٠ .

(٤) انظر : تلبيس إبليس ص١٦١ .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح١٠/١٤٦ في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء ، ح(٥٠٧٣) .

الصحابة حينما عزموا ترك النكاح ، والامتناع عن أكل اللحوم والنوم ، كما روى ذلك أنس بن مالك ﷺ : أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ،فلما أخبروا كأهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"[1] ، وفي ذلك قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

الإسلام دين الحياة والحركة والعمل والجد والاجتهاد ، فكان مما يستعيذ منه ﷺ في أدعيته قوله : "اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل "[3] أما المتصوفة المنحرفون فكان زهدهم عبارة عن الهروب من الحياة ، ونموذجا من فتور الهمة في العمل و ا لكسب .

وأما ما يقوله ابن خلدون من أن زهد الصحابة والتابعين كان بالانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وأن ذلك كان عاما في الصحابة والسلف ؛ إن كان ابن خلدون يريد بذلك المفهوم المنحرف للزهد كما يفهمه الصوفية الآن فليس بصحيح ، بل كان مناقضا لأعمال الصحابة والتابعين ، لأن حياقم كانت مليئة بالعمل والدعوة والجهاد في سبيل الله ، فلو كانوا منعزلين عن الخلق غير عاملين لما عز الإسلام في أيديهم ، ولما دانت للإسلام دولة الفرس والروم ، ولما أقاموا ميزان العدل بين الناس ، فهؤلاء ليسوا منفردين عن الخلق في الخلوات للعبادة ، وإنما كانوا يضربون في الأرض ويبتغون من فضل الله ، ممتثلين لأوامر الله حين قال ﷻ :﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ١٠/١٣٠ في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ح(٥٠٦٣) .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان (٨٧-٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم، في كتاب الذكر والدعاء...باب التعوذ من العجز والكسل٤/٢٠٧٩ ح(٢٧٠٦) .

كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [١] وحينما قال ﷻ أيضا : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٢] .

الاتجـــاه الثاني : أن التصوف ليس إسلامي النشأة على الإطلاق ، ويرى أصحاب هـذا الـرأي بـأن التصوف وفد على البيئة الإسلامية مع ما جاء إليها من عادات وتقاليد الأجـناس الأخرى نتيجة توسع رقعة الفتوحات الإسلامية ، واختلاط الشعوب المختلفة في عقائدهـا ولغاقما ، إذ من الممكن أن يتأثر المسلمون بالعقائد التي كانت سائدة هناك خاصة وأن التصـوف كـان معروفا - كما يزعمون - قبل الإسلام في الأمم الماضية ، " وهؤلاء يـرون أن التصوف فارسي النشأة أو هندي أو يوناني أو يهودي أو نصراني أو أنه مزيج من هذا كله ، وعلى رأس هذا الفريق جماعة كثيرة من المستشرقين " [٣] .

ويسـتدلون بـأن علماء الصوفية نشأوا في بلاد فارس ونحوها ، وأن ثمة تشابه بين الصوفية وبين أهل البلدان الأخرى في طرقهم واعتقاداقم وعباداقم وخاصة في عقائد الرمز والظاهـر والباطن ومناهج التأويل وغيرها ، ويؤيد هذا الرأي ماذهب إليه أبو نصر الطوسي من أن منشأ التصوف كان في الجاهلية قبل الإسلام [٤].

وإذا نظـرنا في الرأيين السابقين المذكورين لوجدنا أن المبالغة قد طغت على أصحاب كـل اتجـاه ، لأن أصحاب الاتجاه الأول بالـغوا فيه حين جعلوا التصوف إسلامي النشأة وأدرجـوا جميـع الصحابة في الصوفية . وأما أصحاب الاتجاه الثاني فقد غـلوا أيضا حين أرجعـوا أصول التصوف إلى الديانات القديمة وإلى المذاهب والفلسفات اليونانية ، حتى وإن كـانوا عـلى حـق إذا مـا أرادوا به التصوف المنحرف الذي وصل بأصحابه إلى القول بالـنظريات الصوفية كالحـلول [٥] والاتحـاد [٦] وغير ذلك من النظريات الدخيلـة على الإسلام .

---

[١] سورة الجمعة ، الآية (١٠) .

[٢] سورة التوبة ، الآية (١٠٥) .

[٣] انظر : الصوفية معتقدا ومسلكا ص٤٨ .

[٤] انظر : اللمع للطوسي ص٤٢-٤٣ .

[٥] أي أن الله ﷻ عما يصفون خلق الخلق ، وحل فيه ، كما يحل الإنسان في الثوب الذي يلبسه ، أو كما يحل الماء في التراب عند مزجه فيكونان بذلك اثنين متماسين . انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٥٩ .

[٦] أي أن الله ﷻ خلق الخلق واتحد به ، مع أن هذا هو حلول في حقيقته وليس اتحادا انظر : الكشف ص ٢٥٩

الاتجـــــاه الـــثالث : أكثر الآراء قوة وأعدلها حكما على التصوف ، وهو ما ذكره شـــيخ الإسلام ابن تيمية الذي ذهب إلى أن بداية نشأته كانت في أوائل القرن الثاني الهجري ؛ لكـــنه لم يشتهر إلا في القرن الثالث فقال : " أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول مـــن بنى دويرة الصوفية أصحاب عبد الواحد بن زيد [١]، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكـــان في البصـــرة من ا لمبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية " [٢] وذلك بسبب ما حكي عنهم من المـــبالغة في هذا الباب " كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر ﴿ فَإِذَا نُقِـــرَ فِـــي النَّاقُورِ ﴾ [٣] فخر ميتا ، وكقصة أبي جهير الأعمى ، الـــذي قرأ عليـــه صالح المـــري [٤] فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصـــعقون عند سماع القرآن و لم يكن في الصحابة من هذا حاله ، فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين ..

ثم قـــال شيخ الإسلام : " والمنكرون لهم مأخذان : منهم من ظن ذلك تكلفا وتصنعا يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بينا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقـــرأ على أحدهم وهو على حائط فإن خرّ فهو صادق ، ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفا لما عرف من هدي الصحابة .. " [٥] .

ونقـــل إليـــنا ابن الجوزي نبذة مختصرة عن نشأة التصوف فقال :" والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلي، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص، فمال إليهم طلاب

---

(١) عابد من أكبر عباد البصرة ، شيخ الصوفية وواعظهم ، كان ممن غلب عليه العبادة ، حتى غفل عن الاتقان ، فكثرت المناكير في حديثه ، حتى قال عنه النسائي : متروك الحديث ، أصيب بالفالج فدعا الله أن يطلقه وقت الوضـــوء ، فكـــان إذا أراد أن يتوضأ انطلق ، فإذا رجع سريره فلج ، وكان ذا وعظ مؤثر لدرجة أن بعض الجالسين في مواعظه يموتون ، قال عنه الذهبي : رمي بالقدر (ت ١٧٧هـــ)، انظر: حلية الأولياء ٦/١٦٧، وسير أعلام النبلاء ٨/٣٤٩ ، وميزان الاعتدال ٣/٤١٥-٤١٦ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٦-٧ .

(٣) سورة المدثر ، الآية (٨) .

(٤) أبو بشر بن بشير القاص، الزاهد الخاشع، واعظ أهل البصرة ، كان الغالب عليه كثرة الذكر، والقراءة بالتحزين ، ومات جماعة سمعوا قراءته (ت ١٧٢هـــ)، انظر : سير أعلام النبلاء ٨/٤٦- ٤٧ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٧-٨ .

الآخــرة مــن العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .. "[١] .

إلى أن قــال : " وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين (من الهجرة) ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة الــنفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحــلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة .. "[٢] .

" وعــلى هذا كان أوائل القوم فلبس إبليس عليهم في أشياء، ثم لبس على من بعدهم مــن تابعيهم ، كلما مضي قرن زاد طعمه في القرن الثاني ، فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن مــن المــتأخرين غاية التمكن . وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم، وأراهم أن المقصــود العمل ، فلما انطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة ، فرفضوا ما يصلح أبدانهم، وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا أنه خلق للمصالح ، وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع ، وهــؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ؛ غير أنهم على غير الجادة ، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري "[٣] .

نفهم من خلال عبارات ابن الجوزي أن التصوف بدأ أولا في شكل زهد وعبادة قبل أن يضــيف إليــه المنتســبون الأشياء المستحدثة ، وكان عند الصدر الأول منهم في شكل مجاهدة النفس للاستقامة تقويما لها وحملها على التحلي بالأخلاق الحميدة .

لاشك أن هذه الطريقة لا غبار عليها في سبيل تزكية النفوس وتطهيرها من كدورات الصفات المذمومة عندما كانت بطريقة ارتضاها الله ﷻ ورسوله ﷺ ، لا بطريقة مبتدعة أو صــادرة عن هوى وجهل بأمور الدين ، ولا ريب كذلك أننا مأمورون بأن نزهد في متاع الدنيا ونحذر من الاغترار بها ، ولكن مع ذلك لم يحثنا الإسلام على أن نبتعد عن الدنيا جملة ونهمــل نصيبنا منها حيث قال الله ﷻ :﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ص٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ص٢٠٢-٢٠٣ .

مِـنَ الدُّنْيَـا وَأَحْسِـنْ كَمَـا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِـدِينَ ﴾ (١)، وأمـرنا الله ﷻ به أيضا أن نربي أنفسنا تربية إسلامية وذلك عن طريق تقويـة الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر.. وبجميع ما يجب الإيمان به والعمل بمقتضى شرعه ، في حدود وسع الإنسان الذي يأتي بالواجبات ويبتعد عن المحرمات .

هذا ، بالإضافة إلى ذلك أن الله ﷻ أحل لنا أن نأكل من الطيبات ، ونلبس ونتزوج ونـنام ، وكل ذلك دون إسراف ونسيان للآخرة قال ﷻ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَـا رَزَقْـنَاكُمْ ﴾ (٢) وقال ﷻ أيضا :﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّـبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وأمـا ما يسلكه بعض المتصوفة من رفض ما يصلح الأبدان ، والمبالغة في الحمل على الـنفوس ، والابتعاد عن هذه الحياة ، وجعل الناس لا قيمة لـه في هذا الوجود فهذا محض المخالفة لتعاليم الإسلام .

وحـول الحديـث عن نشأة التصوف قال الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل : في القـرن الثاني الهجري " بدأت بذور الصوفية ، وبدأت طلائعها قبل ظهور الفرق ، ويتمثل ذلك في ظهور الرهبانية، والتشدد في العبادة ، ومخالفة السنة في بعض الأمور" (٤) . والأخذ بالزهد والتقشف ، ويمثل هذا العصر الدور الأول للتصوف (٥) .

" وأمـا في القـرن الـثالث الهجري " بدأت في هذه المرحلة طلائع الصوفية الضالة الطـرقية ، والحـلولية (كالحلاج) ، وعظمت الشطحات الصوفية وأحوالها البدعية مثل : الوجـد ، والذوق ، والكشف ، والسماع ، والتفريق بين الحقيقة والشريعة، ودعاوى العلم

---

(١) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٤) دراسـات في الأهـواء والفرق والبـدع وموقف الإسلام منها ، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط١ ، الرياض ، (دار أشبيليا ١٤١٨هـ) ص١٦٩ .

(٥) ويجعل هذا الدور الدكتور أبو العلا عفيفي إلى نهاية القرن الثاني الهجري . راجع : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ، ص٩٠، وكذلك الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه : دراسات في التصوف الإسلامي ٨١/١ .

الـــلدني ، والتـــلقي عن غير الشرع ، والفناء ، والحلول والاتـــحاد ، واختـــلاط التصوف بالفلسفة " [١] .

والخلاصة في نشأة التصوف أنه في بداية أمره — في القرن الثاني الهجري - عبارة عن الزهد في الدنيا ، والتفرغ للعبادة ، ومجاهدة النفس .. وهؤلاء بمثابة المجتهدين ، ثم جاء أقوام تكـــلموا في الجوع والفقر والوساوس .. ثم جاء قوم آخرون فميزوه بصفات كلبس المرقعة والسماع والوجد والتصفيق ، ثم مازالوا كذلك حتى سموه علم الباطن ، وعلم الشريعة علم الظاهـــر ، ثم تفرقوا بعد ذلك فمنهم من أدى به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحـــق ، ومنهم من قـــال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وهؤلاء مترددون بين الكفر والبدعة .

ثم جـــاء بعـــد هؤلاء أقوام اختلفت مشاربهم ، فمنهم من أخذ التصوف بمعنى الزهد والعبادة والانقطاع عن الدنيا ..، ومنهم من أخذ حركات ومظاهر فمارس كثيرا من البدع والمنكرات المخالفة لتعاليم الإسلام .

وبهـــذا يتـــبين لنا أن خط الانحراف انطلق من زاوية ضيقة ، ثم أخذ بالاتساع حتى وصل إلى ما وصلت إليه الصوفية من القول بالحلول والاتحاد..وهكذا كل انحراف فإنه يبدأ ضيقا محدودا ، ثم لا يزال يتسع حتى يصل بأصحابه إلى طرق خطيرة ومهلكة .

---

(١) دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف الإسلام منها ، ص١٦٩ .

المبحث الثالث

عوامل نشأة التصوف

إن لعوامل نشأة التصوف آراء كثيرة أدت إلى تعدد الأوجه والاتجاهات ، فقد عين البعض أن نشأته راجعة إلى باعث داخلي ، حيث انبعثت منه الرغبة الشديدة في التوجه إلى الله ﷻ وكثرة التعبد له ﷻ ، والابتعاد عن الاغترار بمباهج الدنيا وزينتها ، أو أنها نتيجة التأمل العميق في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ . ورد الآخر نشأته إلى حركة الزهد المفرطة التي ظهرت تحت التأثيرات الخارجية ، أو تأثرت بعوامل أجنبية وافدة إلى المجتمع الإسلامي ، وخاصة أن الثقافات المختلفة والوثنيات الجاهلية لم تزل آثارها باقية في القرنين الثاني والثالث الهجريين بين الأمم المختلفة والبلاد العربية .

وبناء على ذلك يمكننا أن نقول بأن العوامل لنشأة التصوف عائدة إلى عوامل وأسباب عدة ، منها :

١ - المبالغة في التنسك والتعبد .

قلنا إن الرسول ﷺ كان أزهد خلق الله ﷻ في الدنيا وزخارفها ، وانتهج أصحابه الكرام منهجه السليم ، وسلكوا في ذلك معتدلين ، واعتبروا الدنيا وما فيها لهوا ولعبا ، لقوله ﷻ : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ (١) وقوله ﷻ : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (٢) ولكنهم يدركون بهذه النصوص وغيرها ويفهمون أن الله ﷻ خلقهم لعبادته وحده ، وجعلهم خلفاء في الأرض ، وخلق حياتهم وموتهم ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، ولهذا سلكوا مسلك الاعتدال والتوازن في هذه الحياة .

ومع هذا المنهج الرباني فإن هناك فئة من الناس يريدون المبالغة والتشدد في الدين مع أن الرسول ﷺ حذرهم من ذلك ، وبين أن لكل شيء حقه ، فيجب إعطاء كل شيء نصيبه ، وأرشد أمته إلى أن الدنيا ليست شرا على الإطلاق وإنما على الإنسان أن يأخذ هذا ويدع هذا فقد ورد في الأثر عن الأعمش قال : أن حذيفة ؓ كان يقول " ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ، ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا ، ولكن الذين يتناولون من

---

(١) سورة الحديد ، الآية (٢٠)

(٢) سورة الكهف ، الآية (٤٦)

كل " [١] . إذن فالمبالغة في التنسك وادعاء التفرغ الكامل للعبادة والتشدد المفرط في انتفاع مـا أبـاح الله لـنا في هذه الدنيا يعتبر عاملا من عوامل نشأة التصوف ، مع اعترافنا بأن التصوف اسم غريب عن الإسلام .

ولكـن إذا أخذنا في الاعتبار بمفهومه العام وهو السير في طريق الزهد والابتعاد عن زيـنة الحياة وزخرفها ؛ وأخذ النفس بأسلوب التقشف وأنواع العبادة ، والتأدب بالأخلاق الحميـدة ، ولم يكـن مقاطعة تامة للحياة الدنيوية، ولا متناقضا مع روح الحياة في المجتمع الـذي يدعـو إلى الجد والعمل والإنتاج في هذه المعمورة فإن ذلك أمرا مطلوبا ومرغوبا في ديننا الحنيف .

٢- عامل نزعة الزهد في الإسلام .

يـرى نيكولسـون بـأن التصوف الإسلامي نشأ أولا عن نزعة الزهد الشديد التي سادت في القرن الأول الهجري في المجتمع الإسلامي لعاملين هما : المبالغة في الشعور بالخطيئة ، والخوف الشديد من العقاب في الآخرة ، وعلى ذلك تكون نشأة التصوف لدى المسلمين في رأيـه راجعة إلى الإسلام نفسه في البداية ، [٢] وإن تأثر هذا التصوف فيما بعد بالعناصر الأجنـبية المختـلفة ، ولهـذا نجـده يقول هنا : " وأما في القرن الثالث الهجري فقد ظهر التصـوف في صورة جديدة تختلف تمام الاختلاف عن سابقتها وهي لا يمكن تفسيرها بأنها نتيجة تطور لعوامل روحية من صميم الإسلام نفسه " [٣] .

وممن يؤيد وجهة النظر هذه من الدارسين الإسلاميين ابن خلدون قديما [٤] والدكتور محمد مصطفى حلمي حديثا ، [٥] ثم إن المتصوفين أنفسهم يؤيدون هذا الاتجاه [٦] وذلك لما عـرف مـن حياة الرسول ﷺ الخاصة من زهد وتقشف ، ولما وردت من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الزهد والحياة مع الله ﷻ ، وتدعو إلى الإيمان بالحياة الآخرة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية١/٣٤٧ في ترجمة حذيفة بن اليمان رقم٩٣٩ .

(٢) مدخل إلى التصوف الإسلامي ، د/ أبو الوفاء التفتازاني ، ط٣ القاهرة (دار الثقافة ١٩٨٣هـ) ص٣ .

(٣) المرجع نفسه ص٤ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص٣٩٣ .

(٥) الحياة الروحية في الإسلام، د.محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية العامة للنشر (١٩٧٠م) ص٢٧ .

(٦) انظر: تاريخ التصوف الإسلامي منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري د/ عبد الرحمن بدوي ، الكويت ، وكالة المطبوعات ص٤٧ .

ونعيمها... وبالإضافة إلى ذلك أن ديننا الحنيف تجـد في تعاليمه الخوف والرجاء والترغيب والـترهيب ، ولهذا كان الخوف أهم عامل في حياة المسلم الدينية في القرن الأول الهجري ؛ الخوف من المعصية ومن الموت ، ومن حساب يوم القيامة ومن نار جهنم ".[١] .

فالإنسان يستطيع من خلال التدبر في آيات كتاب الله العزيز أن يعرف حقيقة دوره ومكانـه في هذه الحياة ، ويدرك مدى التحذير من خطورة الانسياق إلى الدنيا بحيث تصبح غايـة مـنقطعة بما يورث التنافس على الحطام والاغترار بالعرض الزائل ، ثم إن الأحاديث النـبوية لتأتي مؤكدة بإيحاءاتها وتوجيهاتها نحو موقف الإنسان من الدنيا والآخرة ..وإلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالعقيدة والسلوك .

ولا شـك أن وجـود أي إنسان في مثل هذا الجو الإيماني إذا تأمل وتدبر في بعض الآيـات القرآنية التي تدعو إلى الزهد وتوقظ الوجدان وترقق القلوب فلا بد أن تدفعه الرغبة الأكيـدة إلى التمسك بما اعتقده في قرارة نفسه وإظهار هذه الظاهرة في بيئته وفي من حوله من الناس .

٣- العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

إن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي سيطرت على الحياة العامة كانت لهـا دور كـبير في دفع الناس إلى التصوف؛ وهذه الظروف قد تدفع الإنسان إلى أن يلقي بنفسه في الحياة الروحية ، ولكنها تختلف قوة وضعفا من حين إلى آخر .

ومعـلوم أن المسلمين في صدر الإسلام عاشوا عيشة القناعة والرضا ، منعمين بروح الإيمـان العميـق ، دائمي الصلة بالله ﷻ ، وكانت حياتهم حياة معتدلة خالية من التكلف والإسـراف ، ولمـا فتحت الممالك المجاورة أدى ذلك الفتح إلى وقوع ثروات طائلة في يد هـؤلاء القوم الفقراء لكونهم من سكان البادية ، ثم اتصلوا بمدنيات مكتظة بأسباب الرفاهية والترف ، واتسعت رقعة المجتمع الإسلامي نتيجة هذه الفتوحات؛ حيث امتدت حدوده من الجزيرة العربية إلى أقطار الدنيا المتحضرة في ذلك الوقت[٢] .

وبـلا شـك فإن ظهور الأجواء لهؤلاء الفئة من الناس سببت تحولا مفاجئا لحياتهم، فأصـبح المتعـبدون المتدينون يحتملون هذه التغييرات التي لم تخطر ببالهم ، وقد يعانون ذلك

---

(١) انظر: تاريخ التصوف في الإسلام، د.قاسم غني ، القاهرة (مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م) ص٢٤ .

(٢) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام لقاسم غني ، ص٣٦ .

بمشقة ومرارة ، ومن ثم نتجت عن هذه الظاهرة الآثار التي تسوق أفكارهم إلى الزهد والمبالغة فيه ؛ كرد فعل لهذه الظاهرة حفظا لتعاليم دينهم وقيمهم "وقد اجتاحت هذه التغييرات العالم الإسلامي في أثر الفتوحات الإسلامية ودخول عدد كثير ممن لم يكن على صلة بالنبوة ، أو يعيش في ظلالها في الإسلام " [١] .

ثم ساعدت الظروف السياسية المضطرمة والفتن الداخلية المقلقة التي بدأت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ وقيام الحروب الأهلية بين أنصار علي ومعاوية - رضي الله عنهم - ، وكانت هذه الأوضاع عملا دافعا لبعض الناس وخاصة المتدينين إلى أن يفروا بدينهم من الفتنة ، فاضطر هؤلاء إلى أن يتركوا تلك الحياة الفاتنة، وأن يتعبدوا لله ﷻ خارج هذا المجتمع ، أو في الأماكن الخفية وذلك اتباعا لقول الرسول ﷺ ((ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي ، من تشرف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به)) [٢] ولهذا يرى بعض الدارسين أن تلك الفتنة كانت عاملا من عوامل نشأة التصوف[٣] .

٤- عامل التشيع .

لقد كان للتشيع المغالي دور في نشأة التصوف وذلك عن طريق إسنادهم إلى الإمام علي ﷺ الإمامة الروحية ، واعتقادهم فيه بأنه مستودع العلم اللدني، وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة ، حتى أدى الأمر عندهم إلى تأليهه ، ويقول بعض الدارسين إن أول من دعا إلى ألوهيته هو عبد الله بن سبأ [٤] وأنصاره [٥] . وعلى العموم كانت عقائد الشيعة في الإمام علي ﷺ تترجح بين كونه وصيا ووليا وإماما ومهديا ونبيا وإلها .

ومهما كان اختلاف الشيعة في عقائدهم في الإمام علي فإن التشيع كان عاملا من عوامل نشأة التصوف ، وذلك بالرغم من اختلاف الدارسين في مدى الدور الذي لعبته

---

(١) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة " ، د. أحمد جلي ، ط ثانية (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٠٨هـ) ص٤١ .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الفتن ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ٢٢١٢/٤(ح٢٨٨٦) .

(٣) انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٤٥-٤٦ .

(٤) عبد الله بن سبأ ، رأس الطائفة السبئية ، كانت تقول بألوهية علي ﷺ ، أصله من اليمن ، قيل كان يهوديا وأظهر الإسلام (ت نحو ٤٠هـ) انظر : الأعلام ٨٨/٤ .

(٥) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ١٤/٢، ٢٩ .

الشـيعة في نشأة التصوف وتطوره يقول الدكتور عبد القادر محمود : " لقد ظهر الشيعة في الكوفـة التي كانت مكان حزب المعارضة منذ أيام الدولة الأموية ، ومنها انتشرت في سائر العـراق ، ولهذا ظهر التصوف المتطور عن الزهد مباشرة أول ما ظهر في الكوفة المتشيعة ، وكان زهاد الكوفة أول من لبس الصوف كرد فعل للأمويين اللابسي الحرير وتقليد للرهبان النصارى " [١] .

وبعد أن أثبت تعلم بعض الرجال المتصوفين على يد أئمة الشيعة مثل سري السقطي [٢](ت ٢٥٧هـ) الذي تتلمذ على معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ) وهو مولى علي بن موسى الرضا ، ويقول أيضا : ؛ " ومعنى هذا أن التصوف قد أفرخ في بيئة التشيع وكان التشيع مدخل التطور إلى النظريات الفلسفية المنحرفة ... وكانت الولاية الصوفية هي الإمامة الشيعية ، وتطور الموقف مع الصوفية حتى أصبحت الولاية أخص من النبوة ؛ بل كانت جوهر النبوة وحتى صار الولي أسمى من النبي بالتبعية — حسب زعمهم - " [٣] .

٥- دخول النظريات الفلسفية والدينية الأخرى .

لقد كان هناك نظريات فلسفية ودينية انتقلت إلى العالم الإسلامي ، وكانت لها دور كبير في نشأة التصوف وتطوره ، وهي بمثابة الأفكار الدخيلة ذات تأثير كبير في المعتقدات الصوفية ، التي سوف نتكلم عنها حين نتحدث عن مصادر التصوف في المبحث الرابع القادم .

---

(١) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، للدكتور عبد القادر محمود ط١ (١٩٦٧م) ص٦٠ .

(٢) هو سري بن المغلس السقطي ، خال الجنيد وأستاذه ، صحب معروفا الكرخي ، قال عنه السلمي : هو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، انظر : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، والرسالة القشيرية ص ٤٦٧ ، وكشف المحجوب ٣٢٣/١ .

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٦٣ .

المبحث الرابع

مصادر التصوف

اختلف الكتاب والباحثون في تحديد مصادر التصوف ومنابعه ، لأن أمر التصوف أمر مختلف فيه ، وأن طريقته مركبة معقدة ، ولهذا لا يزال موضعه ميدانا للباحثين ، ومثارا للجدل والخلاف، كما أن الفكر الصوفي ظل باقيا وموجودا إلى عصرنا الحاضر.

لذا ، رأى البعض أن التصوف قد تأثر بالديانات المختلفة ،سواء أكانت هذه الديانات وثنية في الأصل كالبوذية ، أم كانت رسالات سماوية في الأصل كاليهودية والنصرانية ، أو تأثرت بالأفكار اليونانية . ورأى الآخرون أنه في نشأته الأولى قد ارتوى من منابع إسلامية أصيلة ، ثم تطور ودخلت عليه أفكار وافدة . وذهب غيرهم إلى أنه لا علاقة له بالإسلام سواء في اليوم الذي نشأ فيه أو فيما حصل له – بعد ذلك – من تطورات وتغييرات .

ولكي يتضح الأمر لا بد أن نعرض أهم ما قيل بهذا ا لصدد من آراء وأفكار مع بيانها - إن أمكن - وخاصة إذا كانت المصادر التي اقتبست منها الصوفية تصطدم اصطداما صريحا مع العقيدة الإسلامية الصافية .

١- المصدر الأول : أديان الهند الوثنية .

إن كل من يقرأ في كتب المتصوفة بإمعان ويفهمها جيدا سيدرك بأن المتصوفة قد تأثروا إلى حد كبير بأديان الهند القديمة في تعاليمهم وعقائدهم وأورادهم وأذكارهم وطرق تعبدهم ورياضاتهم [١] ، وقد لاحظ هذا الأمر أبو الريحان البيروني حينما عقد مقارنات في المذاهب ، وكشف عن وجه الشبه بين مذاهب الهنود " كالفيدانتا [٢] "وبين مذاهب

---

(١) انظر : أضواء على التصوف ، د/ طلعت غنام ، القاهرة (عالم الكتب) ص ٦٩ .

(٢) فيدانيت : كتاب يتحدث عن الفلسفة الهندوكية في وحدة الوجود ، ويجمع الآلهة في إله واحد .

الصوفية ، وبين نصوص كتاب " بيتنجل " وبين أقـــوال البسطامي [١] والحلاج والشبلي [٢] " [٣] ، كما لاحظه أيضا جماعة من المستشرقين الذين قاموا بالبحث في هذا المجال .

ولا شك أن ما أدركوا به لا يمكن إغفاله وبخاصة الذين اطلعوا على كتب المتصوفة ، وقـــارنوا بما في الأفكار الهندية من عقائد وشعائر وتقاليد ، فلا بد أن يروا أثر الفكر الهندي الواضح ، وهذا الأمر قد لاحظه الكثيرون حتى المتصوفون أنفسهم أقروا بوجود الأثر الهندي في الفكـــر الصـــوفي . ومن الأشياء التي أبانها البيروني وغيره من الباحثين من أن هناك أوجه التقارب بين الأفكار المتصوفة والهنود الوثنيين ما يلي :

أولا : الحلول ووحدة الوجود [٤] .

إن الاعـــتقاد بالحلول مأخوذ من العقائد الهندية الوثنية ، فالهنود قد قالوا بالحلول في كتبهم الـــتي كتـــبها لهم الكهنة والسحرة ، قال البيروني بهذا الصدد : "وإلى طريق بيتنجل ذهبت الصوفية في الاشتغال بالحق " ، ثم ذكر أمثلة لذلك من أقوال الصوفية أنفسهم ، ومن الأدلة الـــتي ذكـــرها قـــول الصوفية الآتي : "ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشـــارتك بإخفائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة " ، وبيّن في كلامهم ما يدل على القول بالاتحـــاد ، كجواب أحدهم عن الحق ، " وكيف لا أتحقق من هو أنا بالإنِّية ، ولا لأَينية ؟ إن عـــدت بالعودة فُرقتُ ، وإن أهملت فبالإهمال خففت وبالاتحاد ألفت "، ومن الأدلة التي ذكرها البيروني على قول الصوفية بالحلول متأثرين بأقوال الهند القديمة قول الشبلي : " اخلع الكـــل تصـــل إلينا بالكلية ، فتكون ولا تكون أخبارك عنا وفعلك فعلنا " ، وكجواب أبي

---

(١) هو أبو يزيد ، طيفور بن عيسى بن سروشان ، وكان جده مجوسيا فأسلم ، وهو من أهل بسطام (ت ٢٦١ هـــ) انظر : طبقات الصوفية ص ٦٧ .

(٢) هو أبو بكر ، دلف بن جحدر الشبلي ، بغدادي المولد والمنشأ ، صحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ ، (ت ٣٤٣هـــ) انظر : طبقات الصوفية ص ٣٣٧ .

(٣) تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري ، ص٣٥. وأبو حامد الغزالي والتصوف ، ص١٤٠-١٤١ .

(٤) تعني أنه ليس في الوجود إلا واحد هو الله ، وكل ما نرى هو أجزاء منه تتعين بأشكال مختلفة ، بما في ذلك أنا وأنت وهو وهي وهما وهم وهن ، والأرض والشمس والقمر والنجوم والملائكة والجن ، بما في ذلك الشياطين والحيوانات – تعالى الله عما يقولون – انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية ص ٢٥٩ .

يزيد البسطامي حينما سئل : بم نلت ما نلت؟ فقال : " إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها ، ثم نظرت إلى ذاتي فإذا أنا هو " [١] .

نفهـــم من هذه النصوص التي نقلها عنهم البيروني أن هناك تشابها بين عقائد المتصوفة الذيـــن يؤمـــنون بنظرية الحلول وبين العقائد الهندية الوثنية الإلحادية ، وأن هناك تطابقا بين الفـــناء الصوفي الذي يسعى أصحابها للحلول وبين الفناء الهندي الذي يعبر عنه "بالنرفانا "، الـــتي تكـــون من جملة معانيها الحلول [٢] . والحق أن البيروني قد تحدث عن وصف فلسفة الهـــند الديـــنية ، ومذاهبهم في الله ، والموجودات الحسية والعقلية ، وتعلق النفس بالمادة ، وتناسخ الأرواح التي لعبت دورا هاما في التصوف ، وما تؤدي إليه من مذهب في الحلول .

أمـــا ما يتعلق بالقول بوحدة الوجود فيقول عنه ول ديورانت : " إذا بحثنا عن أخطر نظـــرية أخذها الجانب الصوفي في الإسلام عن المصدر الهندي وجدنا نظرية وحدة الوجود ، إنها أساس جوهر" الفيدا " فالإله "براجاتي" هو خالق وخلق ، والعالم فيها ينشأ من العدم ، وإنمـــا أجزاؤه أبعاض الإله " . [٣] ويقول الدكتور عبد القادر محمود : "ويبدو نظرية وحدة الوجـــود واضـــحة في " أوبانشباد " [٤]على الأخص حيث يؤكد في تعبيراته الشعرية أن الله والـــنفس الإنســـانية شيء واحد ، فإن خيل للإنسان أنهما شيئان مختلفان فما ذاك إلا لأن إدراكه أ ضيق من أن يرى اتحادهما " [٥] .

ولقد أيد فريق من المستشرقين ما ذهب إليه البيروني ومن معه بأن هناك أوجه التشابه الظاهـــرة بين المذاهب الصوفية وبعض المذاهب الهندية ، وهذا ما يراه "براون [٦] " [٧] كما قـــرر نيكولسون بأن البوذية – قبل الفتح الإسلامي للهند في القرن الرابع عشر- كانت لها تـــأثير عـــلى التصوف الإسلامي ، لأن التعاليم البوذية قد شاعت في بلاد الفرس في العصر

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، لأبي الريحان البيروني ، ط ثانية بيروت (عالم الكتب ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م) ص٤٣ .

(٢) انظر : قصة الحضارة ، لول ديورانت ترجمة زكي نجيب محمود ، ط ٣ (١٩٦٨م) ٨٤/٣ .

(٣) انظر : المرجع نفسه .

(٤) كتاب من كتب الهنود الوثنيين .

(٥) الفلسفة الصوفية في الإسلام ص١١ .

(٦) إدورد غرنفيل براون ، مستشرق إنجليزي ، تخصص في الأدب الفارسي (ت ١٩٢٦م) ، الأعلام ٢٧٢/١ .

(٧) انظر : أضواء على التصوف ص٧٣ .

الجاهـــلي، كما وجد بعض المعابد البوذية في بلخ إحدى مدن خراسان القديمة ، وهي مدينة اشتهرت بعدد من الصوفية ، وقد اتخذوها مقاما لهم " [١] ولهذا أكد نيكولسون مرة أخرى بـــأن طريق الصوفية من ناحية كونها تثقيفا خلقيا للنفس وتأملا زهديا وتحررا عقليا مدينة بالكثير للبوذية ، وأن الفكرة الصوفية في فناء النفس الذاتية في الوجود الكلي هي من أصل هندي[٢] .

ومـــع هذه الآراء من أن التصوف قد اتصل بالتراث الهندي ، وأن هذا التراث قد أثر في مجموعـــة مـــن متصوفة الإسلام ، أو على الأقل قد تشابـــه الاثنان ؛ فإن الدكتور علي النشـــار أكد على " أن فكرتي الحلول ووحدة الوجود غريبتان عن الروح الإسلامية ، وأن التصـــوف السني - والمعبر عن روح الإسلام - قد أنكر هاتين الفكرتين ، ومن المرجح أن يكـــون مـــأخذ هـــاتين الفكـــرتين هنديا ، ولكني أشك كل الشك في محاولة وصل الهند والتصـــوف في نشـــأتهما بالتراث الهندي ، حيث كان أمام المسلمين نماذج قرآنية وحديثية تدعـــو إلى الـــزهد كمـــا تدعو إلى التصوف .. وعلى افتراض وجود النماذج الهندية لدى المسلمين فقد كانت بعيدة عن روح الزاهد المسلم والمتصوف المسلم[٣] .

ومـــع ذلـــك لا ينـــبغي أن ننسى هنا نقطة الاشتراك بين بعض المتصوفين المسلمين والمتصوفين البوذيين في محاولة إفناء الصفات البشرية ، وخلع الشهوات والغرائز من أساسها بالجوع والعطش والصوم الطويل للتخلص من البشرية — كما يزعمون – ، لأن الإنسان ما دام في ثيابه البشرية فلا يستطيع الالتحاق بالعالم الروحي أو الفناء فيه ، وهذا ما دفع هؤلاء إلى الانزواء الكامل والابتعاد عن الحياة والانقطاع عنها .. " [٤] .

---

(١) الصوفية في الإسلام ، لنيكولسون ، ترجمة نورالدين شريبة (مكتبة الخانجي ١٩٥١م) ص٢١.

(٢) المصدر السابق ، ص٢٢ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٣/٥٢ .

(٤) فلسفة الحياة الروحية ، ص٨٧ .

وكمـــا أن العناية بالروح والتركيز عليها والسعي إلى تحريرها من قيود الجسد المادي نجد لــه مثيلا عند الطائفة " الجينيـــة " [(١)] الهندية ، التي تهتم بتطهير الروح وإطلاقها من وثائق الجسد الذي يشدها إلى الحياة ويحرمها من الراحة و الطمأنينة .

ثانيا : تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة .

أخـــذت المتصوفة نظرية تعذيب النفس وتحميلها أكثر مما تطيقه وحرمانها من الأكل والشـــرب واللباس من الديانات الهندية القديمة وخاصة البوذية ، وقد حكى لنا ول ديورانت قصـــة بـــوذا قائلا : " وفي ظلمة الصباح الباكر خلف بوذا المدينة على ظهر جواده يصحبه ســـائق عربته ، وقد تعلق يائسا بذيل الجواد .. ثم قال : " ووقف عند مكان اسمه "يوروفيلا "يقـــول : " قـــلت لنفســـي إن هذا المكان رائع ، وإن هذه الغابة جميلة .." وههنا في هذا الموضـــع أخضع نفسه لأشق أنواع التقشف ، ولبث ستة أعوام يحاول ممارسة اليوجا - أي رياضة النفس- التي كانت قد ظهرت قبل ذلك في ربوع الهند ، وعاش على الحبوب والكلأ ، ومضـــى عـــليه عهد اقتات فيه بالروث ، وانتهى به التدرج إلى أن جعل طعامه حبة من الأرز كـــل يـــوم ، ولبس ثيابا من الوبر ، وانتزع شعر رأسه ولحيته ليترل لنفسه العذاب ، وكـــان ينفق الساعات الطوال واقفا أو راقدا على الشوك، وكان يترك التراب القذر يتجمع على جسده حتى يشبه في منظره شجرة عجوزا، وكثيرا ما كان يرتاد مكانا تلقى فيه جثث الموتـــى مكشـــوفة ليأكلها الطير والوحش؛ فينام بين هذه الجثث العفنة " ، ثم قال بوذا : " فضـــمر جســـدي ضمورا شديـــدا ... وكان من أثر تقليـــل الطعام أن برزت عظام فقـــراتي ... " [(٢)] .

قـــال أحمـــد عبد الغفور عطار : " ولكن تعذيب الجسد والسكون التام حتى كانت الطيـــور تقـــع عليه آمنة ، وتتحرك الوحوش خلفه مطمئنة لم يصلا به إلى غايته ، بل عاقه الضعف وفقدان القوة عن الحركة ، وأدرك أن ما فعله بنفسه أعجزه عن الحركة وعطل فيه

---

(١) الجينية ديانة منشقة عن الهندوسية ، ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد على يد مؤسسها(مهاويرا) ، إنها مبنية على أساس الخوف من تكرار المولد ، داعية إلى التحرر من كل قيود الحياة ..وهي تقوم على رياضات بدنية رهيبة.. انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص١٩٣ .

(٢) قصة الحضارة ، ٣/٦٨-٧٠ .

قـــوى الفكـــر ، وأن الإســـراف في تعذيب الجسد لا ينتهي به إلى ما كان يرجو ، بل نجم نقيضه " [١] .

وإذا أخذنـــا نمـــاذج من المتصوفين لوجدنا منهم الحكايات المشابهة ، التي تلمح إلى شيء من تعذيب النفس وحرمانها من الحياة السعيدة ، فإبراهيم بن أدهم- مثلا- وهو رجل كـــثيرا ما تبدأ به كتب طبقات الصوفية ، وقد ذكر أنه من أبناء الملوك ، وتزوج امرأة جميلة ، ولكـــنه تـــرك الملك والزوجة والأولاد ، وكل ما كان يملكه للنداء الغيبي أو للقاء الخضر الذي لقنه ذلك حسب زعمهم[٢] .

وذكر القشيري أن أحمد النوري رأى أن التصوف ترك كل حظ للنفس ، ولهذا كان يخرج كل يوم من داره ويحمل الخبز معه ، ثم يتصدق به في الطريق ، ويدخل مسجدا يصلي فيـــه إلى قريب الظهر ، ثم يخرج ويفتح باب حانوته ، ويصوم فكان أهله يتوهمونه أنه يأكل في الســـوق ، وأهـــل السوق يتوهمونه أنه يأكل في البيت ، بقي على هذا في ابتدائه عشرين ســـنة[٣] . وأما الطوسي فقد ذكر أن الشبلي كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم وأحيانا كان يحمي الميل فيكتحل به[٤] .

هـــذه بعض النصوص والأقوال التي تثبت بأن المتصوفة قد تأثر بعضهم تأثرا واضحا بأديان الهند القديمة ؛ مثل البوذية في المجاهدات والرياضات وتعذيب النفس طلبا للنداء الغيبي أو المعـــرفة كما - يزعمون - ، وبذلك نستطيع أن نؤكد بأن المصادر الهندية تعد من أهم المـــنابع التي ارتوت منها المتصوفة المبتدعة المتفلسفة لبعض عقائدهم وسلوكهم ، لأن معظم الفـــرق الهندية تميل إلى حياة التقشف والزهد ، و إلى احتقار اللذات الجسدية ، مما جعلهم يـــتفقون مع بعض أنماط السلوك الصوفي ، مثل نظرية الفناء عند الطوائف الهندية قريبة الشبه مـــن نظرية الفناء عند الصوفية؛ بل لنقل إنها متطابقة معها تماما في الوسائل الموصلة إليها ، وفي الغاية أو النتيجة المنتهية إليها .

فالمجـــاهدة الصوفية بما فيها من زهد وتقشف وقسوة على النفس ... يظهر فيها التأثر الواضح بالطريق الهندي لدى البرهمية والجينية والبوذيـــة .

---

(١) الديانات والعقائد في مختلف العصور ، لأحمد عبد الغفور عطار، ط١ (مكة المكرمة ١٤٠١هـــ)١/ ١٢٠

(٢) انظر : التصوف المنشأ والمصادر ، ص٥٠

(٣) الرسالة القشيرية ص٤٣٩

(٤) اللمع للطوسي ، ص٢٧٥

٢- المصدر الثاني : الأفكار اليونانية .

لقد أخذت المتصوفة في تدعيم مبادئهم وأفكارهم عن الأفكار اليونانية المتعددة المذاهب والطرائق ؛ ولعل من أبرزها الأفكار التالية :

أولا : الفكر الغنوصي .

إن الغنوصية كلمة يونانية ، معناها المعرفة ، ولكنها تطورت حتى أخذت معنى اصطلاحيا وهو التوصل بطريق الكشف إلى المعارف العليا ، أو تذوق المعرفة تذوقا لا يستند إلى برهنة عقلية ، وهذا موجود عند الصوفية [١] .

وقد ذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أنه مادامت كلمة "صوفية " مستمدة من كلمة "سوفيا " اليونانية فهذا دليل على أثر الفلسفة اليونانية في رجال الصوفية ، وأن هؤلاء إنما كانوا تلامذة للأفلاطونية المحدثة - وبخاصة - غنوصها العنيف الذي استتر فيه حين نقل إلى العالم الإسلامي في كل الغنوصيات الشرقية " [٢] فدخل الغنوص دوائر النظريات الفلسفية في الإسلام وشاع في النظريات الصوفية ، وكان الغنوص سببا في ظهور علم الكلام والمتكلمين وخاصة المعتزلة ؛ [٣] بل وفي التفسير والحديث حسبما يرى الدكتور علي النشار ، [٤] وعبد الرحمن دمشقية [٥] . وفي هذا من المبالغات مالا يخفى ، إذ المعتزلة يعتمدون العقل أساس المعرفة ، بخلاف الغنوص الذي لا يستند على البرهان العقلي كما سبق .

ثانيا : الأفلاطونية الحديثة .

تعد الأفلاطونية الحديثة من أهم المصادر التي اقتبس منها الصوفية في نظرية الكشف والشهود، لأنها أتت بالنظريات الفلسفية كالمعرفة الإشراقية ، التي تلقي إلقاء في النفس عند تحررها وتطهرها من الكدورات ، والتاسع الخامس من تاسوعات أفلوطين [٦] يكفي دليلا

---

(١) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ص١٤٩

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٣/٤٥

(٣) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٥

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٣/٤٥

(٥) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ص١٣٩

(٦) فيلسوف مصري متصوف ، حذق الفلسفة اليونانية والهندية ، ودان بالمسيحية ، وخلطها بالسحر والأساطير والعقائد الوثنية (ت ٢٧٠م) . انظر : الموسوعة العربية الميسرة ١/١٨٢ .

عـــلى ذلك حيث يقول فيه : " النفس التي تضاء بنوره تظل بغير رؤية ، فإذا استنارت فإنها تحـــتوي على كل ما تنشده ، فترى الأسمى بالأسمى ، ترى الأسمى الذي هو في الوقت نفسه الذي تريد رؤيته، كما أننا نرى الشمس بنور الشمس "[1] .

ويحكـــي لـــنا أفـــلوطين نفسه تجربته في الحصول على الاتحاد بينه وبين هذا الأسمى بقولـــــه : " وقد حدث مرات عديدة أن ارتفعت خارج جسدي بحيث دخلت نفسي ، كـــنت حينـــئذ أحياء وأظفر باتحاد مع الله ، يجب أن أدخل في نفسي ، ومن هنا أستيقظ ، وبهـــذه اليقظة أتحد بالله ، ويجب أن أحجب نفسي عن النور الخارجي لكي أحيا وحدي في النور الباطن "[2] .

يقـــول الدكـــتور النشار : " وصلت هذه الأفلوطنية المحدثة خلال كتاب " أثولوجيا أرســـتطاليس " كما هو معلوم الآن ومقرر في تاريخ الدراسات الفلسفية الإسلامية ، ولكن الجديـــد- هـــو أن كتاب أثولوجيا ، أوتاسوعات أفلوطين- لم تصل كما هي ؛ بل أثبت الـــبحث العـــلمي أن كـــثيرا من الآراء الغنوصية الشرقية قد اختلطت بها ، وأثر هذا المزيج الغنوصـــي العجيـــب -غنوص الأفلاطونية المحدثة ، وغنوص المذاهب الإيرانية - في العـــالم الإسلامي ، وأثر بالتالي في الصوفية "[3] .

ثم إن هـــناك كـــتابا آخر يعد أيضا من مؤلفات الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، عرفها المسلمون قبل انتهاء القرن الثالث الهجري ، وهو كتاب " الإيضاح في الخير المحض"، وترجم مـــن نســـخته العربية إلى اللغة اللاتنية ، وعرف في هذه الترجمة باسم "كتاب العلل" الذي وضـــع عليه توما الاكويني (ت ١٣٤٧هـــ) شرحه المشهور[4] . ثم ظهرت الكتابات التي كتـــبها كـــاهن ســـوري مجهول الاسم من تلامذة " استيفن بارصديلي " من رجال القرن الخـــامس الميلادي ، وعنوان الكتابات " الله المقدس "، والمعروف أنها ترجمت فور ظهورها إلى الـــلغة الســـريانية ، ثم إلى اللغة اللاتنية على يد "سكوتس أرجينا " ، وأنه لم ينته القرن

---

(١) الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص٣٣ .

(٢) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٣/٤٥-٤٦ .

(٤) التصوف بين الحق والخلق ، لمحمد فهر شفقة ، ط٣ تونس (الدار السلفية ١٩٨٣م) ص١٧ .

التاسع الميلادي - الثالث الهجري - حتى كانت معروفة في العالم النصراني من ضفاف دجلة إلى المحيط الأطلنطي [(١)] .

وهذه الكتابات تحمل في ثناياها أن طبيعة الإنسان والطبيعة الإلهية موجودتان في كل إنسان ، وأن الحياة الدنيا – حياة البدن – ليست سوى صورة من الحياة الإلهية العليا ، وأن مصير الإنسان إلى الله ، ولا وسيلة لمعرفة الله إلا بها..وليس الحلول على هذه النظرية سوى صورة من صور اتحاد اللاهوت بالناسوت ، كل شيء فيض من الله أو تجل له ، وليس شوق الإنسان إلى الله إلا علامة حنين النفس إلى الرجوع إليه ، فإن كل شيء منه وإليه [(٢)] .

كانت هذه تعاليم الكنيسة الشرقية المتأثرة بالفلسفة اليونانية ، وكان لها صداها في الفكر الإنساني عامة ، وفي التصوف الإسلامي خاصة ، فليس كلام الصوفية في الفيض الإلهي والتجليات وقولهم في الله ﷻ أنه الأول والآخر والظاهر والباطن- بالمعنى الفلسفي- إلا صدى لبعض المعاني السالفة الذكر . ويضاف إلى ذلك ما أشار إليه أرسطو من أن سعادة الأنفس تتحقق بمقدار تخلصها من علائق البدن واستكمالها بواسطة الإدراكات الفعلية المجردة عن المحسوسات فيقول : " إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإله ﷻ ، ووصلت إلى كمالها ، وإنما هذا التشبيه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستعداد وإما بحسب الاجتهاد ، فإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين وانخرط في سلك الملائكة المقربين ، ويتم له الالتذاذ والابتهاج ، وليس كل لذة فهي جسمانية ؛ فإن تلك اللذات لذات نفسانية عقلية ، وهذه اللذة الجسمانية تنتهي إلى حد ، ويعرض للملتذ سآمة وكلل وضعف وقصور إن تعدى عن الحد المحدود ، بخلاف اللذات العقلية فإنها حيثما ازدادت ازداد الشوق والحرص والعشق إليها " [(٣)] .

والخلاصة التي نخرج بها هي أن الأفكار اليونانية المتمثلة بالغنوصية والأفلاطونية الحديثة تعد من أهم مصادر الفكر الصوفي الفلسفي ، فهي شبيهة بما تفعله الصوفية من أنهم يتوصلون إلى المعرفة عن طريق الكشف والشهود . وأن تركيز فلاسفة اليونان على النفس وتزكيتها بالمعرفة والإدراكات الفعلية والتهذيب ، وتخليتها عن الاتصاق مع العالم الخارجي

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، ٤٦/٣ .

(٢) التصوف بين الحق والخلق ، ص١٨ .

(٣) الملل والنحل ، للشهرستاني ، تحقيق : عبد العزيز محمد الوكيل، بيروت (دار الفكر) ٣٨٩/٢ .

حتى تستطيع التحرك باتجاه الكمال - حسب زعمهم - أمر يلتقون فيه مع الصوفيين إلى حد كبير وخاصة مع ما يسمونه بأصحاب التصوف الفلسفي .

٣- المصدر الثالث : اليهودية المحرفة .

إن ظاهرة طقوس العبادة والغلو وتحريف الكلام عن مواضعه من الظواهر التي تأثر فيها المتصوفة باليهودية المحرفة .

ولقد عنون صاحب كتاب " هذه هي الصوفية " عنوانا وسط كتابه قال فيه : "ذكر الصوفية بدعة يهودية " ثم قال : جاء في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة " ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرغوا..هللوا يا سبحوا الله في قدسه ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بوضوح الهتاف" . ثم قال المؤلف : وهكذا يذكر الصوفية ، وحسبك أن ترى حانة صوفية يذكرون بها لتشهد الصلة الوثيقة بين الذكر الصوفي والبدعة الجاهلية اليهودية ..." [١] .

ثم إن " الغلو الشيعي وكثرة وضع الأحاديث الملفقة الداعية إلى تقديس الأئمة ، والقول بتناسخ الجزء الإلهي في علي ﷺ ، وتقديس أبناء الأئمة من بعده ، كان وراء ذلك كله أصابع يهودية في وقوع الغلو الذي أخذه بعض المتصوفة .. " [٢] .

فمبدأ تقديس المشايخ لدى بعض المتصوفة وتقديم كلامهم على النصوص الشرعية وقبول سلوكهم وإلزام المريد بذلك له جذوره اليهودية أيضا ، والمتمثلة في تقديس اليهود لأحبارهم تقديسا زائدا ، وتقديس كلامهم وتقديمه على كلام التوراة واعتباره مصدرا للتشريع ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الناحية فقال ﷻ : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٣] .

وأما عن تحريف الكلام عن ظاهره فأوجه الشبه بين اليهود والصوفية واضحة لما يدعيه بعض المتصوفة على الإسلام من ظاهر وباطن ، أي أن هناك ما هو ظاهر من دين الله ﷻ وهو خطاب للعوام ، وباطن اختص الله ﷻ بفهمه المصطفين من عباده وهم المتصوفة

---

(١) هذه هي الصوفية ، لعبد الرحمن الوكيل، ط٤ بيروت (دار الكتب العلمية ١٩٨٤م) ص١١٥ .

(٢) أبو حامد الغزالي والتصوف ، ١٤٦ .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٣١) .

أهل الولاية والكشف .. . وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه الذي هو السمة الغالبة على اليهود ، [١] فكما أن اليهود ادعوا أن للتوراة ظاهرا وباطنا فكذلك الصوفية المتأثرين باليهود جعلوا للقرآن ظاهرا وباطنا ، بل جعلوا لكل شيء ظاهرا وباطنا .

وهو دليل على أن بعض الصوفية قد استفادوا وتأثروا باليهودية .

٤- المصدر الرابع : النصرانية المحرفــة .

تعـــد النصرانية المحرفة من أهم مصادر التصوف ، لأن بعض المتصوفة دعا بعضهم إلى الخـــلوات المظـــلمة والـــنفور من الناس ، والعزوف عن الزواج ، وتطهير الروح عن طريق تعذيـــب الجســـد ، ولـــبس الصوف والخشن من الثياب عامة ، وتجويع النفس لتزكيتها ، والسياحة في البلاد .

قـــال أ بوحـــامد الغزالي [٢] : إن طريق الوصول إلى الله ﷻ لا يتم إلا بالتتره عن الشـــهوات والكـــف عن اللذات ، والتجرد لله في الحركات والسكنات ، ثم بدأ يثني على انفراد رهبان النصارى عن الخلق واعتزالهم في قمم الجبال بعيدا عن الخلق وطلبا للأنس بالله ﷻ ، وذكـــر أن الله ﷻ أثنى عليهم لذلك بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَايَسْـــتَكْبِرُونَ ﴾ [٣] ، [٤] وكـــتابه الإحياء بـــه الروايات المنسوبة إلى المسيح في التعبدات والأمـــثال والأحكام وهو شاهد على ذلك، ودليل على الترابط بين التصوف والنصرانية ، وأن التصوف دخله من الدين المحرف شيء كثير .

كمـــا أن مســـألة الحلول من أخطر المسائل التي تأثر فيها المتصوفة بالنصرانية المحرفة حيث قال بعض المتصوفة بالحلول بالمعنى النصراني كالحلاج الذي يقول :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوتـــه الثاقب

ثم بدا في خلقه ظـــاهرا ... في صورة الآكل والشارب

---

(١) انظر : التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام ، عبد الكريم الخطيب ، ط١ (دار الفكر العربي) ص٢٨٥ .

(٢) هو محمد بن محمد بن أحمد أبو حـــامد الطوسي ، الشافعي ، الغزالي ، حجـــة الإسلام ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط ، من آثاره : إحياء علوم الدين (ت ٥٠٥ هـــ) انظر: سير أعلام١٩/٣٢٢ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٨٢) .

(٤) إحياء علوم الدين ١/٢٦٦ .

حتى لقد عاينه خلقــه كلحظة الحاجب بالحاجب [١] .

ففـــي هـــذه الأبيات إشارة إلى ثنائية الطبيعة الإنسانية : اللاهوت والناسوت ، وهما اصـــطلاحان أخذهمـــا الحـــلاج عن النصارى السريان الذين استعملوها للدلالة على طبيعة المسيح .

قـــال نيكولســـون : "مـــن هنا نرى أنه كان امتدادا (نصرانيا) ضخما في الفلسفة الصوفية الإسلامية ، لأنه على الرغم من إيمانه بقدم النور المحمدي ؛ ذلك النور الذي انبثقت مـــنه جميع أنوار النبوة إلا أنه يجد في عيسى- عليه السلام - المثال الكامل لفلسفة الولاية الصوفية الـــتي تسمو على درجة النبي في الأنبياء ، ولأنه يجد فيه الإنسان الذي وصل إلى مقام القربى فحـــل فيه روح الله ، ومن هنا أراد الحلاج أن يعيشه ويحياه ويتحقق بحقيقته ، فالوحدة التي يدعو إليها الحلاج - إذن — وحدة الشهود لا وحدة الوجود" [٢] .

وبذلـــك نفهم بأن الحلاج ذهب مذهب النصارى الذين يقولون بإمكانية حلول الله تعالى في المخـــلوقات ، حتى وإن كان بين الحلاج والنصارى من اختلاف ؛ إذ كان النصارى يؤمنون بحلول خاص ، بينما الحلاج يؤمن بحـــلول عام .

٥- المصدر الخامس : المصدر الشيعي

ومـمـــا يدل على أن الشيعة مصدر من مصادر التصوف هو اتفاق الفريقين في مسائل وأمور منها :

أولا : مفهوم الولاية .

لقـــد عقـــد الدكتور إبراهيم هلال مبحثا بعنوان (مفهوم الولاية عند غلاة الصوفية وصلة ذلك بمفهوم الإمامة عند غلاة الشيعة) [٣] ثم ذكر بعد ذلك " أن الشيعة بهرتهم تلك الكـــلمة ومـــا تنطوي عليها من معنى لـــه فعله السحر في نفوس الناس فأطلقوا أحيانا على أئمـــتهم ، وعـــلى كبار الدعاة فيهم ، ولو كانوا على ضد ما تحمل تلك الكلمة من معنى حسب الاطلاق اللغوي .. إلى أن قال : ولم يلبث إطلاقها بهذا المعنى المخالف في الشرع أن نشأ في الأوساط الصوفية أيضا " [٤] .

---

(١) الطواسين ، للحلاج ، نشرة ماسينيون ، ص١٢٩ نقلا عن التصوف بين الحق والخلق ص ١٩ .

(٢) الصوفية في الإسلام لنيكولسون ، ص١٤٠

(٣) ولاية الله والطريق إليها ، للدكتور إبراهيم هلال ، القاهرة (دار الكتب الحديثة) ص٧٠

(٤) المرجع السابق ، ص٧٠

فكمـــا تأثرت الشيعة بغيرهم فهم قد أثروا في بعض الصوفية بل إن غلاة الشيعة لهم تـــاثير في الصـــوفية ، يقول الدكتور كامل الشيبي : " وجاء تيار شيعي آخر من الإسماعيلية خـــدم الولايـــة الصـــوفية وجرأها على الظهور وزادها ثقة بنفسها..إلى أن يقول : وبذلك أســبغت الإسماعـــلية الولايـــة على نقبائها وارتقت بهم من الإنسانية المادية إلى الروحانية ، فاســتغـــل الصـــوفيـــة هـــذه السانحـــة أيضا وطبقوهـــا في مجتمعهم وصبـــوا في قالبها مثـــلهم .. "[١] .

فمفهـــوم الولايـــة عند الفريقين متقارب إن لم يكن متحدا مما يـــدل على وجود استفادة المتصوفـــة من الشيعـــة .

ثانيا : ادعاء العلوم الخاصة :

لقـــد زعم الشيعة وبعض الصوفية أن لديهم علوما خاصة ، يفسرون ذلك تارة بأن لديهـــم قرآنا خاصا ، أو تفسيرا باطنيا ، أو علما لدنيا[٢] . واستدل بذلك عبد الرحمن عبد الخـــالق بقـــول أبي يزيد البسطامي : " خضنا بحرا ووقف الأنبياء بساحلـــه " . وقولـــه : " أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت "[٣] .

ثم قـــال : وهكذا تطابق عقيدة التشيع مع معتقد المتصوفة في قضية العلم الباطني حتى لكأنهما شيء واحد "[٤] .

ثالثا : ادعاء أن للدين ظاهرا وباطنا :

اتفقت أيضا كلمة التصوف مع التشيع الذي أخذ فكرة الظاهر والباطن من اليهودية في أن للدين ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر للعوام وهو الشريعة عندهم ، وأن الباطن للخواص وهو الحقيقة عندهم ؛ بل زعموا أن الظاهر لا يلزم الأئمة ولا الأولياء لأنهم يتمتعون بالعلم ا لـــلدني "[٥] . وهـــذا قريب من المظهر السابق إلا أنه أخطر منه ، فالباطنية لم يصادفهم أي إشـــكال حين ادعوا الظاهر والباطن ، و لم يلتزموا بلغة ولا عرف ، وفسروا النصوص على حسب أهوائهم الفاسدة .

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ، للدكتور كامل الشيبي ، ص٣٤٩

(٢) انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص٣٩١-٣٩٢

(٣) الفتوحات المكية ١/٣٦٥ .

(٤) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، ص٣٩٢-٣٩٣

(٥) نفسه ، ص٣٩٧

٦- المصدر السادس : المصدر الإسلامي

أول من قال بأن مصدر التصوف إسلامي هم الصوفية أنفسهم ؛ وقد ذهب مذهبهم فريق من المسلمين الذين ليسوا بصوفية ولكنهم يناصرون الصوفية ويعطفون عليهم كثيرا أو قليلا ، فأولئك وهؤلاء يرون أن حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، وأن الكتاب والسنة كل أولئك هو المصدر الحقيقي لكل ما تواضع عليه الزهاد والصوفية من قواعد الرياضة والمجاهدة .. وما انكشف لبصائرهم من أ نوار الحقيقة في المشاهدة [١] .

فمن القرآن والسنة استمد الصوفية أول ما استمدوا آراءهم في الأخلاق والسلوك ، وفي رياضاتهم العملية التي اصطنعوها من أجل تحقيق مذهبهم في الحياة الصوفية . وقد بين ذلك أبو السراج الطوسي بأن للصوفية تخصيصا بمكارم الأخلاق ، والبحث عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال اقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم ، وهذا كله- على حد تعبيره - " موجود علمه في كتاب الله ﷻ " [٢] وهم يدعمون هذا المذهب بأمرين :

الأمر الأول : ما أثر عن النبي ﷺ من زهد وتعبد ونسك ، وتوبة ومجاهدة وزهد وورع وصبر وتوكل وخوف ورجاء ومحبة وشوق ورغبة ورهبة وشكر وذكر وتواضع وإحسان ..

والأمر الثاني : هو ما يستندون إليه من بعض آيات القرآن الكريم ، وعبارات الحديث القدسي وغيره من الأحاديث النبوية .. إلا أن بعض المتصوفة قد استغلوا هذين المصدرين ، كما استغلهما المتكلمون والفلاسفة والشيعة وغيرهم ، واستخدم الصوفية في فهمهما طرقا متنوعة من التأويل ، وقرؤوا في نصوصهما معاني جديدة لم يسبقوا إليها ، وحملوا هذه النصوص أحيانا مالا تحتمل ليجذبوا إليها الناس البسطاء ، ثم راحوا يؤولونها حسب أهوائهم وأذواقهم [٣] .

وبعد أن عرضنا الآراء في هذا المبحث يمكننا أن نقول بأن التصوف خليط من مصادر مختلفة لما له من جذور هندية ، وفارسية ، ويونانية ، ويهودية ، ونصرانية ، وعربية

---

(١) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ص ٢٦- ٢٧ ، وأضواء على التصوف ، ص٤٥

(٢) اللمع للطوسي ، ص٣٢

(٣) انظر : التصوف بين الحق والخلق ص ١٤ .

جاهلية ، وإسلامية ... ويؤيد هذا ما يقوله نيكولسون بأن إرجاع التصوف إلى أصل واحد أو إلى مصدر واحد من العبث في مجال البحث [١] .

وهــذا الرأي وجيه لوجود آثار المصادر المذكورة وبصماتها الواضحة لمن تأمل وتدبر فيهــا ، إذ لو أردنا أن نأخذ المصدر الهندي – مثلا – لوجدنا أن أثره ظاهر لبعض الصوفية ، لأن أبا يزيد البسطامي اعترف بأنه قد أخذ بعض أفكاره الصوفية عن أبي علي السندي ، ووحــدة الوجود كما هو معروف برهمية المترع ، والفناء الصوفي هو النرفانا البوذية ، ورأينا أن هــناك تشابها بين الفناء الصوفي والنرفانا البوذي ، وبين المجاهدات والرياضات وتعذيب النفوس طلبا للمعرفة عند الأديان الهندية والصوفية المنحرفة .

أمــا المصدر الفارسي فأثره واضح وموجود ، وعدد من شيوخ الصوفية في القرن الــثالث الهجــري كــانوا من أصــل فارسي كأبي يزيد البسطامي ، وأما المصدر اليوناني والغنوصــي والأفلاطوني الحديث فكان الأثر بارزا في التيار الفلسفي الباطن ، أو كان شبيها بما يفعله بعض الصوفية من ا لتوصل إلى المعرفة عن طريق الكشف والشهود .

ويقــول نيكولسون : إن الزهــد الإسلامي وليد عوامل إسلامية في صميمها ، أما التصــوف فترجع نشأته إلى عوامل خارجية عن الإسلام ، ويكون في نظره من الأفلاطونية الحديثة .. وينتهي إلى القول بأن التصوف من ناحيته النظرية مأخوذ من الأفلاطونية الحديثة، وأما من الناحية العملية فمتأثر بالفلسفة الهندية الفارسية [٢] .

ولعل هذا الرأي القائل بتعدد منابع ومصادر التصوف هو أرجح الآراء بعدما عرضنا أقــوال الباحثين ، حيث برزت الأقوال للعيان ، وظهرت الدلائل على مسرح الأحداث وفي أرض المتصــوفة ، وأثبتت المصادر المتعددة للتصوف ، وقرر عدد من الباحثين والكتاب على هــذا الــرأي ،حتى الصوفية أنفسهم يعترفون بوجود هذه المصادر ، أو ينتمون إلى أحــد أصحابها ؛ مما يعطينا دليلا واضحا وتأكيدا صريحا على صحة تعدد المصادر.

---

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، مقدمة أبو العلا عفيفي ص : د .

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ص : ز .

المبحث الخامس

آثار التصوف

بناء على ما سبق من دراستنا من أن التصوف اسم غريب عن الإسلام ؛ وأنه ظهر تحت التأثيرات الخارجية أو تأثر بعوامل أجنبية وافدة إلى المجتمع الإسلامي ؛ وارتوى من مصادر مختلفة كالديانات الهندية الوثنية والأفكار اليونانية والأديان اليهودية والنصرانية المحرفة وما إلى ذلك فإنه ترك آثارا سيئة ، نذكر أهم هذه الآثار التي نشروها في الأمة الإسلامية مايلي :

١- انتشار الوثنية والشرك .

إن ظاهرة بناء المساجد على القبور وبناء القباب على قبور الأولياء منتشرة في العالم الإسلامي انتشارا واضحا ، وأن كثيرا من أفراد الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر قد وقع في صرف عبادات لأصحاب هذه القباب المبنية على القبور حيث توجهوا إليهم بالدعاء والاستغاثة والنذور ، فصرفوا العبادات لغير الله ﷻ ، فوقع بهذه الظاهرة كثير من الأمة الإسلامية في الشرك بالله ﷻ ؛ وهو من أكبر الكبائر التي حذرنا الله ﷻ ورسوله ﷺ من الوقوع فيها .

قال إدريس محمود : " والذي نشر هذه المشاهد الوثنية من بناء القباب والمساجد على القبور ، وصرف عبادات لأصحابها من دون الله هم المتصوفة في الماضي والحاضر ، فكل من يسير في عالمنا الإسلامي الواسع يجد دعاة التصوف منتشرين في العالم الإسلامي يأمرون الناس ببناء القباب على قبور من يسمونهم أولياء ، ويأمرونهم ببناء المساجد على قبور الأولياء ، ثم يأمرونهم بالتوجه إلى أصحاب هذه القبور وطلب مايحتاجونه منهم " [١] .

ثم أضاف قائلا : " ولذا ، فالصوفية هم دعاة الشرك في العالم الإسلامي ، وهم وراء كل انحراف عقدي وخاصة في توحيد الألوهية والربوبية ، وما وقع في الأمة الإسلامية من انحرافات عقدية بسبب المتصوفة ، وقد وصفه علماء الأمة الإسلامية في مختلف العصور ، وإليك جملة من أقوالهم " [٢] ، حيث استنكروا الوثنية والأعمال الشركية وحذروا منها .

---

(١) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١٠٢٥/٣

(٢) المرجع نفسه ١٠٢٦/٣ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبينا انتشار الوثنية والشرك في العالم الإسلامي فيقول :
" ومن هؤلاء من يرى أن زيارة قبر النبي ﷺ أفضل من الحج والعمرة إلى الكعبة ، ودعاء النبي والاستغاثة به أفضل من الاستغاثة بالله تعالى ودعائه ، وكثير من هؤلاء يخربون المساجد ويعمرون المشاهد ، فتجد المسجد الذي بني للصلوات الخمس معطلا مخربا ليس له كسوة إلا من الناس ، وكأنه خان من الخانات ، والمشهد الذي يبنى على الميت عليه الستور وزينة الذهب والفضة والرخام ، والنذور تغدو وتروح إليه ، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله تعالى وآياته ورسوله وتعظيمهم للشرك فإنهم اعتقدوا أن دعاء الميت أنفع لهم من دعاء الله تعالى "[1] .

أما تلميذه ابن القيم فقد تحدث عن المفاسد التي وقعت بسبب الغلو في الصالحين وبناء القباب والمساجد على قبورهم ودعائهم من دون الله ، ورد عليهم ردا مقنعا وبيّن بطلان معتقداتهم في كتابه " إغاثة اللهفان " فقال : " ثم إن اتخاذ القبور أعيادا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح الشرك .

فمن مفاسدها اتخاذها أعيادا للصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها ، وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها ، والاستغاثة بهم ، وسؤالهم النصر والرزق والعافية ، وقضاء الدين ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم "[2] .

ومن العلماء الذين ذكروا انتشار الشركيات والوثنيات في الأمة الإسلامية بسبب بناء القباب والمساجد على القبور الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي فقد قال رحمه الله :
" ولقد عمت البلوى بذلك في كل زمان ومكان حتى في هذه الأمة لا سيما زمننا هذا ، ما من قبر ولا بقعة يذكر لها شيء من الفضائل ولو كذبنا إلا قد اعتادوا الاختلاف إليها والتبرك بها ، حتى جعلوا لها أوقاتا معلومة يفوت عيدهم بفواتها ، ويرون من أعظم الخسارات أن يفوت الرجل ذلك العيد المعلوم ، وجعلوا لها طوافا معلوما كالطواف بالبيت الحرام ، وشرعوا تقبيلها كما يقبل الحجر الأسود ، وشرعوا لها نذورا من الفرش والنقود ،

---

(١) الرد على البكري لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٤٩ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لا ابن القيم ، تحقيق محمد حامد الفقي طبعة دار العرفة (بيروت) ١٩٥/١

ووقفـــوا عليها الوقوف من العقارات والحرث وغيرها ، وغير ذلك من شرائعهم الشيطانية وقواعدهم الوثنية " [١] .

٢- تعطيل الأمربالمعروف والنهي عن النكر في الحياة العامة .

إن الأمـــر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة العمر ، وهو من أهم الواجبات ، التي يـــترتب عليها صلاح المجتمع وسلامته ونجاته في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٢] وقـــال تعالى مبينا خطورة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَـــنِي إِسْـــرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لاَيَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [٣] .

وروى جريـــر بن عبد الله البجلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ما من رجل يكـــون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا)) [٤] .

وهـــذا الحديث يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى عقاب شامل من الله ﷻ لجميع الأمة .

ومـــع وضوح هذه الأدلة إلا أن " الصوفية غلوا في الأولياء فزعموا بأنهم فوق إنكار المنكر عليهم ، زاعمين بأنهم لا يقدمون على فعل أي شيء إلا بأمر الله لهم ، وذلك انطلاقا مـــن عقيدتهـــم بأن الأولياء يتلقون علوما خاصة بهم عن الله ، وأن الذي يحرم في نظر علم الشـــريعة قد يحل في نظر علم الحقيقة المزعوم ، ولذا حرموا على المريدين إنكار المنكر على مشائخهم مهما ارتكبوا من محرمات ، ومهما ضيعوا من فرائض الله ، وهذا الغلو كان لـــه ولا زال إلى الآن الأثر السيئ في الأمة الإسلامية " [٥] .

واستشـــهد إدريس محمود بهذا المشهد من مواقف الصوفية الكثيرة نذكر منها فقال : " ومـــن المتصوفة الذين تكلموا عن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المريد تجاه شيخـــه : أبو

---

(١) معارج القبول للشيخ حافظ بن احمد الحكمي ، طبعة المطبعة السلفية ومكتبتها ٤٧٥/١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٠٤) .

(٣) سورة المائدة ، الآيتان (٧٨- ٧٩) .

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم ، باب الأمر والنهي ٥١١/٤ (ح٤٣٣٩) .

(٥) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١٠٤٩/٣ .

يــزيد البسطامي فقد دعا هذا الشيخ الصوفي إلى أن يطيع المريد شيخه طاعة عمياء بحيث لا ينكر عليه منكرا بل حتى لو أمره بفعل المنكر فعليه أن ينفذ أوامره بلا توقف ولا استفسار ، وإليـــك كلامه الذي يدل على هذا فقد قال : " إذا أمر الأستاذ التلميذ أمرا من أمور الدنيا وبعثه في إصلاحه فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد فيقول : أدخل أولا المســجد وأصــلي ثم أكون وراء ما بعثني إليــه فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها يعني ليس لها قعر " .

ثم عــلق إدريــس محمود على هـــذا الكلام فقال : " إذا نظرنا في كلام أبي يزيد البســطامي نرى أنه دعا إلى تقديم طاعة الشيخ على طاعة الله ، وهذا منكر لا يجوز ، فإن طاعـــة الله ورســوله مقدمة على طاعة أي أحد مهما كانت مكانته ، ثم إن دعوة أبي يزيد لــلمريد السير للحصول على غرض من أغراض الدنيا الذي أرسله إلى شيخه والصلاة تقام مــنكر عظــيم ، والذي يهمنا من إيراد هذا الكلام عن أبي يزيد هو أن المتصوفة يرون بأن طاعة الشيوخ فوق كل شيء حتى وإن أدت هذه الطاعة إلى مخالفة أوامر الله وأوامر رسوله وهذا منكر عظيم وقعوا فيه بسبب غلوهم في تقديس مشائخهم "[١] .

وبذلك نقول : بأن المتصوفة يعتبرون طاعة المشائخ فوق طاعة الله ، وأنه لا يجوز أن يخـالف لهم أمر حتى ولو أمروا بمعصية الله ، وهذا غلو زائد وتعطيل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣- انتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة

لقـــد أثرت الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة على الأمة الإسلامية ، وخاصة على الذين انضموا إلى الطرق الصوفية واعتنقوها ، أو العامة الذين لا يميزون بين الحق والباطل ، فأصبحوا يتلون هذه الأذكار ليلا ونهارا وصباحا ومساء ، معرضين عن تلاوة كتاب الله ﷻ وذكر بما شرع في كتابه وسنة رسوله ﷺ .

قال محمد فهر شقفة : " لقد حض الإسلام على الدعاء وشجع على المأثور منه ونهى عـــن الاعتداء فيه ، والصوفية لم يتقيدوا بكل ذلك فراحوا يبتدعون أدعية من عندهم ، فيها كثير من الغلو والشرك والحلول ، فيها دعاء غير الله " .

---

[١] المرجع السابق ٣/١٠٦٦ .

ومن أمثلتها ما يلي :

" إلهـــي اســـتهلك كليتي في كليتك ، وامدد أوليتي بأوليتك ، حتى أشهد أوليتك في أوليـــتي ، وآخريتك في آخريتي ، وظاهريتك في ظاهريتي ، وباطنيتك في باطنيتي ، وقابليتك في قابليتي ، وأنت في أمنيتي ، وهوايتك في هويتي " [١] .

إذا نظرنا في هذا الدعاء نلاحظ أنه يحتوي على الطلب من الله ﷻ أن يحل في الإنسان ، وهـــذا دعاء باطل وكفر بالله ﷻ ، وذلك لأن من العقائد المسلم بها عند المسلمين أن الله ﷻ بائن عن خلقه ، ولا يمكن بأي صورة من الصور أن يحل في أي شيء من مخلوقاته .

ومن صلواتهم المبتدعة على الرسول ﷺ قولهم :

" الـــلهم صـــل على محمد الذي تجسد فيه الله ، اللهم صل على نفسك التي ظهرت وتظهـــر في صور الكائنات ، اللهم وأسألك بجميع ما تعلم لنفسك من لا يعلمه منك غيرك أن تنفعني ياذا الجلال والإكرام ، فمن شهود تجليات ذاتك بالعين التي لا تحجب عنها شيء في الأرض ولا في الســـماء ، وأفض على جميع ذاتي لذة الشهود حتى أكون كلي لذة ذاتية إلهية سارية ، وتجلى لي يا إلهي بمقام الاستواء الجامع للمراتب الخفية الإلهية " .

إذا نظـــرنا في هـــذه الصـــلاة والدعاء نرى أنها تحتوي على ألفاظ تدل على عقائد الصوفية الباطلة .

من هذه الاعتقادات التي تحتوي عليها قول المتصوفة بأن الرسول ﷺ تجسد فيه الله ، ومعنى ذلك أنه هو الله وهذا كفر .

ومـــنها اعـــتقادهم بـــأن الله ﷻ يظهر في صور الكائنات ، وهذا هو القول بوحدة الوجود تماما وهو إلحاد بالله ﷻ .. وغير ذلك من العقائد الباطلة [٢] .

فمن خلال نماذج آثار التصوف المذكورة من انتشار الوثنية والشرك ، وتعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع ، وانتشار الأذكار والأدعية والصلوات المبتدعة تؤكد لـــنا ما قلنا سابقا من أن مصادر التصوف خليطة من مصادر مختلفة ، تحمل في ثناياها عقائد وأعمـــالا لا تـــتفق مع تعاليم ديننا الحنيف ، كما تبين لنا بوضوح أن المتصوفة تركوا آثارا

---

(١) التصوف بين الحق والخلق ص ١٦٦ .

(٢) انظر ك مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١١٤٩/٣ .

سـيئة على الأمة الإسلامية ، فلا بد أن ينتبه إليها المسلمون المخلصون الغيورون على دينهم وأمتهم ، وأن يقوموا بالرد عليهم والكشف عن بطلان معتقداتهم .

وأقـول : يجب على العلماء المتمسكين بالكتاب والسنة أن يقاوموا الزحف الصوفي بنشر العقيدة الصحيحة المأخوذة من الكتاب والسنة ، والقضاء على المظاهر التي تكون سببا في انتشـار الشرك والوثنية ، والبدع والغلو في الدين ، وترك السعي والعمل ، ويجب على أهل العلم أيضا أن يبينوا للناس تعاليم الإسلام السمحة ، ويوضحوا لهم بأن لا يتركوا الدنيا نهائيا ؛ بل عليهم أن يكدوا ويعملوا ما في وسعهم حتى يقدروا على مواجهة الدنيا بما فيها ، ولا يتركوها لأعداء الله ﷻ وأعداء الأمة الإسلامية .

الفصل الثاني

مراحل تطور التصوف حتى نهاية القرن الثالث الهجري

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

المبحث الثاني : خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

المبحث الثالث :ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

المبحث الرابع : أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

المبحث الأول

الزهد في المفهوم الشرعي وصلته بالتصوف

أولا : مفهوم الزهد لغة واصطلاحا

الـــزهد في اللغة : زَهِدَ فيه وعنه زُهْدًا وزهادةً : أعرض عنه ، وتركه لاحتقاره أو لتحرجه منه ، أو لقلته . وزَهُدَ في الشيء رغب عنه ، ويقال : زهد في الدنيا : ترك حلالها مخافة حسابه ، وترك حرامها مخافـــة عقابـــه .

وتَـــزَهَّدَ : صـــار زاهدا . والزاهد : هو العابد ، جمعه زُهَّدٌ وزُهَّـــادٌ . والزهادة في الشيء : خلاف الرغبة فيه ، والرضا باليسير مما يتعين حله ، وترك الزائد على ذلك لله تعالى ، وكذا الزهد بمعنى الزهادة [١] .

والزهد في الاصطلاح : قيل : هو بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة . وقيل : هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يـــدك [٢] .

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : " الزهد المشروع هو ترك الرغبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة ، وثقة القلب بما عند الله ، كما في الحديث الذي في الترمذي ، ليس الزهد في الدنيا بـــتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك [٣] ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لِكَيْلاَ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [٤] فهذا صفة القلب .

وأمـــا في الظاهـــر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك ، كما قال الإمام أحمد : إنما طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وصبر أيـــام قلائل " [٥] .

---

(١) القاموس المحيط، لفيروز آبادي ٣٠٨/١ ، ولسان العرب ، لابن منظور ١٩٦/٣-١٩٧ ، والمعجم الوسيط ، للدكتور إبراهيم أنيس وآخرون ٤٠٤/١ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١١٥ .

(٣) أخرجـــه الترمذي بلفظ آخر في كتاب الزهد ، بـــاب ما جاء في الزهـــادة في الدنيا ٥٧١/٤ (ح٢٣٤٠) وأورده الألباني في ضعيف الترمذي (٤٠٥) ، وفي ضعيف ابن ماجة (٨٩٣) .

(٤) سورة الحديد ، الآية (٢٣) .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦٤١/١٠- ٦٤٢ .

وقـــال ابـــن الجوزي : هو عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه، وشــــرط المـــرغوب عنه أن يكون مرغوبا بوجه من الوجوه ، فمن رغب عن شيء وليس مـــرغوبا فيه ولا مطلوبا في نفسه لم يُسَمَّ زاهدا ؛ كمن ترك التراب لا يسمى زاهدا ، وإنه ليـــس الـــزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء واستمالة القلوب فحسب ؛ بل الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفا سة الآخرة [1] .

وقال ابن القيم : " والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة ، وعلى هذا صنف المتقدمون كتبا [2] في الزهد " [3] .

ثانيا : أقسام الزهد ومراتبه وحكمه

لقد قسم الإمام ابن القيم الزهد – باعتبار مراتبه – فيقول : الزهد أقسام : زهد في الحـــرام وهـــو فرض عين . وزهد في الشبهات ، وهو بحسب مراتب الشبهة ، فإن قويت التحق بالواجب ، وإن ضعفت كان مستحبا . وزهد في الفضول ، وفيما لا يعنى من الكلام ، والـــنظر والســـؤال واللقاء وغيره . وزهد في النفس بحيث تهون عليه نفسه في الله ﷻ . وزهد جامع لذلك كله ، وهو الزهد فيما سوى الله ﷻ ، وفي كل ما يشغله عنه . وأفضل الزهد إخفاؤه ، وأصعبه الزهد في الحظوظ [4] .

وقسمه ابن القيم – مرة أخرى – باعتبار حكمه ، وخلاصته ما يلي :

فـــرض عـــلى كـــل مسلم ، وهو الزهد في الحرام ، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب.. . وزهد مستحب ، وهو على درجات في الاستحباب بحسب ا لمزهود فيه ؛ وهو الـــزهد في المكروه ، وفضول المباحات ، والتفنن في الشهوات المباحة . وزهد الداخلين في هذا الشأن ، وهم المشمرون إلى الله ﷻ وهو نوعان :

الـــنوع الأول : الزهد في الدنيا جملة ، وليس المراد تخليها من اليد ، ولا إخراجها ، وقعـــوده صفرا منها ؛ وإنما إخراجها من قلبه بالكلية ، فلا يلتفت إليها ، ولا يدعها تساكن قلـــبه وإن كانت في يده . فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك ، وإنما الزهد

---

(١) انظر : مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، تحقيق عبد الله الليث الأنصاري ، ط ١ بيروت ، (دار المعرفة ١٤٠٩هـــ) ص ٣٠٨ بتصرف .

(٢) كالزهد لعبد الله بن المبارك ، ولأحمد بن حنبل ، ولوكيع بن الجراح ، ولهناد بن السري ولغيرهم .

(٣) مدارج السالكين ١٥/٢ .

(٤) الفوائد لابن القيم ، تحقيق بشير محمد عون ، ط ١ دمشق (مكتبة دار البيان ١٤٠٧هـــ) ص ٢١٥ .

أن تتركها من قلبك وهي في يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين ، وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل ، مع أن خزائن الأموال تحت يده ، بل كحال سيد ولد آدم محمد ﷺ حين فتح الله ﷻ عليه من الدنيا ما فتح ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها [١] .

والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء :

أحدها : علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر ، وأنها كما قال الله ﷻ فيها : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُم وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٢] . وسماها ﷻ " متاع الغرور" ونهى عن الاغترار بها ، وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين ، وحذرنا عن مثل مصارعهم ، وذم من رضي بها واطمأن إليها . ثم قال ابن القيم : فما اغتر بها وسكن إليها إلا ذوهمة دنية ، وعقل حقير وقدر خسيس .

ثانيها : علمه أن وراءها دارا أعظم منها قدرا وأجل خطرا وهي دار البقاء ، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ : ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع)) [٣] . فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له : اطرحه فلك عوضه مائة دينار مثلا ، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض ، فالزهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهد فيها .

ثالثها : معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئا كتب له منها ، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها ، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ، فإنه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه فيها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعا ، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك ، فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها ، وتثبت قدمه في مقامه [٤] .

---

(١) انظر : طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم ، تحقيق أبو الزهراء حازم القاضي ط ١ ، مكة المكرمة (مكتبة نزار مصطفى الباز ١٤١٥هـ) ص٣٢٨-٣٣٠ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٢٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، ٢١٩٣/٤ (ح ٢٨٥٨) و ابن حبان ، ١٧٣/١٠ (ح ٤٣٣٠) .

(٤) مختصر من طريق الهجرتين ، ص ٣٣٠-٣٣١ .

والنوع الثاني : الزهد في نفسك — وهو نوع من زهد المشمرين في السير إلى الله ﷻ - ، وهو أصعب الأقسام وأشقها ، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا إليه ولم يلجوه ، فإن الزاهد يسـهل عـليه الـزهد في الحرام لسوء مغبته ، وقبح ثمرته ، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه .. ويسـهِّل عـليه الزهد في المكروهات ، وفضول المباحات لعلمه بما يفوته بإيثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم"[1] .

ثم بين ابن القيم بأن الزهد في النفس **نوعان** :

أحدهمـا : وسـيلة وبداية ، وهو أن تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء ، فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها ، قد سبّلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها فهـي أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها أو تجيبها إذا دعتك ، أو تكرمها إذا عصتك ، أو تغضب لها إذا ذُمت ، بل عندك أخس مما قيل فيها ..

والـنوع الـثاني : غاية وكمال ، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة ، بحيث لا يستبقى منها شـيئا ..[2] .

يقـول شـيخ الإسـلام ابن تيمية : " إن الاشتغال بفضول المباحات هو ضد الزهد المشروع ، فإن اشتغل بها عن فعل واجب أو فعل محرم كان عاصيا ، وإلا كان منقوصا عن درجة المقربين إلى درجة المقتصدين "[3] .

ولا شـك أن القارئ لو أمعن في النظر وتأمل في النصوص القرآنية المستفيضة لوجد أن القـرآن العظيم قد نهج وسلك طرقا عديدة في توجيهه وإرشاده للبشرية إلى الزهد وعدم الانهماك في هذه الحياة ، والإعداد للدار الآخرة .

فقـد صور الحياة الدنيا بزخرفها وسرعة فنائها ، وحذر منها كي لا يغتر الإنسان بها فقال ﷻ : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ ﴾[4]وقال ﷻ أيضا : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ

---

(١) طريق الهجرتين ، ص٣٣١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه ص ٣٣١- ٣٣٢ .

(٣) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢١/١٠ .

(٤) سورة لقمان ، الآية (٣٣) .

وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ [١] .

ووجه إلى عدم الانشغال بمتعها وزينتها فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [٢] لأن العمل الصالح خير من ذلك كله فقال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [٣] . والحياة الدنيا دار عمل وابتلاء واختبار فقال ﷻ : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [٤]. والدنيا تافهة بجوار الآخرة فقال ﷻ : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ [٥]

وأما عن بيان آثار الزهد في الدار الآخرة فقد صور القرآن الكريم الحياة في الجنة بما فيها من أنواع النعيم ، وجعل الجزاء الأوفى لمن استقام على الصراط المستقيم فقال ﷻ : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [٦] . ووصفها بصفة رائعة كقوله ﷻ : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِن خَمْرَةٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [٧]﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ [٨]ولهذا يدعى المسلمون بالدخول إلى الجنة فيقال لهم : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٩] .

وكما صور الجنة وأنواع النعيم والحياة فيها من باب الترغيب صور كذلك النار وخوف بها المعرضين عن ذكر الله المتولين عن هديه من باب الترهيب ، فقال ﷻ آمرا

---

(١) سورة الحديد ، الآية (٢٠) .

(٢) سورة المنافقون ، الآية (٩) .

(٣) سورة الكهف ، الآية (٤٦) .

(٤) سورة الملك ، الآية (٢) .

(٥) سورة الرعد ، الآية (٢٦) .

(٦) سورة ق ، الآيتان (٣١- ٣٢)

(٧) سورة محمد ، الآية (١٥) .

(٨) سورة الغاشية ، الآيات (١٣-١٦)

(٩) سورة الزخرف ، الآيتان (٧٠-٧١)

المؤمنين أن ينقذوا أنفسهم وأهليهم منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [١] . لأنها مثوى كثير من الجن والإنس قال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [٢] .

كما دعا القرآن الكريم إلى العبادة ، والتبتل ، وقيام الليل ، فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [٣] .

وامتدح القائمين العابدين فقال ﷻ : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [٤] . وقال ﷻ : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٥] .

ورفع القرآن الكريم من شأن العابدين الذاكرين ترغيبا لهم في العبادة ، والذكر المتواصل ، وحسن التوكل ، وتلاوة القرآن ، والإقتداء بالرسول ﷺ ، فقال ﷻ : ﴿ ..وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيمًا ﴾ [٦] . وقال ﷻ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٧] . ودعا الرسولَ ﷺ إلى الذكر والاستغفار فقال ﷻ : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ

---

(١) سورة التحريم ، الآية (٦)

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٧٩)

(٣) سورة المزمل ، الآيات (١-٨)

(٤) سورة الذاريات ، الآيتان (١٧-١٨)

(٥) سورة التوبة ، الآية (١١٢)

(٦) سورة الأحزاب ، الآية (٣٥)

(٧) سورة آل عمران ، الآية (١٩١)

هَــواهُ وَكَــانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [١] . والذكر طمأنينة للقلب وعلاج ، ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُــلُوبُ ﴾ [٢] . ﴿ وَمَــن يَعْــمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِــدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [٣] . وفي حسن التوكل قال الله ﷻ : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [٤] .

أمــا الأحاديث الواردة في الزهد فكثيرة أيضا ، حيث كانت حياة الرسول ﷺ مثلا حيــا وصورة مطابقة للقرآن الكريم ، فكان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد وما تيسر لــه ، ولقــد شــهده عمر بن الخطاب ﷺ يضطجع على حصير أثر في جنبه ، فعرض عليه أن يتخذ لــه وطاءً ، فقال لــه ﷺ : ((مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شــجرة ثم راح وتــركها)) [٥] . وكان ﷺ يطوي الأيام الطوال دون أن يوقد في بيته نار ، فكان طعامه التمر والماء [٦] ، وخرج من الدنيا- ﷺ - ولم يشبع من خبز الشعير [٧] .

وتتجــلى دعوتــه ﷺ إلى الزهد في أحاديثه الشريفة التي تلتقي في منهجها بالقرآن الكــريم .

فهو- ﷺ - يصور ضآلة الدنيا وتفاهتها ، ويدعو إلى عدم الانهماك بها ، فهي ليست دار قرار إذ ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)) [٨] . وهي شيء قليل جدا في الآخرة ، فيقول ﷺ موضحا لذلك : ((ما الدنيا في الآخرة إلا

---

(١) سورة الكهف ، الآية (٢٨)

(٢) سورة الرعد ، الآية (٢٨)

(٣) سورة النساء ، الآية (١١٠)

(٤) سورة التغابن ، الآية (١٣)

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في أخذ المال ٤/ ٥٨٨ (ح ٢٣٧٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٨) ، وصحيح الترمذي له (١٩٣٦) .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الزهد والرقائق ، ٢٢٨٢/٤ (٢٩٧٢) .

(٧) أخرجــه البخاري مع الفتح ، في كتاب الأطعمة ، بــاب ما كان النبي ﷺ وأصحابه يأكلون ، ٦٨٩/١٠ (ح ٥٤١٤) . ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٨٢/٤ (ح ٢٩٧٠) .

(٨) أخرجــه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ ٥٦٠/٤ (٢٣٢٠) . وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦٨٦) و (٩٤٣) ، وصحيح الترمذي له (١٨٨٩) .

مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع)) [١] ، وأن ((الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما والاه ، وعالم أومتعلم)) [٢] .

ويصور ﷺ أوصافا للجنة للترغيب فيها ، و الإعداد لها ، كما يرويه النبي ﷺ عن ربه ﷻ : ((قال الله : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر..)) [٣] . وهي حياة خالدة لا موت فيها ، وصحة وشباب ونعمة ، لا سقم ولا هرم ولا بأس معها قط ، إذ ينادي المنادي يا أهل الجنة ((أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا)) [٤] .

ويصف النار- كذلك - للتخويف منها فيقول ﷺ : ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجروها)) [٥] . ويوضح ﷺ حال المعذبين فيقول : ((منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته)) [٦] ويقول أيضا : ((وإن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان [٧] من نار يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهوهم عذابا)) [٨] .

أما إذا انتقلنا إلى أحوال الجيل الأول من المسلمين فلقد رأينا فيهم انعكاس تعاليم القرآن العظيم ، وأقوال الرسول الكريم ﷺ وحياته ، فكانوا - في الحقيقة - صورة مشرقة للحياة الإسلامية المثالية في ابتغائهم الدار الآخرة ، مع قيامهم بأمور الحياة الدنيوية .

---

(١) سبق تخريجه ص ٦٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد ، ٥٦١/٤ (ح ٢٣٢٢) وقال : هذا حديث حسن غريب . وابن ماجة (٤١١٢) ، وأورده الألباني في صحيح الترمذي (١٨٩١) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب بدء الخلق ، باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، ٤٦٥/٦ (ح ٣٢٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في صفات الجنة ، ٢١٨٢/٤ (ح ٢٨٣٧) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم ٢١٨٢/٤ (ح ٢٨٤٢) ، والترمذي في كتاب صفة جهنم ، باب ما جاء في صفة النار ٦٠٤/٤ (ح ٢٥٧٣)

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم .. ٢١٨٥/٤ (ح ٢٨٤٥) .

(٧) الشراك : أحد سيور النعل ، وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم .

(٨) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب أهون أهل النار عذابا ١٩٦/١ (ح٢١٣) .

فهـــذا الخـــليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ كان غنيا ، فاستعمل ماله في سبيل نشر الإســـلام ، وحـــين توفي – ﷺ – لم يبق على غناه درهم واحد [(١)] ، لأنه أمر أن يرد ما عـــنده إلى بيت مال المسلمين ، وقد أدهش عمر بن الخطاب – ﷺ – تشدد الصديق على نفسه والتزامه بالمنهج الدقيق ، وخاصة وأنه كان ضمن ما رده إلى بيت المال عند موته قطعة من القطيفة ، التي لا تساوى خمسة دراهم فقال عمر ﷺ : "رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعـــده ، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده " [(٢)] .

فـــأبو بكر الصديق – ﷺ – خير من فهم وطبق الزهد ، حيث كان ثريا فاستخدم ثـــرواته في ســـبيل إعزاز دين الله ، وكان معروفا بالتجارة فأخذ ينفق منها [(٣)] ، وحين ولى الخلافة أراد الاستمرار في كسب المعيشة عن طريق التجارة لإطعام عياله [(٤)] ، حتى نهاه عمر ابـــن الخطـــاب وأبو عبيدة بن الجراح – رضي الله عنهما – عن مزاولة تجارته لتوليته أمر المســـلمين " وفرضوا لـــه في كل سنة ستة آلاف درهـم " [(٥)] . ولما جاء إليه زعماء العرب ومـــلوك الـــيمن " وعـــليهم الحلل ، وبرد الوشي المثقل بالذهب ، والتيجان والحبرة ، فلما شـــاهدوا مـــا عليه من اللباس والزهد والتواضع وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم " [(٦)] .

وأمـــا الخـــليفة الثاني عمر بن الخطاب – ﷺ – فقد ضرب المثل الأعلى في العدل ، وكـــانت حياتـــه على الكفاف ، وعرف بخشونة طعامه ، حتى إنه كان يأبى أن يأكل لحما بســـمن ، ولا أن يشرب عسلا ، ولا أن يجمع إدامين ، وكان له ثوب واحد فيه اثنتا عشرة رقعة ، وكان يغسله بيده [(٧)] . ولم يستحل لنفسه من بيت مال المسلمين إلا بقدر الحاجة ، بالـــرغم مـــن اتساع رقعة بلاد الإسلام في عهده ، وما تبعه من وفرة الغنائم ، وكان يحذر

---

(١) انظر : الطبقات ا لكبرى لابن سعد ، ٢١٣/٣ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ، ط٢ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٤ هــ) ص١٣٧ ، و ا لطبقات الكبرى ٣ /١٩٦ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى ١٨٤/٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ١٨٤/٣- ١٨٥ .

(٥) تاريخ الطبري ، أبو جعفر الطبري ، ط٢ القاهرة ، دار المعارف ٥٤/٣ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٥ بيروت (دار الفكر ١٣٩٣ هــ) ٣٠٥/٢ .

(٧) انظر : الطبقات الكبرى ٣١٣/٣، ٣٢٨ ، وصفة الصفوة لابن الجوزي ، طبعة الهند (١٣٨٨هــ) ١٠٨/١

المسلمين من ارتداء زي الأعاجم والتشبه بهم في النعيم ، فلم يكن الزهد عنده - رضي الله عنه - مجرد سلوك عملي فحسب ؛ بل يشمل النظرة والتأمل في أمور الدنيا والآخرة حيث يقول : " نظرت في هذا الأمر فجعلت إذا أردت الدنيا أضررت بالآخرة ، وإذا أردت الآخرة أضررت بالدنيا " [(١)] .

وكان يصاحبه الخوف الشديد من ربه عز وجل ، حتى يتمنى أنه لم يولد وأنه كان نسيا منسيا [(٢)] ، فقد كان يخاطره هذا الشعور فمنعه النوم لأنه لو نام بالنهار لخيل إليه أنه سيضيع الرعية ، وإن نام بالليل أضاع نفسه عن الصلاة [(٣)] ، وكان يحب الصلاة في جوف الليل ، وحاسب نفسه في الدنيا قبل محاسبتها يوم القيامة .

والخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه -كذلك يأكل على غناه الخل والزيت ، ويطعم الناس طعام الإمارة ، وشهده الحسن يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، ويقوم وأثر الحصباء في جنبه ، وهو يقبل على العبادة قانتا آناء الليل خائفا من المصير في الدار الآخرة ، راجيا رحمة الله ورضاه ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [(٤)] . وقد فسر ابن عمر بأن المقصود بهذه الآية هو عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وأرضاه [(٥)] .

أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فزاهد - أيضا - في الدنيا ، مقبل على الآخرة وقد قال : " ألا إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد دنت مقبلة ، ولهذه أبناء ، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، أ لا وكونوا من الزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة .." [(٦)] . ووصف الدنيا أيضا بأنها " دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود ، فيها مسجد أحباء الله ، ومهبط وحيه ، ومصلى ملائكته .." [(٧)] . وقال أيضا : " إن أخوف ما أخاف عليكم اثنين طول

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل ص١٥٥- ١٥٦ .

(٢) صفة الصفوة ١/١٠٩ .

(٣) انظر : الزهد لأحمد بن حنبل ص١٥٢ .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٩)

(٥) صفة الصفوة ١/١١٦ .

(٦) مروج الذهب للمسعودي ٢/٤٣٢ .

(٧) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٢٢ .

الأمـــل واتـــباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسى الآخـــرة ، وأما اتباع الهوى فيصـــد عن الحق " [١] . ولكنه – ﷺ – لم يأمر بالانقطاع والعزلة ، وحياة الرهبنة ، لأنه هو القدوة في ميدان الشجاعة والفروسية ، وقد كان الرسول ﷺ يبعثه ويعطيه الراية فلا ينصرف حتى يفتح لـــه [٢] .

وحذيفـــة بن اليمان – ﷺ – كان يكتفي بما هو ضروري من مطالب الدنيا دون أن يهجـــرها ، وقـــد قال : " ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكـــن خيركـــم الذين يتناولون من كل منهما " [٣] وهو مع حضه على أخذ النصيب من الدنيـــا كـــان يخاف الميل إلى الهوى والشهوات ، لأنها لذات آنية تعقبها الآلام في المستقبل القريب ، وكان يقول في ذلك محذراً الراغبين في الشهوات : " كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزنا طويلا " [٤] .

وأبـــو الدرداء – ﷺ – كتب إلى بعض إخوانه فقال أما بعد : " فإني أوصيك بتقوى الله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة فيما عند الله ، فإنك إن فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده ، وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم والسلام " [٥] .

فالصحابة – رضوان الله عليهم- كانوا في الحقيقة مجاهدين في سبيل الله ﷻ ، أقبلت عـــليهم الدنيا فلم يغتروا بها ؛ بل زهدوا فيها ، واجتهدوا في العبادة والتقرب إلى الله ﷻ ، راغـــبين في فضله وجنته ، فقد اتصل زهدهم بتوجيه من رسول الله ﷺ ، وخاصة أنه – ﷺ – كـــان يعيـــش بـــين ظهرانيهم ، وهو يحثهم على الزهد ، كما ورد عن سهل بن سعد الســـاعدي – ﷺ – قال : أتى النبي – ﷺ – رجل فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا أنـــا عملـــته أحبني الله وأحبني الناس ، فقال رسول الله ﷺ : ((ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبوك)) [٦] .

---

(١) حلية الأولياء ١/١١٧ .

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل ص ١٦٦ .

(٣) سبق تخريجه في ص ٣٣ .

(٤) اللمع للطوسي ص١٨٩ .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي ٧/٣٨١ .

(٦) رواه ابن ماجة في باب الزهد في الدنيا ، (ح ٤١٠٢) وصححه الألباني ، صحيح ابن ماجة (٣٣١٠)

وعـــن ابن مسعود – ﷺ – أن رسول الله ﷺ قال : ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة)) (١) .

وعـــن عمـــرو بـــن عوف الأنصاري – ﷺ – أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح ﷺ إلى البحرين يأتي بجزيتها ، وكان رسول الله – ﷺ – هو صالح أهل البحرين ، وأمّـــر عـــليهم العلاء بن الحضرمي ، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدومه ، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله – ﷺ – ، فلما انصرف تعرضوا له ، فتبسم رسول الله – ﷺ – حين رآهم وقال : ((أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة ، وأنه جاء بشيء ، قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكـــن أخشـــى عـــليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم)) (٢) .

ولا شك أن مثل هذه التوجيهات لهي من الدوافع القوية التي دفعت الزهاد والصوفية المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين إلى الزهد في الدنيا ، والعمل من أجل الآخرة .

فهذا الزاهد الحسن البصري (ت ١١٠هـ) قال لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : " .. إن رأس ما هو مصلِحُك ، ومصلَحٌ به على يدك الزهد في الدنيا " (٣) . وأوضح بأن الـــزهد في الدنيـــا ليس بتحريم الحلال ، وإضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق مـــنك بمـــا في يـــدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إن أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك (٤) .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في باب زيارة القبور، (ح١٥٧٠) واللفظ له ، وفي الزوائد إسناده حسن . وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (١٥٩٣) ، وفي مشكاة المصابيح (١٧٦٩) ، وأحكام الجنائز (١٨٠) ثم قال : وقد صح في أحاديث أخر دون جملة التزهيد ، انظر : " الصحيح " برقم (٤٨ ــ باب) .

(٢) أخرجـــه البخـــاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ٢١/١٣ واللفظ لـــه (ح٦٤٢٥) . ومسلم في كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٣/٤ (ح٢٩٦١) .

(٣) سيرة عمر بن عبدالعزيز ، لابن الجوزي ، طبعة بيروت ، دار الفكر ص١٢٤ .

(٤) مدارج السالكين ١٦/٢ ، وبصائر ذوي التمييز ١٤٠/٣ .

وبـــين ســـفيان الثوري (ت ١٦١هـــ) الزهد في الدنيا بأنه " الزهد في الناس وأوله زهدك في نفسك " ، وفسره أيضا بقصر الأمل ، بمعنى أن يكف الإنسان نفسه عن الخوض في مشاغل الدنيا والاستغناء عنها . وسئل أيضا عن الزهد فقال بأنه سقوط المترلة [١] .

وقـــال عبد الله بن المبارك [٢] (ت ١٨١هـــ) : الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر ، وقيل للفضيل بن عياض [٣] (ت ١٨٧هـــ) :ما الزهد ؟ قال : القنع وهو الغنى [٤].

وقال علي بن فضيل بن عياض (ت ١٨٦هـــ) سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلْغَة ؟ ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيـــف ذا ؟ قـــال ابن المبارك : يا أبا علي إنما أفعل لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأســتعين به على طاعة ربي ، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، فقال لـــه الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا " [٥] .

وأمـــا عـــند سفيان بن عيينة [٦] (ت ١٩٨هـــ) فالزهـــد هو " الصـــبر وارتقاب المـــوت " [٧] . ويفصل المعنى فيجعله فضلا عن الصبر وشكرا ، ويقول حين سئل عن الزهد في الدنيا : " من أنعم الله عليـــه نعمة فشكرها ، وابتلي بلية فصبر ، فذلـــك الزهد " [٨] . ويوضـــح معنى الزهد أيضا فيقول : الزهد فيما حرم الله ، فأما ما أحل الله فقد أبان حكمه الله ، فـــإن النـــبيين قـــد نكحوا وركبوا وأكلوا ، ولكن الله نهاهم عن شيء فانتهوا عنه ، وكـــانوا بـــه زهادا . فالزاهد مَن جانب الحرام وأخذ من حلال هذه الدنيا ومباحه ، لكن

---

(١) حلية الأولياء ١٦/٧ .

(٢) هو عبد الله بن المبارك بن واضح ، شيخ الإســـلام ، عالم زمانه ، و أمير الأتقياء في وقته ، أبو عبد الرحمن الحنظلي، مولاهم التركي ، ثم المروزي ، الحافظ الغازي . انظر : سير أعلام ٣٧٨/٨- ٣٧٩ .

(٣) هو أبو علي ، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر ، الإمام القدوة الثبت ، من كبار العباد الصالحين ، مات بمكة المكرمة .. انظر : سير أعلام ٤٢١/٨- ٤٢٢ .

(٤) حلية الأولياء ٩٤/٨ .

(٥) تاريخ بغداد ١٦٠/١٠ .

(٦) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون ، الإمام الكبير حافظ العصر ، أبو محمد الهلالي الكوفي ، ثم المكي (ت ١٩٨هـــ) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٥٤/٨ ، وحلية الأولياء ٣٢٠/٧ .

(٧) حلية الأولياء ٣٢٢/٧ .

(٨) المصدر السابق ٣٢٢/٧ .

يوسف بن أسباط [1] لا يرى من انقطع عن الحرام زاهدا ، ويرى فيما أحل الله لأن ما حرم الله يعذب مرتكبه [2] .

ورأى أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ) أن الزهد معان مجتمعة رآها البعض متفرقة فيقول : " اختلفوا علينا في الزهد بالعراق ، فمنهم من قال : الزهد في ترك لقاء الناس ، ومنهم من قال : في ترك الشهوات ، ومنهم من قال : في ترك الشبع ، وكلامهم قريب بعضه من بعض ، وأنا أذهب إلى أن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله " [3] . ولكنه بين بأن الزاهد حقا لايذم الدنيا ، ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ، ولا يفرح إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت [4] . وليس من ألقى غم الدنيا واستراح منها .. وإنما الزاهد من ألقى غمها وتعب فيها لآخرته .

وقال الجنيد (ت ٢٩٧هـ) : سمعت سريا يقول : إن الله ﷻ سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم ، وقال: الزهد في قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [5] . فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ، ولا يأسف منها على مفقود . وحينما سأل رويم بن أحمد الجنيد عن الزهد ؟ فقال : استصغار الدنيا ، ومحو آثارها من القلب [6] .

ومن خلال التعريفات اللغوية السابقة ، ونصوص الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبعض المواقف من الصحابة ، وأقوال الأعلام الزهاد والصوفية اتضح لنا بأن الزهد عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه ، أو أن يترك للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة ، أو إيثار الحياة الأخروية الباقية على الحياة الدنيا الزائلة .

---

(١) يوسف بن أسباط ، الزاهد من سادات المشايخ ، له مواعظ وحكم ، ودفن كتبه ، وهو يغلط كثيرا وهو رجل صالح لا يحتج بحديثه (ت ١٩٥ هـ) انظر : الجرح والتعديل ٢١٨/٩ و سير أعلام النبلاء ١٦٩/٩ وحلية الأولياء ٢٦٠/٨ .

(٢) حلية الأولياء ٢٦٠/٨ .

(٣) حلية الأولياء ٢٥٩/٩ ، ومدارج السالكين ١٣/٢ .

(٤) كتاب الزهد الكبير، للبيهقي ، تحقيق د. تقي الدين الندوي، ط٢ الكويت (دار القلم ١٤٠٣هـ) ص ٨٧

(٥) سورة الحديد ، الآية (٢٣)

(٦) مدارج السالكين ١٣/٢ .

وباتصاف الإنسان بهذه الصفة فإنه يستطيع العيش في هذه الحياة آخذاً منها نصيبه ، بقدر زاد الراكب الغريب في هذه الحياة ، فيتقلل في ملذاتها وشهواتها ، ولا يغتر بمباهجها ومفاتنها ، ويتوكل على الحي القيوم ، ويخافه ويرجوه ، لينال المثوبة والأجر من عند الله الحليم الكريم ، كما بدا ذلك من تعريفات أعلام الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين بأن مفهوم الزهد يدور حول معنى الاتجاه إلى الله ﷻ ، وعدم الانشغال بالدنيا ، والانقطاع عن الشهوات ، واعتزال الناس ، والقناعة والشكر على النعمة .

وظهر أيضا أن الزهد يكون في الشيء الموجود مع الوسع ، والتمكن من الحصول عليه ، ذلك أن الفقير لا يستطيع أن يزهد في المال ، ويتقلل فيه لأنه لا يجده ، وهكذا العاجز عن ارتكاب محرم لأسباب لا يقال زاهدا في هذا الحرام ؛ بل الذي تجنبه مع القدرة عليه ينطبق عليه وصف الزاهد .

فالزهد ليس معناه ترك الكسب والاكتساب ، ولا ترك الأسباب وعدم الأخذ بها، والفرار من المسئولية ، لأن الإسلام يعتني بالحياة الدنيا اعتناء مناسبا لإبقاء المصلحة الفردية والجماعية ، فيحث المسلم على الأخذ بنصيبه من الدنيا ، قال الله ﷻ : ﴿ وَابْتَغِ فِيماَ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مَنَ الدُّنياَ ﴾ [١] . وقال النبي ﷺ لرجل رآه كثَّ الهيئة ((إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده حسنا)) [٢] .

ونهى الرسول ﷺ سعد بن أبي وقاص أن يتصدق بماله كله أو بعضه ، وأقره على الثلث وقال : ((والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)) [٣] . وفي هذا الحديث حث على الكسب والمحافظة على المال .

كما ورد أن كعب بن مالك قال للنبي ﷺ في توبته يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، فقال نبي الرحمة ﷺ : ((أمسك بعض مالك فهو خير لك)) [٤] ، وورد أيضا قوله ﷺ : ((نعم المال الصالح للمرء الصالح)) [٥] .

---

[١] سورة القصص ، الآية (٧٧)

[٢] أخرجه وكيع في كتابه الزهد ، باب الأثر الحسن ٤٤٧/٢ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٣١/١

[٣] أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الوصايا ، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ٦/ ١٢ (ح٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية ، باب الوصية بالثلث ١٢٥/٣ (ح ٢٢١٥) .

[٤] أخرجه البخاري مع الفتح، في كتاب الوصايا ، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله ٤٠/٦ (ح٢٧٥٧) .

[٥] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٩٧/٤ . قال الحاكم في المستدرك ٢/٢ " صحيح على شرط مسلم " .

نفهم من ذلك أن الزهـد الصحيح ليس معناه هجر المال والعيال ، وتعذيب النفس والبدن بالسهر الطويل والجوع الشديد ..وإنما يراد منه التوسط فلا إفراط ولا تفريط . وقد كـان الناس في عهد النبوة على هذا الفهم الصحيح من الزهد ، وكانوا – بعد أن غرست العقيـدة الصـحيحة في قلوبهم – يخوضون في معترك الحياة ، مؤدين ما وجبت عليهم من حقوق الله ﷻ وحقوق الآدميين من عبادة وصلاة وزكاة وصوم وحج ، ومن تجارة وصناعة ، ونكـاح وعشـرة وحسن معاملة ، وغير ذلك مما أحل الله ﷻ فعله في هذه الحياة ، وفي الوقـت نفسـه كـانوا يعالجون قضاياهم باعتدال واتزان ، وبمزيد من الحيوية والنشاط ، وبالعمل الدائب المتواصل في جميع الميادين ، راجين وراءه حسن العاقبة ومرضاة الله ﷻ .

وقـد كان زهد الصحابة والتابعين – كما قلنا – على هذا النمط نابعا من العقيدة السـليمة ، والفهم الصحيح للدين وقضاياه ، وبقوا على هذه العقيدة الصافية من كل شائبة ، ونهجوا على السلوك المستقيم ...

ثم حـدث الانحراف في مفهوم الزهد حينما أشار بعض الأعلام الصوفية في القرنين الـثاني والـثالث الهجريين إلى أن الزهد هو الابتعاد عن الدنيا كلية ، وعدم الاهتمام بها ، ودعـوا الناس إلى تعذيب أنفسهم بالجوع والعري والأعمال الشاقة الزائدة ، ومدحوا الفقر ودعوا إليه ، واعتبروا أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى درجة الولاية إلا إذا تجرد عن الملكية نهائيـا حتى يصبح فقيرا ؛ بل حتى يعذب نفسه بشتى ألوان العذاب في هذه الحياة ، ويحرمها من كل أنواع الطيبات التي أحلها الله ﷻ لعباده .

ويتجلى هذا الانحراف في مفهوم الزهد من خلال بعض عباراتهم وتعريفاتهم ...

يقـول إبراهـيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) وهو يتحدث عن العقبات التي يجب أن يجتازها كل مريد صوفي ، إذا أراد الوصول إلى ولاية الله ﷻ :

" لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجتاز ست عقبات وهي :

أولهـا : أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة ، والثاني : أن يغلق باب العز ويفتح بـاب الـذل ، والثالث : أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد ، والرابع : أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامس : أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادس : أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت " [١] .

---

(١) الرسالة القشيرية ص٣٩٢ ، وطبقات الصوفية ص ٣٨ .

ويقــول داود الطــائي [١] (ت ١٦٥هــــ) : " صم عن الدنيا واجعل فطرك على الموت، وفر عن الناس فرارك من السبع " [٢] .

إذا نظرنا في النصين السابقين نرى بوضوح أن إبراهيم بن أدهم دعا لكل من يريد أن يصـــل إلى مرتـــبة ولاية الله ﷻ أن يقوم بالمجاهدة الشاقة ، التي تقوم على ترك النعمة التي أباحهـــا الله ﷻ وأحـــلها لعباده ، واعتماد الشدة ، والتخلي عن العز واتباع الذل ، وهجر الراحة إلى الجهد ، والنوم إلى السهر ، والركض وراء الفقر ، ونبذ الأمل والاستعداد للموت ، فهـــي حالات خطيرة ، لو مارسها الإنسان – فعلا – لأذهبت بصيرته ، وخذلت نفسه ، وطمست على عقله ، فلا يألف عيشا سويا ، ولا يعرف حياة طبيعية .

ولا شك أن هذا العمل مخالف لتعاليم الإسلام ، لأن ديننا الحنيف لم يأمرنا بتعذيب أنفسنا ، ولا أن نذلها ونفقرها ؛ بل بالعكس حيث أمرنا أن نهتم بهذا الجسد وأن نعتني به ، لكـــي يصير جسدا صحيحا معافى ، ويقوم بوظائفه على ما يرضيه الله ﷻ في هذه الحياة ، وقـــد بين الله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ الأمور التي إذا فعلها الإنسان يكون وليا من أولياء الله ﷻ وهو اتباع سنة رسول الله ﷺ .

وكذلـــك إذا تأملـــنا في النص الثاني نجد أن داود الطائي قد تكلم بأمور لم يأمر بها الإسلام ، لأن ديننا الحنيف أباح الأكل من الطيبات في هذه المعمورة ، ولم يحث الناس على أن يجعـــل فطره الموت ، ولم يحض أيضا على الفرار من الناس والهروب منهم والابتعاد عنهم كـــلية ؛ بـــل أمر بمخالطة الناس ودعوتهم إلى الخير والهدى إن كانوا غير مسلمين ، وحتى يفهموا أمور دينهم فهما صحيحا ، ويكونوا على علم وبصيرة إن كانوا مسلمين .

ويقـــول السري السقطي (ت ٢٥٣هــ) : " الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيـــا ، ويجمع هذه الحظوظ المالية والجاهية ، وحب المنزلة عند الناس ، وحب المحمدة والثناء " [٣] .

---

(١) هو الإمام الفقيه ، القدوة الزاهد ، أبو سليمان ، داود بن نصير الطائي الكوفي ، كان كبير الشأن وقد ورث عشرين دينارا ، فأنفقها في عشرين سنة . انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٢، وسير أعلام ٤٢٢/٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٣ .

(٣) عوارف المعارف ، ص ٢٣٣ .

ويقـــول أبـــو حفص [١] (ت ٢٧٠هـــ) : " الزهـــد لا يكون إلا في الحلال ، ولا حلال في الدنيا فلا زهـــد " [٢] .

ويقول الجنيد : " الزهـــد هو خلو اليد من الملك والقلب من التتبع " [٣] .

وأمـــا أبوعثمان [٤] (ت ٢٩٨هـــ) فيقول : " الزهـــد أن تترك الدنيا ، ثم لا تبالي بمن أخـــذهـــا " [٥] .

فمن خـــلال النصوص السابقة نلاحظ على أن مفهوم الزهد – عند هؤلاء الأعلام – قـــد يؤدي إلى ترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية ، بحيث يمنع أن يهتم الإنسان بشؤون دنيـــاه ولـــو بقـــدر ما يسده به رمقه ، وأن الزهـــد الحقيقي – عندهم – هو ترك القيام بالأســـباب وإخـــلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان حتى يصير فقـــيرا ، كما أن ادعاء بعضـــهم بأنـــه لا يوجد أي زهد ، وذلك لأنه لا يوجد شيء حلال في هذه الدنيا حسب زعمه . وهذا مناقض للقرآن الكريم لأن الله ﷻ أمرنا أن نأكل من الطيبات فقال ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٦]. وقال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [٧] .

ويقـــول الجـــنيد في نص آخر : " أحب للمريد أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حالـــه " . ويقـــول أيضا : " ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات " [٨] .

إذا نظـــرنا في النصـــين السابقين نجد أن شيخ الطائفة حث على المريد الذي يريد أن يصل إلى مرتبة القرب من الله ﷻ أن يبتعد عن القيام بأي عمل يحصل من ورائه على رزقه الـــذي قسمه الله ، وحذره بأنه لو فعل ذلك ليؤدى به إلى تغير حاله إلى حال غير مرضية ،

---

(١) هو عمرو بن سلم ، وقيل : عمر ، وقيل : عمرو بن سلمة ، النيسابوري الزاهد . سير أعلام ١٢/٥١٠ .

(٢) الرسالة القشيرية ، ص ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) هـــو ســـعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري ، صحب شاه الكرماني ، ويحي الرازي ، ثم رحل إلى نيسابور إلى أبي حفص ، وصحبه وأخذ عنه طريقته . طبقات الصوفية ص١٧٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٦) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٧) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٨) الرسالة القشيرية ، ص ٤٣٠ ، وطبقات الصوفية ، ص ١٥٨ .

وهــذا مــا تعــتقده المتصوفة بأن القيام بالعمل في هذه الدنيا يدل على نقصان إيمان العبد وتوكله على الله ﷻ . وهذا — بلا شك — فهم خاطئ منهم ، لأن الرسول ﷺ والصحابة الكــرام كــانوا متوكــلين على الله ﷻ ، و لم نجد لأحد منهم الدعوة إلى ترك العمل ؛ بل الرسول ﷺ دعا إلى ذلك وكذلك أصحابه — رضوان الله عليهم - .

وقــد انحــرف بعض الصوفية أيضا في القرن الثالث الهجري في مفهوم الفقر ، حيث دعوا إلى ذلك ومدحوه ، ويظهر ذلك من خلال أقوالهم وعباراتهم .

فهذا الجنيد لما سئل عن الزهد فقال : " الزهد هو تخلي الأيدي من الأملاك ، وتخلي القلوب من الطمع " [١] .

وقــال رويم بن أحمد (ت ٣٠٣هــ) حين سئل عن الزهد ماهو ؟ قال : " هو ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا " [٢] .

وقــال يحي بن معاذ [٣] (ت ٢٥٨هــ) : " الدنيا كالعروس ومن يطلقها ماشطتها، والــزاهد فيهــا يسخم وجهها ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها ، والزهد يقتضي معانقة الفقر واختياره " [٤] .

وذكــر عن أبي يزيد البسطامي أنه سئل بأي شيء نلقى هذه المعرفة ؟ فقــال : " ببطن جائع وبدن عار " [٥] .

ولا شــك لــو عرضنا مفهوم الصوفية هذا للزهد على الكتاب والسنة لنجده مجانبا للصــواب ، ومخالفا لتوجيهات ديننا الحنيف الذي يحث على الكسب الحلال ، ويبيح ادخار الشــيء الضروري للقوت ، وينهى عن تعذيب النفس وتكليفها ما لا تطيقه ، ويأمر بلبس اللــباس الجميــل ، وينهى عن العري وحرمان النفس مما أحل الله ﷻ ، وتعذيبها بالتجويع حتى تضعف عن القيام بواجباتها الدينية والدنيوية ، فهذه الطريقة مناقضة للمنهج الذي جاء

---

(١) اللمع للطوسي ، ص ٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٣) هو يحي بن معاذ بن جعفر الرازي ، له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة . انظر : طبقات الصوفية ص١٠٧

(٤) المصدر نفسه ، ص ٧٣ .

(٥) الرسالة القشيرية ، ص ٣١٤ .

بـــه الرسول الأمين ﷺ ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (١) .

ولقـــد روى أنس بن مالك – ﷺ – : أنه جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا ، وقال الآخر : أنـــا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله ﷺ فقال : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم لـــه ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)) (٢) .

وأمـــا فهمهم بأن الزهد الحقيقي هو ترك الكسب والادخار والتخلي عن المال ففهم يتصادم مع نصوص الكتاب والسنة التي تأمر بالسعي في مناكب الأرض ، وادخار ما يكفي الإنسان لمعاشه ، والمحافظة على المال مع إخراج الحق منه ، قال ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُـــولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (٣) وقـــال ﷻ أيضا : ﴿ فَـــإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) . وأخبرنا الرسول ﷺ بأن خير الطعام هو الذي يأكله الإنسان من عمل يده فقال : ((ما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود ﷺ كان يـــأكل من عمل يده)) (٥) . وبين الرسول ﷺ أن الإكثار من المال الحلال ليس منهيا عنه ، بـــل هو أمر مباح ، حيث دعا الرسول ﷺ لأنس بن مالك ﷺ بأن يكثر الله ماله وولده ، ويبارك له فيه ، فقال ﷺ : ((اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته)) (٦) .

وقال ابن الجوزي – رحمه الله – في معرض رده على المتصوفة بعد أن ذكر جملة من الأحـــاديث الـــتي تدل على أن التجرد من المال كلية ليس مما أمر به الإسلام ، وأن الإنسان لـــه أن يمسك ما يكفيه وعياله قائلا :

---

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣ – ٤) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٣) سورة الملك ، الآية (١٥)

(٤) سورة الجمعة ، الآية (١٠)

(٥) سبق تخريجه في ص ١٧ .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أنس بن ملك ﷺ ١٩٢٨/٤ (٢٤٨٠)

" فهذه الأحاديث مخرجة في الصحاح ، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوفة من أن إكثار المال حجاب وعقوبة ، وأن حبسه ينافي التوكل ..."

ثم قال – رحمه الله – : " فأما كسب المال فإن اقتصر على كسب البلغة من حلها فذلك أمر لا بد منه ، وأما من قصد جمعه والإكثار منه من الحلال نظرنا في مقصوده ، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته وادخر لحوادث الزمان وقصد التوسعة على الإخوان وإعفاء الفقراء وفعل المصالح أثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات ، وقد كان نيات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين في جمع المال سليمة لحسن مقاصدهم لجمعه ، فحرصوا عليه وسألوا زيادته ...، وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه : ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ [١] مال إلى هذا وأرسل ابنه بنيامين معهم ، وأن شعيبا عليه السلام طمع في زيادة ما يناله فقال : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ﴾ [٢] ، وأن أيوب عليه السلام لما عوفي نثر عليه رجل جراد من ذهب فأخذ يحثو في ثوبه ويستكثر منه فقيل له : أما شبعت ؟ قال : يا رب من يشبع من فضلك ، وهذا أمر مركوز في الطباع ، فإذا قصد به الخير كان خيرا محضا " [٣] .

وقال ابن الجوزي أيضا منتقدا المفهوم الخاطئ للزهد على بعض الصوفية المتقدمين : " كان إبليس يلبس على أوائل الصوفية لصدقهم في الزهد فيريهم عيب المال ، ويخوفهم من شره ، فيتجردون من الأموال ويجلسون على بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم حسنة صالحة ، وأفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم ، فأما الآن فقد كفى إبليس هذه المؤونة فإن أحدهم إن كان له مال أنفقه تبذيرا وضياعا ... وهذا الفعل لا ألوم صاحبه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادخرها لنفسه ، وإن كانت له صناعة يستغني بها عن الناس أو كان المال عن شبهة فتصدق به ، فأما إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس وأفقر عياله فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو أن يأخذ من أرباب الظلم والشبهات فهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه ، ولست أتعجب من المتزهدين الذين فعلوا

---

(١) سورة يوسف ، الآية (٦٥)

(٢) سورة القصص ، الآية (٢٧)

(٣) تلبيس إبليس ، ص ٢٢١– ٢٢٢ .

هذا مع قلة علمهم وإنما العجب من أقوام لهم عقل وعلم كيف حثوا على هذا وأمروا به مع مصادمته للعقل والشرع .. " [(١)] .

ثم نقل ابن الجوزي كلاما طويلا للحارث المحاسبي وقال في خاتمته : " فهذا كلام الحارث المحاسبي ذكره أبو حامد .. فمن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم لم يشك في أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل ما فيه اشتغالهم بإصلاحه عن ذكر الله ﷻ ، فينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه فهو محجوب عن الله ﷻ . ثم عقب ابن الجوزي قائلا : " وهذا كله بخلاف الشرع والعقل وسوء فهم للمراد بالمال " [(٢)] لأن الله ﷻ أمر بحفظ المال ونهى عن تضييعه وإسرافه ، وعظم قدره لكونه قواما للآدمي فقال ﷻ : ﴿ وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا ﴾ [(٣)] . ونهى الله ﷻ عن تسليم المال لغير رشيد فقال ﷻ : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [(٤)] .

كما أن الرسول ﷺ نهى عن إضاعة المال حيث قال : ((إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال)) [(٥)] .

ثالثا : صلة الزهد بالتصوف

بعد أن تحدثنا عن مبدأ من المبادئ الإسلامية في الكتاب والسنة ألا وهو الزهد ، وسقنا نماذج من التعاريف لهذا المبدأ ينبغي لنا أن نميز بين الزهد الصحيح والتصوف لما بينهما من صلة وثيقة – كما هو واضح – في دلالة كل منهما ، وذلك من خلال التعريفات التي مرت بنا ، وبعد أن رأينا أن من مفاهيم التصوف كانت تشير إلى صفاء القلب ، والمحبة الإلهية القائمة على الصلة الدائمة به ﷻ ، والسلوك إليه ، والاستغناء عن

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٢١٨ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

(٣) سورة النساء ، الآية (٥)

(٤) سورة النساء ، الآية (٦)

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ، باب ما ينهى عن إضاعة المال ٣٤٩/٥ (ح ٢٤٠٨) .

العباد ... [1] وفي المقابل رأينا مفهوم الزهد في القرن الثاني الهجري يدور حول معنى الاتجاه إلى الله ﷻ ، وعدم الاشتغال بالدنيا ، والانقطاع من الشهوات ، واعتزال الناس ، والقناعة والغنى والشكر على النعم .. [2]

ثم اتضح لنا أن التصوف غاير الزهد بعد أن تبلور ونضج في أواخر القرن الثالث الهجري ، فأصبح نزعة تتخذ المجاهدة والرياضة الروحية ، وتتجاوز الظاهر الشرعي بالتعمق في الباطن ، والوصول إلى مرحلة الكشف ، بينما كان الزهد اتجاها سلوكيا ، مضمونه التقشف والإعراض عن الدنيا ومباهجها بالتزام العبادات ، وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار .

وبالتأمل والوقوف على معنى الزهد والتصوف ندرك الفرق بينهما ، فقد صار التصوف – في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث – يدعو إلى ترك العمل في الدنيا، وتعطيل القوى الحسية ، والتحكم في النفس ... وأصبح هدفه الوصول إلى المحبة الإلهية بالتعمق في دراسة أسرار القلوب ، والبحث في باطن الشريعة ... في حين أن الزهد مبدأ إسلامي ، فالميل إلى الزهد كان أصيلا في الحياة الإسلامية ، يستمد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية في دعوهما إلى عدم الركون إلى الحياة الدنيا ، والترغيب في الجنة والترهيب من النار ، والسعي بالذكر والتوكل والعبادة الموصلة إلى مرضاة الله ﷻ ورحمته ، وكانت حياة الرسول ﷺ والصحابة والتابعين – رضي الله عنهم – صورة تحتذى في منهج الزهد والعمل للآخرة .

ولهذا وجدنا زهادا من أئمة السلف هم أسبق في الوجود من التصوف ذاته ، ووصلت إلينا كتب مؤلفة في الزهد لأئمة من كبار علماء السلف الأوائل ، ولئن كان أئمة الصوفية المتقدمين قد نزعوا إلى الزهد - لقرب عهدهم بزهاد السلف – ثم خلطوه بعد ذلك بالمبادئ المستوردة فليس معنى ذلك أن نرد الزهد بمعناه الصحيح المشروع إلى التصوف ، ولا أن نقول كما قال بعضهم : إن التصوف في الإسلام من أوله المسمى بالزهد ، وآخره المعروف بالتصوف ؛ إنما هو استيراد أجنبي ، من خارج الإسلام وليس من صميمه ، وأن

---

(١) كما عرف به معروف الكرخي ، والداراني ، وبشرالحافي ، وذوالنون المصري ...

(٢) كما عرف به سفيان الثوري ، وعبدالله بن المبارك ، والفضيل بن عياض ، وسفيان بن عيينة ، وإبراهيم بن أدهم ...

تسـميته بالـزهد في أوله إنما هي بالنسبة إلى جانب منه [١] ، وبالإضافة إلى ذلك أن كلمة الزهاد لم تظهر في القرن الأول الهجري ، وأوائل القرن الثاني علما على طائفة [٢] .

ولكـن لا نعني بذلك أن الكلمـة لم تستخدم على الإطلاق ، حيث وردت كلمة الـزهد في الأحـاديث والآثـار الصحيحة من أقوال الصحابة والتابعين ، وقد قيل للحسن البصـري فـلان فقيه ، فقال الحسن : وهل رأيت فقيها قط ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، الـراغب في الآخرة البصير بأمر دينه [٣] . فكلمة الفقيه يشمل المعاني الروحية ، كما تشمل المعاني العملية [٤] .

ولم تـرد كلمة الزهد في القرآن الكريم إلا في موضوع واحد ، كما قال ﷻ حكاية عـن نـبي الله يوسف – عليه السلام – : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الـزَّاهِدِينَ ﴾ [٥] ، وليس لها في هذا الموضع – كما قال الدكتور النشار – دلالة روحية ، لذلك أطلقت على أصحاب الحياة الروحية الأوائل من الصحابة أهل الصفة والفقراء ، وبعد مقـتل الإمـام عـلي ثم ابنه الحسين – رضي الله عنهما – ظهرت طائفة باسم " التوابين والبكائين " ، ثم أسماء أخرى مثل : " النساك والعباد والسائحين والربانيين " [٦] .

ولقـد كـان الصوفية في أول الأمر يعدون في جملة الزهاد ، وعرف تصوفهم – من خلال تعريفاتهم للتصوف – بأنه يدور حول صفاء القلب ، والمحبة الإلهية القائمة على الصلة الدائمة به تعالى ، والسلوك إليه ، والتخفف من الاشتغال بالدنيا ، والميل إلى العبادة المتصلة ابتغاء الجنة ومرضاته ﷻ ، ثم صاروا يتميزون عن بقية الزهاد بصفات وأحوال ، ومع مرور الزمان بعدت المسافة بين الفريقين ، فصار التصوف يدعو إلى ترك العمل في الدنيا ..وأصبح مذهـبا معروفا ذا قواعد ومصطلحات مستحدثة ، حتى أصبح التفريق بين التصوف والزهد

---

(١) أضواء على التصوف ، ص ٦٧ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٦١/٣ .

(٣) اللمع للطوسي ، ص ٣٦ ،

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٦٢/٣ .

(٥) سورة يوسف ، الآية (٢٠)

(٦) المصدر السابق ، ٦٢/٣ .

واضحا جليا ، ولعل أوضح ما يدل على التمييز بينهما أن الزهد لم يذمه أحد ، بينما التصوف قد ذموه كما يقول ابن الجوزي [١] — رحمه الله - .

وخلاصة القول : إن الزهد كان — في بادئ الأمر - زهدا دينيا خالصا ، نابعا من العقيدة الصافية ، والفهم السليم من الدين وقضاياه ، دون تجاوز وإفراط وتفريط ، ثم وفد إليه بالتدرج بعض العناصر الصوفية نتيجة الوفود والاحتكاك بأبناء البلاد التي فتحها المسلمون ، والتطرف العنيف في الأحزاب السياسية ، وازدياد التراخي والاستهانة في بعض المسائل الخلقية ، وشدة ماكابده المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون إرادهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن أخلصوا في إسلامهم ، [٢] ووقوع بعض الزهاد المتنسكين في الأخطاء في فهم بعض الأحوال النفسية من التوكل على الله ﷻ ، وترك الكسب والاكتساب ، وحصر الشعائر التعبدية في القيام والقعود فحسب ...وما إلى ذلك من الانحرافات الخطيرة ..حتى تحول الزهد الإسلامي المشرق الأصيل إلى الصورة التي عرفناها في التصوف من الانزواء إلى الزوايا والربط ، والرياضات الشاقة المخالفة لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، من إطالة الصوم ووصله ، والامتناع عن الطيبات ، والترهب وترك الزواج ، والسماع والغناء والرقص ، والخلوة والعزلة ، وإسقاط التكاليف المشروعة ، والفناء .. ثم الحلول .. ثم وحدة الوجود .. . وادعاء الصوفية التصرف في هذا العالم وادعاؤهم بعلم الغيب .. وغير ذلك من العقائد الوافدة الدخيلة على الإسلام من الباطنية ، واليهودية ، والنصرانية ، والأفلاطونية ، والغنوصية ، والهندية ، والفارسية ، وما إلى ذلك ...

وهكذا أوصل بعض الزهاد المفرطين الزهد الإسلامي الخالص إلى التصوف المنحرف كالذي نراه اليوم ، مع اعترافنا بأن هذا لا يمنع من القول بأن الزهد النافع المشروع لا زال موجودا في المجتمعات الإسلامية حتى عصرنا الحاضر .

---

(١) انظر : تلبيس إبليس ص ٢٠٤ .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٤٦ ، ٧٢ .

المبحث الثاني

خاصية تصوف القرن الثالث الهجري

إذا قلـــنا التصوف في القرن الثالث الهجري فليس الغرض منه أن اليوم الأول من سنة مائـــتين لـــلهجرة هـــو بدء المرحلة الثالثة للتصوف ؛ بل كان ذلك حكم تقريبي ، وتحديد منهجي اصطلاحي ، وكذلك يجب مراعاة هذا الموضوع – إذا تحدثنا عنه – في القرن الثاني الهجـــري ، لأن التصورات الفكرية وسير العقائد والآراء لا تتمشى بموجب القوانين العددية والأحكـــام الرياضية ، بل غالبا ما تسير بالتدرج دون الاعتماد على الترتيب الزمني ، ونحن نتحدث عن ذلك خدمة للبحث واتباعا للطريقة المألوفة لدى الباحثين .

والتصـــوف – في بداية الأمر – كان في نظر الصوفية بسيطا روحانيا ، لم يخرج عن حـــدود الكتاب والسنة ، والتعبد ، وتقديم الآخرة الباقية على الحياة الدنيا الزائلة ، غير أن هـــذا المفهـــوم تتخطى الزهد المشروع شيئا فشيئا حتى وصل إلى حد المبالغة والإفراط ، ثم غذتـــه بمـــرور الأزمـــنة مـــواد ذوقية وجدانية ، واتسعت من جراء ذلك رقعة التصوف ، والـــتقطت الصـــوفية أعمالا من مصادر عدة وأضافوها إلى التصوف ، فتغير مفهومه بهذا السبب ، وتبدل تعريفه وتحديده في كل عصر ، ووصفه كل شيخ من مشايخ الصوفية بنحو خاص [1] .

وقلـــنا إن حـــركة الزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين كانت ثمرة التدبر والتأمل العميق في التوجيهات القرآنية والأحاديث النبوية ، وصورة مشرقة من أحوال الزهاد الأوائل ؛ حيـــث كانوا مقبلين على العبادة والتقرب إلى الله ﷻ بالأعمال الصالحة ، وكان زهدهم يقـــوم أساسا على الخوف من الله ﷻ ، وهو خوف يبعث على العمل الديني الجاد من أجل الظفر بثواب الآخرة .

ولمـــا جـــاء القرن الثالث الهجري برز بعض الصوفية واتجهوا إلى الكلام عن معان لم تكـــن معروفة من قبل ، فتحدثوا عن الأخلاق والنفس والسلوك إلى الله ﷻ ، وغلب عليهم الطـــابع الأخلاقي في علمهم وعملهم ، فصار التصوف على أيديهم علما للأخلاق الدينية ، وكانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق في غور الدراسة في النفس الإنسانية وأحوالها ، وتقودهـــم إلى الكلام في المعرفة الذوقية وأداتها ومنهجها ، بل وتدعوهم إلى التحدث عن

---

(١) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، لقاسم غني ، ص ٧١ .

الـذات الإلهيـة من حيث صلتها بالإنسان وعلاقة الإنسان بها . كما ظهر الكلام في الفناء الصـوفي خصوصا على يد أبي يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ) ونشأ من ذلك علم للصوفية يـتميز عن علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية ، له قواعده ورسومه ومصطلحاته الخاصة ، التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم ، ويحتاج فهم مراميها إلى جهد وعناء .. [1] ، ثم قطـع التصـوف أشواطا في الاتساع العقدي حتى أصبح مدارس ومذاهب خلال هذا القرن [2] .

أمـا الحديث عن خاصية تصوف القرن الثالث الهجري فيلاحظها المتأمل فيما خلفه صوفية هذا القرن من الآثار ، التي تجعل هذه الحقبة متميزة عن تصوف القرن الثاني الهجري مـن حيث العمق والتأثير ، لما للتصوف وقتئذ من خصائص نفسية وأخلاقية وجدانية وهي كما يلي :

١ - إن التصـوف في هـذا العهد يعطي للتفكر والتدبر أهمية كبرى أكثر من القيام بالرياضـات الشـاقة ، أو الحياة الخشنة التي يعدها صوفية القرن الثاني الهجري مناطا للنجاة مـثل إبراهـيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) وأمثاله لا يأبه لها صوفية هذا القرن كالجنيد (ت ٢٩٧هـ) وأتباعه ، أو يعتبرونها أقل أهمية إلى جانب الزهد والعبادة والطاعة لكونها وسيلة لا غايـة ، ومقدمـة لبلوغ غرض أسمى وأعلى ، فهذا البسطامي لا يقول بمداومة الرياضة والـزهد ، ويعتقد بأن السالك يجب أن يغض الطرف عن الدنيا والآخرة وعن نفسه ، وأن يـتجه إلى أصـل الموضوع والهدف ، ويقول أبو سعيد الخراز [3] (ت ٢٧٩هـ) الجوع قـوت المرتاضـين ، والتفكر قوت العارفين . فالناحية النظرية – إذن – للتصوف في هذا القرن صارت أكثر أهمية ، وتغلبت على الناحية العملية [4] .

ولوحـظ أيضا أن حظ الخصائص الأخلاقية كان في أوائل هذه الفترة أوفر وأظهر، وهـذا تـأكيد على ما ذكره ابن القيم – رحمه الله – بأن كلمة الناطقين في هذا العلم قد

---

(١) انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص ١٧ .

(٢) الصوفية معتقدا ومسلكا ، ص ٥٣ .

(٣) هو أبو سعيد أحمـد بن عيسى الخراز ، من أهـل بغـداد ، صحب ذالنون المصري وبشر الحافي ، وغيرهم من أئمة التصوف ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء (ت ٢٧٩هـ) انظر : طبقات الصوفية ص ٢٢٨ .

(٤) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، لقاسم غني ، ص ٨١-٨٢ .

اجتمعت على أن التصوف هو الخلق ،[١] و " أن هذا العلم مبني على الإرادة ، فهي أساسه ومجمـــع بنائه ، وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهي حركة القلب ، ولهذا سمي عـــلم الـــباطن ، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ، ولهذا سموه علم الظاهر "[٢] .

وإذا لاحظـــنا – كما قلنا – أن الطابع الأخلاقي هو الذي يغلب على التصوف في أول تكونـــه العلمي فإننا نلاحظ – أيضا – أن الطابع النفسي لم يكن أقل شأنا من الطابع الأخلاقي ، كما أن كثيرا من المسائل الصوفية التي طبعت بهذا الطابع أو ذاك قد انطوت في قرارها على كثير من المعاني للفلسفة الإلهية التي ظهرت – بادئ ذي بدء – غامضة ساذجة ، ثم أخذت تتجلى وتتكشف شيئا فشيئا حتى تهيأ لعوامل النمو ما أعانها على أن تظهر بعد ذلك ظهورا قويا عندما جاء من الصوفية المتفلسفة بعد القرن الثالث الهجري[٣] .

كمـــا أن الحب كان طابعا للزهد الذي عرف عند رابعة العدوية[٤] (ت ١٨٥هـــ) في القـــرن الثاني ، وهذا الحب يعد أيضا من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين ، فأقوال معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـــ) على قلتها وقصرها تبين أنـــه قـــبل اللفظتين اللتين كان يدور حولهما الجدل في مدرسة بغداد ، وهما : الطمأنينة (المعـــرفة) والمحبة ، وقد اصطنع الجنيد (ت ٢٩٧هـــ) لفظة المحبة وقال فيها كلاما يعتبره صـــوفية وقته خير ما قيل في تحديدها ، وكذلك استعمل ذوالنون المصري (ت ٢٤٥هـــ) هذه اللفظة في غير تردد[٥] .

وظل التصوف مطبوعا بطابع الحب طوال القرن الثالث الهجري حتى ترك الحسين بن منصـــور الحلاج (ت٣٠٩ هـــ) في مسألة المحبة وما يتصل بها من فناء وبقاء واتحاد وحلول آثارا باقية ، وليس أدل على صوفية ذلك الوقت بالمحبة وما تفرع عليها من أن أحدهم وهو

---

(١) مدا رج السالكين ، ٣٠١/٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ٣٥٢/٢ .
(٣) انظر : الحياة الروحية في الإسلام ، ص ٩٩- ١٠٠ .
(٤) هي رابعة بنت إسماعيل ، وهي صوفية وعابدة شهيرة ، قال مصطفى عبد الرزاق : إنها هي السابقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف . انظر : أعلام النساء ، لعمر رضا كحالة ٤٣١/٢ .
(٥) انظر : المرجع السابق ص ١٠١ .

الحارث المحاسبي [١] (ت ٢٤٣هـ) قد وضع فيها فصلا خاصا ، هو أشبه ما يكون رسالة تحدث فيها عن أصل حب العبد للرب ، وأن هذا الحب منة إلهية أودع الله ﷻ بذرها في قلوب محبيه ، كما تحدث عن اتحاد المحب بالمحبوب ، وكشف أسرار الوجود عن طريق هذا الاتحاد [٢] .

ونظرتنا في (التعرف لمذهب أهل التصوف) للكلاباذي (ت ٣٨٠هـ) و (قوت القلوب) لأبي طالب المكي [٣] (ت ٣٨٦هـ) و (كشف المحجوب) للهجويري [٤] (ت ٤٥٦هـ) و (الرسالة القشيرية) للقشيري (ت ٤٦٥هـ) و (إحياء علوم الدين) للغزالي (ت ٥٠٥هـ) تكفي لأن نقف من خلالها على مقدار عناية المؤلفين الصوفيين بإثبات من سبقهم من صوفية القرن الثالث الهجري في المحبة الإلهية ، وكلها بمثابة المواد الأولية التي اعتمد عليها الصوفية المتأخرون فيما أسسوه من مذاهب وما ذهبوا إليه من طرائق .

٢- إن شيوع أفكار وحدة الوجود في هذا العصر أفاد أن الهدف الوحيد للصوفية هو الاتصال بالله ﷻ ، ولم تكن هذه المعتقدات مستحسنة لدى الفقهاء نظريا وعمليا ، وكانت ذات تأثير خطير فضلا عن أن الاعتقاد بوحدة الوجود كان منافيا لعقيدة التوحيد الإسلامي الخالص .

وإذا قلنا إن التصوف في هذا العهد قد بلغ مرحلة الكمال فلا نعني بذلك أن طريقة صوفية القرن الثاني الهجري قد اندرست حقا في القرن الثالث ، بل الواقع أن هناك جماعات أخرى تشابه من حيث السير والسلوك وطريقة الفكر وأسلوب القول لصوفية القرن الثاني مشابهة تامة ، بل إن بعضهم كانوا يمثلون في سلوكهم الأعلام الزهاد في صدر الإسلام ، وكل ناحية من أجواء البلاد كانت ملائمة لنمو نوع خاص من التصوف وتطوره ، فصوفية خراسان – مثلا – كانوا مفرطين نوعا ما ، وذوى أفق واسع ، وقد أخذوا بنظرية وحدة

---

(١) هو أبو عبد الله ، الحارث بن أسد المحاسبي ، الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، صاحب التصانيف الزهدية ، (ت ٢٤٣هـ) انظر : سير أعلام ١٢/١١٠ وطبقات الصوفية ص ٥٦ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

(٣) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية ، الإمام الزاهد العارف ، شيخ الصوفية . انظر : سير أعلام ١٦/٥٣٦

(٤) هو علي بن عثمان ، من كبار أئمة الصوفية (ت ٤٩٣هـ) انظر : معجم المؤلفين ٧/١٤٨ .

الوجـــود بصـــورة ثابتة ، وكان معظمهم من أصحاب السكر ، وانطلاقهم كان أكثر من صوفية العراق وسائر الجهات [١] .

إن صوفية هذا القرن قد سلكوا مسلكا حزبيا ، أي أصبحت لهم خصوصيات حزبية ، ومقـــررات ورسوم وآداب طائفية ، ودخلت كل طائفة تحت رعاية شيخ ومريد، وكان الشـــيخ أو المرشـــد ذا سلطة على مريديه ، فيراقب أعمالهم ويحث كل شخص على اتباع أوامر المرشد والمحافظة على الأنظمة .. [٢] ولهذا نجد بعض الصوفية في القرن الثالث الهجري كالجـــنيد والســـقطي وأبي سعيد الخراز وغيرهم يجمعون حولهم المريدين من أجل إرشادهم وتربيـــتهم ، فـــتكونت لأول مرة ما مهد لظهور الطرق الصوفية في الإسلام ، التي كانت آنذاك بمثابة المدارس التي يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علما وعملا [٣] .

وبذلـــك نقـــول : إن عناصر التصوف في أواخر القرن الثالث الهجري قد اكتملت بمعـــناه الدقيق ، لأنهم تحدثوا عن الأخلاق ، والسلوك والترقي فيه ، والمعرفة الذوقية المباشرة بالله ﷻ ، والفناء في الحقيقة المطلقة (الله ﷻ) - كما يزعمون - ، والتحقق بالطمأنينة ، والمحبة الإلهية ، كما لجأوا إلى الرمزية في التعبير عن حقائق التصوف .

ولكـــن لا بـــد من التنويه بأن الخصائص المذكورة السابقة التي تنطبق على تصوف القـــرن الثالث الهجري بوجه عام قد لا تنطبق كلها على تصوف صوفي معين في هذه الفترة لأن بعـــض صوفيتها غلب عليهم – كما رأينا – الطابع النفسي الأخلاقي ، والكلام في ناحية معينة من نواحي التصوف .

وبالجمـــلة نســـتطيع أن نقول بأن القرنين الثالث والرابع الهجريين قد شهدا اكتمال التصـــوف ، وأن صوفية القرن الثالث – كما قال الدكتور أبو العلا عفيفي – يمثلون العصر الذهـــبي للتصوف الإسلامي في أرقى وأصفى مراتبه – حسب قوله – وهم بلا شك رواد لكل من سيأتي بعـــدهم .

---

(١) انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، ص ٨٣ .

(٢) انظر : المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) انظر : مدخل إلى التصوف الإسلامي ، ص ١٨ .

المبحث الثالث

ظهور التدوين في التصوف في القرن الثالث الهجري

بـــدأت الاهتمامات المبكرة بالزهد والفكر الأخلاقي منذ عهد الصحابة والتابعين في شكل وصايا ونصائح ومواعظ ، أو في شكل تفسير آيات من القرآن الكريم ..

وبرزت في القرن الثاني الهجري الأعمال العلمية المنظمة في مجال العلوم الفقهية ، التي تضـــمنت إشـــارات واضحة إلى المجال الأخلاقي ، وتمثلت هذه الجهود المباركة في أعمال الأعلام الكبار من أمثال الأئمة الأربعة – رحمهم الله تعالى – [١] .

وبـــدأ التأليف – فعلا – في الحديث كما بدأ في العلوم الأخرى ، وكان ذلك في منتصف القرن الثاني الهجري ، فلما جاء القرن الثالث الهجري نشطت حركة الجمع والنقد ، وتمييـــز الصـــحيح من الضعيف ، والحكم للرجال أو عليهم ، فكان بذلك خير العصور ، وفيه ألفت أهم كتب الحديث ..

وكمـــا اهتم الفقهاء والمحدثون بالتصنيف فكذلك الزهاد قد اهتموا أيضا بطريقتهم ، ودونـــوا قواعدهـــم وســـلوكهم ، واتجهوا نحو الاتجاه الأخلاقي العاطفي الوجداني لما رأوا الانحرافات الخلقية قد طغت على بعض الناس ، وشاهدوا انشغالهم بالملذات في هذه الحياة ، وأدركـــوا أن تيار الجدل كاد يجرفهم ويبعدهم عن إخلاص العمل لله عز وجل ، فكانوا يفكرون في رد الشـــاردين عـــن حظائر المعرفة إلى ساحتها ، وترشيد الحائرين إلى الجادة ، وهداية الضالين إلى الطريق القويم ، مما يدفعهم إلى النظر في نصوص الكتاب والسنة ، ووضعها في مواضـــعها المناسبة ، منبهين إلى معانيها وأسرارها ، موضحين طريق العمل بها ، شارحين آثارها ، مستشهدين بأحوال الصالحين السابقين تحبيبا للعمل في طاعة الله عز وجل والإخلاص لـــه تعالى ، واســـتمالة في القـــلوب ، ولم يخرجوا في كتاباتهم ومؤلفاتهم عن الزهد ، والـــورع ، والإخـــلاص ، ومحاسبة النفس ، والخوف والرجاء ، والتواضع ، وتقوى الله ، ومراقبة الله تعالى ، والاجتهاد في العبادة .

وممـــا يؤكـــد على ظهور هذه الأعمال ظهور بواكير الأعمال العلمية التي خصصها مؤلفوهـــا لـــلحديث عن موضوعات أخلاقية مثلما كتبه ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـــ) حيث تحدث عن الطبائع والأخلاق في موسوعة " عيون الأخبار " .

---

[١] انظر : موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٦٩/١ .

وأما في مجال السلوك والتصوف فقد برز في القرن الثالث الهجري عدد من العلماء ، وهم إن اختلفوا منهجا وصحة في التأليف وإيراد النصوص فإنهم يسيرون في طريقهم داعين إلى الله ﷻ ، محببين للناس ، مؤدين حق الله ﷻ في نصح عباده ، وتزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم ، ومن أبرزهم :

١- الحارث المحاسبي الذي كان في طليعة من وطد قواعد التأليف في علوم الزهد والورع والإخلاص ومحاسبة النفس ..وكتابه " الرعايا لحقوق الله " خير دليل وشاهد على ذلك ، فهو كتاب جامع لأبواب السلوك العملي على نهج الزاهدين العابدين .

وكتبه في أغلبها الأعم إنما هي في هداية النفوس وترقيق القلوب ، وإنها في علم التصوف والسلوك ، قدرها بعضهم بمائتي مصنف حسب رواية السبكي في الطبقات الشافعية ، والمناوي في الكواكب الدرية ، والكتب بعضها قد طبعت وبعضها لا تزال مخطوطة ؛ منها :

المسائل في أعمال القلوب والجوارح – الرعاية لحقوق الله – الزهد – رسالة المسترشدين – كتاب آداب النفوس – الخلوة والتنفل في العبادة – كتاب المراقبة – كتاب أحكام التوبة – كتاب الصبر والرضا – كتاب بدء من أناب إلى الله – كتاب المكاسب والورع والشبهات – كتاب التفكر والاعتبار – شرح المعرفة – معاتبة النفوس وغيرها ..

يقول محمد الصادق عرجون : " كتب المحاسبي للأمة آداب الزهاد والنساك ، وما يجب أن يكون عليه العبد في رعاية حقوق الله ﷻ مستمدا ذلك من الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة والتابعين ، وسلوكهم في الإخلاص والعمل ، ليجعل مما كتب نواة لجذب الناس إلى منازل الإخلاص وتصفية القلوب ، معتمدا على علمه بالشريعة .. ولم يكن للتصوف ولا للمتصوفة في عصره وجود مذهبي خالص يقصد إلى تصويره والتحدث عنه .." (١) .

٢- وكذلك أبوسعيد الخراز كان من طليعة من ألف في هذا العهد ، وكان إماما من أئمة الزهد والورع ، وأهل المعرفة والعلم بالله ﷻ ، وهو معاصر للمحاسبي ، فكلاهما من أئمة القرن الثالث الهجري ، وكتابه " الصدق " أو " الطريق إلى الله " على صغر حجمه آية من آيات المصنفات الصوفية ، فهو يدل بقرب شبه من كتاب المحاسبي على وحدة المسلك

---

(١) انظر : التصوف في الإسلام ، منابعه وأطواره ص ١١٠ .

في صــوغ الحقــائق الصوفية مقرونة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والــتابعين كتطــبيق واقعي للنصوص [١] غير أن المتأمل في كلام محمد عرجون لاحظ فيه مــبالغة في شأن الحارث المحاسبي حيث كانت هناك مآخذ عليه فيما عرض في كتبه وخاصة في عقليته ومنهجه الكلامي الذي ذمه السلف الصالح وهجره الإمام أحمد بن حنبل .

وقد فصل أبو سعيد في كتابه " الصدق " معاني الصدق ومجالاته ، لأن " الصدق هو الخلق الأساسي الذي يعطي كل قول أو عمل ظاهر أو باطن قيمته في ميزان الله ﷻ، بل هو المعــنى الجامع للأخلاق والآداب التي دعا إليها القرآن العظيم ، والنبي الكريم ﷺ . فالصدق مــع الله ﷻ يــثمر : الإخلاص ، والورع ، والتوكل ، والخوف والرجاء ... والصدق مع النفس يثمر : الزهد ، والحياء ، والتواضع ، والاجتهاد في العبادة " [٢] .

٣- ومنصــور بــن عمار [٣] (ت ٢٢٥هـ) من الذين ألفوا في التصوف في القرن الــثالث الهجري ، قال ابن النديم عن كتبه : " وما أخذ من منصور فإنما جعله مجالس ، لم يسم ذلك كتبا ، فمن ذلك مجلس في الجنين ، ومجلس في الديباج ، ومجلس في ذكر الموت ، ومجــلس في حسن الظن بالله ، ومجلس في النية والدين ، ومجلس في البلى ، ومجلس السحاب على أهل النار ، ومجلس في ا نظرونا نقتبس من نوركم ، ومجلس في الغمة في النار ، ومجلس العرض على الله ﷻ [٤] .

٤- ومحمــد بــن الحســين البرجلاني ، أبو جعفر ، صوفي (ت ٢٨٣هـ) وله من الكتب ككتاب الصحبة ، وكتاب الزهد والرقائق ، وكتاب الجود والكرم ، وكتاب الهمة ، وكتاب الصبر ، وكتاب الطاعة [٥] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٧ .

(٢) مقدمــة الدكــتور عبد الوهاب عزام لكتاب الصدق، تصحيح وتعليق حسن السماحي سويدان ، ط ١ بيروت (دار القادري ١٤١٨هـ) ص ٧ .

(٣) هو : أبو السري ، أقام بالبصرة ، وكان من أحسن الناس كلاما في الموعظة ، بل كان إليه المنتهى في بلاغة الوعظ وترقيق القلوب ، ومن كلامه : " سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا – أوعيــة الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا " . طبقات الصوفية ص ١٣٥ ، والرسالة القشيرية ص ٤٢٣ ، وحلية الأولياء ٩/٣٤١ .

(٤) الفهرست لابن النديم ، ط ١ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ) ص ٣٢٠- ٣٢١ .

(٥) المصدر نفسه ، ومعجم المؤلفين للكحالة ٩/ ٢٣٥ .

٥- ويحـــي بـــن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ (ت ٢٥٨هـــ) ، كان من الزهاد المتهجدين ، وله أصحاب ، كما له من الكتب في التصوف ، ككتاب مراد المريدين .

٦- وأبـــو حمـــزة الصوفي (ت ٢٨٩هـــ) ، لـــه من الكتب كما يقول صاحب طـــبقات الصوفية عنه ، مثل كتاب المنتمين من السياح والعباد والمتصوفين ، رواه عنه رجل مـــن المتصـــوفة يقال لـــه أحمد بن محمد الدينوري [١] ، ورأيت لهذا الرجل كتاب الأبدال وكـــتاب مواطـــن العباد ، وقال الخطيب البغدادي عنه : كان أبو حمزة أستاذ البغداديين ، وهـــو أول مـــن تكلم في بغداد في هذه المذاهب من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة ، والشـــوق ، والقرب ، والأنس ، ولم يسبقـــه إلى الكلام بـــهذا على رؤوس الناس ببغداد أحد .. [٢] .

٧- وسهل بن عبد الله بن يونس التستري (ت ٢٨٣هـــ) ، كان أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال ، [٣] وله من الكتب : ككتاب رقائق المحبين ، وكتاب مواعظ العارفين ، وكتاب جواب أهل اليقين [٤] .

٨- وأبـــو القاسم الجنيد بن محمد (ت ٢٩٧هـــ) سيد الطائفة وإمامهم [٥] ، ذكره خير الدين الزركلي بأن لـــه رسائل مطبوعة ، منها ما كتبه إلى بعض إخوانه ، ومنها ما هو في التوحيد والألوهية والفناء ، ومسائل أخرى ، وله دواء الأرواح مخطوطة [٦] .

٩- ومحمـــد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي [٧] ، قال عنه الذهبي : " قال عبد الـــرحمن السلمي : أخرجوا الحكيم من ترمذ وشهدوا عليه بالكفر ، وذلك بسبب تصنيفه كتاب ختم الولاية ، وكتاب علل الشريعة ، وقالوا : إنه يقول : إن للأولياء خاتما كالأنبياء

---

(١) هو أبو العباس ، أحمد بن محمد ، صحب يوسف بن الحسين ، ولقي رويما ، وهو من أفتى المشايخ .. انظر : طبقات الصوفية ص٤٧٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٩٤/١ ، وسير أعلام النبلاء ١٦٨/١٣ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، وحلية الأولياء ١٨٩/١٠ .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣١٩ .

(٥) طبقات الصوفية ص ١٥٠ ، والرسالة القشيرية ص ٤٣٠ .

(٦) الأعلام ١٣٢/٢ .

(٧) هو : أبو عبد الله ، من كبار الشيوخ ، وله تصانيف في علوم القوم ، صحب أبا تراب عسكر النخشبي (ت ٢٤٥هـــ) وأحمد بن خضرويه (ت ٢٤٠هـــ) ولقي ذا النون المصري بمكة .انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٠٠ ، وطبقات الصوفية ص ٢١٧ .

لهـــم خاتم ، وإنه يفضل الولاية على النبوة " [١] . وقال شيخ الإسلام بن تيمية : تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب ختم النبوة بكلام مردود ، مخالف للكتاب والســـنة وإجماع السلف والأئمة ، حيث غلا في ذكر الولاية [٢] لـــه مشاركة في الحديث ، ومن أشهر كتبه " نوادر الأصول في أحاديث الرسول " .

١٠- وأبـــو الحســـن علي بن محمد بن أحمد [٣] (ت ٣٣٨هـــ) له من الكتب في الـــزهد كالكـــتاب الكبير الذي يحتوي على أربعين كتابا منها : كتاب قيام الليل ، وكتاب المـــتحابين ، وكتاب المراقبة ، وكتاب الصمت ، وكتاب الخوف ، وكتاب التوبة ، وكتاب الصبر ، وكتاب التواضع ، وكتاب الإخلاص ، وكتاب فضل الفقر على الغنى ، [٤] وغير ذلـــك من الكتب المؤلفة في الزهد والورع والرقائق ... إلا أن هذه الكتب المدونة المذكورة السابقة معظمها غير موجودة ومطبوعة .

وبعـــد العرض لبعض الكتب المصنفة في التصوف في القرن الثالث الهجري لا بد من التنـــبيه بهذه الكتب المدونة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن المذكور عن سلف الأمة وأئمـــتها مـــن المنقولات ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي ذلك في المعقـــولات والنظريات ، وكذلك في الأذواق والمواجيد والمكاشفات والمخاطبات فإن كل من صنف في هذه الأصناف الثلاثة فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا .

وجمـــاع ذلك : إن وافق كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ الثابتة عنه ، وما كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالفه ذلك فهو باطل " [٥] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ١٣/٤٣٩- ٤٤٢ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١١/٣٧٣ .

(٣) هـــو علي بن محمد بن أحمد بن الحسن ، البغدادي ، الواعظ ، المشهور بالمصري ، قال البغدادي : صنف في الزهد كتبا كثيرة ، وكان له مجلس وعظ . انظر : سير أعلام ١٥/٣٨١ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٠- ٣٣١ ، وتاريخ بغداد ١٢/٧٦ ، وسير أعلام النبلاء ١٥/٣٨١ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ١١/٥٨٢ .

المبحث الرابع

أهم رجال التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

بـناء على ما سبق ذكره من أن اسم الصوفية قد ظهر في القرن الثاني الهجري ، وأن في أثـناء المائة الثانية عبر بعض الناس وتحدثوا عن الزهد بلفظ الصوفي ، لأن لبس الصوف أصـبح ظاهرة عند فئة من الزهاد فإننا سنعرض نماذج من الأعلام الصوفية مستندين إلى ما كتـبه كتّاب تراجمهم ، حيث إننا وجدناهم – أيضا – يلمحون إلى وجود الاسم في القرن المذكور ، بل يعبرون – عن تبنيهم لهذا الرأي – تعبيرا عمليا ، حينما اعتبروا بعض الأعلام وهـم ممن كانوا في أثناء القرنين الثاني والثالث الهجريين ، في الطبقـة الأولى من الطبقات الصوفيـة .

وإذا تحدثـنا عن هؤلاء الأعلام فلا بد أن لا يغيبوا عن أذهاننا أنهم من الشخصيات القريبين من عهد النبوة والرسالة ، ومن الذين عاشوا في المرحلة الأولى من مراحل التصوف ، وقـد كان معظمهم من طبقات العباد والزهاد ، والذي يغلب عليهم العزلة والوحدة ، أو الـزهد في الدنيا مع التزامهم في الغالب بتعاليم ديننا الحنيف ، ومع التغليب عليهم جانب الخوف الشديد والبكاء الطويل .. وهم أهل الورع والتقوى والإخلاص والصدق والتواضع والمراقـبة والإحسـان .. ومع ذلك فإن منهم من ابتعـد عن جادة الصواب ، ووقعوا في الأخطاء الواضحة والانحرافات الخـطيرة .

١- إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ)

هـو الإمـام العارف ، سيد الزهاد ، من أهل بلخ بخراسان ، كان من أبناء الملوك والمياسـير ، ثم تـرك طريقته في التزين بالدنيا ، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع [١] ، وكـان طويـل التفكير ، كثير الذكر ، مرابطا وسائحا في الأرض طلبا للحلال ، سخيا حيث أجمع الزهاد على كرمه وسخائه [٢] .

وقـال مذكرا أصحابه ومن جاء بعده : بأن أشد الجهاد جهاد الهوى ، وأن من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا معافى من أذاها ، وبين أن : من

---

(١) انظر : طبقات الصوفية ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ٣٨٧/٧ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ٤٤٠/٧ .

أراد أن يصل إلى درجة الصالحين فلا بد لـــه أن يجتاز مراحل العقبات [١] ، والتي تشير إلى التشدد في النفس ، والمبالغة في الدين ..

ومـــا يقولـــه إبراهيم بن أدهم من المجاهـــدة الشاقـــة ، لـــه مردود لبعض الكتّاب والصـــوفية الذيـــن جاءوا بعده ، فهذا نيكولسون ذكر بأن اجتياز هذه العقبات ما هو إلا الوصـــول إلى معرفة الله ﷻ ، وأن إبراهيم قد اقترب هنا من فكرة المعرفة ، ولكنه حاول أن يوصـــلها بالفكـــرة الغنوصـــية ، وهي فكرة قد أثرت في بعض الصوفية في القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما .

وقـــد شـــبه الدكـــتور عبد الرحمن بدوي حياة إبراهيم بن أدهم بحياة جوتاما بوذا مؤسسة الديانة البوذية [٢] ، غير أن هذا القول يجانب الصواب ، وإن كان في كلام إبراهيم نـــوع من المبالغة في تعذيب النفس ، والتشدد في العبادة ، واليأس من كل ما في هذه الدنيا مـــن الـــنعم الـــتي أحلها الله ﷻ لعباده ، لأن الإسلام لم يأمر بمعاقبة النفس وإذلالها ؛ بل بـــالعكس أمـــر بالاهتمام بالجسد والاعتناء به حتى يكون جسدا سليما معافى ، يستطيع أن يقـــوم بـــأداء دوره المنوط به على أتم وجه في هذه الحياة ، حيث بين الله ﷻ ورسوله ﷺ الأمـــور التي إذا فعلها الإنسان يصبح وليا من أوليائه ﷻ ، فلا حاجة إلى الرياضات الشاقة التي تقود الإنسان إلى الهلاك والابتعاد عن تعاليم الدين الصحيح .

وقلـــنا إن المقارنـــة بين حياة إبراهيم وجوتاما بوذا بعيدة لاختلاف الشخصيتين في الاعـــتقاد والعمـــل ؛ فإبراهيم بن أدهم شخص يؤمن بالله ﷻ ، بينما جوتاما بوذا وثني ، وحياته حياة الذل والرذيلة بعيدة عن شعيرة الآداب الإسلامية ، ويكفينا في شخصية إبراهيم خيرا وصلاحا قول الحافظ ابن حجر العسقلاني : " أبو إسحاق البلخي الزاهد ، صدوق [٣] ، " وقول النسائي : " هو ثقة مأمون ، أحد الزهاد " [٤] .

وإبراهـــيم بـــن أدهم لـــه عبارات عبر فيها عن بعض موضوعات التصوف ، فقد تحـــدث عن المحبـــة حينما قال : " لو أن العباد علموا حب الله ﷻ لقل مطعمهم ومشربهم وملبســـهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى إن

---

(١) انظر : ص ٧٦

(٢) ا نظر : تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري ص ٢١٨ .

(٣) تقريب التهذيب ١/٤٦-٤٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٣٨٨/٧ .

منهم قائما وراكعا وساجدا منذ خلق الله الدنيا ما التفت إلى من عن يمينه وشماله اشتغالا بالله ﷻ وبخدمته " [١] .

وكذلك في التوبة حينما سئل : ما علامة التوبة ؟ فقال : " إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب ، والخوف المقلق من الوقوع فيها ، وهجران إخوان السوء ، وملازمة أهل الخير " [٢] .

أما الزهد فيقول عنه : إن الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة ، فالفرض هو الزهد في الحرام ، والفضل هو الزهد في الحلال ، والسلامة هو الزهد في الشبهات [٣] . ويقول : " الزاهد يكتفي من الأحاديث والقال والقيل ، وما كان وما يكون بقوله تعالى : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٤] يوم يقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [٥] " [٦] .

ويقول في التوكل بأنه : طمأنينة القلب لموعود الله [٧] .

بينما يبين الصبر بأن " العبد لا يتم رجاؤه لثواب الله تعالى حتى يحتمل نفسه على الصبر ، فقال رجل ممن كان معه وأي شيء الصبر ؟ فقال : إن أدنى منازل الصبر أن يروض العبد نفسه على احتمال مكارم الأنفس ، قال قلت : ثم مه ؟ قال : إذا كان محتملا للمكاره أورث الله قلبه نورا ، قلت : وما ذلك النور ؟ قال : سراج يكون في قلبه يفرق بين الحق والباطل " [٨] .

---

(١) حلية الأولياء ٨/٣٧ ، ٣٨ ، وطبقات الأولياء ص ٧-٨ .

(٢) طبقات الأولياء ص ١٤ ، وانظر : سير أعلام النبلاء ٧/٣٨٩ .

(٣) حلية الأولياء ٨/٢٦- ٢٧ ، وانظر أيضا : ٨/٢٠ ، ٣٦ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيات (١٢- ١٥) .

(٥) سورة الإسراء ، الآية (١٤) .

(٦) حلية الأولياء ٨/٧٣ .

(٧) طبقات الأولياء ص ١٣- ١٥ .

(٨) طبقات الصوفية ص ٢٢ .

٢- داود الطائي (ت ١٦٥هـ)

كـــان أحد الأولياء ، شغل نفسه بالعلم والفقه وغيره من العلوم ، وكان يختلف إلى الإمـــام أبي حنيفة ، ثم اختار العبادة والزهد ، ولزم الصمت ، وآثار الخمول ، وفر بدينه ، وأغرق كتبه في الفرات [١] رغبة في التزهد والتعبد .

تـــزهد لمـــا كان يمر يوما ببغداد فنحاه الناس عن الطريق بين يدي حميد الطوسي ، فالـــتفت داود فـــرأى حميدا فقال داود : أف لدينا سبقك بها حميد ، ولزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة [٢] .

وقيـــل : إنه كان يجالس أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان أما الأداة فقد أحكمناها ، فسأله داود : فأي شيء بقي ؟ فقال أبو حنيفة : العمل به ، ويقص هو نفسه ، فنازعـــتني نفسي إلى العزلة والوحدة ، فقلت لنفسي : حتى تجلس معهم ولا تتكلم في مسألة ، وكـــانت المسألة تمر بي ، وأنا إلى الكلام فيها أشد نزاعا من العطشان إلى الماء البارد ، ولا أتكلم به ، ثم صار أمره إلى ما صار [٣] .

قال الذهبي : حرَّب نفسه ودربها حتى قوي على العزلـــة [٤] .

ففـــي هـــذه الحالة وضع داود الطائي للصوفية الذين جاءوا بعده ما يسمونه طريق تصـــفية الـــنفس والتخـــلص من الاغترار بها ، لأنه يفرض على نفسه الصمت والصوم عن الكلام ، أو يدخل نفسه فيما يسمى بمرحلة قطع العلائق كما هي عند المتصوفة .

ثم أعلن موقفه من الدنيا حينما قال أبو الربيع الواسطي لـــه : أوصني ؟ فقال : صم عـــن الدنيـــا واجعل فطرك الموت ، وفر من الناس كفرارك من الأسد [٥] . ولكن مع هذا الموقـــف الشديد تراجع عنه حينما قال : " ارض باليسير من الدنيا مع سلامة الدين ، كما

---

(١) تاريخ بغداد ٢٢١/١١ ، وطبقات الأولياء ص ٢٠٠ ، وسير أعلام النبلاء ٤٢٢/٧ ، وصفة الصفوة ١٣١/٣

(٢) طبقات الأولياء ص ٢٠٠ .

(٣) حلية الأولياء ٣٩٨/٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٢٣/٧ .

(٥) حلية الأولياء ٤٠١/٧ ، والرسالة القشيرية ص ٤٢٣ .

رضي أهل الدنيا بالدنيا مع فساد الدين "[١] ، " صاحبْ أهل التقوى فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك وأكثرهم لك معونـــة "[٢] .

كمـــا وضـــع مصطلح المريد والزاهد حينما قال : إن من علامات المريدين في الدنيا ترك كل جليس لا يريد ما يريدون[٣] ، وقد نقل إبراهيم بن أدهم عنه قولا يبلغ في أعماق الـــزهد ؛ بل في أعماق التصوف حينما قال : " إن للخوف تحركات تعرف في الخائفين ، ومقامات يعرفها المحبون ، وازعاجات يفوز بها المشتاقون ، وأن أولئك هم الفائزون "[٤] .

وكان يناجي ربـــه في الليل فيقول : " إلهي همك عطل علي الهموم الدنيوية ، وحال بيـــني وبـــين الرقاد "[٥] . قال الدكتور علي النشار معلقا على هذا النص : " وهذا كلام خطـــير في أعماق التصوف ، ولا جرم بعـــد ذلك أن أتاه كبار الزهـــاد من كل مكان ، كالفضـــيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، وكان سفيان يبكي بين يديه ، كما كان لـــه أثره الكبير في أبي سليمان الداراني .

ومن هنا نرى أنه انبثق في أعماق هذا الفقيه الخوف العارم ، وخوف مشوب بالحب الشـــديد ..والشوق ، فعاش حياة زاهدة قاسية لم تعرفها الكوفة فعلا ، وقد امتلأت كتب التصوف بالأخبار التفصيلية عن تزهده "[٦] .

وبلا شك أن ما نراه منه من لزوم الصمت لفترة طويلة يعتبر تشددا ومبالغة في الدين ، لأن الإسلام أمرنا أن نقول خيرا إلا إذا اقتضى الصمت ، قال رسول الله ﷺ : ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)) متفق عليه[٧] .

---

(١) طبقات الأولياء ص ٢٠١ .

(٢) حلية الأولياء ٤٠٢/٧ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ٤٠٠/٧ .

(٤) المصدر نفسه ٤٠٢/٧ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٤٢٢ .

(٦) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢٥٠/٣ .

(٧) أخرجه البخـــاري مع الفتح ، في كتاب الأدب ، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ١٢/ ٥٩ (ح ٦٠١٨) ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار .. ٦٨/١، (ح ٤٧) .

٣- الفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـ)

أبرز حدث في تاريخه توبته ، فقد كان شاطرا يقطع الطريق ، ثم عشق جارية ، فبينما هـو يرتقي الجدران إليها ، إذ سمع تاليا يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [1] . فلما سمعها قال : بلى يا رب ! فقد آن ، فرجع فآواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها رفقـة ، فقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا ، قال : ففكرت ، وقلت : أنا أسعى بالليل في المعاصي ، وقوم من المسلمين هاهنا يخافوني وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إني قد تبت إليك ، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام [2] .

فهـذه الحكاية ذكرها القشيري [3] أيضا وابن الملقن [4] وابن خلكان [5] وغيرهم ، وقـد ذكـرها مؤرخو الصوفية عن سبب تزهد الفضيل لتدعيم طريق الزهد والتصوف ، والدعوة إلى التوبـة .

وقـد كـان الفضيل بن عياض دائم الحزن شديد التفكير ، إذا ذكر الله وتليت آياته ظهـر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه ، وبكى حتى يرحمه من بحضرته ، وكان إذا خرج في جـنازة مـع الناس لا يزال يعظ ويذكر ويبكي حتى لكأنه يودع أصحابه ، حتى إذا بلغ المقـبرة جلس واستغرق في الحزن والبكاء .. وكان شديدا على محاسبة نفسه وعمله في هذه الحـياة [6] .

أمـا طريقته في العبادة وكيفية قضاء وقته فكانت على النحو الذي ذكره إسحاق بن إبراهـيم فقال : " ما رأيت أحدا أخوف على نفسه ولا أرجى للناس من الفضيل ، كانت قـراءته شهية بطيئة مترسلة ، كأنه يخاطب إنسانا ، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة تردد فيهـا وسـأل ، وكانت صلاتـه بالليل أكثر ذلك قاعدا ، يلقى لـه حصير في مسجده

---

(١) سورة الحديد ، الآية (١٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٢٣/٨ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٤ .

(٤) انظر : طبقات الأولياء ص ٢٦٦ .

(٥) انظر : وفيات الأعيان ٨٧/٤ .

(٦) انظر : حلية الأولياء ٨٧/٨- ٨٩ .

فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه ، فيلقي نفسه على الحصير فينام قليلا ثم يقوم فإذا غلبه النوم نام ، ثم يقوم هكذا حتى يصبح .. " [١] .

وكان يربط بين الإيمان والزهد ربطا وثيقا ، بحيث لا يكون الإيمان إيمانا صحيحا إلا مع الزهد ، فيرى أن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا يبالي من أكل الدنيا ، وحتى لا يحب أن يحمد على عبادته لله ﷻ [٢] .

لذا ، يرى أن مفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا ، حيث سئل عن الزهد فيها ؟ فقال : القناعة فهي الغنى ، وسئل عن الورع ؟ فقال : اجتناب المحارم ، وسئل عن التواضع ؟ فقال : أن تخضع للحق .

أما رأيه في الحب الإلهي فيتضح عند حديثه عن صفة النزول لله ﷻ بأن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني ! أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ؟ هأنذا مطلع على أحبائي إذا جنهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة ، وكلموني على حضوري ، غدا أقر أعين أحبائي في جناتي [٣] .

٤- شقيق البلخي (ت ١٩٤هـ)

هو أبو علي ، شقيق بن إبراهيم الأزدي ، من أهل بلخ . يقول السلمي عنه : " وأظنه أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان "، حدث عن أبي حنيفة ، وصحب إبراهيم بن أدهم ، وأخذ عنه الطريقة [٤] .

يروي شقيق أن السبب في سلوكه طريق التصوف هو أنه كان قد خرج إلى بلاد الترك لتجارة ، وهو حدث إلى قوم يقال لهم الخصوصية وهم يعبدون الأصنام ، فدخل إلى بيت أصنامهم ، وعالمهم فيه حلق رأسه ولحيته ، ولبس ثيابا حمراء أرجوانية ، فقال له شقيق : إن هذا الذي أنت فيه باطل ، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالق ، فقال له الخادم : ليس يوافق قولك فعلَك ، فقال له شقيق : كيف ذاك ؟ قال : زعمت أن لك خالقا رازقا قادرا على كل شيء ، وقد تعنيت إلى هاهنا لطلب الرزق ولو كان كما تقول فإن الذي يرزقك هاهنا هو الذي يرزقك ثمّ ، فكان هذا سبب زهدي .

---

(١) حلية الأولياء ٨٩/٨ ، وطبقات الأولياء ص ٢٧٠ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ٩٦/٨ ، ٩٧ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ١٠٢/٨ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٦١ .

ولذلك رجع وتصدق جميع ما ملك وطلب العلم [١] .

ويقول : كنت شاعرا فرزقني الله التوبة ، وخرجت من ثلاثمائة ألف درهم ، ولبست الصوف عشرين سنة ، ولا أدري أني مراء حتى لقيت عبد العزيز بن داود فقال: ليس الشأن في أكل الشعير ولبس الصوف ، الشأنُ أن تعرف الله بقلبك ، ولا تشرك به شيئا ، وأن ترضى عن الله ﷻ ، وأن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في أيدي المخلوقين [٢] .

من هنا صار محور زهد شقيق قائما على مقالة عبد العزيز بن داود " فالجنة عنده لا تنال إلا بمعرفة الله ﷻ بالقلب واللسان والسمع ، وبالثقة بما في يد الله ، والرضا بقسمة الله ﷻ ، وكذلك فالنجاة من النار مرهونة بمعرفة الله ، ومعرفة الإنسان لنفسه ، ومعرفة أمر الله ونهيه ، ومعرفة عدو الله وعدو نفسه . والاستقامة تتحقق عنده بأربعة أشياء ؛ عدم ترك أمر الله لشدة ، ولا لرخاء ، وعدم العمل بهوى النفس ، ولا هوى أحد " [٣] .

وتاج الزاهد عنده ثلاث خصال : " أن لا يميل مع الهوى ، وأن ينقطع للزهد بقلبه ، وأن يذكر كلما خلا مدخله في قبره ، والجوع والعطش والعري وطول القيامة والحساب والصراط والحساب والفضيحة .. فإذا ذكر ذلك شغله عن ذكر دار الغرور " [٤] .

٥- معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)

هو العابد ، المنسوب إلى كرخ [٥] بغداد ، وكان أحد المشتهرين بالزهد والعزوف عن الدنيا .. [٦]

يقول كتّاب التراجم أن معروفا كان من أبوين نصرانيين ، فأرسلاه إلى مؤدبهم فقال له : إن الله ثالث ثلاثة ، فكان جوابه عليه بل هو الله أحد ، فضربه وأسلم على يد علي بن

---

(١) انظر : حلية الأولياء ٨/٦٣ ، وسير أعلام النبلاء ٩/٣١٣ .

(٢) المصدر نفسه ٨/٦٤ . وسير أعلام النبلاء ٩/٣١٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٨/٦٤- ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه ٨/٦٦ .

(٥) كانت الكرخ أولا في وسط بغداد والمحال حولها ، فأما الآن فهي محلة وحدها ، فبين شرقها والقبلة محلة باب البصرة ، وبينهما نحو شوط فرس ، وفي جنوب بها المحلة المعروفة بنهر القلائين ، وعن يسار قبلتها محلة تعرف بباب المحوّل . انظر : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ٤/٥٠٨ .

(٦) انظر : تاريخ بغداد ١٣/١٩٩ ، وحلية الأولياء ٨/٤٠٤ ، وطبقات الحنابلة ١/٣٨١ .

موسى الرضا ورجع إلى أبويه فأسلما [١] . غير أن ثمة رواية أخرى تؤكد أن أباه كان صابئا من أهل بهريان من قرى واسط .

قابل سفيان بن عيينة بعض أهل بغداد فسألهم عن معروف الكرخي ذلك الحبر الذي فيهم مؤكدا لهم أن أهل تلك المدينة لا يزالون بخير ما بقي فيهم معروف الكرخي [٢] ، وجاء رجل من الشام إلى معروف يسلم عليه ، وأخبره بأنه رأى في المنام قائلا يقول له : " اذهب إلى معروف فسلم عليه ، وأخبره أنه معروف في أهل الأرض ومعروف في أهل السماء " [٣] لذا ، ذكره الكلاباذي ضمن رجال الصوفية ، ومن نطق بعلومهم ، وعبر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم [٤] .

من أقواله التي تنم عن زهده وتصوفه حثه على التوكل والعمل ، فقد قال لرجل : " توكل على الله حتى يكون هو معلمك و أ نيسك وموضع شكواك .. فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يمنعونك ولا يعطونك " [٥] وهذا التوكل لا يعني الكسل والخنوع ، بل يكون شغل الإنسان دائما في الله ﷻ وفراره إليه ﷻ ، وحينما سئل معروف عن علامة الأولياء فكان جوابه على ذلك ثلاثة : أولها أن تكون همومهم لله ﷻ والأخرى أن يكون شغلهم في الله ، والثالثة أن يكون فرارهم إليه ، ويضاف إلى ذلك ما قاله معروف : " إن الله إذا أراد بعبد خيرا فتح عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل " [٦] .

ويستنبط رأيه في التوكل – كذلك – من خلال أدعيته التي تدل على الثقة بالله ﷻ والالتجاء إليه ﷻ ، وهو يقول : " اللهم إن قلوبنا وجوارحنا بيدك لم تملكنا منها شيئا ،

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٢٧ ، وطبقات الأولياء ص ٢٨١ ، وصفة الصفوة ١٩٧/٢ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٢٠١/١٣ ، وطبقات الحنابلة ٣٨٢/١ .

(٣) حلية الأولياء ٤٠٩/٨- ٤١٠ .

(٤) انظر : التعرف للكلاباذي ص ١١ .

(٥) حلية الأولياء ٤٠٤/٨ ، وطبقات الصوفية ص ٨٧ .

(٦) المصدر السابق ٤١١/٨ .

إن فعـــلت ذلك بهما فكن أنت وليهما " [١] . ولكنه لا ينفي جانب المسؤولية الفردية ، إذ يرى أن السبب في أداء سجدتي السهو كان عقابا للقلب لأنه اشتغل وغفل عن الصلاة [٢] .

ويقول : " طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع مـــن الغرور ، و ارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق " . ويقول أيضا : " إذا أراد الله بعبد خيرا فتح الله عليه باب العمل وأغلق عنه باب الفترة والكسل " [٣] .

ويؤكد هذا الاتجاه المعبر عن حب معروف للعمل ومداومته له ، حينما حدث له أن قص إنسان شاربه فلم يفترمن الذكر، قال :كيف أقص ؟ قال أنت تعمل وأنا أعمل [٤].

فالعـــبارات الســـابقة تدل على أن معروف الكرخي يحض على العمل ، ويحث على الأخذ بالأسباب ، وهو المبدأ الذي يشجع عليه الكتاب والسنة ، ويحرص على امتثاله زهاد السلف الصالح . فمعروف خير مثال يحتذى في مجال العمل ، وقد قال لـــه بعض أصحاب داود الطـــائي : " إياك أن تترك العمل فإن ذلك يقربك إلى رضا مولاك ، فقلت : وما ذلك العمل ؟ قال : داوم طاعة ربك ، وخدمة المسلمين والنصيحة لهم " [٥] .

وأمـــا عن كرامته التي تتأيد بها ولايته وحب الله ﷻ له فقد أورد البغدادي كثيرا من هـــذه الكـــرامات وكذا أبو نعيم أنه قيل لمعروف : يا أبا محفوظ لو سألت الله أن يمطرنا وكان يوما شديد الحر ، فقال : ارفعوا إذاً ثيابكم فما أن يتموا رفع ثيابهم حتى جاء المطر . وقيل لـــه : بلغني أنك تمشي على الماء ؟ فقال : " ما مشيت قط على الماء ولكن إذا هممت بالعـــبور جمـــع لي طرفاه فأتخطاها " [٦] . ولكن رغم ذلك كله كان معروف يفضل أن لا يـــتحدث عن الكرامات ؛ بل كان دائما يحاول إخفاءها مما كان له أثر كبير في تصوف أبي القاسم الجنيد .

ومـــا ذكـــرنا من النماذج لأبرز الأعلام الصوفية في القرن الثاني الهجري ما هي إلا لمحـــات مـــن حياتهم وهم – بلا شك – من زهاد السلف الصالح ، ومن أصحاب القرون

---

(١) طبقات الصوفية ص ٨٦ ، وتاريخ بغداد ١٣/١٩٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ١/٣٨٢ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٨٩ .

(٤) حلية الأولياء ٨/٤٠٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٤٢٧ – ٤٢٨ ، ووفيات الأعيان ٤/٣١٩ .

(٦) تاريخ بغداد ١٣/٢٠٦ – ٢٠٧ .

الأولى ، التي شهد لهم رسول الله ﷺ حينما قال : ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ..)) [١] . وقد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة حيث لا يأخذون منها إلا بقدر الحاجة ، وكان لهم طابع سلوكي عملي ، عرفوا المحبة والخشية ، وتقربوا إلى الله ﷻ بالعبادات ، وذلك من خلال النظر في آيات الكتاب والاقتداء بالرسول ﷺ ، وبما أن العقائد الإيمانية قد سيطرت عليهم ، فإنهم وضعوا نصب أعينهم ضرورة الإذعان والخضوع للهيمنة الإلهية التي تحكم سلوكهم ، و يكثرون من أداء العبادات للتقرب إلى الله ﷻ ، والتقشف خشية الحساب ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقامة المجتمع المسلم الصحيح .

وقد ذكر نيكولسون هؤلاء بأنهم من المتصوفين الزهاد ، وأن تصوفهم كان — أو على الأقل من المحتمل أنه كان — وليدا لحركة الإسلام ذاته ، وأنه كان نتيجة لازمة لفكرة الإسلام عن الله ﷻ ، وهي فكرة لم يكن من الممكن أن ترضى ذوي النزعات الروحية من المسلمين ، ولكن تصوفهم لم يكن إلا تصوفا معتدلا بالرغم من أنهم ذهبوا في أساليب الزهد والرضا إلى أبعد حد ممكن ، غير أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن أحوال الجذب والوجد ، وما لزم عنهما من البحوث النظرية الجريئة التي ظهرت في التصوف في العصر المتأخر [٢] .

وما قاله نيكولسون فيه نوع من الصحة بعد أن قرأنا صفحات من حياة هؤلاء الأعلام ، الذين من الصعوبة بمكان أن نميز بين صفاتهم كزهاد أو وعاظ ، أو سماتهم كفقهاء ومحدثين ، لأن هذه الدوائر تتداخل بحيث يتعذر إقامة الفواصل بينها ، ولأنها تتصل بالدائرة الكبرى التي تحيط بها وهي دائرة الإسلام العظيم [٣] .

---

[١] أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ، باب فضل أصحاب النبي ﷺ ٣/٦ (ح ٣٦٥٠) ، ومسلم في فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ١٩٦٤/٤(ح٢٥٣٤) .

[٢] انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٣- ٤ .

[٣] انظر : ابن تيمية والتصوف ص ١٩٥ .

٦- أبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ)

هو الإمام الكبير ، زاهد العصر ، من أهل واسط، نزح إلى الشام ، سمع الحديث الكثير ، ولقي سفيان الثوري وغيره ، ولكنه اشتغل بالتعبد عن الرواية [١] .

قال الخطيب البغدادي بإسناده عن جعفر بن أحمد بن أبي المثنى الموصلي يقول : رأيت أبا سليمان الداراني ببغداد سنة ثلاث ومائتين أو أربع ومائتين مخضوب اللحية ، له شعيرة في مسجد عبد الوهاب الخفاف ، فقيل له : إن عبد الوهاب الخفاف يقول بشيء من القدر ، فترك الصلاة في مسجده ، وذهب إلى مسجد آخر . وفي هذا الخبر إن صح يعد أبو سليمان سنيا سلفيا على عقيدة السلف الصالح .

ثم أضاف الخطيب بإسناده إلى أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت أبا سليمان يقول : " ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه من الأثر ، فإذا سمعه من الأثر عمل به وحمد الله حيث وافق ما في قلبه " [٢] . وهذا القول موافق أيضا لما كانت عليه الجماعة من أصحاب السلف الصالح .

وقد ترجم له ابن الملقن في طبقات الأولياء [٣] ترجمة طويلة ، وكذا أبو نعيم في الحلية[٤] وابن كثير في البداية والنهاية [٥] ، وابن الجوزي في صفة الصفوة [٦] ، وقد اتفقوا جميعا على صلاح الداراني واتباعه المنهج السوي .

ولأبي سليمان الداراني أقوال كثيرة في صميم التصوف النظري ، وهي المعبرة عن لغة الحب الإلهي ، وهذه اللغة التي كانت لها شأن كبير عند الصوفية ، ويتضح ذلك من خلال حديث تلميذه أحمد بن أبي الحواري قال : " دخلت على أبي سليمان الداراني وهو يبكي ، فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ولم لا أبكي ؟ إذا جن الليل ونامت العيون ، وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم ، وتقطرت في محاريبهم ، أشرف الجليل ﷻ فنادى يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي ،

---

(١) انظر : طبقات الصوفية ص ٧٥ ، وسير أعلام النبلاء ١٨٢/١٠ .

(٢) تاريخ بغداد ٢٤٨/١٠- ٢٤٩ .

(٣) انظر : ص ٣٨٦- ٣٩٧ .

(٤) انظر : ٢٦٧/٩- ٢٩٢ .

(٥) انظر : ٢٢٩/١٠- ٢٣٢ .

(٦) انظر : ١٩٧/٤- ٢٠٨ .

واســتراح إلى ذكــري ، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم ، أسمع أنينهم وأرى بكاءهم فلم لا تــنادي فيهم يا جبريل : ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوما إذا جنهم الليل تملقوا لي [١] ، فبي حلفت أنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم " [٢] .

وقــال معلنا عن تمسكه بنظرية الحب والعفو والكرم الإلهي التي تنجيه من عذاب الله ﷻ إذ يقــول في دعائــه : " يــا رب إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك " [٣] .

وقد يعاني كثيرا من المجاهدات فيرى في طاعة الله ﷻ لذة لا يجدها أهل اللهو بلهوهم ، فيقــول : " لو عوض الله ﷻ أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه في قلوبهم من اللذة لكان ذلك أكبر من أعمالهم " [٤] .

وذكــر الدكتور علي النشار أن أبا سليمان أول من استخدم مصطلح " أهل الليل " لقولـــــه : " ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا " [٥] ، ولكنه مع ذلك متبع للسلف في مجاهداته فلا يقبل منها إلا ما شهد بصحته الكتاب والسنة ، ويسعى إلى رزقه أولا ليحصل على لقمة العيش ، ثم يتعبد مستنكفا ممن ينتظر الطعام من إنسان آخر ، وهو يرجو عفو الله ﷻ عـــن خطاياه ، ويكره الموت راجيا أن يمتد به العمر لاحتمال توبته . ولهذا تغلب عليه محبة الله ﷻ عن الخوف منه لأن الحبيب في رأيه لا يمكن أن يعذب أحباءه [٦] .

وأمــا رأيــه في الزهد فيميل إلى فكرة الزهد الإيجابي ، حيث لا يترك الدنيا ويهملها وإنمــا يعمــل فيها من أجل الآخرة ممتثلا بمبدأ قطع كل علاقة تصرف العباد عن الله ﷻ ، فيقول : " وكل ما شغلك عن الله ﷻ من أهل ومال وولد فهو عليك شؤم " لأن الدنيا إذا ســكنت في القلب رحلت منه الآخرة " [٧] . ويقول أيضا : " ليس العبادة عندنا أن تصف

---

(١) أي توددوا بكلام لطيف ، وتضرعوا فوق ما ينبغي .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤١١- ٤١٢ .

(٣) حلية الأولياء ٩/٢٦٧ .

(٤) صفة الصفوة ٤/٢٠٢ .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣/٣٠٩ .

(٦) انظر : صفة الصفوة ٤/٢٠٤- ٢٠٥ .

(٧) الرسالة القشيرية ص ٤١١ .

قدميك وغيرك يفت [1] لك ، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزهما ثم تعبد [2] ، أي ليس معنى الزهد والانقطاع إلى العبادة أن يقصر المرء في أداء واجباته من تحصيل رزقه ورزق عياله ، بل عليه أن يسعى في الاستغناء عن حاجة الناس ، ويحافظ على عزة نفسه وأن لا يذلها في هذا الميدان .

كانت نظرة أبي سليمان الداراني إلى طبيعة العمل واضحة في حد ذاته حيث يقول : " ما أحسب عملا لا يوجد له في الدنيا لذة يكون له في الآخرة ثواب " [3] مؤكدا بأن الزاهد ليس من ألقى غم الدنيا واستراح منها ؛ ولكن الزاهد من ألقى غمها وتعب في الآخرة [4] .

نفهم من ذلك أن رأيه في مفهوم الدنيا موافق لما عليه السلف الصالح من أن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولكنه يقول في عبارة أخرى بأن مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة فلا يعطي إلا لمن أحب خاصة [5] . ولكن مع ذلك أين هذا من قول النبي ﷺ : ((اللهم إني أعوذبك من الجوع فإنه بئس الضجيع)) [6].

وقد كثرت الكلمات التي دعا فيها أبو سليمان إلى الجوع ، وينبغي أن لا نفهم هذه الكلمات على إطلاقها ، بل علينا أن نفهمها في ضوء التزامه بالكتاب والسنة ، حيث كان المقصود منها أن لا يصل الإنسان في أكله إلى حد الشبع ، فالشبع ضرره كبير ، لأنه يثقل الإنسان عن العبادة ، ويتعذر عليه حفظ الحكمة ، وتزداد عنده الشهوات ..ولم يقصد أيضا حرمان النفس من شهواتها كلها ، بل ينبغي أن يكون الإنسان متوسطا في الأمور في التعامل مع هذا الجانب ، وفي هذا يقول :

---

(١) يفت لك : أي يعد لك الطعام .

(٢) حلية الأولياء ٩/٢٧٨.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) حلية الأولياء ٩/٢٨١، ٢٨٦ .

(٥) تاريخ بغداد ١٠/٢٤٨- ٢٥٠ .

(٦) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب في الاستعاذة ٢/٩١ ، والنسائي ٨/٢٦٣ ، وذكره الألباني في صحيح أبي داود (١٣٨٣) ، وصحيح ابن ماجه (٢٧٠٧) .

" إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركا لها فأصب منها شيئا يسيرا ، ولا تعط نفسك مناها ، فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة ، وتكون قد نغصت عليها إذ لم تعطها شهوتها " [١] . وهذا المسلك يلتقي مع سنة الإسلام في عدم الشبع ، وقد ورد الحديث الشريف يحدد هذا الموضوع فقال النبي ﷺ ((ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه)) [٢] .

٧- بشر بن الحارث بن عبد الرحمن الحافي (ت ٢٢٧هـ)

قال عنه الخطيب البغدادي : المعروف بالحافي مروزي سكن بغداد وهو ابن عم علي ابن خشرم [٣] ، وكان ممن فاق أهل عصره في الورع والزهد ، وتفرد بوفور العقل وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة واستقامة المذهب ، وعزوف النفس وإسقاط الفضول ، ثم ذكر أسماء شيوخه ومن روى عنه ، ثم قال : وكان الكثير الحديث إلا أنه لم ينصب نفسه للرواية وكان يكرهها ودفن كتبه لأجل ذلك ، وكل ما سمع منه فإنما هو على سبيل المذاكرة ، واستمر الخطيب في ترجمته ، وأثنى على سيرته [٤] .

وقال عنه الحافظ ابن حجر : إنه الزاهد الجليل المشهور ، ثقة قدوة من العاشرة [٥] ، وترجم له ابن الملقن في طبقات الأولياء ، وأفاض في الحديث عنه وقال : ولقب بالحافي لأنه جاء إلى الإسكاف يطلب منه شعسا لأحد نعليه وكان قد انقطع ، فقال له الإسكاف : ما أكثر كلفتكم على الناس ؟ فألقى النعل من يده ، والأخرى من رجله وحلف بأن لا يلبس نعلا بعدها [٦] .

---

(١) إحياء علوم الدين ٩٩/٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ١٨/٤ (ح ٢٤٨٦) ، وذكره الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٩٩) .

(٣) علي بن خشرم بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال ، أبو الحسن المروذي ، ابن أخت نشر الحافي ، الإمام الحافظ الصدوق (ت ٢٥٧هـ) . سير أعلام ٥٥٢/١١ ، والجرح والتعديل ٥٦/٢ .

(٤) انظر : تاريخ بغداد ٦٧/٧، ٨٠ .

(٥) تقريب التهذيب ١٠٧/١ .

(٦) انظر : طبقات الأولياء ص ٩٩ .

لا شك أن هذا العمل فيه شدة وتعذيب للنفس ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، فقد أخبرنا بقوله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) . ومهما بلغ هؤلاء من الزهد والتقوى والورع والخوف فإنهم لا يبلغون ما بلغهم رسول الله ﷺ من ذلك أبدا ، وقد رد النبي ﷺ على مثل هؤلاء ردا قاطعا كما ورد في حديث له ﷺ حينما أجاب على ثلاثة رهط الذين جاءوا إلى بيوت أزواجه ﷺ ليسألوا عن عبادة النبي ﷺ ، فلما أخبروا بها عزم أحدهم بالمداومة على القيام ، والثاني على الصيام ، والثالث على اعتزال النساء ، فرد عليهم الرسول ﷺ بأنه يصوم ويفطر ، ويصلي ويرقد ، ويتزوج النساء ، ثم قال الرسول ﷺ : « من رغب عن سنتي فليس مني » (٢) .

هكذا نجد في سنة رسول الله ﷺ في جميع نواحي الحياة المادية والمعنوية منهجا مباركا وسلوكا مثاليا لا يحيد عنه إلا من سفه نفسه ، وابتعد عن طريق الهدى والرشد والهداية ، ولا نقول في حق هؤلاء الزهاد مثل بشر بن الحارث الحافي أنهم حادوا الطريق السوي عنادا إلا أن اجتهادهم أدى إلى ذلك ، فالمجتهد مهما كان في حاله فإنه مأجور عند الله ﷻ بأجر واحد عند الخطأ و بأجرين عند الإصابة ، فلا ينبغي لأحد أن يفضل طريق هؤلاء على منهج النبي ﷺ وصحبه الكرام رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

ولبشر الحافي أقوال تنم عن زهده وتصوفه حيث كان يقول : " خصلتان تقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل " (٣) . وكان يقول : " الجوع يصفي الفؤاد ويورث العلم" . ويقول : " من أراد عز الدنيا وشرف الآخرة فعليه بثلاث : لا يأكل لأحد طعاما ، ولا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر الناس إلا بخير " (٤) . ويقول أيضا : " تابعنا الأعمال فلم نجد عملا أبلغ في طلب الآخرة من الزهادة في الدنيا " (٥) .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٨ .

(٣) حلية الأولياء ٣٩٢/٨ .

(٤) المصدر نفسه ٣٨٦/٨ .

(٥) المصدر نفسه ٤٠٣/٨ .

٨- الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ)

كـان أحد كبار الزهاد ، عرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه ، وهو شيخ الجنيد ، له علم في الفقه والتصوف والكلام ..

قـال عنه الخطيب البغدادي بأنه " أحد من اجتمع لـه الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والـباطن " . وقـال أيضا : بأن لـه كتبا كثيرة في الزهد في أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما ، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع [١] .

قـال الذهبي : المحاسبي الزاهد العارف ، شيخ الصوفية ، صاحب التواليف ، صدوق في نفسـه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه " [٢] . ولعل السبب في ذلك هو منهجه في كتـبه ومجالسـه الوعظيـة ، أو السبب الأصيل المباشر هو كلامه وبحثه في علم الكلام وإدخالـه في كتبه ، بحيث كان معارضا للفرق المنحرفة في عصره وخاصة المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج والمرجئة ، بدليل أن كتبه الصوفية لم تخل من فضح لأحوالهم ، وقد قال فيهـم بـأنهم : " فـرقة ضالة مضلة ، لا تفطن لضلالتها لاتساعها في الحجاج ، ومعرفتها بدقـائق مذاهـب الكـلام ، وحسن العبارة بالرد على من خالفها ، فهم عند أنفسهم من القائـلين على الله ﷻ بالحق ، والرادين لكل ضلالة ، لا أحد أعلم منهم بالله ، ولا أولى به مـنهم ، وكل الأمم ضالة سواهم ، وأن الله ﷻ لا يضرب مثلهم ، بل لا ينجو في زمانهم غيرهـم ، وغيرهـم من المغترين يدعى ذلك وينتحله ، ويشهد عليهم بالإكفار ، فهم فرق كـثيرة يكفـر بعضها بعضا ، وكل فرقة منها مغترة ، لا ترى أن أحدا يقول عليه بالحق غيرها " [٣] .

وكـتابه " فهـم القرآن " هو الذي يحوي بعض آرائه الكلامية ، وعليه اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية في نقل أقوالـه [٤] .

منهجه في التصوف :

لقـد كـان سـبيل النجاة عند المحاسبي وثيقة الصلة بالتمسك بتقوى الله ﷻ وأداء فرائضـه ، والورع في حلالـه وحرامه ، والإخلاص لله ﷻ بطاعته والتأسي برسوله ﷺ ،

---

(١) تاريخ بغداد ٢١١/٨، وطبقات الشافعية ٢٧٦/٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٠/١٢ ، وميزان الاعتدال ٤٣٠/١ .

(٣) الرعاية لحقوق الله ص ٤٥٨ .

(٤) انظر : درء التعارض ٤٥/٢، ومجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٥٧/٥ .

وطـريق الوصول ووسيلة البلوغ قائمة على رعاية حدود الشريعة : " فمن شرح الله صدره ووصـل التصـديق إلى قلبه ورغب في الوسيلة إليه لزم منهاج ذوي الألباب برعاية حدود الشـريعة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة " [١] . ويرى من إمارات الباطن السليم تزيين الظاهر بالمجاهدة واتباع السنة [٢] .

وأركان التصوف وأسسه عند المحاسبي تقوم على الزهد ، والمحاسبة ، والمحبة .

فيعـني الـزهد عند المحاسبي بالعزوف عن الدنيا ولذاتها وشهواتها ، فتنصرف النفس ويـتعزز الهـم ؛ ويعني بانصراف النفس بميلها إلى ما دعا الله ﷻ إليه بنسيان ما وقع بها من طباعها ، وأما اعتزاز الهم فهو الانقطاع إلى خدمة المولى ﷻ بضن الإنسان بنفسه عن خدمة الدنيـا مسـتحيا من الله أن يراه خادما لغيره وينقطع إلى خدمة سيده ، ويتعزز بملك ربه ، فترحل الدنيا عن قلبه ، ويعلم أن في خدمة الله ﷻ شغلا عن خدمة غيره [٣] .

والـناس يـتفاوتون في الـزهد حسب نصيبهم من صحة العقل وطهارة القلب ، فأفضـلهم أعقـلهم وأعقلهم أفهمهم عن الله ، وأفهمهم عن الله أحسنهم قبولا عن الله ، وأحسنهم قبولا عن الله أسرعهم إلى ما دعا الله ﷻ ، وأسرعهم إلى ما دعا الله ﷻ أزهدهم في الدنيا ، وأزهدهم في الدنيا أرغبهم في الآخرة [٤] .

والمحاسبة تعني عند المحاسبي " النظر والتثبت بالتمييز لما كره ﷻ مما أحب " . وعرف المحاسبي بها لبلوغه فيها درجة لم يسبقه إليها أحد من أهل التصوف ..

والمحاسـبة في أعمال القلوب – عند المحاسبي - تكون في أربعة مواطن .. فيما بين الإيمـان والكفـر ، وفيما بين الصدق والكذب ، وبين التوحيد والشرك ، وبين الإخلاص والـرياء . وهـي على وجهين : في مستقبل الأعمال بالنظر قبل الزلل ليبصر ما يضره مما يـنفعه فيترك الأولى ويعمل بالثانية ، وفي مستدبرها حين يفرط منه الشيء فيعزم على عدم العودة ، وقد دل على الوجهين الكتاب والسنة ، وأجمع عليهما علماء الأمة [٥] .

---

(١) رسالة المسترشدين ص ٣٠ ، ٥٨ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) انظر : حلية الأولياء ١٠/٩٠ .

(٤) المصدر نفسه ١٠/٩١ .

(٥) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٥٤- ٥٩ .

وأمـــا المحـــبة فهي محبة طاعة الله ﷻ ، يقول المحاسبي : " إن أول المحبة الطاعة وهي منتزعة من حب السيد (الله ﷻ) إذ كان هو المبتدي بها ، وذلك أنه عرفهم بنفسه ، ودلهم عـــلى طاعته ، وتحبب إليهم على غناه عنهم .." [١] ، ويفصل معنى المحبة فيجعله في إيثاره تعـــالى وموافقته التامة ، ويقول : " المحبة ميلك إلى المحبوب بكليتك ثم إيثارك لـــه على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه " [٢] .

٩- ذوالنون المصري (ت ٢٤٥هـــ وقيل : ٢٤٨هـــ)

لقـــد عرف بالزهد والورع والعزلة عن الناس ، وهو أول من تكلم ببلدته في ترتيب الأحـــوال ومقامات الأولياء ، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم سيد فقهاء المالكية آنذاك وشاع أنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف فهجره علماء مصر،حتى رموه بالزندقة [٣] .

عـــاش ذوالـــنون في عصر حفل بكثرة من ظهر فيه من أئمة الفقهاء وعلماء الحديث ومشايخ الصوفية ، فاتصل بأولئك وهؤلاء وتأثر بهم ، فهو قد اتصل بالإمام أحمد بن حنبل واجـــتمع به ، كما اجتمع به غيره من مشايخ الصوفية الذين كان منهم بشر الحافي والسري السقطي ومعروف الكرخي .

وقـــد حفلت كتب التراجم والطبقات التي عرضت لحياة ذي النون بكثير من أقواله وأدعيـــته التي تصور لنا كثيرا من آرائه في مختلف المسائل الصوفية ، ولعل أبا نعيم فيما أورد في حليته من آثار ذي النون أكثر المؤلفين مادة وإيرادا للحياة التاريخية والمذهبية لذي النون ، وذلـــك لمـــا يتضمنه من عناصر روحية ، لها قيمتها التصوفية والفلسفية ، فالنفس الإنسانية وتحليل خطراتها وشهواتها وأخلاقها ، ووصف أحوالها ومقاماتها من ناحية ، وعن معرفة الله ﷻ ووحدانيـــته وعلاقاتـــه بالمخـــلوقات من ناحية أخرى ..وغير ذلك من رؤوس المسائل المبثوثة في كتاب الحلية [٤] .

ومـــن أبرز أفكاره التي تنم عن فكره الصوفي تناوله فكرة الطريق أو الوصول إلى الله ﷻ ، فكـــان مـــدار الكـــلام عنده في هذه الناحية يقوم على حب الجليل ، وبغض القليل،

---

(١) حلية الأولياء ١٠/٨٦ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٢٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/٥٣٤ .

(٤) انظر : حلية الأولياء ٩/٣٤٥- ٣٩٩ .

واتباع التتريل ، وخوف التحويل [١] . وحينما سئل عن المحبة قال : " أن تحب ما أحب الله ، وتــبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغلك عن الله ، وألا تخاف في الله لومــة لائــم ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسوله ﷺ في الديــن " [٢] . فهو قد جعل من حب الله ﷻ والإعراض عن الدنيا والسير على نهج الكتاب والسنة ، والخوف أن ينكص الإنسان على عقبيه متابعة لنفسه ومسايرة لشهواتها أسسا يقوم عــليها مذهبه الصوفي ، ومعالم واضحة للسالكين إلى الله ﷻ ، وقد قدم حب الجليل على غــيره من الأسس لأنه كان يرى أن " من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه ، وأفعاله وأمره وسننه " [٣] .

وهذا يعني بعبارة أخرى أن الوقوف مع النفس الأمارة بالسوء والخضوع لتروائها هو – عــند ذي الــنون – أكثف أنواع الحجب ، ولهذا نجده يتحدث عن الذنب ، ويرى أن سبب الذنب النظرة ، وأن من النظرة الخطرة ، وأن تدارك الخطرة هو الرجوع إلى الله ﷻ ، وإلا فإنها تمتزج بالوساوس فتتولد منها الشهوة ، وهذا كله باطن لم يظهر بعد على الجوارح هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تدارك الإنسان للشهوة ما يجعله بمأمن من غوائلها .

ولا يقف ذوالنون في تحليله للنفس الإنسانية عند هذا الحد ، بل يتحدث عن أخلاق النفس ، وما ينبغي أن تتحلى به ، أو ما ينبغي أن تتخلى عنه . وقد سأله رجل فقال : يا أبا الفيض دلني على طريق الصدق والمعرفة ؟ فقال : " يا أخي أدِّ إلى الله ﷻ صدق حالتك التي أنت عليها على موافقة الكتاب والسنة ..وإياك أن تترك ما تراه يقينا لما ترجوه شكا " [٤] . وســئل أيضا : بم عرف العارفون ربهم ؟ فقال : " إن كان بشيء فقطع الطمع والإشراف مــنهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها ، وبذل المجهود من أنفسهم ثم إنهم وصلوا بعد إلى الله بالله " [٥] .

إن طــريق الوصول إلى الله ﷻ – عند ذي النون – شاق وعسير يجب أن يتدرج فيه الســالك في مراحل يسلم بعضها إلى بعض ، ويستطيع السالك من خلالها أن يصفي نفسه

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ٤٣٣ .

(٢) طبقات الصوفية ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٤) حلية الأولياء ٩/٣٦٥ .

(٥) المصدر نفسه ٩/٣٦٦ .

وينقي قلبه عن طريق المحبة واليقين ، والثقة بالله ﷻ ، والشكر والرضا ، والأنس والشوق ، والخــوف والإخــلاص ، والتوكل والصبر ، والزهد والعبادة ، والمعرفة والتقوى، والصدق وحســن الخلق وغير ذلك مما هو موضوع رئيسي للتصوف ، ودعامة قوية لما ينبغي أن يحياه المتصوف من حياة روحية ، قوامها الإقبال على الله ﷻ ، وغايتها الظفر بالقرب من الله ﷻ

١٠- أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ وقيل : ٢٦٤هـ)

قــال عنه الإمام الذهبي : ولــه كلام نافع من ذلك قولــه : " ما وجدت شيئا أشد عــلي من العلم ومتابعته ، ولولا اختلاف العلماء لبقيت حائرا " . وعنه قال : " هذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا أمنتك ؟ ليس العجب من حبي لك ، وأنا عبد فقير وإنما العجب من حبك لي ، وأنت ملك قدير "[١] .

كما أن لــه كلاما موافقا لما عليه السلف الصالح حينما قال : " لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عن الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة "[٢] .

إلى جــانب هذه النصوص وغيرها نجد لــه نصوصا أخرى تصطدم مع العقيدة الصــحيحة ، حيــث صدرت عنه عبارات منحرفة حينما تحدث عن صلة الله ﷻ بالكون وخاصــة الإنسان . فمن تلك العبارات قوله : " غبت عن الله ثلاثين سنة ، وكانت غيبتي عنه ذكري إياه ، فلما خنست عنه وجدته في كل حال حتى كأنه أنا "[٣] .

ومــن أقوالــه الشهيرة : "سبحاني ما أعظم شأني، حسبي من نفسي حسبي "[٤] ، وروى أن أبا يزيد دخل مدينة فتبعه فيها خلق كثير ، ثم صلى بهم الفجر فالتفت إليهم وقال : " إني أنــا الله لا إلــه إلا أنــا فاعبدون .. فقالوا جن أبو يزيد فتركوه [٥] ، وقال أيضا : " طــلقت الدنيــا ثلاثا ثلاثا بتاتا لا رجعة فيها ، وصرت إلى ربي وحدي فناديته بالاستغاثة إلهي أدعوك دعاء لم يبق لــه غيرك ، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي

---

(١) حلية الأولياء ٣٤/١٠ ، وسير أعلام النبلاء ٨٦/١٣ .

(٢) حلية الأولياء ٤١/١٠ .

(٣) المصدر السابق ٣٥/١٠ .

(٤) شطحات الصوفية ص ١٠١ .

(٥) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

كان أول ما ورد عليّ من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية ، ونصب الخلائق بين يدي مع إعراضي منهم " [١] .

ومـــن خـــلال هذه النصوص تبين لنا أن البسطامي قد وضع فكرة الفناء الصوفي ، وبهذا كان يعتبر أول من يمثل مرحلة انتقال خطيرة في التصوف إلى اتجاه فلسفي خالص قائم عـــلى أســـاس فكرة الاتحاد والوحدة ، ولعله أخذ هذه النظرية من جذورها الهندية ، وأكد ذلك نيكولسون بأن الفكرة الصوفية في فناء الذات في الوجود الكلي هي بلا ريب من أصل هـــندي . لأنهـــا تتفق مع النرفانا ، وربما كانت أشد اتصالا بفكرة الفيدانتا وما ماثلها من الأفكار الهندية ، وربما أبو يزيد تلقاها عن شيخه أبي على السندي [٢] ، الذي علمه الطريقة الهـــندية ، الـــتي يســـمونها مراقبة الأنفاس ، والتي وصفها هو بأنها عبادة العارف بالله [٣] .

وســـيأتي الكلام عن الفناء لاحقا إلا أني أريد أن أوضح هنا أن فناء أبي يزيد هو سقوط ما ســـوى الله ، بحيـــث لا يعود الصوفي مشاهدا إلا حقيقة واحدة هي الله ﷻ ؛ بل لا يعود مشـــاهدا لنفســـه لتتلاشى نفسه في مشهوده ، وهو ما يعبر عنه بمحو الرسوم ، وفناء الهوية وغيبة الآثار ، وعندئذ يتحد بالحق اتحادا كاملا .

ولاشك أن عباراته " سبحاني ما أعظم شأني ، حسبي من نفسي " و " إني أنا الله لا إلـــه إلا أنـــا فاعبدون " عبارات منكرة ؛ بل هي كلمة شرك ، ومخالفة لما اعتقده السلف الصالح من عقيدة صافية من كل شائبة .

أمـــا إذا واصلنا الكلام إلى بعض كلماته المنحرفة التي تصطدم مع تعاليم ديننا الحنيف فإنـــنا نجدها مبثوثة في كتاب الحلية وطبقات الأولياء ، من ذلك قوله : " طلقت الدنيا ثلاثا ثلاثـــا بتاتا لا رجعة فيها .. " [٤] ، وقوله : لما سئل : بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ قال ببطن جائع وبدن عار " [٥] .

فقد كانت إجابة البسطامي مخالفة صريحة لسنة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، ذلك أن الشـــارع الحكيم نهى عن الغلو والتشدد على النفس فقال ﷻ ﴿ قُـــلْ يَا أَهْـــلَ الْكِتَابِ

---

(١) حلية الأولياء ٣٦/١٠ .

(٢) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٧٥ .

(٣) انظر : اللمع للطوسي ص ٢٣٥ .

(٤) حلية الأولياء ٣٦/١٠ .

(٥) طبقات الأولياء ص ٣٩٩ .

لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [١] . كما حذر الرسول ﷺ من مشابهة أهل الكتاب فقد سأل رجل النبي ﷺ فقال: إن من الطعام طعاما أتحرج منه فقال : ((لا يختلجن في نفسك شيئا ضارعت فيه النصرانية)) [٢] ، أي لا يدخل في قلبك ضيق وحرج لأنك على الحنفية السهلة ، فإذا شككت وشددت على نفسك بمثل هذا شابهت فيه الرهبانية .

كما نهى النبي ﷺ عن التشدد على النفس فقال فيما رواه أنس بن مالك ﷺ ((لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم)) [٣] . فالحديث وغيره يرد ردا قاطعا على أبي يزيد وعلى سلوكه المنحرف عن منهج الله ﷻ الذي وضعه على رسوله ﷺ .

١١- سهل بن عبد الله التستري (ت ٢٨٣هـ)

لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، فهو صاحب كرامات ، وكان عامة كلامه في تصفية الأعمال ، وتنقية الأحوال عن المعايب والإعلال ، قال أبو نعيم : سمعت أبي يقول : سمعت أبا بكر الجوربي يقول : سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله يقول : " أصولنا ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق " [٤] .

وقال : " من كان ا قتداؤه بالنبي ﷺ لم يكن في قلبه اختيار لشيء من الأشياء ، ولا يجول قلبه سوى ما أحب الله ورسوله ﷺ [٥] .

وهذا دليل على حرصه الشديد على التمسك بكتاب الله ﷻ ، والاقتداء بسنة رسوله ﷺ ، وموافق لما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا ﴾ [١] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة ، باب في كراهية التقذر للطعام ١٤٨/٤ (٣٧٨٤) ، والترمذي في السير ، باب طعام المشركين (١٥٦٥) وأحمد ٢٢٦/٥ ، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٢٧٠) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ، باب الحسد ٢٠٩/٥ (٤٩٠٤) .

(٤) حلية الأولياء ١٩٨/١٠ .

(٥) حلية الأولياء ١٩٨/١٠- ١٩٩ .

أمـــا رأيه في التوكل فيتضح في قولـــه تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [٢] قـــال : من يتق الله في دعواه فلا يدعي الحول والقوة ويتبرأ من حوله وقوته ، بل يرجع إلى حـــول الله وقوته يجعل لـــه مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهـــو حســبه ، قال : لا يصح التوكل إلا لمتق ، ولا تتم التقوى إلا لمتوكل لقوله تعالى : ﴿ وَعَـــلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] ، وقال : من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمـــان ومـــن طعن في التكسب فقد طعن في السنة . وقال أيضا : " ليس في خزائن الله أكبر من التوحيد " [٤] .

وهـــذه كلمات أخرى تبين مدى موافقة اعتقاده للكتاب والسنة ، وأنه يعظم توحيد الله ﷻ . ولهـــذا مدحه شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه من صوفية أهل العلم ، فهو اعتراف منه – رحمـــه الله – بمنزلته السامية ومكانته الرفيعة ، وأنه لم يخالف الشريعة كما هو واضح من كلام سهل التستري في اتباع الكتاب والسنة .

١٢- أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧هـ)

قال عنه السبكي : " هو سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصـــوف " [٥] . وحكـــى عن نفسه عندما كان صبيا " كنت بين يدي السري السقطي ألعـــب وأنـــا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ قلت : أن لا تعصي الله بنعمه ، فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك ، قـــال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي " [٦] . وحكايته عن نفسه هذه تدل على مترلته في التصوف .

الجنيد هو أول من نادى صراحة بالتمسك بالكتاب والسنة واتباع الشريعة في ميدان التصـــوف فهـــو القائل : " الطريق إلى الله مسدود على خلق الله ﷻ إلا على المقتفين آثار

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

(٢) سورة الطلاق ، الآية (٢) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

(٤) حلية الأولياء ١٠/٢٠٤- ٢٠٥ .

(٥) طبقات الشافعية ٢/٢٦٠ .

(٦) صفة الصفوة ٢/٤١٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٤/٦٨ .

رســـول الله ﷺ والـــتابعين لسنته ، كما قال الله ﷻ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [١] " [٢] .

أورد الخطيـــب بإسناده : أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال : سمعت علي بن هارون الحربي ومحمـــد بـــن أحمد بن يعقوب الوراق يقولان : سمعنا أبا القاسم بن محمد غير مرة يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث و لم يتفقه لا يقتدي بـــه . ثم ســـاق إسنادا آخر عن عبد الواحد بن علوان الرحبي قال : سمعت الجنيد بن محمد يقـــول : علمـــنا هـــذا - يعني علم التصوف - مشبك بحديث رسول الله ﷺ [٣] وهذه النصوص تدل على صلاحه وحسن منزلته .

وقـــد ترجم لـــه ابن الملقن في طبقات الأولياء [٤] ، وذكر فيها ماله وما عليه ، كما ترجم لـــه أبو يعلى ترجمة مختصرة وجاء فيها وقال الخلدي : " رأيت الجنيد في النوم فقـــلت مـــا فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في الأسحار " [٥] .

وهذه رؤيا منامية لا يحتج على ما جاء فيها من نصرة الشريعة الإسلامية إنما نستأنس بهـــا على أحقية الشريعة كما ثبت ذلك عن نصوص الكتاب والسنة ، ويكفينا أن نقول : بـــأن أبا القاسم ذو علم وصلاح وتقوى من خلال قوله كما ذكره الخطيب في تاريخه وابن الملقن في طبقاته إذ قال الجنيد : " ما أخذنا التصوف عن القال والقيل لكن عن الجوع وترك الدنيـــا ، وقطع المألوفات والمستحسنات لأن التصوف هو صفاء المعاملة مع الله ﷻ ، وأصله الـــتعزف عـــن الدنيـــا " [٦] ، ولا يعني بذلك ترك الأكل والدنيا بتاتا كما تعتقده الصوفية المـــنحرفة عن جادة الصواب ، ذلك أن علم الجنيد مقيد بالكتاب والسنة كما قال بذلك : علامـــة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه ، وقال أيضا : ومن لم يحفظ القرآن و لم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٢) صفة الصفوة ٢/٤١٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٧/٢٤٣ .

(٤) انظر : ص ١٢٦- ١٣٦ .

(٥) طبقات الحنابلة ١/١٢٧- ١٢٩ .

(٦) تاريخ بغداد ٧/٢٤٦ .

ولا شـــك أن هذا الكلام يوافق ما دل عليه الكتاب والسنة ، ويقطع جميع الشبهات الباطـــلة الـــتي أثارها أهل التصوف من الإلحاد والزندقة ، والحلول والاتحاد وغير ذلك من الألفاظ والمعاني الكفرية البعيدة عن الحق والإنصاف خصوصا المتأخرين من الصوفية .

ولكـــن التصـــوف في عصره قد اقترب من المرحلة التي أصبح فيها منهجا للمعرفة ، وبـــدأت معـــالم الكشف تتخذ أحد الصور الخطيرة بادعاء بعض الصوفية سقوط التكاليف الشرعية ، ومن هنا صرح الجنيد لشخص ذكر المعرفة فقال : " أهل المعرفة بالله يصلون إلى تـــرك الحـــركات من باب البر والتقوى إلى الله ﷻ فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذه عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقـــص مـــن أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها ، وإنه لأؤكد في معرفتي وأقوي في حالي " [١] .

كما اتخذ الجنيد موقف الخصومة من علم الكلام فيقول : " أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عري من الهيبة بالله عري من الإيمان " [٢] .

إلى جانب معارضته من إسقاط التكاليف فإنه يعارض أيضا ما يسمى بمقام المشاهدة الـــذي بـــدأ يتسرب إلى الفكر الصوفي ليتخذ منه نظرية معروفة ، وهذه الفكرة كانت تلح عـــلى المحيطـــين بالجنيد فيسألون عنها " هل عاينت أو شاهدت " ؟ ونعثر في إجابته على دحضـــه لـــنظرية الكشف الصوفي [٣] التي يروج لها الصوفية المتأخرون ، حيث أجابهم بهذه العبارة الناقدة " لو عاينت تزندقت ، ولو شاهدت تحيرت " [٤] .

١٣- الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ)

قـــال عنه الإمام الذهبي : " وتبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء من سوء سيرته ومـــروقه ، فمنهم من نسبه إلى الحلول ، ومنهم من نسبه إلى الزندقة ، وإلى الشعبذة .. وقد

---

(١) طبقات الصوفية ص ١٥٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦٨/١٤ .

(٣) هو الاطلاع على ما وراء الحجـــاب من المعـــاني الغيبية والأمور الحقيقية وجـــودا وشهودا . انظر : معجم مصطلحات الصوفية للحفني ص ٢٢٥ .

(٤) شذرات الذهب ٢٢٨/٢ .

تســـتر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال ، وانتحلوه وروجوا به على الجهال ، نسأل الله العصمة في الدين " [١] .

قال أبو نصر السراج : صحب الحلاج عمرو بن عثمان ، وسرق منه كتبا فيها شيء من علم التصوف . [٢].

ومـــن خلال القراءة لأخباره يتضح أن الحلاج أول من قال بالحلول تطبيقا لا نظريا حيـــث ادعـــى أن الله ﷻ حل في نفسه مصرحا بعبارته المشهورة " أنا الحق " أي أنا الحق الخالق ، فإن كلمة الحق يراد بها الخالق في مقابل كلمة الخلق أي المخلوقات أو العالم[٣] .

كما ادعى الحلاج أيضا بأنه إله ، كما ذكر الخطيب بإسناده عن أبي بكر بن ممشاد : حضـــر عندنا بالدينور رجل معه مخلاة فما كان يفارقها بالليل ولا بالنهار ، ففتشوا المخلاة فوجدوا فيها كتابا للحلاج عنوانه : من الرحمن الرحيم إلى فلان بن فلان فوجه إلى بغداد ، فأحضـــر وعرض عليه ، فقال : هذا خطي وأنا كتبته ، فقالوا : كنت تدعي النبوة فصرت تدعي الربوبية ؟ فقال : ما أدعي الربوبية ولكن هذا عين الجمع عندنا ، هل الكاتب إلا الله وأنـــا واليد فيه آلة ، فقيل : هل معك أحد ؟ فقال : نعم ابن عطاء وأبو محمد الحريري وأبو بكـــر الشبلي ، وأبو محمد الجريري يتستر ، والشبلي يتستر، فإن كان فابن عطاء ، فأحضر الجريـــري فسئل فقال : هذا كافر يقتل من يقول هذا ، وسئل الشبلي فقال : من يقول هذا يمنع ، ثم سئل ابن عطاء عن مقالة الحلاج فقال بمقالته فكان سبب قتلـــه " [٤] .

وقد روى الذهبي هذه القصة ولكن ذكر في نهاية القصة قلـــت (الذهبي) : أما أبو العـــباس بـــن عطاء فلم يقتل ، وكلم الوزير بكلام غليظ لما سأله وقال : ما أنت وهذا ، اشتغلت بظلم الناس فعزره [٥] .

فادعاء الحلاج في هذه العبارة كفر وزندقة وانحراف عن عقيدة السلف الصالح .

وقال ابن كثير : دخل الحلاج الحلول والاتحاد ، فصار من أهل الانحلال والانحراف ، وقد روي من وجه أنه تقلبت به الأحوال ، وتردد إلى البلدان ، وهو في ذلك يظهر للناس

---

[١] سير أعلام النبلاء ٣١٤/١٤ .

[٢] اللمع للطوسي ص٤٩٩ .

[٣] المصدر نفسه ص ٤١١ ، وفي التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٣٢ .

[٤] تاريخ بغداد ١٢٨/٨- ١٢٩ .

[٥] سير أعلام النبلاء ٣٢٨/١٤- ٣٢٩ .

أنه من الدعاة إلى الله ﷻ ، وصرح أنه دخل إلى الهند وتعلم السحر ، ويكاتبه أهل تركستان بالمقيت ، ويكاتبه أهل خراسان بالمميز ، وأهل فارس بأبي عبد الله الزاهد ، وأهل خورستان بـأبي عـبد الله الزاهد حلاج الأسرار ، وكان بعض البغاددة من كان عندهم يقولون له : المصطلم ، وأهل البصرة يقولون له المحير [١] .

وهذا ما دعا الذهبي إلى القول بأن الحسين بن منصور المقتول على الزندقة ما روى — ولله الحمد — شيئا من العلم ، وكانت لـه بداية جيدة وتأله وتصوف ، ثم انسلخ من الدين وتعلم السحر، وأراهم المخاريق ، أباح العلماء دمه فقتل سنة تسع وثلاثمائة [٢]

وروى أنـه وقـف ذات يوم على حلقة أبي بكر الشبلي فقـال : " أنا الله " فقال الشـبلي : " أنت بالله ستفسد خشبة " [٣] . وكان يمر يوما على الجنيد فقال : " أنا الحق " فقـال الجنيد : أنت بالحق خشبة تفسد " [٤] وهذه الكلمات لم تكن من جنس الشطحات أو الجذبات وإنما هي نظرية متكاملة في الإلهيات ، كانت من صميمها وجوهرها من وصفه نفسـه . وحينما قالها الحلاج هذه الكلمة كان في تمام الوعي ، أي كان في حضور ومالكا لحاله [٥] .

لقـد كـان الحـلاج في تعبيره عن أفكاره أدق وأعمق من البسطامي ، فقد صرح بالتحـليل الجديد للصلة بين الله ﷻ والكون ، وخاصة الإنسان بأن الاتحاد بالله ﷻ هو غاية الكون جميعا . فكان الحلاج يمثل حلقة أخرى في سلسلة متتابعة من حركات الغلو والزندقة التي حاولت تشويه معالم العقيدة الإسلامية بما لفقت من آراء ومذاهب ومعتقدات أجنبية ، وجدهـا المسلمون في الأراضي المفتوحة ، والباب الذي ولج منه الحلاج هو الفناء كخطوة أولى إلى الحـلول والوحـدة مع الله ﷻ ، ومن هنا مضى الصوفية في مدرسة الحلاج حتى جعلوا من الإسلام مذهبا في الوحدة [٦] .

---

(١) البداية والنهاية ١٣٢/١٢ .

(٢) لسان الميزان ١٤٨/١ .

(٣) أخبار الحلاج ص ١٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

(٥) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٣٢ .

(٦) صلة الله بالكون في التصوف الفلسفي ، لسعيد سراج عقيل ، رسالة دكتوراه ، بجامعة أم القرى (١٤١٤ هـ) ٥٤/٢ .

كما كان الحلاج أول من وضع نظرية " النور المحمدي " أو الحقيقة المحمدية في الوسط الصوفي ، إذ هو يرى أن لمحمد ﷺ حقيقتين : الأولى قديمة تتمثل في النور الأزلي؛ وهو النور الذي كان قبل أن تكون الأكوان ، ومنه استمد كل علم وعرفان ، ومن هذه الحقيقة القديمة استمد كل الأنبياء السابقين من محمد ﷺ ، وكذلك الأولياء اللاحقين له حسب زعمه . والحقيقة الثانية حادثة تتمثل في اعتباره كائنا محدثا ، ثم في صورته نبيا مرسلا ، وجد في زمان ومكان محددين ، وهو هنا إنما صدر عن ذلك النور الأزلي القديم [١] على حسب ادعائه .

يقول الحلاج : " طس سراج من نور الغيب ، وبدا وعاد ، وجاوز السراج وساد قمر تتجلى بين الأقمار ، برجه في فلك الأسرار ، سماه الحق " امّيا " لجمع همته ، و " حرميا " لعظيم نعمته ، و " مكيا " لتمكينه عن قربه " ، ثم بين كيف استمدت أنوار النبوة من ذلك النور القديم ، فقال : " أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم لأنه كان من قبل الاسم [٢]. ووضح كيف أن العلوم كلها قطرة من بحر علمه فقال : " فوقه غمامة برقت ، وتحته لمعت وأشرقت .. . وأثمرت ، والعلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره " [٣] .

ثم بين مكانته من حيث القرب من الله ، فهو الأول وفي النبوة فهو الآخر ، فقال : " الحق به وبه الحقيقة ، هو الأول في الوصلة ، هو الآخر في النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة " [٤] .

ويترتب على القول بقدم النور المحمدي للحلاج القول بوحدة الأديان ، لأن مصدرها في هذه الحالة واحد ، وهذه الأديان قد فرضت على الناس لا اختيارا منهم ، ولكن اختيارا عليهم ، حيث تمثل نهاية منطقية تبنى على تلك النظرية ، التي اعتبرت مدخلا

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ١٤٢- ١٤٣ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٧٩- ٣٨٠ .

(٢) الطواسين للحلاج ص ٩- ١١ نقلا عن الحياة الروحية في الإسلام ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤ .

لنظريــته في وحــدة الأديان على صورة وحدة العبادة منطلقا من كون المعبود واحدا ، وما تكثر الأديان إلا تعبير ظاهري متعدد الصور لهذه الحقيقة .

والواقــع أن فكرة الحقيقة المحمدية خرافة ومناقضة للعقيدة الصحيحة ، أتى بها غلاة المتصــوفة لتشكيك المسلمين في أصول دينهم ودعائمه الأساسية ، وهي نظرية مأخوذة عن النصــرانية ، ينقضها القرآن الكريم بنصوص صريحة وواضحة . قال الله ﷻ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُــولٌ قَــدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَاءِن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [١] وقال تعــالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [٢] ويخاطب الله ﷻ رســوله محمــدا ﷺ فيقــول : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِــمُونَ ﴾ [٣] ، ويصــف الله ﷻ محمــدا ﷺ بصفة العبودية فيقول : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْــرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ [٤]، ومحمد الإنسان الرسول ﷺ يقــول : ((إنما أنا بشر مثلكم وإن الــظن يخطئ ويصيب ولكن ما قــلت لكم قال الله فــلن أكذب على الله)) [٥] .

وقــد اعــتقد الدكتور زكي مبارك بأن الحقيقة المحمدية ترجع في أصولها إلى العقائد النصــرانية فيقــول : والواقع أن الحقيقة المحمدية أسطورة من الأساطير ، وهي مأخوذة من الــنظرية النصــرانية ، كما أن النظرية النصرانية مأخوذة من الفلسفة اليونانية ، التي تقسم القوى إلى عقول [٦] .

تلك مقتطفات لأهم رجال الصوفية البارزين في القرنين الثاني والثالث الهجريين كما ذكرهم المؤرخون وكتاب التراجم والطبقات .

وقــد اتضــح من خلال القراءة لتراجمهم وآرائهم أن منهم من يوافق ما يقولونه وما يذهــبون إليه من أعمال القلوب مع ما في الكتاب والسنة ، كالجنيد وأبي سليمان الداراني وســهل التستري ، حتى وإن كانوا على انحراف ومبالغة في بعض الأمور ، وخاصة أن منهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٤٤) .

(٢) سورة الكهف ، الآية (١١٠) .

(٣) سورة الزمر ، الآيتان (٣٠- ٣١) .

(٤) سورة الإسراء ، الآية (١) .

(٥) أخرجه ابن ماجة في أبواب الأحكام ٦٨/٢ (ح ٢٤٩٥) ، وأورده الألباني في صحيح ابن ماجة (٢٠٠٢) .

(٦) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ٢١٠/١- ٢١١ .

مـن يكـون لـه خطأ واضح ، وتشدد زائد ، وانحراف خطير ، يتضح ذلك من خلال أقوالهم وأعمالهم التي تمس العقيدة الصحيحة كما حدث للحارث المحاسبي ، وأبي يزيد البسطامي ، وابن منصور الحلاج ، مما يدعونا إلى الحذر من ذلك ، وخاصة أن هناك ثلة من المتصوفة – بعد القرون المفضلة – من ينادون إلى الكفر والزندقة والحلول والاتحاد ، ويضللون الناس بأن أفكارهم وأعمالهم هي الأعمال المطبقة نفسها في عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، وفي عهد الأعلام الأخيار الذين جاءوا بعدهم .

ومن هنا نقول : إن لقب الصوفية لم يكن معروفا – كما هو واضح من دراستنا – في صدر الإسلام ، ولم يطلق على أحد من المسلمين ، لا في عصر الرسول ﷺ ، ولا في عصر الصحابة رضي الله عنهم ، فالتصوف اسم طارئ في الإسلام ناشئ في الأمة حادث فيها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " كان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء ، فيدخل فيهم العلماء ، والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء .." [(١)] ولعله من المرجح أن لقب (الصوفي) نشأ في أواخر القرن الثاني ، وشاع في القرن الثالث الهجري . وإن كان صاحب اللمع يعلن أن هذا اللقب كان معروفا في وقت التابعي الجليل الحسن البصري (ت ١١٠هـ) ، وقد روى عنه أنه قال : رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال : معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي [(٢)] .

ويميز شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الصفدية بين ثلاث فئات من الصوفية ، أو ثلاثة أطوار للتصوف ، فيقول : " والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية ، وأبو القاسم القشيري في الرسالة كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة ، ومذهب أهل الحديث كالفضيل بن عياض ، والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وعمرو بن عثمان المكي ، وأبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم ، وكلامهم موجود في السنة ، وصنفوا فيها الكتب ، لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة أهل الكلام في بعض فروع العقائد ، ولم يكن فيهم أحد على مذهب الفلاسفة ، وإنما ظهر التصوف في المعتزلة المتأخرين ، فصارت المتصوفة تارة على طريقة صوفية أهل

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/١٩٥ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٤٢ .

الحديث وهم خيارهم وأعلامهم ، وتارة على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم ، وتارة على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة "[١] .

وفي ضوء النص السابق لشيخ الإسلام يمكننا أن نميز في تاريخ التصوف بين ثلاث مراحل متعاقبة ، ظهر في كل مرحلة طائفة من الصوفية وهذه الطوائف هي :

١- **صوفية أهل الحديث** ، حيث استنبطوا الزهد من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وسيرته ، وسير أصحابه الكرام ، وقد يؤخذ على بعضهم المبالغة والغلو في الزهد ولكنهم لم يقحموا في أقوالهم نظريات أجنبية دخيلة ، ويمثل هذا التصوف إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـ) ، وداود الطائي (ت ١٦٥هـ) ، والفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) ، ومعروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ) ، وأبو سليمان الداراني (ت ٢١٥هـ) ، وبشر الحافي (ت ٢٢٧هـ) ، وسهل التستري (ت ٢٨٣هـ) ، والجنيد بن محمد (ت ٢٩٧هـ) ، وأبو عثمان النيسابوري (ت ٢٩٨هـ) .

لم يكن هؤلاء الصوفية المتقدمون وأمثالهم فلاسفة استمدوا أفكارهم من فلسفات أجنبية ، أو أديان مخالفة ؛ وإنما استنبطوها من تعاليم الكتاب والسنة ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم يأمرون أهل القلوب، أرباب الزهد والعبادة والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة "[٢]

وهذا واضح من كلمات هؤلاء الأعلام :

قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد : " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ . وقال أيضا : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم بعلمنا .

وقال أبو حفص : من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة و لم يتهم خواطره فلا يعد في ديوان الرجال .

---

(١) كتاب الصفدية ، تحقيق محمد رشاد سالم ٢٦٧/١ .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، لاهور (إدارة ترجمان السنة) ص ٥١٤- ٥١٦ .

وقال أبو سليمان الداراني : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة " . وقال أيضا : ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر [١] .

وقال سهل التستري معبرا عن أصول التصوف : " أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعصية ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق " .

وقال أبو عثمان : من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [٢] " [٣] .

وهذه العبارات تدل دلالة واضحة على حرصهم على التمسك بالكتاب والسنة ، ومتابعة الرسول ﷺ ، ولكن دخل في طريقتهم أقوام ببدع وفسق وانحرافات كأبي يزيد البسطامي رغم أنه تكلم بكلام متفق مع ما دعا إليه السلف الصالح ، لأن الناظر إلى شطحاته وأقواله في الحلول ووحدة الوجود ، ودعوى المعراج الصوفي وغيرها لا يستبطئ بحال من الأحوال أن يشهد للرجل بالالتزام بالكتاب والسنة وإنما لا بد من الإقرار بأن منابع فكره ممزوجة بمنابع أخرى غير إسلامية ، بل كانت فارسية وهندية ..

٢- **صوفية أهل الكلام** ، وهم الذين خلطوا التصوف بآراء كلامية ، حيث يأخذ أهل السنة والجماعة عليهم ما يأخذونه على المتكلمين من خلط العقيدة بالمسائل الكلامية ، وهي مصدر بدعهم فضلا عن البدع ذات المصدر الصوفي ، ويمثل هذا التصوف الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) ، ولكن تصوفه لم يكن مثل الصوفية المنحرفين في الغلو والانحراف ، بل كان كثيرا ما يشير إلى وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، ومتابعة الشرع .

وإذا كان الحارث المحاسبي يركز على أعمال القلوب وخطرات النفوس ، ومسائل تتعلق ببواطن الأعمال ، ومقاصد الإنسان فيها كالنية ، والمراقبة ، والتوكل ، والعجب ، والرياء ، والحسد وغيرها ..ويطيل الكلام في كل واحدة منها ما يراه من وسائل إصلاح

---

(١) مدارج السالكين ٢/٤٣٤ .

(٢) سورة النور ، الآية (٥٤) .

(٣) مدارج السالكين ٢/٤٣٥ .

النفس إلا أنه يأمر مع ذلك باتباع الشرع بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، يتجلى ذلك عندما تكلم في آداب النفوس فيقول : " ثم اعلم يا أخي أن الله ﷻ ذكره قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة ، وشرع لك شرائع ، ودلك عليها ، وأمرك بها ، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب ، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب رحمة لك ، وحذرك نفسه شفقة منه عليك ، فقم يا أخي بفرائضه ، والزم شرائعه ، ووافق سنة نبيه ﷺ ، واتبع آثار أصحاب نبيه والزم سيرهم ، وتأدب بآدابهم واسلك طريقهم ، واهتد بهداهم..." [١] .

ويقول عن أول منزلة من الرعاية لحقوق الله ﷻ أنها : " الرعاية عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله تعالى ، فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه إلا جعل الكتاب والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ، ولا يتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمني وغيره إلا أن يشهد له العلم أن الله ﷻ قد أمر بها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها وإرادته فيها ، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر .." [٢] .

هكذا تصوف الحارث المحاسبي كثيرا ما يدعم بما يوافق الكتاب والسنة وأقوال الصحابة على بعض الأمور التي يذكرها [٣] .

أما الحسين بن منصور الحلاج فقد ابتعد عن الكتاب والسنة ، وتمسك بالكفر والزندقة حين أعلن دعوى الحلول ، أي أن الله ﷻ حل فيه – تعالى الله علوا كبيرا – وأصر على مقولته الشنيعة ، فصار من أهل الانحلال والانحراف ، وانسلخ من الدين ، فأباح العلماء دمه ، فقتل سنة تسع وثلاثمائة .

٣- **أما الطائفة الثالثة فهم صوفية الفلاسفة** ، أو فلاسفة الصوفية ، وهم الذين أقاموا التصوف على دعائم من علوم اليونان ، والحكمة المشرقية القديمة ، وتعني بذلك تراث الهند وفارس ، والديانات الكتابية كاليهودية والنصرانية ، ومزجوا هذه العناصر المتباينة ، وأنشأوا منها فلسفة صوفية ظاهرها إسلامي وباطنها غير ذلك ، وذاع هذا التصوف في القرنين السادس والسابع الهجريين .

---

(١) آداب النفوس للحارث المحاسبي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، ط ١ بيروت (مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٨ هـ) ص ٣٢- ٣٣ .

(٢) الرعاية لحقوق الله ص ٩٦ .

(٣) رسالة المسترشدين ص ٣٦ .

الفصل الثالث

أهم قضايا التصوف في القرنين الثاني والثالث الهجريين

وتحته ثمانية مباحث :

المبحث الأول : معرفة الله تعالى

المبحث الثاني : الحب الإلهي

المبحث الثالث : الولاية

المبحث الرابع : الكرامة

المبحث الخامس : الفناء ووحدة الشهود

المبحث السادس : الشريعة والحقيقة

المبحث السابع : السماع

المبحث الثامن : الأحوال والمقامات

المبحث الأول

معرفة الله تعالى

إن الله ﷻ قد أودع في فطر الإنسان معرفة بارئه ، تدفعه وتقوده إلى تحقيق العبودية لله ﷻ ، والتقرب إليه بألوان من الطاعات والقربات ، مع غاية الذل والحب والخضوع والتعظيم .

و معرفة الله في اعتقاد سلف هذه الأمة مستقرة في القلوب ؛ لأن العباد مفطورون على معرفة خالقهم ورازقهم ، وهذه المعرفة لا تتم معرفتها أو تصحيحها إلا بمنهج الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وهذا ما قرره الإسلام وأثبته [١] .

ومعرفة الله ﷻ عند المتكلمين ليست فطرية بل نظرية ، أي لا توجد في القلوب معرفة بالخالق ﷻ قبل النظر في الآيات الكونية والنفسية ، ومن باب أولى لا يكون فيها ميل إلى عبادة الله ﷻ أو محبته وتعظيمه [٢] .

أما معرفة الله ﷻ عند الصوفية فهي الهدف الأساسي لتصوفهم ، وضعوها على أساس التأمل الباطني ، والمجاهدة الروحية ، والرياضة القلبية ، وهي ما يعبرون عنها بمعرفة الحق [٣] .

وقد اهتم الصوفية بهذا الجانب أيما اهتمام لاعتقادهم بأن شرف الإنسان وتفوقه على سائر المخلوقات منوط باستعداده لمعرفة الله ﷻ .

وقالوا : إن هذه المعرفة إذا اختصت بالمحسوسات فأداها كفاية الحواس الخمس ، وإن اختصت بالمعقولات كانت أداها كفاية الإدراك العقلي ، وإن اختصت بما وراء العقل والمعقول والحس والمحسوس كانت أداها الإدراك البصيري [٤] .

وبين الهجويري : بأن " معرفة الله تعالى على نوعين : أحدهما علم ، والآخر حال ، والمعرفة العلمية هي قاعدة جميع خيرات الدنيا والآخرة " . ثم قال : " وأهم الأشياء للعبد في جميع الأوقات والأحوال معرفة الله جل جلاله مستشهدا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

---

[١] انظر : فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها ، د. أحمد سعد حمدان ، ط ١ الرياض (دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤١٥هـ) ص ٢١ .

[٢] المرجع نفسه ص ٢٢ .

[٣] انظر : تاريخ التصوف في الإسلام ، د. قاسم غني ص ٥٨٥ .

[٤] جمهرة الأولياء ١/٢٩٢ .

وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [١] أي ليعرفون ، معللا في ذلك أن كثيرا من الخلق معرض عن هذا ، سوى من اصطفاهم الله وخلصهم من ظلمات الدنيا ، وأحيا قلوبهم بها ...

فالمعرفة حياة القلب بالحق ، وإعراض السر عما سوى الحق ، وقيمة كل امرئ بمعرفته ، ومن لا معرفة له لا قيمة له " [٢] .

غير أن الهجويري قد أخطأ حينما فسر العبادة بالمعرفة ، وهو بذلك خالف المنهج الصحيح في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ لأن تفسير هذه الآية غير ما ذكره .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير " [٣] .

ثم قال الهجويري موضحا لفظ المعرفة وأنه أفضل من لفظ العلم : " فالناس من علماء وفقهاء سموا صحة العلم بالله : المعرفة ، ومشايخ هذه الطائفة سموا صحة الحال بالله : المعرفة ، ولذلك قالوا إن المعرفة أفضل من العلم ، أي لا يكون عارفا من لا يكون عالما بالحق ، ولكن يكون عالما من لا يكون عارفا .." [٤] . ويعنون بذلك أن المعرفة تتطلب تجربة مباشرة ، بينما العلم لا يشترط التجربة ، ويقصدون بهما في نطاق التصوف معرفة الله أو العلم به [٥] .

لكن ابن القيم – رحمه الله – لم يوافق على ما ذهب إليه الهجويري وقال مبينا العلاقة بين لفظ المعرفة ولفظ العلم : " وأما لفظ العلم فهو أوسع إطلاقا من المعرفة ...

ثم قال – رحمه الله – : " واختار سبحانه لنفسه اسم " العلم " وما تصرف منه ، فوصف نفسه بأنه عالم ، وعليم ، وعلاَّم ، وعَلِمَ ، ويعلم ، وأخبر أن له علما ، دون لفظ " المعرفة " في القرآن ، ومعلوم أن الاسم الذي اختاره الله لنفسه أكمل نوعه المشارك له

---

(١) سورة الذاريات ، الآية (٥٦) .

(٢) كشف المحجوب ، للهجويري ، ترجمة عربية د. سعاد عبد الهادي ، مصر (١٣٩٥هـ) ٢/٥٠٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٣٩ .

(٤) كشف المحجوب ٢/٥٠٩ .

(٥) أضواء على التصوف ص ١٢٦ .

في معناه " [١] قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] ما قال يعـــرفون ، فميزهم بالعلم ، ولو كانت المعرفة أكمل وأفضل من العلم لميزهم بها . وإنما جاء لفظ " المعرفة " في القرآن في أهل الكتاب خاصة كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْـــبَانًا وَأَنَّهُــمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْـــعِ مِمَّـــا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [٣] وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [٤] .

وأضـــاف قـــائلا : " وهذه الطائفة ترجح " المعرفة " على " العلم " جدا ... وأهل الاســـتقامة مـــنهم أشد الناس وصية للمريدين بالعلم ، وعندهم أنه لا يكون وليا لله كامل الولايـــة من غير أولي العلم أبدا فما اتخذ الله ولا يتخذ وليا جاهلا ، والجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص ، والعلم أصل كل خير وهدى وكمال " [٥] .

ثم بين — رحمه الله — " أن المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده ، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالما بالله ، وبالطريق الموصل إلى الله ، وبآفاتها وقواطعها ، وله حال مع الله تشهد له بالمعرفة ، فالعارف — عندهم — من عرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم صدق الله في معاملته ، ثم أخلص لـــه في قصـــوده ونياته ، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته،ثم صبر على أحكام الله في نعمه وبلياته،ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته .." [٦]

وبعـــد هذا ، فلو بحثنا في موضوع المعرفة بالله عند أعلام الزهد والصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين فإننا نجد منهم من يشير إلى هذا الجانب .

فهذا الزاهد عبد الله بن المبارك لما قيل لـــه : " بماذا تعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه " [٧] .

---

[١] مدارج السالكين ٣/٣١٢- ٣١٣ .

[٢] سورة الزمر ، الآية (٩) .

[٣] سورة المائدة ، الآيتان (٨٢- ٨٣) .

[٤] سورة البقرة ، الآية (١٤٦) .

[٥] مدارج السالكين ٣/٣١٤ .

[٦] المرجع نفسه ٣/٣١٦ .

[٧] المرجع نفسه ٣/٣١٩ .

قـــال ابن القيم معلقا على هذه العبارة : بأن عبد الله بن المبارك " أتى بأصل المعرفة التي لا يصح لأحد معرفة و لا إقرار بالله ﷻ إلا به ، وهو المباينة والعلو على العرش " [١] .

ومـــا أجاب عليه عبد الله بن المبارك هو ما ذهب إليه السلف الصالح من هذه الأمة ، وهو يدل على صفة العلو لله ﷻ ، فهو سبحانه عال على خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته متصـــف بصـــفات الكمال ، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٢] فهو المتفرد بالعظمة المتره عن العيوب والنقصان . ويدل أيضا على أن معـــرفة الله ﷻ ثابـــتة في القلوب لأنها فطرية بحيث لا يحتاج الإنسان إلى عناء ومشقة لكي يعرف خالقه ﷻ .

أما الفضيل بن عياض فقد أشار إلى أن " أحق الناس بالرضا عن الله أهل المعرفة بالله ﷻ " [٣] ، ثم وضح بأن " أعلم الناس بالله أخوفهم لـــه " [٤] . وقد عبر أحمد بن عاصم الأنطاكي [٥] عبارة مشابهة بذلك حينما قال : "من كان بالله أعرف كان لـــه أخوف " [٦] ، ويدل هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [٧] .

وبـــين إبراهيم بن أدهم أن " آية العارف هي أن يكون خاطره أكثر اشتغالا بالتفكر والعـــبرة ، ويكون أكثر كلامه ثناء ومدحا للحق ، وغالب عمله الطاعة ، وغالب نظره في لطائف الصنع والقدرة " [٨] . وحذر من كثرة النظر إلى الباطل لأنها تذهب بمعرفة الحق من القلب . ثم قال : " وويل لمن ذهب عمره باطلا " [٩] .

---

[١] مدارج السالكين ٣١٩/٣ .

[٢] سورة الشورى ، الآية (١١) .

[٣] طبقات الصوفية ص ١٠ ، وحلية الأولياء ١٠٧/٨ .

[٤] حلية الأولياء ١٠٧/٨ .

[٥] كنيته أبو عبد الله ، وهو من أقران بشر الحافي ، والسري ، والمحاسبي ، انظر : طبقات الصوفية ١٣٧ .

[٦] طبقات الأولياء ص ٦٤ .

[٧] سورة فاطر ، الآية (٢٨) .

[٨] تاريخ التصوف في الإسلام ص ٦١٧ .

[٩] حلية الأولياء ٢٢، ٢٤ .

وقال شقيق البلخي : " من لم يعرف الله بالقدرة فإنه لا يعرفه ، قيل : وكيف يعرفه بالقدرة ؟ فقال : يعرف أن الله قادر إذا كان معه شيء أن يأخذه منه ويعطيه غيره ، وإذا لم يكن معه شيء أن يعطيه " [١] .

أمـا الحـارث المحاسبي فقد تحدث عن آثار المعرفة وقيمتها في سلوك الإنسان قائلا : " إن الله ﷻ جعل نجاة العباد برحمته في المعرفة ، ثم في الإرادة ، ثم في ترك ما أمرهم بتركه ، ثم في العمـل بمـا أمرهم به ، ثم في شكر نعمه التي أنعم بها عليهم قديما وحديثا ، ظاهرا وباطنا " [٢] .

ثم قـال : " فأول ما أراد الله تعالى من العباد أن يعرفوه عن الوجوه التي تعرف إليهم منـها ، فإنه قد تعرف إليهم من خلقه للخلق ، وتدبيره في الخلق ، ومن قدرته على الخلق ، وتكفله بأرزاق الخلق ، وإماتته الخلق ، وإحيائه الخلق ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله أحسن الخالقين " .

ثم بين أحوال الناس على حسب معرفتهم بالله ﷻ فقال : " إن الناس إنما يخلصون في أعمـالهم على قدر معرفتهم به ، ويتواضعون لله على قدر معرفتهم به ، ويشكرون الله على نعمـه على قدر معرفتهم به ، ويرجون الله ويخافون على قدر معرفتهم به ، ويحسنون الظن عـلى قـدر معرفـتهم به ، ويصبرون على طاعته وعن معصيته وعلى كتمان طاعته وعلى المصـائب التي تنزل بها أحكامه على قدر معرفتهم به ، ويحبون ما أحب ويبغضون ما أبغض على قدر معرفتهم به " [٣] .

ثم قال : " فمن فاتته المعرفة بالله دخله النقص في جميع ما ذكرنا على حسب ما فاته من المعرفة ، وعلى حسب ما رزق منها ، فكذلك حظه من الخير والشر " [٤] .

ومعـرفة الله ﷻ عـند أبي القاسم الجنيد معرفتان : معرفة تعرف ، ومعرفة تعريف . ومعـنى الأولى : أن يعـرفهم الله ﷻ نفسه ، ويعرفهم الأشياء به ، أما الثانية فمعناها : أن يـريهم آثار قدرته في الآفاق والأنفس ، ثم يحدث فيهم لطفا ، تدلهم الأشياء أن لها صانعا ،

---

[١] طبقات الصوفية ص ٦٤ .

[٢] آداب النفوس للمحاسبي ص ١٢٠

[٣] المصدر نفسه ص ١٣٩ .

[٤] المصدر نفسـه .

وهـــذه معرفة عامة المؤمنين ، والأولى معرفة الخواص ، وكل لم يعرفه في الحقيقة إلا به [١] ، وهـــذا كمـــا قال محمد بن واسع [٢] : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ، وقال غيره : ما رأيـــت شيئا إلا ورأيت الله قَبلَه " [٣] . ولعل محمد بن واسع أراد برؤية الله في الأشياء آثار صنعه،وهذا لا غبار عليه خاصة وأن الله ﷻ قال : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ ﴾ [٤] ولكن لـــو كـــان المراد بها رؤية الله على الحقيقة فهذا هو الحلول الذي نادى به الحلاج وغيره من حلولية الصوفية .

وكذلـــك يتوجه الكلام إلى ما أورده الكرماني [٥] من أن " شغل العارف ثلاثة أشياء : بالـــنظر إلى معـــبوده ، مستأنسا به ، ملاحظا لمننه وفوائده ، وشاكرا لـــه ، معترفا به ، ومنيـــبا تائـــبا إليه " [٦] . وقال : " من عرف ربه نسي كل ما دونه ، ومن جهل ربه تعلق بكل شيء دونه ، ومن اعتز بالعلم فاز ، ومن اعتز بالجهل خاب وخسر " [٧] .

أمـــا سهل بن عبد الله التستري فقد بين علامة العارف فيقول : " وأما العارف الذي طـــلب معرفة الله وقربه فإنه بذل ماله فأخرجه ، ثم نفسه فباعه ، ثم روحه فأباحه ، فلو لم تكـــن جـــنة ولا نار لما مال ولا زال ولا فتر ، فهذه علامة العارف " [٨] . ثم قال : " ليس لأهـــل المعـــرفة همة غير هذه الثلاثة إذا أصلحوا : الاقتداء بالنبي ﷺ ، والاستعانة بالله ﷻ ، والصبر على ذلك إلى الممات " [٩] .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٩ .

(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأخنس الأزدي ، أبو بكر ، أو أبو عبد الله البصري ، ثقة عابد ، كثير المناقب (ت ١٢٣) ، انظر : التقريب ٢٢٣/٢ .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٧٩ .

(٤) سورة الروم ، الآية (٥٠) .

(٥) هو شاه بن شجاع الكرماني (ت قبل ٣٠٠هـــ) ، انظر : طبقات الصوفية ص ١٩٢ .

(٦) حلية الأولياء ٢٥٣/١٠ .

(٧) طبقات الصوفية ص ١٩٢، ١٩٤ .

(٨) حلية الأولياء ١٩٩/١٠ .

(٩) نفســه ٢١١/١٠ .

وقال رجل ليوسف بن الحسين الرازي [١] : " دلني على طريق المعرفة ؟ فقال : " أرِ اللهَ الصدقَ منك في جميع أحوالك بعد أن تكون موافقا للحق " [٢] .

هكـــذا تــروي لنا كتب التصوف أقوالا لصوفية القرنين الثاني والثالث الهجريين في المعـــرفة على أن أبرز وأشهر من غلب عليهم الكلام في المعرفة أوائل الصوفية الثلاثة وهم : ذوالنون المصري ، وأبو يزيد البسطامي ، والحسين بن منصور الحلاج .

١- ذوالنون المصري

لقد فرق ذوالنون المصري بين المعرفة والعلم ، و ذكر أن المعرفة الصوفية الحقيقية هي المعرفة الأسمى عن طريق المشاهدة القلبية ، ليفصل بين وسيلة وطبيعة الحقائق التي يصل إليها الصـــوفي ، وبـــين طريق علماء الظاهر والرسوم – كما يسموهم – فيقول : " إن المعرفة الحقيقيـــة بـــالله ليست العلوم بوحدانيته التي يؤمن بها المؤمنون جميعا ، كما أنها ليست من عـــلوم البرهان والنظر التي هي علوم الحكماء والمتكلمين ، ولكنها معرفة الصفات الوحدانية الـــتي هـــي لأولياء الله خاصة ، لأنهم هم الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق تعالى عليهم ما لم يظهر على أحد من العالمين " [٣] .

إن الله ﷻ وصـــف نفسه بصفات ليعرف كل المؤمنين بها ، و لم يصف نفسه بصفات خاصـــة بأوليائه دون غيرهم ، ثم إن الناس اختلفوا في رؤية النبي ﷺ لله ﷻ الرؤية القلبية ، فهل تحقق لهم دون غيرهم من العالمين ؟ فهذا تأويل منهم مخالف للحقيقة ! .

ثم يوضح ذو النون المعرفة بأنها : هي ما يفيضه الله من نوره على قلوبنا كالشمس لا تـــرى إلا بـــنورها ، ولذا كل من زادت معرفته بالله زادت حيرته فيه ، ذلك لأن من كان أقرب إلى الشمس يكون أكثر حيرة في الشمس حتى يبلغ مرتبة لم يكن هو فيها هو [٤] .

ويقـــول : إن " حقيقـــة المعـــرفة إطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار وأنشدوا فيه :

للعارفين قلوب يعرفون بهـــا ... نور الإله بسر السر في الحجب

---

[١] أبو يعقوب الرازي ، شيخ الري والجبال في وقته ، كان أوحد في طريقته في إسقاط الجاه والتصنع واستعمال الإخلاص ، صحب ذا النون المصري (ت ٣٠٤هـــ) ، انظر : طبقات الصوفية ص ١٨٥ .

[٢] طبقات الصوفية ص ١٨٨ ، وحلية الأولياء ١٠/٢٥٥ .

[٣] في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ ، وتاريخ التصوف في الإسلام ص ٦١٨ .

[٤] نفســـه .

صم عن الخلق عمي عن مناظرهم   بكم عن النطق في دعواه بالكذب

وسئل بعضهم : متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة ؟ فقال : إذا لم يجد في قلبه مكانا لغير ربه "[١] .

ويقول : " إن العارف لا يلزم حالة واحدة ، وإنما يلزم ربه في الحالات كلها "[٢] ، فالعارفون فانون عن أنفسهم ، لا قوام لهم بذواتهم ، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله ، فهم يتحركون بأمر الله ، وينطقون عن الله بما يجريه على ألسنتهم ، وينظرون بنور الله في أبصارهم[٣] .

وهذه العبارات تبين أن ما يسميه ذوالنون بالمعرفة هي فكرة غنوصية ، حيث يرى أن هدف الصوفي بتصوفه هو الاتصال بالله ﷻ ، وتحصل المعرفة عنده بالمجاهدة والرياضة الروحية ، التي تنشأ عنها حالات نفسية معينة تعرف بالأحوال والمقامات، فيرتقي المريد في أحواله ومقاماته من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام ، حتى يصل إلى معرفة الله تعالى معرفة يقينية ، لا مدخل للحواس أو العقل فيها ، فيستمتع بمطالعة وجه الله تعالى ومشاهدة جماله وجلاله[٤] – كما يزعم – ، وبذلك تعود النفس البشرية إلى حالاتها الأصلية من الوجود في الذات الإلهية ، وأنشد فيقول :

ما هبط العارفون مذ عرجوا   ولا ابتلوا بالحجاب مذ وصلوا

ليس بمرسومة ولا مخلقة   ولا محدودة هو ذا الأبد[٥] .

ولكن ذا النون مازال يؤكد على ممارسة الشعائر الدينية من الفرائض والنوافل ، إضافة إلى قهر النفس في باب التطهر من الآثام ، حتى تصبح صالحة لأن تتقبل معرفة الله ﷻ ، كما أنه يتجه إلى ربط المعرفة بالشريعة ، حيث كان يقول : " علامة العارف ثلاثة : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينتقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا تحمله كثرة نعم الله ﷻ على هتك أستار محارم الله "[٦] . ثم يصف بأن " أعرف الناس بالله

---

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٢٩ .

(٢) حلية الأولياء ٩/٤٠٧

(٣) انظر : في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ ، والفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٠٧ .

(٤) دراسات في الفلسفة الإسلامية ، د. أبو الوفاء التفتازاني ص ١٥٣ .

(٥) علم القلوب ، لأبي طالب المكي ، تحقيق عبد القادر عطا ، (مكتبة القاهرة) ص ١٣٦ .

(٦) الرسالة القشيرية ص ٣١٧ .

ﷻ أشدهم تحيرا فيه "[١] . ويقول سهل التستري مثله في المعرفة بأن " المعرفة غايتها شيئان : الدهشة والحيرة "[٢] ، وكذلك الشبلي يؤيد هذا القول فيقول : " بداية هذا الأمر حيرة ، ونهايته دهشة كالطفل أو الطفولة ، ثم يرد إلى علم ثم يرد إلى جهل "[٣] .

ومـــن خـــلال هذه النصوص اتضح لنا أن هؤلاء الأعلام مدحوا الحيرة وأن أكثرهم مدحا هو ذوالنون المصري ، الذي يعتبره المتصوفة بأنه هو أكثر من تكلم في المعرفة من أئمة التصـــوف ، حيث عبر عن أعلى درجة يبلغها العارف بالله ﷻ هو الذي يكون أكثر تحيرا فيـــه .

ولكـــن العـــبارة فيها غموض ، لأن ما يريده ذوالنون – وغيره – من الحيرة ليست واضـــحة ، هل يريدون مدح الحيرة كما تعتقده الملاحدة ؟ أم يريدون بذلك طلب الزيادة في العـــلم والمعـــرفة ؟ فإن كانوا يمدحون الحيرة فإن الله ﷻ قد ذم الحيرة ؛ إذ كيف يكون الحائـــر عارفـــا بـــالله ﷻ وهو جاهل لا يعرف إلى أين يتجه لتحيره ؟ قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ أَ نَدْعُـــو مِـــن دُونِ اللهِ مَـــالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ا ئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٤] .

فالحيرة – إذن – تعتبر من جنس الجهل والضلال والتيه لأن الحائر هو الذي غلبه أمر من الأمور و لم يعرف إلى أين يتجه أو ماذا يفعل ، أو ماذا يعتقد ؟ فلا يمكن أن تكون الحيرة نهايـــة المعرفة بل هو جهل وضلال ! ، صحيح أن الإنسان يمكن أن يكون حائرا قبل معرفة الله ﷻ ، أما أن تكون الحيرة هي أقصى حد يبلغها العارف بالله ﷻ فهذا ليس بصحيح .

ونحـــن نعـــتقد اعتقادا جازما بأن الرسول ﷺ أعلم الناس بالله ﷻ على الاطلاق ، ولكننا لم نجد في القرآن الكريم ولا في السنة الصحيحة أنه كان متحيرا في الله ﷻ ، لأن الله ﷻ بعـــثه لهدايـــة الإنـــس والجن إلى الطريق المستقيم ، ومن وصفه الله ﷻ بهداية الخلق فلا يمكن أن يكون حائرا ؛ بل هو على بينة وبرهان من ربه قال الله ﷻ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى .

---

(١) المصدر نفسه ص ٣١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٤ .

(٣) روضة التعريف بالحب الشريف ، للسان الدين الخطيب ص ٤١٩ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (٧١) .

مَـا ضَـلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [١] .
وقـال تعالى أيضا : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّـنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ [٣] .

قـال شيخ الإسلام ابن تيمية ردا على المتصوفة الذين مدحوا الحيرة نتيجة معرفة الله ﷻ ، والتي تقودهم إلى الشكوك والجهل والانحراف قائلا : " و لم يمدح — الحيرة – أحد من أهـل العـلم والإيمان ولكن مدحها طائفة من الملاحدة كصاحب الفصوص ابن عربي [٤] وأمثاله من الملاحدة الذين هم حيارى فمدحوا الحيرة ، وجعلوها أفضل من الاستقامة "[٥] .

وأما الذين لا يريدون إلا طلب المزيد في العلم والمعرفة فإن الأمر يستلزم ذلك ، كما وضـح شـيخ الإسلام — في موضع آخر — قول ذي النون " اعرف الناس بالله أشدهم فيه تحـيرا " بـأن ذلك ليس مدحا في الحيرة كما تعتقده الملاحدة وغيرهم ، و إنما المراد بذلك طـلب الـزيادة في العلم والمعرفة فقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " أي أطلبهم لزيادة العلم والمعـرفة ، فـإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد ؛ بل هو حائر فيهـا طـالب لمعرفتها والعلم بها ، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد قال : ((لا أحصي ثناء عـليك أنـت كما أثنيت على نفسك)) [٦] والخلق ما أوتوا من العلم إلا قليلا " [٧] ثم إن أعـلى درجـة للمؤمن هو الاحسان الذي وصفه الرسول ﷺ بهذا الشعور : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) .

ووضـح أيضا شيخ الإسلام فيقول : " فأما الذي قال : أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحـيرة فقـد يريد بذلك معنى صحيحا مثل أن يريد أن الطالب السالك يكون حائرا قبل حصـول المعرفة والهدى ، فإن كل طالب للعلم والهدى هو قبل حصول مطلوبه في نوع من

---

(١) سورة النجم ، الآيات (١– ٤) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (١) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (٥٧) .

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن عربي ، أبو بكر الملقب بالشيخ الأكبر عند الصوفية ، فيلسوف ، صوفي ، من أئمة المتكلمين (ت ٦٣٨هـ) انظر : سير أعلام ٤٨/٢٣ ، والأعلام ٢٨١/٦ .

(٥) انظر : مجموعة الرسائل والمسائل ٥٨/٤ .

(٦) أخرجه مسلم ، في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود ٣٥٢/١ (ح ٢٢٢) .

(٧) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٣٩١/١١ .

الحيرة ، وقوله آخرها الحيرة قد يراد به أنه لا يزال طالب الهدى والعلم فهو بالنسبة إلى ما لم يصل إليه حائرا ، وليس في ذلك مدح الحيرة ، ولكن يراد به أنه لا بد أن يعتري الإنسان نوع من الحيرة التي يحتاج معها إلى العلم والهدى " [١] .

٢- أبو يزيد البسطامي .

إذا كان ذوالنون المصري لا يزال يهتم بإقامة الشعائر والعبادات الظاهرة كشرط للوصول إلى معرفة الله ﷻ فإن أبا يزيد البسطامي كان يفصل بين المعرفة والعبادة فصلا كاملا قد يؤدي إلى نتيجة خطيرة ، وهي أن المنشغلين بالعبادة بعيدون عن المعرفة وهم لا يصلحون لأن يحملوا المعرفة على الإطلاق ، فيقول : " اطلع الله على قلوب أوليائه فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا فشغلهم بالعبادة " [٢] . وكما يقول : " للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه ، فلا يشاهد في يقظته ونومه غير الله " [٣] .

وكلما أراد أن يقول أنا أو أنت ناداه الجليل أنا أنا ولا أنت [٤] . وذلك لأن العارف هو الذي أوله هو وأوسطه هو وآخره هو ، وأن أدنى صفة العارف أن تجري فيه صفات الحق وجنس الربوبية [٥] ، وأعلى درجته وجود معروفه [٦] ، ثم يقول : عجبت لمن عرف الله كيف يعبده ؟ [٧] ، ويقول : كنت ثلاثين سنة أذكر الله ثم سكنت فإذا حجابي ذكري له ، وإذا كان توبة الناس من ذنوبهم فتوبته من قوله : لا إله إلا الله [٨] ، وقال لرجل سبح الله أمامه قولك سبحان الله شرك [٩] .

---

(١) المصدر نفسه ٣٨٦/١١ .

(٢) النور من كلمات أبي طيفور نص غير منشور في مناقب وشطحات أبي يزيد البسطامي ينسب إلى السهلجي ، ضمن كتاب شطحات الصوفية ، للدكتور عبد الرحمن بدوي ، ط٢ الكويت ، (نشر وكالات المطبوعات ١٩٧٦م) ص ١٧٢ ، وحلية الأولياء ٣٩/١٠ وطبقات الصوفية ص ١٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٣١٣ .

(٤) علم القلوب ، لأبي طالب المكي ، ط١ مصر (مكتبة القاهرة ١٣٨٤هـ) ص ١٣٣ .

(٥) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٦، ١٤٤ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٦٩ .

(٧) علم القلوب ٣٣٧ .

(٨) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٠٤ .

(٩) نفسه ص ١١٣ .

وقـــال لرجل صلى في المسجد : إن زعمت أن صلاتك مواصلة فهي مفاصلة [١] . وقـــال : لا الـــتزهد ولا التعبد ولا العلم ولا شيء من الأشياء خير للعبد [٢] . ولم أر من الصـــلاة إلا نصب البدن ولا من الصوم إلا جوع البطن [٣] ، ومعنى ذلك أن طريقة المعرفة الحقيقيـــة ليست بكثرة العبادات والطاعات ، ولا بعمل النوافل والقربات ، ولا بالترقي إلى الأحـــوال والمقامـــات ، ولكن وصول المعرفة بالله إنما يكون برفع الحجاب والفناء الكلي ، وعـــندئذ فقط نال الإنسان الوصول والمشاهدة لذات الله ، ثم الاتحاد به فإنه قد عرف الله بـــالله [٤] .وقـــال : وأشد المحجوبين ثلاثة بثلاثة : الزاهد بزهده ، والعابد بعبادته ، والعالم بعلمه [٥] .

وبذلـــك نفهـــم أن أبا يزيد البسطامي قد وضع مفهوما مغايرا للمعرفة يختلف عن مفهـــوم المعـــرفة لـــدى ذي الـــنون المصري ؛ إذ المعرفة لديه هي المعرفة الأسمى عن طريق المشـــاهدة القلـــبية الصافية القريبة من المعرفة الفطرية السليمة ، أما البسطامي فكان يهدف بالمعـــرفة إلى هدف خطير وهو الكشف عن ذات الله برفع الحجاب ثم الاتحاد بها نتيجة فناء الذات فناء كليا .

وقد طبق ذلك فعلا عن نفسه فصرح بكلمته المشهورة : " سبحاني سبحاني ما أعظم شأني ، حسبي من نفسي حسبي " [٦] . وقال : " إن لوائي أعظم من لواء محمد ، لوائي من نـــور تحته الجان والإنسان ، كلهم من النبيين ، ليس مثلي مثل في السماء يوجد ، ولا مثلي صـــفة في الأرض تعرف ، لأن صفاتي غائبة في غيبه وليس للغيب صفات تعرف . " [٧] .. فتراني عيون الخلق مثلهم ولو رأوني كيف صفتي في الغيب لماتوا دهشا " . " .. وأن بطشي

---

(١) النور من كلمات أبي طيفور ص ١١٨ .

(٢) نفسه ص ١٤٢ .

(٣) نفسه ص ١٢١ .

(٤) نفسه ص ١٧٠ ، والحلية ١٠/٣٧ ، وطبقات الصوفية ص ٧٧ .

(٥) النور من كلمات أبي طيفور ص ١٥٥ ، والحلية ١٠/٣٦ .

(٦) نفسه ص ١٠١ ، ١٤٣ .

(٧) نفسه ص ١٤٣ .

أشد من بطش الله .." والكعبة يطوف حوله ، والملائكة يأتونه ويسألونه عن العلم ، فأصبح الملائكة تلاميذه [١] .

ومن خلال النصوص السابقة فلا يشك الناظر فيها من أن أبا يزيد قد تكلم بكلام الكفر وانحرف انحرافا خطيرا في مفهوم المعرفة بالله ﷻ ، كما ابتعد عن منهج المسلمين نحو التقرب إلى الله ﷻ لأنه أبعد العابد المنشغل بالعبادة عن أن يكون له عمل صالح ، وأن عبادته تكون حجابا له نحو ربه ﷻ ؛ وهذا زعم باطل ومناقض للعقيدة الصحيحة .

أضف إلى ذلك أن كلام أبي يزيد فيه استهزاء واستخفاف واضح بعباد الله المؤمنين الذين وصفهم الله ﷻ في كتابه العزيز بأنهم ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ [٢] .كما أن الخطر في كلامه بَيِّنٌ حينما دعا إلى الاتحاد بالله ﷻ تحقيقا للوصول إلى المعرفة به ﷻ وفضل نفسه على جميع الأنبياء والرسل – عليهم السلام – ، ولا شك أن هذا الكلام في منتهى الخطورة لا يمكن أن يخرج من إنسان فيه ذرة من الإيمان فضلا أن عن يصدر من شخص يعتبره المتصوفة من كبار أولياء الله ﷻ ، ومن الصوفية المتقدمين .

٣- الحسين بن منصور الحلاج .

أما الحلاج فقد وضع تصورا جديدا للمعرفة منطلقا من نظرية الحلول ، أي حلول اللاهوت في الناسوت ، أو تجلي الذات في الكون وظهورهما فيه تجليا كاملا ، أو بعبارة أخرى تجلي الحق من كل ما يشاهد .. وهذا ما يدفعه إلى القول ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه [٣] .

ورأى أن الإيمان لا قيمة له ، لأن الإيمان لا يوصل المؤمن إلى معرفة الله ، فمن التمس الحق بنور الإيمان كان كمن طلب الشمس بنور الكواكب [٤] . وقال أيضا : ولا قيمة للعقل إذ العقل يؤدي إلى الحيرة ، وهو عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله وأنشد قائلا :

من رامه بالعقل مسترشدا ... سرحه في حيرة يلهو

---

(١) نفسه ص ١٤٣، ١٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٢) .

(٣) أخبار الحلاج لماسينيون ، باريس (مطبعة العلم ١٩٣٦م) ص ١٦ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٣١١ .

وشاب بالتلبيس أسراره يقول من حيرته هل هو [١] .

وكذلك العبادة لا قيمة لها عنده ، والذي ينشغل بالعبادة حجب عن المعبود ، والذي ينشغل بالمعبود لا يلاحظ شيئا غيره ، فلا معرفة لمن يرى سواه ، فكان الحلاج مثل البسطامي يرى أن العبادة حجاب فلا ينبغي للعارف أن ينشغل بها إذ يقول : " من لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له ، ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال " [٢] .

وسئل عن معنى " لا إله إلا الله " فقال : كلمة شغل بها العامة لئلا يختلطوا بأهل التوحيد [٣] .

ويرى الحلاج أن الحق هو المقصود بالعبادة والمقصود إليه بالطاعة ، فلا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه [٤] ، ولا يجوز لمن يرى أحدا أو يذكر أحدا أن يقول : إني عرفت الأحد الذي ظهرت منه الآحاد . فإذا سئل كيف الطريق إلى حصول معرفة الحق الأحد ؟ فأجاب الحلاج قائلا : بالجمع إليه [٥] . وكان مثل البسطامي يطلب من الله ﷻ أن يرفع أنيته حتى يتحد بأنيته نهائيا فينفي عن نفسه بالكلية ، ولا يكون ثمة إلا الله إذ يقول منشدا :

بيني وبينك إني يزاحمني فأرفع بإنيك إنيتي من البين [٦] .

أي يوجد بيني وبينك يا إلهي " إني " " إنه " " أنا " يعذبني ، فأتوسل إليك أن تزيل بإنيك .. تزيله من البين ، أي من بيننا نحن الإثنين [٧] .

فقد طلب الحلاج من الله ﷻ أن يمحو ذاته التي تشعر أنها عائقة له دون أن يصل إليه، وإذا كان البسطامي يزعم أن الله ﷻ قد استجاب طلبه في الاتحاد به فكذلك الحلاج حيث رأى أن ذاته أصبحت تجمعها بالله ﷻ ، وتربطها رابطة شخصية حميمة ، وفي هذه

---

(١) أخبار الحلاج ص ٩٤ .

(٢) طبقات الصوفية ص ٣٠٨ .

(٣) أخبار الحلاج ص ٧٤ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٣١٠ .

(٥) أخبار الحلاج ص ١١٦ .

(٦) المصدر نفسه ص ٧٦ .

(٧) كتاب شخصيات قلقة في الإسلام ، د. عبد الرحمن بدوي ، ط ٣ بيروت (دار القلم ١٩٧٨م) ص ٨٣ .

الحالـــة من الترابط الشخصي بين الأنا والأنت يسميها الحلاج عين الجمع . فأكد أن الله ﷻ في غضونها تتخلل جميع أفعاله وأفكاره وآماله [١] . ثم أنشد قائلا :

أنا عين الله في الأشياء فهل ظاهر في الكون إلا عيننا .

أنا الحق والحق للحق حق لابس ذاته فمـــا تم فرق [٢] .

فقـــد رفـــض الحلاج كل الطرق الموصلة إلى المعرفة ، من المشاهدة القلبية كما قال ذوالـــنون المصـــري ، والكشف الذاتي كما قال البسطامي . فالطريقة الوحيدة الموصلة إلى المعـــرفة عنده هي الجمع والحلول فقال : " العارف من رأى والمعرفة بمن بقي ، العارف مع عرفانه ، لأنه عرفانه ، وعرفانه هو [٣] ، وأنشد قائلا :

رأيت ربي بعين ربي فقال من أنت قلت أنت [٤] .

لذلك فالعارف عنده هو المشير عن الله ، فإن الخلق أشاروا إلى الله .

وقد سبق أن مر بنا أن البسطامي كان يزعم أن العبادات من الصلاة والذكر والزهد كـــلها حجـــاب – يحجب العارف عن معرفة الله – وهنا زعم الحلاج أن صلاة العاشقين العـــارفين يعتـــبر كفـــرا ، وإن سئل لم ذلك ؟ أجاب : " لأن ظاهر الشريعة كفر خفي ، وحقيقـــة الكفـــر معرفة جلية " [٥] وأن الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم ، وأما من حيـــث الحقيقـــة فلا فرق بينهما [٦] . ثم صرح بأنه كفر بدين الله ، والكفر بالنسبة لـــه واجب فيقول منشدا :

كفرت بدين الله والكفر واجب لدى وعند المسلمين قبيح [٧] .

وبذلـــك وجدنـــا الحـــلاج هـــنا كان صريحا كل الصراحة في إنكاره لما اتفق عليه المسلمون في الإيمان والعبادة بمختلف صورها ، ثم حدد مكانه في كونه لا يتبع مكة والمدينة بمفهوم الدين الإسلامي فيقول منشدا :

---

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية ، د. ماجد فخري ، بيروت (الدار المتحدة ١٩٨٤م) ص ٣٣٥ .

(٢) أخبار الحلاج ص ١٠٨ .

(٣) الطواسين ص ٧٧، ٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٦٧ .

(٥) أخبار الحلاج ص ٦٣ .

(٦) نفسه ص ٥٣ .

(٧) نفسه ص ٩٩ .

ففي دين الصليب يكون موتي   ولا البطحاء أريد ولا المدينة [١] .

وفي هذا البيت نرى أن الحلاج طلب أن يجعل الله موته على الصليبية ، وأكد على أنه لا يريد البطحاء التي توجد بمكة ولا المدينة أيضا ، وذلك لأن مكة والمدينة من الأماكن المقدسة عند المسلمين ، وهو قد تمنى أن يكون موته على دين الصليبيين النصارى .

ولا شك أن العبارات التي صدرت من الحلاج كلمات كفرية لها خطورتها البالغة ، ذلك أن القول بحلول الله في خلقه مناقض لما اعتقد به المسلمون ، فهم يعتقدون بأن الله ﷻ مستو على عرشه بائن عن خلقه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٢] فالله ﷻ متره كل التتريه أن يحل في مخلوقاته ، فقال مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [٣] .

وبذلك نفهم أن عقيدة الحلاج في الحلول ليست من عقيدة الإسلام ، وإنما عقيدة وثنية دخيلة كما قال الدكتور عبد القادر محمود مؤكدا بأن الحلاج أخذ هذا المعتقد الباطل من النصارى غير معتقدهم الصحيح بسبب تأثرهم بالفلسفات الوثنية فقال الدكتور : " والحلاج في واقع مذهبه ينتمي لمذهب الخلاص المسيحي الذي يؤكد أنه لا سعادة إلا في خلاص الروح من حجابه وهو الجسد ، ولهذا سعى لتحطيم هذا الحجاب وكل حجب أخرى من الشعائر تقف حاجزا بينها وبين حقيقتها المطلقة " [٤] .

وأما إنكاره للإيمان والعقل والعبادة بأنها لا توصل المؤمن إلى معرفة الله ﷻ فهو محض الجهل بتعاليم ديننا الحنيف .

ولقد اتجه الصوفية المتأخرون إلى تقسيم المعرفة (العلم اللدني) بمعناها العام إلى مستويات مختلفة لكل منها اتجاهه ووسيلته ، ففي حين يذهب ابن عربي إلى أن المعرفة أو كما يسميها العلم ينقسم إلى ثلاثة أنواع يرتبها على النحو الآتي :

١- علم العقل : وهو كل علم يحصل بالضرورة أو عقب نظر في دليل .

٢-علم الأحوال : ولا سبيل إليه إلا بالذوق ، وليس إلى إيجاده أو الإقامة على معرفته دليل .

---

[١] المصدر السابق ص ٨٢ .

[٢] سورة الشورى ، الآية (١١) .

[٣] سورة الإخلاص ، الآيات (١- ٤) .

[٤] الفلسفة الصوفية في الإسلام ص ٣٥٥ .

٣- علم الأسرار : وهو العلم الذي فوق أطوار العقل ، وهو علم نفث روح القدس ، ويختص بالنبي أو الولي [١] .

وقد سماه الغزالي بالمعرفة الإشراقية : " وهي نور يقذفه الله في الصدر ، وهو مفتاح أكثر المعارف ، وهذه المعرفة هي العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم ، وهو نتيجة العلم والعمل ، وهو طريق الصوفية [٢] . كما هو الطريق الذي اختاره بقوله : " وما ارتضيته أخيرا من طريق التصوف " [٣] .

والصوفية المتقدمون لم نجد منهم كلاما صريحا في قضية العلم اللدني ، ولكن يوجد منهم من تحدث عن فكرة النور الذي هو أساس المعرفة الصوفية ، وأشار إلى العلم الرباني ، غير أن الجنيد قد اعترف بأن عليا ﷺ قد أعطي العلم اللدني كما ذكر ذلك السراج الطوسي [٤] .

قال أبو سليمان الداراني : " لا يزهد في شهوات هذه الدنيا إلا من وضع الله في قلبه نورا يشغله دائما بأمور الآخرة " [٥] . وقد عبر الداراني هنا عن فكرة النور المعروف لدى الصوفية ، حيث إنه الطريق الموصل إلى معرفة الله ﷻ .

ولهذا ذكر الطوسي أن أبا سليمان لو علم أن بمكة رجلا يفيده في علم المعرفة لمشى على رجليه ولو ألف فرسخ حتى يسمعها منه [٦] .

وبين الداراني بأن " أهل المعرفة دعاؤهم غير دعاء الناس ، وهمتهم غير همة الناس " [٧] وقال : " لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هذه الآية الواحدة لا اكتفوا بها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [٨] .

---

[١] الفتوحات المكية ٣١/١ .

[٢] المنقذ من الضلال ص ١٢٩ .

[٣] المصدر نفسه ص ٨٠ .

[٤] اللمع للطوسي ص ١٧٩ .

[٥] تذكرة الأولياء لفريد العطار ص ٢٣١ نقلا عن في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٦ .

[٦] اللمع للطوسي ص ٢٤٠ .

[٧] حلية الأولياء ٢٦٨/٩ .

[٨] سورة القيامة ، الآيتان (٢٢- ٢٣) .

قـــال الدكتور كامل الشيبي : وكان علي ﷺ نفسه قد أعطي العلم اللدني باعتراف الجـــنيد وروايته [١] ، وهذا العلم اللدني هو الذي يندمج عليه أصحاب العلم الذين " عقلوا الديـــن عقـــل وعاية ودراية لا عقل سماع ورواية " [٢] ، وهذا العلم الذي دخل التصوف وصـــار المتصوفة مندمجين عليه لأنهم " اعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم أسرار العلم الباطن المودع في القرآن والحديث " [٣] وذلك على قدر تفاوتهم واختصاصهم .

ثم أشـــار إلى أن التســـتري أخـــبر بأن الله ما استولى وليا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القـــرآن ظاهـــرا أو باطنا ، قيل لـــه : إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟ قال : فهمه ، وأن فهمه المراد [٤] . و أضاف إلى ذلك قول البسطامي : " ليس العالم من يحفظ كتابا فإذا نسي مـــا حفـــظ صار جاهلا ، بل من يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا تحفظ ولا دروس ، وهذا هو العلم الرباني " [٥] .

وهذه المعارف بمستوياتها المختلفة تكتسب من طريقين ، كما بين ذلك الغزالي حيث ذكر : " أن العلم الإنساني يحصل من طريقين ، أحدهما : التعليم الإنساني ، والثاني : التعليم الرباني .

فالطريق الأول : طريق معهود ، ومسلك محسوس ، يقر به جميع العقلاء .

وأما الطريق الثاني : فيكون تحصيله من خارج وهو التحصيل بالتعلم ، أو يكون من داخـــل وهـــو الاشـــتغال بالتفكر ، والتفكر من الباطن بمنزلة التعلم في الظاهر .. " [٦] ثم إن التعليم الرباني على وجهين :

الوجـــه الأول : إلقاء الوحي وهو أن النفس إذا كملت ذاتها يزول عنها دنس الطبيعة ، ودرن الحـــرص والأمـــل الفـــاني ، وتقبل بوجهها على بارئها ومنشئها ، وتتمسك بجود

---

(١) الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٨٠ .

(٢) نهج البلاغة ، للسيد الشريف الرضى ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ٤٦٧/١ .

(٣) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ٧٧ .

(٤) تفسير التستري ص ٧ نقلا عن الصلة بين التصوف والتشيع ص ٣٨٠ .

(٥) شفاء السائل في تهذيب المسائل لابن خلدون ص ٢٦ نقلا عن المرجع السابق ص ٣٨١ .

(٦) الرسالة اللدنية ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص ٦٧ .

مـــبدعها ، وتعتمد على إفادته وفيض نوره ، والله تعالى بحسن عنايته يقبل على تلك النفس إقبالا كليا .. وحدث هذا العلم عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. [١] .

أمـــا الوجـــه الثاني : فهو الإلهام ، والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية عـــلى قـــدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها ، والإلهام أثر الوحي ، لأن الوحي هو تصريح الأمـــر الغيبي ، والإلهام هو تعريضه ، والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا ، والذي يحصـــل عـــن الإلهام يسمى علما لدنيا ، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس والباري ، وإنما هو كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف ..[٢] " والعـــلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما كان للخضر عليه السلام حيث أخبر الله عز وجل عنه فقال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [٣] .

وقد استدل الغزالي – على هذا العلم – بالقول المنسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طـــالب رضي الله عنه : " أدخـــلت لساني في فمي فانفتح في قلبي ألف باب من العلم مع كل باب ألـــف بـــاب ، وقال : لو وضعت لي وسادة وجلست عليها لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم ولأهـــل الإنجيل بإنجيلهم ، ولأهل القرآن بقرآنهم " وأضاف الغزالي قائلا : " وهذه مرتبة لا تـــنال بمجـــرد التعلم الإنساني ، بل يتحلى المرء بهذه المرتبة بقوة العلم اللدني " .. [٤] وأن حقيقـــة الحكمة تنال من العلم اللدني ، و مالم يبلغ الإنسان هذه المرتبة لا يكون حكيما لأن الحكمة من مواهب الله تعالى [٥] . ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْـــرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [٦] ، وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مســـتغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم فيتعلمون قليلا ويعلمون كثيرا ، ويتعبون يسيرا ويستريحون طويلا " [٧] .

---

[١] انظر : المصدر نفسه ص ٦٩ .

[٢] المصدر نفسه ص ٧٠ .

[٣] سورة الكهف ، الآية (٦٥) .

[٤] الرسالة اللدنية ص ٧٠ – ٧١ .

[٥] نفسه ص ٧١ .

[٦] سورة البقرة ، الآية (٢٦٩) .

[٧] الرسالة اللدنية ص ٧١ .

واستطرد الغزالي في توضيح أهمية العلم اللدني فيقول : " الوحي إذا انقطع وباب الرسالة إذا انسد استغنى الناس عن الرسل وإظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [١] وليس من الحكمة إظهار زيادة الفائدة من غير حاجة ، فأما باب الإلهام فلا ينسد ، ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها إلى تأكيد وتذكير ، وكما أن الناس استغنوا عن الرسالة والدعوة واحتاجوا إلى التذكير والتنبيه لاستغراقهم في هذه الوساوس وانهماكهم في هذه الشهوات فالله تعالى أغلق باب الوحي وهو لآية العباد ، وفتح باب الإلهام رحمة ، وهيأ الأمور ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب " .

أما عن حقيقة العلم اللدني وأسباب حصوله فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها .

والثاني : الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة ، فإن النبي ﷺ أشار إلى هذه الحقيقة فقال : ((من عمل بما علم أورثه الله ما لم يعلم)) [٢] وقال ﷺ : ((من أخلص لله أربعين صباحا أظهر الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه)) [٣] .

والثالث : التفكر ، فإن النفس إذا تعلمت و ارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط الفكر ينفتح عليها باب الغيب كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التصرف ينفتح عليه أبواب الربح ، وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران ، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب ، وتنفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالما كاملا عاقلا ملهما مؤيدا " [٤] . هذا هو العلم اللدني الذي بينه الغزالي ، وهو العلم الذي ظن بعض الصوفية أنه يمكن الاستغناء به عن العلم الكسبي .

أما الإمام ابن القيم فقد قال فيه في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في منازل السائرين : " العلم اللدني هو العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد ولا استدلال ، ولهذا سمي لدنيا ، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [٥] والله تعالى هو الذي

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٣) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/١٣ ، قال الألباني في " الأحاديث الضعيفة " " موضوع " ١/٤٢٣ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية٥/٢١٥ ، قال الألباني في " الأحاديث الضعيفة " " ضعيف " ١/٥٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٣- ٧٤ .

(٥) سورة الكهف ، الآية (٦٥) .

عـــلم العباد مالا يعلمون ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [(١)] . ولكن هذا العلم أخـــص مـــن غـــيره ، ولذلك أضافه إليه سبحانه ، كبيته وناقته وبلده وعبده ونحو ذلك ، فتضمحل العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدني الحاصل بلا سبب ولا استدلال هذا هو مضمون كلامه .

ثم أضـــاف ابن القيم فقال : " ونحن نقول : إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة هو العـــلم الحقيقي ، وأما ما يدعي حصوله بغير شاهد ولا دليل فلا وثوق به وليس بعلم ، نعم قـــد يقـــوي العـــلم الحاصل بالشواهد ويتزايد ، بحيث يصير المعلوم كالمشهود ، والغائب كالمعـــاين ، وعـــلم اليقين كعين اليقين ، فيكون الأمر شعورا أولا ، ثم تجويزا ، ثم ظنا ، ثم علما ، ثم معرفة ، ثم علم يقين ، ثم حق يقين ، ثم عين يقين ، ثم تضمحل كل مرتبة في التي فوقها بحيث يصير الحكم لها دونها فهذا حق " [(٢)] .

وبذلـــك نقـــول : بأن دعوى وقوع نوع من العلم بغير سبب من الاستدلال ليس بصـــحيح ، لأن الله ربط التعريفات بأسبابها كما ربط الكائنات بأسبابها ، ولا يحصل لبشر عـــلم إلا بدليل يدل عليه ، وقد أيد الله سبحانه رسله عليهم الصلاة والسلام بأنواع الأدلة والـــبراهين التي تدلهم على أن ما جاءهم هو من عند الله ، ودلت أممهم على ذلك ، وكان معهم أعظم الأمثلة والبراهين .

فكـــانت براهيـــنهم أدلـــة وشواهد لهم ، والله ﷻ شهد بتصديقهم بما أقام عليه من الشـــواهد ، فكل علم لا يستند إلى دليل فدعوى لا دليل عليها ، وما كان كذلك لم يكن عـــلما فضلا أن يكون لدنيا ، فالعلم اللدني ما قام الدليل الصحيح عليه أنه جاء من عند الله على لسان رسله عليهم السلام .

وقد ذم الله ﷻ بأبلغ الذم من ينسب إليه ما ليس من عنده كما قال الله ﷻ عنهم : ﴿ وَيَقُولُـــونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [(٣)] وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندَ اللهِ ﴾ [(٤)] . وقـــال تعالى أيضا : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ

---

(١) سورة العلق ، الآية (٥) .

(٢) مدارج السالكين ٣/٣٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٧٨) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٧٩) .

إِلَيْـــهِ شَيْءٌ ﴾ [(١)] فكل من قال هذا العلم من عند الله – وهو كاذب في هذه النسبة – فله نصيب وافر من هذا الذم ، فالله ﷻ يذم من أضاف إليه ما لا علم له به ومن قال عليه ما لا يعلم ، ولهذا رتب ﷻ المحرمات أربع مراتب وجعل أشدها القول عليه بلا علم ، فجعله آخر مراتب المحرمات التي لا تباح بحال ، بل هي محرمة في كل ملة وعلى لسان كل رسول .قال تعـــالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)] .

فالقـــائل " إن هذا علم لدني " لما لا يعلم أنه من عند الله ولا قام عليه برهان من الله أنه من عنده كاذب مفتر على الله ، وهو من أظلم الظالمين وأكذب الكاذبين " [(٣)] .

إذن فاشـــتراط موافقة الإلهامات أو المعارف للكتاب والسنة قائم أصلا أن ليس لبشر غير الرسل – عليهم السلام – في هذا المجال عصمة تقيه كيد الشيطان وحيله إلا إذا عصمه الله بالـــتقيد بما جاء في كتابه وما ورد عن نبيه ﷺ من حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـــن خـــلفه ، ذلـــك أن معرفة تلك الإلقاءات ومصدر تلك الإلهامات لا يستطيع الإنسان تحديده بعقله وحده أو شعوره وحده ؛ بل لا بد فيه من ضابط الكتاب والسنة .

أمـــا الاعـــتماد المطـــلق على هذه المعارف والفتوحات دون تقييدها بما جاءت به النصـــوص الشرعية واعتبارها المصدر الأساسي للتشريع فهو خطر عظيم فتح بابه على هذه الأمـــة ليدخل منه كثير من العابثين والمضلين الذين يسعون إلى هدم هذا الدين الذي قد تم قـــبل وفاة الرسول ﷺ كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [(٤)] .

وقد تحدث عن هذا الجانب الأستاذ عبد الرحمن دمشقية فقال : " ولهذا فإنه قد فتح بالكشف باب دخل منه كثير من العابثين بهذه الأمة ، ومن الأئمة المضلين يتكلمون في فنون الكشـــف بما يتعارض والأدلة الشرعية ، وبقي هؤلاء العابثون يتدفقون من هذا الباب الذي بقـــي مفتوحا إلى يومنا هذا ، فصارت العلوم الشرعية عند هؤلاء من المرتبة التي تلي مرتبة

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٩٣) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٣) .

(٣) مدارج السالكين ٣/٤٠٠- ٤٠١ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ، (٣) .

الكشـــف ، وصار حاملو هذه العلوم الشرعية عند هؤلاء من أهل الظاهر ، الذين ختم الله على قلوبهم عن ملاحظة هذا العلم الباطن ، وعن التنعم بأسرار الكشف .

ولعل هذا الوحي الصوفي وهذه الكشوفات والتجليات هي ما أشار الله ﷻ إليه بقوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـــاذِبُونَ ﴾ (١) . ولعل هذا النوع من التترل وإلقاء السمع من الشياطين هو ما ظنه الغزالي وحيـــا يحصـــل به سماع المريد لما سمعه موسى ، حتى دعا الخلائق إليه بالاجتهاد في تحصيله بالرياضـــات والتصـــفيات والخلوات ، ليسمعوا الكلام الذي سمعه موسى بن عمران عليه السلام " (٢) .

ولكـــن لا بد من التنبيه من أن الكشف الصوفي غير الإلهام بالحق الذي يقذفه الله في قـــلوب عـــباده المؤمـــنين الصادقين حتى يتبين لهم الصواب ، فإن هذا الأمر وارد ولا يمكن إنكاره ، حيث كثرت النصوص الشرعية التي تشير إلى الإلهام كوسيلة من وسائل المعرفة .

ومـــن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لقد كان فيمن كان قبـــلكم مـــن بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر)) (٣) .

ويقـــول شـــيخ الإســـلام ابن تيمية : " وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطـــبة فـــإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة كما في الصحيحين عن الـــنبي ﷺ أنه قال : ((قدكان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر)) (٤) ، وكـــان عمر يقول : " اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منه ما يقولون فإنها تجلى لهم أمور صادقة " (٥) " (٦) .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات (٢٢١- ٢٢٣) .

(٢) أبو حامد الغزالي والتصوف ص ١٩٦ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر بن الخطاب ١٣٤٩/٣ (ح ١٣٤٩) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل عمر ١٨١٤/٤ (ح ٢٣٩٧) .

(٤) سبق تخريجه قبل قليل .

(٥) أخرج ابن أبي شيبة في معنى هذا ، عن عبد الله بن عتبة قال : قال عمر : " جالسوا التوابين فإنهم أرق شيء أفئدة " . وعن وديعة الأنصاري من قول عمر : " استشر في أمرك الذين يخشون الله " ولم أجد نص ما ذكره المؤلف . انظر : الكتاب المصنف ٢٧٢/١٣ ، ٢٧٥ ، والزهد لابن المبارك ص ٤٢، ٤٩ .

(٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٥١ .

وفي الـــترمذي عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بـــنور الله » [١] ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٢] ، وقال بعض الصحابة: أظنه والله الحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم " [٣] .

وهـــذه الأحـــاديث وغيرها تشير إلى أن المعرفة (العلم اللدني) بمعناها الشرعي أمر ممكن عقلا ونقلا ، غير أن هناك فرقا بين العلم اللدني عند الصوفية وبين الفراسة ، فالفراسة الـــتي تحـــدث عنها العلماء تحت هذا الموضوع تأتي بما يوافق الأدلة ، أما العلم اللدني الذي تحـــدث عـــنه الصوفية فإنه يأتي بأشياء جديدة ، ليست الفراسة التي تحدث عنها العلماء هو العـــلم اللدني عند الصوفية ، وحديث المكَلَّمين " فإن يك في أمتي أحد فعمر " لو قال : فإن يـــك منهم أحد في أمتي فمنهم عمر ، لكان يوحي بأن هناك محدثا في أمة محمد ﷺ ، لكن النص يوحي بأنه خاص بعمر ﷺ .

أمـــا التوســـع الذي يركن إليه الصوفية في هذا الحديث فإنه توسع غير مقبول ، لأن الفراسة لا تأتي بأشياء جديدة – كما عند الصوفية – وإنما تأتي بما يوافق الأدلة الشرعية .

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ، باب ومن سورة الحجر ، ٢٩٨/٥ (ح ٣١٢٧) ٢٩٨/٥ ، قال : " هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم " ، والطبراني في الكبير (٧٤٩٧) ، والبيهقي في الزهد (ص ٧٨) من طريق عبد الله بن صالح به، وقال الهيثمي في المجمع ٢٦٨/١٠ إسناده حسن.

(٢) سورة الحجر ، الآية (٧٥) .

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٩١ .

المبحث الثاني

الحب الإلهي

صـــار الحب الإلهي — في القرنين الثاني والثالث الهجريين — المعلم الواضح ، والسمة المميزة للتصوف .

ومعـــنى الحب والمحبة لله ﷻ ليس جديدا ، إذ تقتضي من أصحابها اتباع الرسول ﷺ وعـــدم مخالفته ، كما قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [١] . وهي أيضا من صفات المؤمنين فقال ﷻ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنـــدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [٢] . وهذا يدل على أن حـــب الله ﷻ مـــن الصفات المبرزة للإنسان المؤمن ، ولكن لا تكون المحبة الصادقة لله إلا بمتابعة الرسول ﷺ ، فهي الطريق الوحيد للوصول إلى محبة الله ﷻ لعباده المؤمنين .

ومـــن أحبهم الله ﷻ كان عونا لهم ، كما ورد ذلك في الحديث القدسي ((.. وما تقـــرب إلي عـــبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حـــتى أحـــبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ورجله التي يمشي بها ، ويده التي يبطش بها ، وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذني لأعيذنه)) [٣] ، وكان من مأثور دعاء الرسول ﷺ طلبه وسؤاله الحب ، والنظر إلى وجهه ﷻ ((.. وأسألك حبك وحـــب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك)) [٤] ، ويسأله ﷻ فيقول : ((وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة)) [٥] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق باب التواضع ٣٤٨/١١ (ح ٦٥٠٢) .

(٤) أخرجـــه أحمد بلفظـــه في المسنـــد ٢٤٣/٥ ، و الترمذي بنحوه في كتاب الدعوات ٣٦٩/٥ ، والحاكم في المستدرك ٥٢١/١ ، وحسنه الترمذي .

(٥) أخرجـــه في باب الدعاء بعد الذكر النسائي ٥٤/٣، ٥٥ ، وأحمد ٣٦٤/٤ ، وإسناده جيد ، انظر : صحيح النسائي ٢٨٠/١، ٢٨١ .

فمعـــنى الحب الإلهي أصيل في الإسلام ، أعانت عليه سهولة حياة المسلمين ويسارها والـــتدبر والـــتأمل في أســـرار هذا الكون العجيب ، وآياته الباهرة بالسياحة والضرب في الأرض .[١]

والحـــب الإلهـــي في هذا العهد صار هدفا اتجه إليه أهل التصوف بعد أن كان وسيلة لـــلطاعة والاستسلام لبلوغ الجنة والنجاة من النار عند الزهاد الأوائل ، فإبراهيم بن أدهم (ت ١٦١هـــ) يقـــول : " اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة إذا أنت أنســـتني بذكـــرك ، ورزقـــتني حـــبك ، وسهلت علي طاعتك "[٢] . والحب أصبح دثار الزاهدين يلتقي بإبراهيم بن أدهم فيعلم إبراهيم " إن الزاهدين في الدنيا قد اتخذوا الرضا عن الله لباســـا ، وحـــبه دثارا ، والإثرة له شعارا .. "[٣] . والمحبة لله ﷻ تتحقق ويبلغ الزاهد غايـــتها بشرط يذكره الفضيل ابن عياض قائلا : " إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء فقد بلغت الغاية من حبه "[٤]

وفكـــرة الحب الإلهي قد تحدث عنها أيضا عبد الواحد بن زيد (ت ١٧٧هـــ) فهو من أوائل من نادى من الصوفية بالمحبة الإلهية – في القرن الثاني الهجري – حيث كان كثيرا مـــا يـــردد هـــذه الفكرة ، وذلك من خلال عباراته حينما يقول : " ما أحسب شيئا من الأعمـــال يـــتقدم الصبر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا وهي رأس المحبة " ويقول أيضا : " من نوى الصبر على طاعة الله صبَّره الله عليها وقواه لها ، ومن نوى الصـــبر عـــن معاصي الله أعانه الله على ذلك وعصمه منها .. يا سيار أتراك تصبر لمحبته عن هـــواك فـــيخيب صبرك ؟ لقد أساء بسيده الظن من ظن به هذا وشبهه قال : ثم بكى عبد الواحد حتى خفت (أي مِسْمَع) أن يغشى عليه ، ثم قال : أتأبى أنت يا مسمع نعمة غادية ورائحة على أهل معصيته فكيف ييأس من رحمته أهل محبته ؟ "[٥] .

وقـــد أورد أبو نعيم رواية أخرى لعبد الواحد بن زيد عن الحسن البصري التي توحي إلى فكـــرة الحب الإلهي قال : قال رسول الله ﷺ : "يقول الله تعالى إذا كان الغالب على

---

[١] دراسات في التصوف الإسلامي ٧٤/٢ .

[٢] حلية الأولياء ٣٦/٨ .

[٣] طبقات الصوفية ص ٣٤ .

[٤] حلية الأولياء ٨/ ١١٣ .

[٥] حلية الأولياء ١٧٥/٦ .

عـبدي الاشـتغال بي جعلت نعيمه ولذته في ذكري ، فإذا جعلت نعيمه ولذته في ذكري عشـقني وعشقته ، فإذا عشقني وعشقته رفعت الحجاب فيما بيني وبينه ، وصرت معالم بين عينيه ، لا يسهو إذا سها الناس ، أولئك الأبطال حقا ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبـة وعذابا ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم » [١] ثم علق عليه أبو نعيم قائلا : وكذا رواه عبد الواحد عن الحسن مرسلا ، وهذا الحديث خارج من جملة أحاديث المراسيل المقبولة عن الحسن لمكان محمد بن الفضل وعبد الواحد وما يرجعان إليه من الضعف " [٢] .

وهـذا النص – بلا شك – ينص صراحة على فكرة العشق الإلهي ، التي يتمسك بها المتصـوفة رغم ما فيها من بطلان أو تصادم مع العقيدة الصحيحة الصافية ، لأن صفات الله ﷻ عند أهل السنة والجماعة منقولة من الكتاب والسنة الصحيحة ، والذي ثبت أن الله ﷻ يحب ، ولم يصف الله ﷻ نفسه ولا وصفه رسوله ﷺ بأنه يعشق .

فإذا كان عبد الواحد بن زيد قد تحدث عن العشق الإلهي في القرن الثاني الهجري فإن أبا الحسين أحمد النوري (ت ٢٩٥هـ) في القرن الثالث الهجري قد أشار إلى ذلك أيضا ، وقـد جـاء في كتاب " تلبيس إبليس " " قال السراج : وبلغني أن أبا الحسين النوري شهد عليه غلام الخليل أنه سمعه يقول : أنا أعشق الله ﷻ وهو يعشقني ، فقال النوري سمعت الله يقول : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [٣] وليس العشق بأكثر من المحبة .

وقد رد ابن الجوزي على ذلك فقال : وهذا جهل منهم من ثلاثة أوجه : أحدها من حيـث الاسـم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح ، والثاني : أن صفات الله مـنقولة فهو يحب ولا يقال يعشق ، ويقال يعلم ولا يقال يعرف ، والثالث : من أين له أن الله تعالى يحبه ؟ فهذه دعوى بلا دليل [٤] .

إذا عدنا إلى عبد الواحد بن زيد فإن أبرز ما يلفتنا إليه أيضا هو إفراطه في البكاء وفي إثـارة الوجد عند الآخرين حتى قال حصين بن القاسم الوزان : " لو قسم بث عبد الواحد

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٧٧/٦ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٥٤) .

(٤) تلبيس إبليس ص ٢١١ .

ابـــن زيـــد على أهل البصرة لوسعهم " [١] . وقد كان شديد التأثير في الوعظ والنصيحة ، وذلك من خلال طريقة أدائه ، وكثرة تحننه ، وإبداء تأثره وحزنه .

وقـــد أورد أبـــو نعيم نماذج هذه الأحوال منها ما يقوله بكر بن معاذ : سمعت عبد الواحـــد بن زيد يقول : يا إخوتاه ! ألا تبكون خوفا من النيران ؟ ألا إنه من بكى خوفا من الـــنار أعاذه الله تعالى منها ، يا إخوتاه ! ألا تبكون خوفا من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا إخوتـــاه ألا تـــبكون ؟ بلى فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القـــدس مـــع خير القدماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولـــئك رفيقا . قال : ثم جعل يبكي حتى غشي عليه " [٢] . وذكر أنه كان يعظ يوما فناداه رجـــل مـــن ناحيـــة المسجد كف عنا يا أبا عبيدة فقد كشفت قناع قلبي ، ولم يقطع عبد الواحد عن موعظة بل استمر فيها فحشرج الرجل حشرجة الموت ثم مات [٣] .

ولعـــل هـــذا ما دفع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عده أول صوفي على وجه الحقيقة ،حيـــنما قـــال رحمـــه الله : إنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخـــوف ونحـــو ذلك ، ما لم يكن في سائر أهل الأمصار [٤] ، وما دعا الذهبي إلى القول بأنـــه " شـــيخ الصـــوفية وواعظهم " [٥] ، وتردد ذكره كثيرا على لسان أبي سليمان الـــداراني وتلميذه أحمد بن أبي الحواري وكذلك على الفضيل بن عياض [٦] . كما ذهب الطوسي – أيضا – إلى أن عبد الواحد كان من أوائل من نطق باسم الصوفية ؛ بل وصفهم لما سئل : " من الصوفية عندك ؟ فقال : القائمون بعقولهم على هومهم ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية " [٧] .

---

(١) حلية الأولياء ١٧٣/٦ .

(٢) المصدر السابق ١٧٢/٦- ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ١٧١/٦ .

(٤) انظر : الصوفية والفقراء ص ١٢ .

(٥) ميزان الاعتدال ٤١٥/٣ .

(٦) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٧٨/٣ .

(٧) اللمع للطوسي ص ٤٥ .

ومـــن رواد الحب الإلهي في القرن الثاني عتبة الغلام [١] (ت ١٧٧هـ) وقد اشتهر أيضـــا بالحـــزن والخـــوف ، وأورد لنا أبو نعيم أخبار حزنه وزهده ، حتى اعتبر من نساك البصرة ، لأنه كان من أصحاب الفِلَقِ [٢] ، حيث قوَّت لنفسه سنتين فلقة ، يتعشى كل ليلة بفـــلقة ويتسحر بأخرى ، وكان يصوم الدهر ، ويأوي السواحل والجبابين ، [٣] كما ذكر أبـــو نعيم ما صدر عنه من فكرة الحب الإلهي لمناجاته لربه فقال : " .. إن تعذبني فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب ، فلم يزل يرددها ويبكي حتى تطلع الفجر " وكان يصلي في الـــليل الطويل ، فإذا فرغ رفع رأسه قائلا : " سيدي إن تعذبني فإني أحبك ، وإن تعف عـــني فإني أحبك " [٤] . وقد تساوى عنده أحداث الحياة وتقلباتها وهو في مقام الحب [٥] . وقـــال : " مـــن سكن حبه قلبه فلم يجد حرا ولا بردا ، يعني من سكن حب الله قلبه شغله حتى لا يعرف الحر من البرد ، ولا الحلو من الحامض .." [٦] .

ولكـــنه يتذكر يوم العرض على الله فيقول : " قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحـــبين ..ويقـــول : تراك مولاي تعذب محبيك وأنت الحي الكريم ..؟ " . ويخبر بأن طريق المحـــبة شـــاق وطويل " سبحان جبار السماء إن المحب لفي عناء " [٧] . ويبين عقبة المحب فيقول : " من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه ، وطوباه ، وطوباه ..! " [٨] .

ومن خلال النصوص السابقة تتجلى بجلاء أن قضية الحب الإلهي في القرن الثاني تخيم عـــلى أحـــزان الأعلام الصوفية في هذا القرن نتيجة البكاء المستمر ، والمناجاة الدائمة التي يمارســـها الصـــوفية وينادون ربهم في الليلة الظلماء سائلين منه حبه ومرضاته ، والنجاة من

---

(١) هو عتبة بن أبان البصري ، الزاهد ، الخاشع ، الخائف ، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري (ت ١٧٧هـ) انظر : سير أعلام ٧/٦٢ .

(٢) الفِلَقِ : جمع فلقة ، والفلقة : الكِسْرة من الجفنة ، أو من الخبز ، ويقال : الفلقة من الجفنة : نصفها ، يقال : أعطني فلقة الجفنة ، وقيل أحد شقيها إذا انفلقت . انظر : تاج العروس للزبيدي ١٣/٤٠٥ .

(٣) حلية الأولياء ٦/٢٤٧ .

(٤) المصدر السابق ٦/٢٥٣ .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٣/١٨٤ .

(٦) حلية الأولياء ٦/٢٥٤ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) المصدر نفسه .

نيرانـــه كمـــا حصل ذلك عند عبد الواحد بن زيد ، وقد رأينا خطاءه حينما نادى بفكرة العشـــق الإلهي التي تتناقض مع العقيدة الصحيحة ، وتكلم بكلام خارج عن المنهج الصحيح في أسمـــاء الله وصـــفاته ، وكذلك صديقه عتبة الغلام لـــه أحزان ومخاوف ، ومبالغات في التنسك ؛ بل له مخالفات لرسول الله ﷺ في الأدعية والأفعال والتعبد ، فمحبة الله ﷻ تتمثل في العمل بأوامره واجتناب نواهيه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [١] .

وفي أواخـــر القرن الثاني الهجري ظهرت نظرية الحب الإلهي في مدرسة البصرة عند جماعـــة لقبوا بالزنادقة أو زنادقة الزهاد ، وهو اسم أطلقه عليهم أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥هـــ) [٢] ، ومن هؤلاء :

رابعة العدوية (ت ١٨٥هـــ) حيث اعتبرت من أوائل من تغنى بنغمة الحب الإلهي ، الـــتي اتخـــذت حب الله ﷻ لما يخصها من نعمه وآلائه ، وأحبت الله ﷻ لذاته لا خوفا من نـــاره ولا طمعا في جنته ، وكان أقصى أمانيها أن يكشف الله لها عن وجهه الكريم ، ويرفع عـــن قلبها الحجب التي تحول دون مشاهدته ، وفي هذا تقول في الأبيات الآتية مخاطبة فيها ربها وقائلة :

أحبك حبين حب الهوى ... وحبـــا لأنك أهـــل لـــذاكـــا

فأما الذي هو حب الهوى ... فكشفك لي الحجب حتى أراكـــا

وأما الذي أنت أهل لـــه ... فلست أرى الكون حتى أراكـــا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكـــن الحمـــد في ذا وذاكـــا [٣] .

وقـــد عقب الغزالي على هذه الأبيات قائلا : " ولعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، ويحبه لما هو أهل له : الحب لجماله وجلاله الـــذي انكشـــف لها ؛ وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حينما قال حاكيا عن ربه ﷻ : ((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)) " [٤] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ١٨٧/٣ .

(٣) إحياء علوم الدين ٣١٠/٤ .

(٤) سبق تخريجه في ص ٦١ .

ولا شـــك أن حب الله ﷻ لذاته هو الحب الذي كانت تؤثره رابعة وتأخذ نفسها به كمـــا يـــدل على ذلك قولها في إحدى مناجاتها ، حين تناجي ربها قائلة : " إلهي إذا كنت أعـــبدك رهبة من النار فأحرقني بنار جهنم ، وإذا كنت أعبدك رغبة في الجنة فأحرمنيها ، وأمـــا إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي " ، وكما يدلنا عـــليه أيضـــا قصتها مع سفيان الثوري ، وقد سألها عن حقيقة إيمانها فأجابته بقولها : " ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه " وكمـــا يـــدل عليه بعد هذا كله قولها : " محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه " [١] .

وهذا ما يجعل بعض الباحثين يقولون : بأن رابعة العدوية هي أول من استعمل لفظة الحـــب اســـتعمالا صريحا في التعبير عن صلتها بالله ﷻ وميلها إليه وإقبالها عليه ، وإن لفظة الحب قد شاعت في أقوال رابعة المنثورة والمنظومة ، ومنذ عهدها أخذت لفظة الحب ولفظة المحبة تشيع في أقوال الزهاد والصوفية على تعاقب طبقاتهم وعصورهم [٢] .

ولكن لو تأملنا في كلمات رابعة السابقة لوجدنا أن رابعة العدوية تحدثت عن مظهر من مظاهر الصوفية ، ذلك المظهر هو إنكار الذات وفناء المحب في المحبوب ، إذ لا تعرف الله حقا ولا يجد الحب الحقيقي – كما تزعمه المتصوفة – وفي النفس أدنى شعور بذاتها وبالعالم المحيـــط [٣] . وكذلـــك لو نظرنا إلى قولها " فكشفك لي الحجب حتى أراكا " فإنه قول ذو خطـــر عظـــيم عـــلى الصوفية المنحرفين الذين جاءوا بعدها ، لأنهم لما عنوا بذلك وطلبوه بالخـــلوات والأذكار أتاهم الشيطان بتخيلات وتصورات فبدت لهم الكائنات ، وأن الله ﷻ قد ظهر فيها ، فلا يرون إلا الله ﷻ حسب زعمهم ، حتى قال الحلاج أحد غلاتهم :

يا جملة الكل لست غيري   فما اعتذاري إذن إلي
أنا أنت بـــلا شـــك   فسبحانك سبحاني [٤] .

وهكـــذا ظهرت نظرية الحب الإلهي بعد رابعة العدوية ، فمنهم من فهم معناها كما دل عليه الكتاب والسنة ، ومنهم من أخطأ فيها وانحرف عن الطريق الصحيح .

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المدخل إلى دراسة الأديان ، لعبد الرزاق محمد أسود ط١ ، بيروت (دار المسيرة ١٤٠٠هـــ) ٢/ ٢٢ .

(٣) انظر : التصوف بين الحق والخلق ص ٥٨ .

(٤) أخبار الحلاج ص ٧٨ .

وأما بقية الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري فقد تحدثوا أيضا عن المحبة الإلهية ، وذكروا عدة تعريفات يريدون من وراءها تحديد ماهية الحب والكشف عن طبيعته وحقيقة معانيـــه .

فهذا الحارث المحاسبي قال : " المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك لـــه على نفســـك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك في حبه " [١] . ولمـــا سئل سهل التستري عن المحبة فقال : " موافقة القلوب لله ، والتزام الموافقة لله ، واتباع الرسول ﷺ ، مع دوام الاستهتار [٢] بذكر الله تعالى ، ووجود حلاوة المناجاة لله ﷻ " [٣] . أمـــا أبـــو سعيد الخراز لما سئل فقال : طوبى لمن شرب كأسا من محبته ، وذاق نعيما من مـــناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملئ قلبه حبا وطار بالله طربا ، وهام إليه اشتياقا " [٤] .

وبـــين أبو سعيد أن المحب قد جعل ذكر الله ﷻ بقلبه ولسانه فرضا على نفسه ، فهو يتفرغ من الغفلة ، ويستغفر الله ﷻ منها ، وكذلك جوارحه إنما هي وقف لخدمة من أحبه، فهو غير ساه ولا لاه ، وإنما همه أن يرضى من أحبه ، فقد بذل المجهود في موافقته ، في أداء فرائضـــه واجتناب نواهيه ، فهو متزين له بكل طاقته حذرا من أن يأتي عليه أمر يسقطه من عين من أحبـــه [٥] .

إذا نظـــرنا في تعـــريفات كل من المحاسبي و التستري و الخراز فإنها تشير إلى جوانب الصحة والموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة وخاصة ما ذكره التستري من أن المحبة لا بد من موافقـــة القـــلوب لله ﷻ ، واتـــباع سنة رسوله ﷺ ، وكذلك ما أشار إليه الخراز من أن الإنســـان لا بد أن يبذل جهوده في ابتغاء مرضاة الله في أداء فرائضه واجتناب نواهيه ، مع الحذر الشديد من العمل الذي سيؤدي به إلى سخط الله وعقابه ﷻ .

والحق أن أبا سعيد قد وضح المحبة في القرن الثالث الهجري حينما بين معالمها الصادقة وضوابطها وأحوالها ، وذلك حينما أشار إلى أن الصدق في المحبة هو " اتباع الرسول ﷺ في

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٢٤ .

(٢) يقال : استهتر بالشيء إذا أولع به .

(٣) اللمع للطوسي ص ٨٧ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) كتاب الصدق لأبي سعيد الخراز ص ١٤٣- ١٤٤ .

هديه وزهده وأخلاقه ، والتأسي به في جميع الأمور ، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها .. وإيثار محبة الله ﷻ في جميع الأمور على نفسك وهواك ، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك "[١] .

وأضاف أبو سعيد موضحا أن لمحبة الله ﷻ علما فقال : " وبلغنا عن الحسن البصري ﷺ أن ناسا قالوا على عهد رسول الله ﷺ يا رسول الله ! إنا نحب ربنا حبا شديدا فجعل الله تعالى لمحبته علما ، وأنزل الله ﷻ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[٢] "[٣] فإن الله ﷻ جعل محمدا ﷺ علما ودليلا وحجة على أمته . وقال : " فعلامة المحب : الموافقة للمحبوب ، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور ، والتقرب إليه بكل حيلة ، والهرب من كل ما لا يعنيه " .

ثم شرح حال المحبة فقال : " المحبة بدؤها من ذكر النعم ، ثم على قدر المنعم ، ثم على قدر ما يستحق ؛ لأن المحب لله تعالى يحب الله تعالى عند النعم وعند فقدها ، وعلى كل حال حبا صحيحا منعه أو أعطاه ، أو ا بتلاه أو عافاه ، فالمحبة لازمة لقلبه على حالة واحدة في العقد ، ثم إلى الزيادة أقرب ، ولو كانت على قدر النعم لنقصت المحبة إذا نقصت النعم في وقت الشدائد ووقوع البلاء ، لكن المحب لله تعالى الذي وَلِه عقله بربه واشتغل برضاه فكان في شكره لله حيران ، كأنه ليست نعمة على أحد إلا وهي عليه ، وهو مشغول بحبه لله ﷻ عن كل الخلق ، وقد أسقطت المحبة لله تعالى عن قلبه الكبر والغل والحسد والبغي، وكثيرا مما يعنيه من أمر الدنيا من مصلحة فكيف يذكر ما لا يعنيه ؟ "[٤] .

أما أبو القاسم الجنيد فقد وصف حال المحب في المحبة وصفا ليس في حقيقته إلا تعريفا للمحب يمكن أن يستخلص منه تعريف للحب ، وذلك على الوجه الذي نتبينه من قوله : " عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته ، وصفا شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ولله ومع

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٣) قال في " الدر المنثور " أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ١٧/٢ .

(٤) كتاب الصدق ص ١٤٤- ١٤٥ .

الله .. " [١] ، بيـد أنه قد تحدث عن مفهوم المحبة الحقيقية عند الصوفية بتعريف آخر ؛ وهي المحـبة الـتي يصل فيها المحب إلى استبدال صفاته بصفات المحبوب فيقول : " دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب " [٢] .

وإذا تأملـنا في هذا التعريف فقد رأيناه تعريفا مجانبا للصواب إن أراد بذلك الجنيد أن عـلى المحـب أن يتخلى عن صفاته البشرية ؛ لأن الإنسان مهما كانت مترلته وقربه من الله ﷻ فإنـه لا يمكـن أن يطـلق على أحد محب لله تعالى حتى يخلع صفاته البشرية ويتحلى بالصـفات الإلهية ، فالإنسان مهما أحب الله حق محبته فإنه سيظل إنسانا ناقصا ، ولا يسعه أن يتخلى عن صفاته الآدمية ، ولكن الطوسي قد فسر قول الجنيد السابق بقوله : فهذا على معـنى قوله : « ..حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت عينه التي يبصر بها ، وسمعه الذي يسمع به ، ويده التي يبطش بها » ، فإن أراد الجنيد هذا التفسير فهو مقبول وإن كان تعريفه لا بد من تعديله وتصحيحه ، لأنه يوحي إلى الحلول كما عند المتصوفة المنحرفة .

وتحـدث الحـلاج – كذلك – عن حقيقة المحبة فقال : " قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك " [٣] . فإن أراد الحسين بن منصور بذلك أن أحدا لا يصل إلى حقيقة المحبة إلا أن يخـلع أوصافه البشرية ويقوم مع الله ﷻ بعد ذلك فإنه تعريف خاطئ ناقص ، لأنه ليس في وسـع الإنسـان تحقيق ذلك مهما كان محبا لله ﷻ ، كما أن كلام الحلاج أومأ إلى القول بالحـلول ، وهو ما اعتقده الصوفية المنحرفة بأن نهاية حب الله هو حلول الله في المحب ، أما دون ذلـك فلا يسمى حبا عندهم ، وهذا غير صحيح فإن الرسول ﷺ كان أكثر الناس حبا لـه ، وكذلك أصحابه الكرام و لم نسمع من أحدهم أنهم ادعوا حلول الله فيهم .

وممـن تحـدث عن الحب الإلهي في القرن الثالث الهجري ذوالنون المصري وقال في المحبة : " أن تحب ما أحب الله ، وتبغض ما أبغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشـغل عـن الله ، وألا تخـاف في الله لومة لائم ، مع العطف للمؤمنين ، والغلظة على الكافرين ، واتباع رسول الله ﷺ في الدين " [٤] .

---

[١] الرسالة القشيرية ص ٣٢٧ ، ومدارج السالكين ١٨/٣ .

[٢] الرسالة القشيرية ص ٣٢١ .

[٣] المصدر نفسه ص ٣٢٣ .

[٤] طبقات الصوفية ص ١٨ .

وقد تأثر ذوالنون بفكرة رابعة في الحب الإلهي ، حيث إن هذا الحب قد أرقه وأسقمه وهو يقول :

حبك قد أرقني ... وزاد قلبي سقما

كتمته في القلب ... والأحشا حتى انكتما

لا تهتك ستري الذي ... ألبستني تكرما [1] .

وهذا الحب إن جر ألما وعذابا فعليه أن يصبر ، قال لرجل زعم أن الحب أحرق قلبه:

لم تشتكي ألم البلا ... وأنت تنتحل المحبة

إن المحب هو الصبو ... رعلى البلاء لمن أحبه

حب الإله هو السرو ... رمع الشقاء لكل كربه [2] .

وبين أحمد بن أبي الحواري علامة حب الله بأن ذلك طاعته ﷻ أو حب ذكره فقال : " علامة حب الله طاعة الله ، وقيل : حب ذكر الله فإذا أحب الله العبد أحبه .." [3] .

أما حاتم الأصم [4] فقد وضح صحة أو كذب من يدعي الحب فقال : " من ادعى ثلاثا بغير ثلاث فهو كذاب ؛ من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب ، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، و من ادعى حب النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب " [5] .

نفهم من كل ذلك أن على الإنسان أن يتجرد عن شهوات الحس ، ويتخلص من نزوات النفس ، ويقبل بهمته على الله ﷻ ، ويعرض عن كل ما سواه ويتجنب عن كل ما يبغضه الله ﷻ ورسوله ﷺ ، فهذه هي المعاني التي ينبغي أن يحققها المحب الإلهي ، وأن يتحقق بها حتى تصح محبته ، ويصبح محبا لله ﷻ على الحقيقة .

على أن الحب الإلهي – عند الصوفية – لكي يكون محبا صادق الحب فلا بد أن يقوم بين يدي حبه طائفة من الرياضات والمجاهدات ، وأن يتخلق ويمارس جملة من الأحوال

---

(١) حلية الأولياء ٩/٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٩/٣٥٨ .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٠١ .

(٤) هو أبو عبد الرحمن ، حاتم بن علوان المعروف بالأصم ، من أكابر مشايخ خراسان (ت ٢٣٧هـ) ، انظر : الرسالة القشيرية ص٣٩٣، وطبقات الصوفية ص٩١ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٧ .

والمقامات – التي ستتحدث عنها – حتى إذا بلغ من هذه وتلك المبلغ الذي يحقق له العلم والعمل وصل عند ذلك إلى أرقى الأحوال وأسمى المقامات وهي المحبة . ولهذا يتفاوت الناس في المحبة بتفاوت إيمانهم عندهم وعند السلف الصالح ، فكلما زادت معرفتهم بالله زادت محبتهم قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ [(١)] .

فمحبة الله ﷻ – إذن – وعدم إشراك أحد مع الله ﷻ بالحب الخالص مرتكز هام في العقيدة الإسلامية ؛ لأن من أحب الله مخلصا من قلبه يحب غير الله ورسوله من الأهل وسواهم ولكن يحبهم لله وفي الله ، وذلك لما تحقق في قلبه ووجدانه من لذة الإيمان وحلاوته وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ حينما قال : ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار)) [(٢)] .

فالإنسان الذي يعرف قيمة حب الله ورسوله يتجاوز أعراض الدنيا وزخارفها إذا ما دعاه هذا الحب للجهاد ابتغاء مرضاة الله ﷻ واتباع أوامر النبي ﷺ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [(٣)] .

فالحب الإلهي شوق من العبد للقاء ربه ومرضاته ، وهذا يستلزم أن يكون للمؤمن أسوة برسول الله ﷺ ، يأخذ ما جاء به وينتهي عما نهى عنه قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [(٤)] . وقال تعالى أيضا : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [(٥)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه ، لا يفعل ما يبغضه الحق ويسخطه من الكفر والفسوق والعصيان ، ومن فعل الكبائر وأصر عليها

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح، في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١٧/١ (ح ١٦) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (٢٣) .

(٤) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

و لم يتب منها فإن الله يبغض منه ذلك كما يحب منه ما يفعله من الخير إذ حبه للعبد بحسب إيمانه وتقواه ، ومن ظن أن الذنوب لا تضره لكون الله يحبه مع إصراره عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه وعدم تداويه منه بصحة مزاجه "[١] .

إذن فالعبد المؤمن المحب إذا أراد أن يتحقق الحب بينه وبين الله ﷻ فلا بد أن يتجه إلى الله وحده فلا يخالف أمره وأمر رسوله ﷺ ، ولا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضي الله ، ولا ينظر ببصره إلا بما أمر الله به ﷻ ، ولا يسعى بقدميه إلا إلى ما أذن الله به أن يذهب إليه .. وبذلك تتحقق المحبة لله ، ويسهل على العبد السالك إليه .

---

(١) الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ١٩٨/٥ .

المبحث الثالث

الــــولايــــة

إن مـــادة الولاية تدور في اللغة على القرب ، ثم ما يتصل به من معان مختلفة كالمحبة والنصرة والمؤازرة والسلطان وتدبير الأمور والمتابعة .. [١] . وشاعت الكلمة أول ما شاعت بمعـــناها العام الجامع لجانبي الخير والشر ، وجاء القرآن الكريم فاستعملها بذلك المفهوم كما قالـــه شيخ الإسلام ابن تيمية في جانب أولياء الرحمن وجانب أولياء الشيطان [٢] ، كما ذاعـــت أيضـــا تلك الكلمة في حديث رسول الله ﷺ في جانب أولياء الله ﷻ في الأغلب والأعـــم ، كمـــا في الحديث القدسي ، وفهمها الصحابة الكرام ومن بعدهم ممن سار على نهجهـــم واستعملوها في جانب الخير ، على أنها الوصف الذي يجب أن يكون الإنسان عليه في الحدود التي حددها لها القرآن الكريم في جانب أولياء الله ﷻ [٣] .

هكـــذا فهم الصدر الأول معنى الولاية بمعناها المشرق الذي يدور بين الحب والقرب والنصرة .. وهو الذي أراده القرآن الكريم حينما قال : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [٤] . فأولياء الله عند ابن جرير الطبري هم أنصار الله [٥] ، لأنهم يؤيدهم الله وينصرون دين الله تبارك وتعالى ، وكما تبين الآية بأن كل مؤمـــن تقـــي فهو ولي الله ، وإن كان المؤمنون يتفاوتون في إيمانهم وتقواهم ، فكذلك هم يتفاوتون في ولايتهم لله ﷻ .

وقـــد ظهر هذا المعنى منذ ابتدأت الدعوة إلى الإسلام ، وظلت النظرة إلى الولاية بهذا المدلول إلى أن دخلتها مفاهيم أخرى ، وأصبحت كلمة " ولي " تطلق على رجل متصوف، أو من يزعم انتسابه إلى آل بيت النبي ﷺ [٦] ؛ بل وصل الأمر عند بعض المتصوفة إلى حد الانحـــراف ، وهذا ما سأبينه وأتطرق إليه مستعرضا أقوال الأعلام الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

---

[١] انظر : لسان العرب ١٥/٤٠٧- ٤١٣ .

[٢] في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

[٣] انظر : ولاية الله والطريق إليها ص ٦١ .

[٤] سورة يونس ، الآيتان (٦٢- ٦٣) .

[٥] انظر : جامع البيان ١١/١٣١ .

[٦] ولاية الله والطريق إليها ص ٦١ .

فالولايــة عند مصطلحات المتصوفة هي : " قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه ، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين " [١] .

ويقــول القشيري : " الولي له معنيان : أحدهما : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله ﷻ أمره ، قال الله ﷻ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [٢] فلا يكله إلى نفسه لحظة ؛ بل يــتولى الحق سبحانه رعايته ، والثاني : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي وليا .." [٣] .

فالولايــة – إذن – تكــون ثمرة لارتباط الجانبين معا ، رعاية إلهية تحيط بالعبد ، فلا تكله إلى نفسه لحظة، ويترتب على هذه الرعاية أن لا يقصر في حق من حقوق الله . ورعاية مـــن العبد لواجباته ، وأداء الطاعات المطلوبة منه ، ولا يمكن أن يصل إلى مرتبة الولاية إذا أهمل أو قصر في هذه الرعاية حسبما يراه المتصوفة .

وأشــار الدكــتور عــبد الفتاح بركة إلى أن الولاية " اختصاص ﷻ لبعض عباده ، وتفضــيل بعضهم على بعض بما شاء من فضله ، وهي فكرة دينية ثابتة لكن على أي أساس تقــوم ؟ هل هو محض اختيار من الله ؟ أم هو جزاء وفاق لمحض جهد العبد وإرادته ؟ أم أن الأمر قسمة بينهم .. حتى تتم الولاية " ؟ [٤] .

وإذا نظرنا في الصوفية المتقدمين في القرن الثاني الهجري وجدناهم قد تعرضوا لذلك، فالفضــيل بن عياض ومعروف الكرخي يشيران إلى أن الولاية فضل ومنة من الله ﷻ ، وإن كــان كلامهـــم لا يخــلو من الإشارة إلى الجهد والعمل . بينما إبراهيم بن أدهم يشير إلى الناحيــتين معا ، ويرى أنها قد تكون بالمنة كما حدث لنفسه حينما هتف به الهاتف وهو في رحلة الصيد ، وقد تكون بالجهد كما روى عنه القشيري أنه قال لرجل في الطواف : وأمره أن يعلم بأنه لا ينال درجة الصالحين حتى يتجاوز ست عقبات .. [٥] .

---

(١) اصطلحات الصوفية للكاشاني ص ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٩٦) .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٥٩- ٢٦٠ .

(٤) الحكيم الترمذي ونظريتــه في الولايــة ، الدكتور عبد الفتاح بركة ، القاهرة ، من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ٣٥/٢ .

(٥) انظر : ص .

ووجدنـــا عند إبراهيم بن أدهم — أيضا — ناحية أخرى في طريق الولاية ، تلك هي إشـــارته إلى ضرورة إسقاط المشيئة وترك التدبير من جانب العبد ، وذلك بالإضافة إلى بذل الجهـــد ، قال لأخ له في الله : " أ تحب أن تكون لله وليا ؟ فقال نعم ، فقال : لا ترغب في شـــيء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك على الله ليقبل عليك ويواليك " [(١)] .

فـــإذا كـــان طريق الولاية عند إبراهيم بن أدهم هذه الناحية فهو خلاف لما دل عليه الكتاب والسنة ، لكونهما لم يحثا على التخلي نهائيا عن الدنيا والآخرة ، ولأن الدنيا مزرعة للآخـــرة ، ولم يأمـــر الإسلام أن يرغب الإنسان عنهما ، وإنما أراد التقلل من الدنيا وعدم الانغماس فيها ، فهو يعتني بالحياة الدنيوية اعتناء معتدلا لإبقاء المصلحة الفردية والجماعية ، ويحـــث المســـلم على أن يأخذ بنصيبه من الدنيا ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [(٢)] ، وقال النبي ﷺ : ((إن الله يحـــب أن يرى أثر نعمته على عبده حسنا)) [(٣)] ، فالإنسان الذي يعمل على ضوء هذه النصوص وكان مؤمنا تقيا لا يبعد أن يكون من جملة أولياء الله ﷻ .

وكذلـــك لو نظرنا في الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري لوجدنا أن ذا النون المصـــري — الـــذي أول من تكلم بأحوال الصوفية ومقامات الولاية — وأبا يزيد البسطامي وأبـــا القاسم الجنيد قد أشاروا إلى الطريقين معا ، بمعنى أن هناك أولياء نالوا ولايتهم بمحض المـــنة الإلهيـــة ، وآخرين أدركوا بالجهد والعمل ، وتظهر هنا ناحية جديدة هي مقارنة أبي القاســـم الجنيد بين الولي الذي نال ولايته ببذل الجهد ، والذي نالها بطريق المنة حيث كان يقـــول : بـــاب كل علم نفيس جليل بذلُ المجهود ، وليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلـــبه من طريق الجود [(٤)] . أما يحيى بن معاذ الرازي وسهل التستري فيريان ما رآه إبراهيم بـــن أدهم من قبل ، حيث يوصيان في هذا الصدد بترك المشيئة أيضا ، ويقول : ما دام العبد يـــتعرف فيقـــال لا تختر شيئا ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفا فيقـــال لـــه : إن شئت اختر ، وإن شئت لا تختر لأنك إذا اخترت فباختيارنا ، وإن تركت

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٦١ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٣) سبق تخريجه ص ٧٥ .

(٤) طبقات الصوفية ص ١٥٧ .

الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار [١] . ويقول سهل التستري : ذروا التدبير والاختيار فإنهما يكدران على الناس معيشتهم [٢] . وسئل أي منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ قال : إذا ترك التدبير والاختيار [٣] .

ومع أنهم أسقطوا اعتبار قيمة العمل فإنهم لم يقولوا بإسقاط التكاليف أو التقلل من أهميتها . قال رجل لأبي القاسم الجنيد : من أهل المعرفة أقوام يقولون : إن ترك الحركات من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة [٤] . وبذلك رفض الصوفية المتقدمون رفضا قاطعا ما قال به بعض غلاة الشيعة ، من عدم الحاجة إلى الالتزام بالتكاليف ، واستحلالهم المحرمات ...

ولكن مع ذلك يبدو أن تأثير الشيعة كان واضحا على الصوفية في إطلاق لفظ الولاية على الشيخ والعالم فإن الرافضة هم أول من أطلق الولي على أئمتهم ابتداء بعلي بن أبي طالب ﷺ ، ثم بقية الأئمة من بعده ، وأضافوا إلى ذلك دعوى العلم اللدني والعصمة ، وسرت عدواها إلى الصوفية فقالوا : بأن أولياءهم يتلقون عن الله ﷻ مباشرة وأنهم معصومون من الخطأ [٥] ؛ بل يزعمون أنهم يتلقون علومهم عن الله ﷻ مشافهة ، وأنهم يعرجون إلى السماوات العلا ، ويتكلمون مع الرب ﷻ ، ويدعون أيضا بأن النبوة مستمرة، وأن الولاية أفضل من النبوة لأن النبوة قد انقطعت بينما الولاية لم تنقطع . وعلى هذا فالوحي – عندهم – إلى الولي عن الله مستمر ، بل ادعى بعض غلاتهم بأن الأنبياء يوحون إليهم بواسطة الملك ، بينما الأولياء يأخذون علومهم عن الله ﷻ بلا واسطة ، وأنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه جبريل عليه السلام .

---

(١) عوارف المعارف ص ٣٣٧ .

(٢) طبقات الصوفية ص ٢٠٩ .

(٣) عوارف المعارف ص ٣٣٧ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٣١٤ .

(٥) الصلة بين التصوف والتشيع ٢/ ١٠ .

ولعل أبا يزيد البسطامي أبرز من زعم من المتصوفة تلقي علومهم عن الله ﷻ ، وعروجهم إليه ومكالمتهم معه ، بل يعتبر أول من يدعي دعوى المعراج الصوفي ، وأول من قال : لي معراج كما كان للنبي ﷺ معراج ، وبذلك أخرج من بسطام .

يقول الدكتور ناصر العقل : " وهذه داهية من دواهي القوم ، وخرافة من خرافاتهم التي راموا بها الإسلام ، وسُلّم إلى كثير من العقائد الفاسدة التي يدعونها [١] . فأبو يزيد يعد من المشايخ الكبار في الأوساط الصوفية – في القرن الثالث الهجري – في تأسيس عقائد الصوفية المنحرفة ، حيث زعم انه أخذ علمه عن الحي الذي لا يموت ، ومعلوم أن الذي لا يموت هو الله ﷻ فهو المستحق وحده لهذا الوصف ، أما غيره من المخلوقات فلا يوصف بذلك لأن الله ﷻ يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [٢] .

وقد استهزأ البسطامي – أيضا – بعلماء الإسلام الذين يهتمون بعلوم كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وبسنته المطهرة حينما قال : " أخذتم علمكم ميتا عن ميت ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت " [٣] ، وكذلك لما اعتبر العالم بعلمه من أشد المحجوبين عن الله ، بحجة أن جميع ما أبدى الله من العلم سطر واحد من اللوح المحفوظ ، فكم علم هذا العالم من ذلك السطر وكم عمل فيما علم ؟ " [٤] .

وعبارات البسطامي السابقة – بلا شك – ليست موفقة ولا مقبولة ، لأن فيها تهكما واستهزاء واضحا بعلماء سلف هذه الأمة ، الذين نقلوا إلينا تعليم الكتاب والسنة عبر التاريخ الطويل ، لا يحيل تواطؤهم عن الكذب ، تلقوها عن رسول الله ﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وأما العلوم الخرافية التي يدعي المتصوفة أنهم أخذوها عن الله ﷻ فإن أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالكتاب والسنة الصحيحة لا يقبلونها مادامت تدعو إلى الضلال والكفر والبدع ..إذ كيف يقول البسطامي إن العلماء من أشد المحجوبين عن الله ﷻ مع أن العلماء هم أشد الناس خشية لله ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى

---

[١] دراسات في الأهواء والفرق ..ص ٢٧١ .

[٢] سورة الرحمن ، الآيتان (٢٦- ٢٧) .

[٣] الفتوحات المكية ١/١٣٩ .

[٤] حلية الأولياء ١٠/٣٧ .

الله مِــنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [١] . وقال رسول الله ﷺ : ((الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكــر الله تعالى ، وما والاه ، وعالما أو متعلما)) [٢] ، وكيف يستهزئ بعلم الله ﷻ مع أن الله ﷻ قــال في محكم التزيل : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَــنفَدَ كَــلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [٣] ، وقــال تعــالى أيضا : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْــدِهِ سَبْعَــةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٤] .

ومــا يقولــه البسطامي متناقض مع ما في الكتاب والسنة ، لأننا نؤمن بأن الله ﷻ متصــف بالعلم الذي يليق بجلاله ، كما أننا نؤمن بأنه لا وحي ولا علم يتلقى عن الله ﷻ بعــد الرسول ﷺ ، لأن رسالته ﷺ خاتمة لكل الرسالات السابقة ، فهي تسد كل باب من يدعــي النبوة والرسالة قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَــاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [٥] ، وفي حديث ثوبان الطويل عند أبي داود وغيره ((وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي)) [٦] ، ونفهم من ذلك أن ادعاء الوحي بعد الرسول ﷺ كذب وافتراء ليس له سند ولا أساس من الصحة .

وصرح أبو يزيد بما يدل على ولايته وقربه من الله ﷻ وذلك حينما ادعى أنه عرج به إلى الســماوات ، وتكــلم مــع الرب ﷻ ، وأنه أراه الله ﷻ السبع الأراضين وما فيها ، والســماوات السبع وما فيها ، وأنه رأى الجنان وعرش الرحمن فيقول : " أدخلني في الفلك الأســفل فــدورني في الملكوت السفلى فأراني الأراضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفــلك العلوي فطوف بي في السماوات ، وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفني بــين يديــه فقــال لي : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه ؟ فقلت يا سيدي ما رأيت شيئا

---

(١) سورة فاطر ، الآية (٢٧) .

(٢) سبق تخريجه في ص ٦٨

(٣) سورة الكهف ، الآية (١٠٩) .

(٤) سورة لقمان ، الآية (٢٧) .

(٥) سورة الأحزاب ، الآية (٤٠) .

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢) ، والترمذي (٢٢٠٣) ، ومسلم مختصرا في الفتن /٢٨٨٩ .

استحسنه فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدي حقا تعبدني لأجلي صدقا لأفعلنك بك" [١] .

نجد في هذا النص أن أبا يزيد زعم بأنه تبادل مع الرب ﷻ الحديث مشافهة حيث عرج به إلى السماوات العلا فرأى الجنان ، ومع ذلك لم يجد شيئا يعجبه فلم يسأل الله ﷻ شيئا ، وذلك لأن الجنة لا تساوي عند المتصوفة المنحرفين شيئا لأنهم حسب زعمهم لا يعبدون الله حبا للدخول في الجنة ولا النجاة من النار ، وإنما يعبدونه متجردين عن الرغبة والرهبة ؛ ولا شك أن هذه العبادة مجانبة لما شرعه الله لعباده ، لأن الله تعالى قال في وصف أنبيائه وأوليائه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [٢] .

وقال أبو يزيد في نص آخر ما يدل على أنه تبادل الحديث مع الله العلي الكبير المتعال : " رفعني مرة فأقامني بين يديه وقال لي : يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك ، فقلت : زيني بوحدانيتك ، وألبسني أ نيتك ، وارفعني إلى أحديتك حتى إذا رآني خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هنا " [٣] .

كما زعم بأنه خاض بحرا من العلم لم يستطع الأنبياء أن يخوضوه وإنما وقفوا بساحله فقال : " خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله " [٤] . بل ادعى أنه أوتي ما لم يؤت النبيون من العلم حينما صرح " معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه " [٥] ، وحينما قال أيضا : " تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد ﷺ ، لوائي من نور تحته الجان والجن والإنس كلهم من النبيين " [٦] .

ففي النصوص السابقة تفضيل أبي يزيد نفسه على جميع الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – في العلم واضح ، وهذا مخالف للعقيدة الإسلامية الصحيحة ، فلا ينبغي

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٧٠/٢ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية (٩٠) .
(٣) اللمع للطوسي ص ٤٦١ .
(٤) جمهرة الأولياء ٢٦٦/١ .
(٥) الإنسان الكامل للجيلي ١٢٤/١ .
(٦) المصدر نفسه ٦/١ .

أن يقولـــه إنســان يؤمــن بالله واليوم الآخر ، بل لا يمكن أن يخرج من شخص يعتبره المتصوفة من كبار أوليائهم .

وأما المقولة أن الأولياء أفضل من الأنبياء فقد ذكر ابن الجوزي أن أول من قال بذلك هــو أحمد بن أبي الحواري (ت ٢٤٦هـ) حيث نسب إليه ، وشهد الناس عليه في ذلك ، فهـــرب من دمشق إلى مكة [١] . والمقولة ظهرت آنذاك لكن نسبتها للحواري غير صحيحة ، أو أنه قال بها ثم رجع عنها ، قال الذهبي : " قال أحمد السلمي في محن الصوفية ، أحمد بن أبي الحواري شهد عليهم قوم أنه يفضل الأولياء على الأنبياء ، وبذلوا الخطوط عليه ، فهرب من دمشق إلى مكة ، وجاور حتى كتب إليه السلطان يسأله أن يرجع فرجع .

(قال الذهبي) قلت : إن صحت الحكاية فهذا من كذبهم على أحمد ، هو كان أعلم بالله من أن يقول ذلك [٢] .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٠٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٢/٩٣ .

المبحث الرابع

الكـــرامـــة

الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا ، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة [١] ، والمعجزة لا تكون إلا للرسل خاصة ، وتكون دائما مرتبطة بتحدي أمم الرسل لرسلهم .

فالمعجـــزة في الـــلغة تعـــم كل خارق للعادة وكذلك الكرامة في عرف أهل العلم المـــتقدمين ، ولكـــن كـــثيرا من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي [٢] .

والـــولي إذا كـــان من المؤمنين بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خـــيره وشره ، مقيما لما أوجب الله عليه ، تاركا لما نهاه الله عنه ، مستكثرا من طاعته فهو مـــن أولياء الله ﷻ ، وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع فهي موهبة من الله ﷻ لا يحـــل لمسلم أن ينكرها ، ومن كان بعكس هذه الصفات فليس من أولياء الله ﷻ ، وليست ولايته رحمانية بل شيطانية ، وكرامته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس [٣] .

والله ﷻ قـــد أكـــرم عباده المتقين وأولياءه الصالحين بكرامات كثيرة ، واصطفاهم وميـــزهم على غيرهم بأشياء عديدة ، وهذه الكرامات هي ثمرة الإيمان والتقوى ، ومحبة الله ورســـوله واتباعه ﷺ فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر ، وهي امتداد لمعجزات نبينا محمد ﷺ .

وقـــد بين الكلاباذي أن أولياء الله ﷻ إذا ظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تذلـــلا وخضوعا وخشية واستكانة ، وإزراء بنفوسهم وإيجابا لحق الله عليهم ، فيكون ذلك زيـــادة لهـــم في أمورهم ، وقوة على مجاهداتهم ، وشكرا لله تعالى على ما أعطاهم ، فالذي للأنبياء معجزات ، وللأولياء كرامات ، وللأعداء مخادعات [٤].

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٨٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٩٨ .

(٣) ولاية الله والطريق إليها ص ٢٥٦ .

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٨٧- ٨٩ .

ونحن لو عدنا إلى الأعلام الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين فإننا نجد من قد تحدث عن الكرامة وخوارق العادات ، وذكروا لنا معانيها وما كان متصلا بها .

فهذا سهل بن عبد الله التستري قد بين بأن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود [١] . وهون من أمر الكرامة إلى حد أنه قال : " من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا مخلصا في ذلك تظهر له الكرامات من الله ﷻ " [٢] .

وبين البسطامي الضوابط للكرامة حينما قال : " لو أن رجلا بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي " [٣] .

وأما الجنيد فقد انتقد من يتكلم في الكرامات دون أن يكون له شيء من ذلك فقال: من يتكلم في الكرامات ولا يكون له من ذلك شيء مثله مثل من يمضغ التبن .." [٤] وقال أيضا : " حجاب قلوب الخاصة المختصة برؤية النعم والتلذذ بالعطاء والسكون إلى الكرامات .

أما أبو الحسين النوري فقد ذكر أنه وافى ليلة إلى الدجلة قال : فوجدتها وقد التزق الشط بالشط قال : فقلت : وعزتك لا عبرتها إلا في زورق [٥] .

نفهم من عبارات هؤلاء الأعلام أن منهم من كره إذا ظهر له شيء من الكرامات خوفا من الفتنة ، ولعل ذلك ما يدل على ورعهم وتقواهم ، ومهما أنكروا ذلك فإن لبعضهم كرامة تدل على صدقهم وسلامة قلوبهم ، تكريما من الله ﷻ وتأييدا لهم .

فهذا معروف الكرخي له خبر عن كرامته ذكره الخطيب البغدادي وذلك حينما سأله بعض الناس فقالوا لمعروف يا أبا محفوظ لو سألت الله أن يمطرنا ؟ وكان يوما شديد الحر ، فقال : ارفعوا إذا ثيابكم ! فما أن يتموا رفع ثيابهم حتى جاء المطر [٦] . وقيل له : يا أبا محفوظ بلغني أنك تمشي على الماء ، فقال : ما مشيت قط على الماء ولكن إذا هممت

---

[١] اللمع للطوسي ص ٤٠٠ .

[٢] المصدر نفسه ص ٣١٥ .

[٣] المصدر نفسه ص ٤٠٠ .

[٤] المصدر نفسه ص ٣٩٠ .

[٥] المصدر نفسه ص ٤٠١ .

[٦] انظر : تاريخ بغداد ٢٠٧/١٣ .

بالعـــبور جمع لي طرفاه فأتخطاه [١] . ولكن رغم ذلك كله كان معروف لا يفضل التحدث عن الكرامات ، بل كان يحاول دائما إخفاءها مما كان لـــه أثر كبير في تصوف أبي القاسم الجـــنيد ، الذي يرى أن الاتكال على الكرامات أحد الحجب التي تمنع المختار من النفاذ إلى الحق ﷻ [٢] .

فـــالحديث عـــن الحـــوادث أو الخوارق للعادة التي حدثت في القرنين الثاني والثالث الهجريين طويل ولكن الذي أريد أن أؤكده بأن الكرامة ثابتة بالكتاب والسنة وبإجماع الأمة ، فالأدلـــة من الكتاب كثيرة منها ما حكاه لنا المولى ﷻ عن مريم عليها السلام قال تعالى : ﴿ وَهُـــزِّي إِلَيْـــكِ بِجِـــذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [٣].وقـــال تعالى عنها أيضا : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَـــرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٤] . فقد جـــاء في تفسير ذلك أنه كان يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ وفاكهة القيظ في الشتاء ، فقـــال يا مريم أنى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله [٥] . وكذلك قصة أصحاب الكهف ومـــا أجراه الله عليهم من النوم قال تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْـــفِ يَنشُـــرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [٦] .

وأمـــا من السنة فما رواه أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر» [٧] .

قـــال الإمـــام القرطبي : إن كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا مبتدع جاهد ، أو فاسق حائد . [٨].

---

[١] المصدر نفسه ١٣/ ٢٠٦ .

[٢] انظر : اللمع للطوسي ص ٤٠٠ .

[٣] سورة مريم ، الآيتان (٢٥- ٢٦) .

[٤] سورة آل عمران ، الآية (٣٧) .

[٥] الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٧١ .

[٦] سورة الكهف ، الآيتان (١٦- ١٧) .

[٧] سبق تخريجه في ص ١٥٢ .

[٨] الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٨ .

وقـــال ابـــن أبي العز الحنفي : " وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان ، فإنه بمترلـــة إنكـــار المحسوسات ، وقولهم لو صحت لأشبهت المعجزة ، فيؤدي إلى التباس النبي بـــالولي وذلك لا يجوز ! وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالمخارق ويدعي النبوة وهذا لا يقع ، وإذا ادعى النبوة لم يكن وليا بل كان متنبئا كذابا " (١) .

وبهـــذا نصل إلى أن ما حدث لبعض الأعلام في القرنين من الكرامة ما هي إلا امتداد لمـــا حصل للسلف الصالح من كرامات كتكريم الله ﷻ أم أيمن عندما هاجرت وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش وكانت صائمة ، فلما كان وقت الفطر سمعت حسا عـــلى رأسها فإذا دلو معلق فشربت منه ، وكما حدث للبراء بن مالك ﷺ كان إذا أقسم على الله أبر قسمه ، وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ مستجاب الدعوة ، ومشى أمير الجيوش الإســـلامية في الـــبحرين العلاء بن الحضرمي وجنوده فوق الماء لما اعترضهم البحر و لم يكن معهم سفن تحملهم ، وألقى أبو مسلم الخولاني في النار فلم تحرقه (٢) .

فـــأهل الســـنة والجماعة لا ينكرون الكرامات وهم يعلمون أن الله ﷻ الذي وضع الأسباب ومسبباتها قادر على خرق هذه السنن لعبد من عباده ، ولكن الكرامة ليست شرط الولايـــة ، ولا دليلا على فضل صاحبها بمجرد وقوعها كما يعتقدها الصوفية بل " ينبغي أن يعـــرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحـــتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية الله منه مستغنيا عـــن ذلـــك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها ، لا لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة " (٣) .

وكـــانت الخوارق تقع في الصحابة دون تكلف منهم أو تطلب لها ، أو نتيجة ممارسة رياضـــية روحيـــة ، بل تقع إكراما من الله ﷻ لهم ، أو دعاء يرون فيه مصلحة دينية ..أما المتأخرون فيطلبونها ويتكلفون لها لرياضات روحية ، وربما أفسد جسمه ونفسيته بسبب هذا مع أن " طلب الكرامات ليس عليه دليل ، بل الدليل خلاف ذلك فإنما غيب عن الإنسان ، ولا هو من التكاليف لا يطالب به " (٤) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٢- ٥٠٣ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧٩/١١ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢٣/١١ .

(٤) الموافقات للشاطبي ٢٨٣/٢ .

ثم إن كـــرامات أولياء الله تعالى لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى – كما تقدم – والـــولي لله هو المحافظ على الفرائض والسنن والنوافل ، عالما بأمر الله عاملا بما يعلم ، فمن صـــفت عقيدته وصح عمله كان وليا لله يستحق إكرام الله له إن شاء ، فهذا إذا خرقت له العـــادة لا تضر ولا يغتر بذلك ولا تصيبه رعونة ، وقد لا تحصل لمن هو أفضل منه فليست هـــي بحد ذاتها دليلا على الأفضلية ..كما أنه ليس كل من خرقت له العادة يكون وليا لله ، كمـــا أنه ليس كل من حصل لـــه نعم دنيوية تعد كرامة له ، بل قد تخرق العادة لمن يكون تاركـــا للفرائض مباشرا للفواحش ، فهذه لا تعدو أن تكون إما مساعدة من شياطين الجن ليضـــلوا الناس عن سبيل الله ، أو استدراج من الله تعالى [١] . ولهذا أشار ابن الجوزي إلى أن كرامات الصوفية إما أن تكون شعوذة ، أو شطحات كاذبة ، أو فتنة شيطانية [٢] .

هـــذا وإن كنا لا ننكر كرامات الأولياء لأنها ثابتة في الكتاب والسنة ، كما قال الله عز وجل : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٣] إلا أن بعض الأمور الخارقة للعادة قد لا تكون كرامات ، وهي كثيرا ما تظهر على أيدي كثير من الفساق والكفرة .

والحـــق أن الاســـتقامة على طريق الهدى واتباع السنة هي عين الكرامة فإن حصل بعدئـــذ خرق العادة إكراما من الله عز وجل لمؤمن صادق متبع للكتاب والسنة فيجب أن يخفيها ولا يذيعها ويشكر الله تعالى على ما من بها عليـــه .

---

[١] انظر : الصوفية نشأتها وتطورها ص ٧٤- ٧٦ .

[٢] تلبيس إبليس ص ٣٨٠ .

[٣] سورة يونس ، الآية (٦٢) .

المبحث الخامس

الفناء ووحدة الشهود

أولا : الفناء

إن أخطر النظريات التي تعرض لها الصوفية وأدخلوها في مقاماتهم هي نظرية الفناء ، فالواصل إلى الله – حسب زعمهم – انطلقت روحه في عالم القرب المشرق بالنور والصفاء في لحظات سكره ، حتى لقد صار الوجود كله بالنسبة إليه نسيا منسيا أمام عظمة الله ﷻ ، وقد استوت أمامه الأشياء وتوحدت ، لتمضي في درب التلاشي أمام ذلك الشعور الذي ينتابه في حالات صحوه بشوق عظيم ، ورغبة جامحة بعلاقة تكون أكثر من التشوق ، وأقوى من المحبة ، لعلها تنتهي به إلى فناء آخر يتحقق له منه أقصى ما يطمح إليه من الشرف والكمال [١] .

وحول الفناء نستعرض بعض أقوال الصوفية في تعريفاتهم له :

ذكر الكلاباذي : أن الفناء " هو أن يفنى الشخص عن الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ، ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فني به " [٢] .

وبين القشيري معناه قائلا : " أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة " . [٣]

أما السهروردي فذكر أن الفناء : " أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ " وذكر بعض أقوالهم في ذلك على النحو الآتي :

قيل : الفناء : " هو الغيبة عن الأشياء ، كما كان فناء موسى ﷺ حين تجلى ربه للجبل " . وقال أبو سعيد الخراز : " الفناء هو التلاشي بالحق " . وقال الجنيد : " الفناء استعجام الكل عن أوصافك ، واشتغال الكل منك بكليته " [٤] .

وقال السراج الطوسي : " ومعنى الفناء فناء صفة النفس ، وفناء المنع والاسترواح إلى حال وقع ، والبقاء بقاء العبد على ذلك ، وأشار أيضا إلى أن الفناء هو فناء رؤيا العبد في أفعاله لأفعاله بقيام الله في ذلك " [١] .

---

(١) انظر : نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام ص ١٧٦ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٤٧ .

(٣) الرسالة القشيرية ص٦٧ وانظر : التعريفات للجرجاني ص ١٢٠ .

(٤) عوارف المعارف ص ٥٢٠ .

وإذا كـــان الصوفية لم يتمكنوا من الوصول إلى تحديد معنى دقيق للفناء في ذات الحق وذلك لصعوبة التعبير عن هذه التجربة بكلمات محدودة ، لأنها تجربة داخلية يعيشها الصوفي وهو في حالة غياب عقلي كلي عما سوى الله

فإنهم يكادون يتفقون على تحديد حقيقة الفناء وخلاصة ما قالوه هو : فناء العبد عن رؤية ماسوى الله ﷻ ، والتبرؤ عن كل ما في هذا الوجود من حظوظ ، وهو ما تحدث عنه أبو سعيد الخراز – في القرن الثالث الهجري – الذي يعتبره الهجويري صاحب مذهب الفناء ، والـــذي يـــرى أن حقيقة الفناء تكمن في فناء العبد عن رؤية عبوديته وفعله ، بل يكون الفضل لله في كل شيء ، لأن كل ما نسب إلى العبد فقرينه النقصان ، وما نسب إلى الرب فصـــورته الكمال ، يقول : " الفناء فناء العبد عن رؤية العبودية ، والبقاء بقاء العبد بشاهد الألوهية ، أي أن العبودية آفة ، ويصل العبد إلى حقيقة العبودية حينما لا يرى فعله ، ويبقى برؤية فضل الله تعالى ، لتكون نسبة معاملته كلها للحق لا لنفسه ، لأن ما هو مقرون بالعبد مـــن فعله يكون كله ناقصا ، وما هو موصول به من الحق يكون كاملا ، فحينما يفنى العبد عن متعلقاته فإنه يبقى بجمال إلهية الحق " [٢] .

ولمـــا تكـــلم الجنيد عن توحيد الخواص بيّن أنه مقام من وصل إلى الفناء عن نفسه ، وعن دعوة الحول والقوة بذهاب حسه وحركته بقيام الحق فيما أراد منه .. [٣]

وذوالنون المصري حينما تحدث عن المعرفة رأى أنها لا تكمل إلا بالوصول إلى درجة الفـــناء ، وأن هـــذا الفناء مستمد من قول الرسول ﷺ : « ..فإذا أحببته كنت سمعه الذي يســـمع بي .. » الخ ، فيصير العارف بهذا – في مظهر الفناء الأكمل – متحركا بحركة الله ، ناطقا بما يجريه على لسانه ، ناظرا بنور الله في بصره [٤] .

ولعـــل أبـــا يزيد البسطامي أشهر من يمثل ذلك في القرن الثالث الهجري ، وقد ذكر الشـــيخ العطـــار في كـــتابه تذكرة الأولياء عند شرحه لحال أبي يزيد فيقول : " وكان في الاستغراق بالله بحيث كان لـــه مريد امتدت به الصحبة عشرين سنة ، وكان يسأله كل يوم قـــائلا : مـــا اسمـــك أيها الولد ؟ فقال لـــه المريد ذات يوم : أتهزأ بي أيها الشيخ فإني في

---

(١) اللمع للطوسي ص ٤١٧ .

(٢) كشف المحجوب ٢/٤٨٥- ٤٨٦ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص٢٩٦ .

(٤) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١١٥ .

خدمتك عشرين سنة ، وتسأل كل يوم عن اسمي ؟ قال الشيخ : إني لا أهزأ بك أيها الولد ولكـــن جاء اسمه وطرد كل الأسماء عن قلبي ، فقد أعرف اسمك وأنساه مرة ثانية . وسألوه أيضا : كيف الوصول إلى الحق ؟ فقال : تنح أنت عن الطريق فقد وصلت إلى الحق (١) .

و لم يقـــف الأمر عند هذا ، بل وصل من هذا الفناء إلى الحلول والاتحاد ، وذلك من خـــلال قول أبي يزيد الآتي : " شهوتي ومناي أن أقول مرة : لا إله إلا الله بغيبوبة أبي يزيد وحضـــور أبي يزيد عن أبي يزيد مع لا إله إلا الله .. كما جرى لـــه في القدر مع الله حين أقـــر ببـــلى ، فكان إقراره للرب بالربوبية ، والنفس بالعبودية ، ثم غاب عن الإقرار وبقي بالتوحيد مجردا للواحد الفرد " (٢) .

قـــال إبراهيم هلال : " وأبو يزيد يشير بذلك إقرار الذر بالربوبية بقوله " بلى " إلى قولـــه تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٣) .

وأضـــاف قائلا : " والصوفية يقولون : إن الناس قد وحدوا الله حق التوحيد وهم في عالم الفناء قبل خروجهم إلى هذا الوجود ، فلا توحيد لهم بعد الخروج إلى ذلك الوجود إلا بالاضمحلال والفناء عنه " (٤) . ولكن هذا الذي فهموه في الآية ليس هو المراد منها ، وإنما المـــراد أنهم وحدوا الله بفطرتهم بعد ولادتهم ، لما دلتهم بخلقه على أنه خالقهم فقامت هذه الدلالـــة مقـــام الأشهاد ، كما في الحديث الصحيح : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه .. » (٥) وكما تقول الآية الكريمة : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٦) .

---

(١) تذكرة الأولياء ٢/٢٥٠ نقلا عن تاريخ التصوف في الإسلام ص ٥٤٢- ٥٤٣ .

(٢) علم القلوب ص ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية (١٧٢) .

(٤) ولاية الله والطريق إليها ص ١٧٣- ١٧٤ .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح في الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات .. ٣/٥٨٢ (ح١٣٨٥) ، ومسلم في القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/٢٠٤٧ (ح٢٦٥٨) .

(٦) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

ثم ينتقل أبو يزيد عن هذا الفناء إلى الاتحاد بل إلى سؤال ما لله ﷻ من الوحدانية والأحدية فيقول مخاطبا ربه ﷻ : " قربني بوحدانيتك ، وألبسني ربانيتك ، وارفعني إلى أحديتك ، حتى إذا رآني خلقك قالوا رأيناك ، فيكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هنا "(١) .

أما الحلاج زعيم القائلين بالحلول فقد اتخذ الفناء أساسا لهذا المذهب بحجة أن الإنسان لا يصل إلى مرتبة حلول الله فيه إلا بعد أن يفنى عن نفسه فناء كاملا ويحجب عنها بالله ﷻ ، ويتمثل في ذلك الفناء بحديث الأولياء ، فالمتحققون عنده بالله هم الذين " أفناهم الله عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم .. بل كان الذي هو لسانهم الذي به ينطقون ، وبصرهم الذي به يبصرون ، وأسماعهم التي بها يسمعون ، وأيديهم التي بها يبطشون "(٢) .

ولا شك أن استدلال المتصوفة بفكرة الفناء الزاعمة بأن الحديث على حقيقته وأن الحق ﷻ عين العبد استدلالٌ مجانب للصواب ، وقول لا يليق بذات الله ﷻ ، ذلك أن من معاني الحديث كما ذكرها ابن حجر " أن كليته (الولي) مشغولة بي ، فلا يصغى بسمعه إلا إلى ما يرضيني ، ولا يرى ببصره إلا إلى ما أمرت به "(٣) أي أن الله ﷻ وفق العبد وهداه إلى طاعة الله ، وسدده عن الوقوع في شيء من معاصيه .

ففكرة الفناء عند الصوفية – إذن – ذات خطورة عظيمة لأنها تدعو إلى القول بالحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود كما عند البسطامي والحلاج . ولكن الفناء عند بعض صوفية القرن الثالث الهجري لم يصل إلى حد الانحراف كما وصل عند أبي يزيد والحلاج كما رأينا ذلك من أبي سعيد الخراز حيث بين أن العبد إذا رجع وتاب إلى الله ﷻ ، وتقرب إليه بأداء الفرائض والنوافل ، وقام بتزكية نفسه ظاهرا وباطنا فيحدث في قلبه تعلق به ﷻ وحب له وحده . وهذا موافق لمفهوم الفناء الصحيح ؛ بحيث لا يحب العبد ولا يعبد إلا الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرجو ولا يخاف إلا منه ، ولا يتوجه إلا إليه ، فهو صاحب القلب السليم مما سوى الله تعالى .

---

(١) اللمع للطوسي ص ٤٦١ .

(٢) ولاية الله والطريق إليها ص ١٧٤- ١٧٥ .

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ٣٥٢/١١ (ح٦٥٠٢) .

ولفـــظ الفناء لم يرد في الكتاب ولا في السنة ، ولا في كلام الصحابة والتابعين ، ولا اســـتعملوا لفظه في معنى الفناء عند الصوفية المتقدمين ولا جعلوه غاية ولا مقاما " [١] قال شيخ الإسلام : " فإن أكابر الأولياء كأبي بكر وعمر والمهاجرين والأنصار لم يقعوا في الفناء الذي اختلط معناه عند الصوفية المتأخرين ، ويعني به مقام الفناء الذي يحدث في غيبة العقل بحيث لا يميز الصوفي بين ما يرد على القلب من أحوال الإيمان ويضطرب في تمييزه .

وعلى هذا ، فإن عصر الصحابة كان خاليا من ظاهرة الغثيان ، أو الصعق أو السكر أو الفـــناء أو الوله أو الجنون – وهنا نرى شيخ الإسلام لا يتقيد بالفروق الدقيقة لكل من هـــذه الأحوال والمقامات على حدة التي وضعها أهل التصوف – ويرجع نشأة هذه الظاهرة إلى بعـــض التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن ، ومنهم من يموت كأبي جهير الضرير ، وزرارة بن قاضي البصرة [٢] .

وهـــذا الفناء في مدلوله – كما يرى شيخ الإسلام – ينبغي أن يوجه الباحث إلى أنه ليـــس دليلا على كمال المحبة وقوة درجات اليقين والإيمان لأنه لو كان كذلك لعرفناه عند الصحابة فضلا عمن فوقهم من الأنبياء [٣] .

ومـــع ذلك فقد أشار أهل التوحيد والاستقامة بالفناء إلى أمرين : أحدهما أرفع من الآخر كما قال بذلك ابن القيم رحمه الله .

" الأمر الأول : الفناء في شهود الربوبية والقيومية ، فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير ، والخلق والرزق ، والعطاء والمنع ، والنفع والضر ، وأن جميع الموجودات منفعلة لا فاعـــلة ، وماله منها فعل فهو منفعل في فعله ، محل محض لجريان أحكام الربوبية عليه ، ولا يمـــلك شـــيئا منها لنفسه ولا لغيره ، فلا يملك ضرا ولا نفعا ، فإذا تحقق العبد بهذا المشهد خمـــدت منه الخواطر والارادات نظرا إلى القيوم الذي بيده تدبير الأمور ، وشخوصا منه إلى مشـــيئته وحكمته ، فهو ناظر منه به إليه ، فانٍ بشهوده عن شهود ما سواه ، ومع هذا فهو ساعٍ في طلب الوصول إليه ، قائم بالواجبات والنوافل .

---

[١] انظر : مدارج السالكين ٣٥١/٣ .

[٢] انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٢٠/١٠

[٣] انظر : نفسه ٢١٩/١٠ .

الأمر الثاني : الفناء في مشهد الإلهية ، وحقيقته الفناء عن إرادة ما سوى الله ومحبته ، والإنابـة إليـه ، والتوكل عليه ، وخوفه ورجائه ، فيفنى بحبه عن حب ما سواه ، وبخوفه ورجائه عن خوف ورجاء ما سواه . وحقيقة هذا الفناء : إفراد الرب ﷻ بالمحبة ، والخوف والرجاء ، والتعظيم والإجلال " [١] .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قسم الفناء إلى ثلاثة أنواع : [٢]

الأول : وهـو " الفناء عن إرادة ما سوى الله " بحيث لا يحب ولا يعبد إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يطلب غيره ، ذلك أن كمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه . وهذه المرتبة للفناء تحقق عند الأنبياء والأولياء الكاملين .

النوع الثاني : الفناء عن شهود السوي ، وهذا يحصل لكثير من السالكين فإنهم لفرط انجـذاب قـلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ..فلا يشهدون ولا يشعرون بغير الله ، بحيث يـتفق مـع حالة أم موسى عليه السلام ، حيث فرغ قلبها إلا من ذكر موسى كما قـال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ [٣] وهكذا يسـتغرق صـاحب الفناء من هذه الدرجة بدافع الحب أو الخوف أو الطلب ، فإذا زاد في انجذاب قلبه واستغراقه أصبح غائبا بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره ، وبمعروفه عن معرفـته حـتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه ويبقى من لم يزل وهو الـرب تـبارك وتعالى . والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره ، وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها ، فإذا قوي هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد يظن أنه هو محبوبه ..

ثم قـال شيخ الإسلام : وهذا الموضع زل فيه أقوام وظنوا أنه اتحاد ، وأن المحب يتحد بالمحبوب حتى لا يكون بينهما فرق في نفس وجودهما ، وهذا غلط ؛ فإن الخالق لا يتحد به شيء أصلا " [٤] .

" وكذلـك صار في شيوخ الصوفية من يعرض لـه من الفناء والسكر ما يضعف معـه تمييـزه ، حتى يقول في تلك الحال من الأقوال ما إذا صحا عرف أنه غالط فيه ، كما يحكى نحو ذلك عن مثل أبي يزيد ، وأبي الحسين النوري وأبي بكر الشبلي وأمثالهم .

---

[١] المرجع نفسه ٣٥٢/٣ .

[٢] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢١٨/١٠- ٢٢٣ .

[٣] سورة القصص ، الآية (١٠) .

[٤] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢١٩/١٠- ٢٢٠ .

بخلاف أبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والفضيل بن عياض بل وبخلاف الجنيد وأمثالهم ممن كانت عقولهم وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم فلا يقعون في مثل هذا الفناء والسكر [١] ونحوه ، بل الكل تكون قلوبهم ليس فيها سوى محبة الله وإرادته وعبادته ، وعندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله مدبرة بمشيئته بل مستجيبة له قانتة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى ، ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيدا وممدا لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد له ، والعبادة له وحده لا شريك له " [٢] .

النوع الثالث : الفناء عن وجود السوي ، وهذا الفناء هو فناء الملاحدة ، الذين يزعمون فيه أنهم يتحققون فيه أنه لا موجد إلا الله ، وأن هذا الكون هو الله لا غيره ولا سواه ، فلا فرق بين الرب والعبد فهو فناء أهل الضلال والإلحاد الواقعين في الحلول والاتحاد [٣] .

ثانيا : وحدة الشهود

هذه حال أو تجربة يعانيها الصوفي ، ويحاول أن يبرهن عليها ، أو يطالب الغير بتصديقها ، وهي مرادفة لنوع من أنواع التوحيد لديهم .

والظاهر أن وحدة الشهود هي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية حيث جربوها وأطلقوا عليها ، أو رمزوا إليها بأسماء مختلفة ، وهي الحال التي يسميها الصوفية بالفناء – كما تقدم – وعين التوحيد ، وحال الجمع وهكذا .. [٤]

وقول أبي سعيد الخراز- من الصوفية في القرن الثالث الهجري - ما يدلنا على هذه الحال ، وذلك حينما قال : " فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه ، وتلاشى كل شيء ، وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يبق في القلب إلا الله ﷻ " [٥] . وقال أيضا : " أول مقام لمن وجد التوحيد وتحقق بذلك فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله ﷻ " [٦]

---

[١] هو غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والاستلذاذ وهو أقوى من الغيبة . التعريفات ص ١٢٠ .

[٢] المصدر السابق ٢٢١/١٠ .

[٣] انظر : نفسه ٢٢٢/١٠ .

[٤] انظر : أضواء على التصوف ص ٣١٧- ٣١٨ .

[٥] اللمع للطوسي ص ١٠٠ .

[٦] الرسالة القشيرية ص ٣٠٢ .

وقـــال عمرو بن عثمان المكي : " المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ولا يجعلها عيانا ولا يجعلها وجدا . وقال أيضا : المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم [١] .

وبين الطوسي أحوال أهل المشاهدة على ثلاثة :

فـــالأول مـــنها : الأصـــاغر وهـــم المريدون ، وهو ما قال أبو بكر الواسطي [٢] : يشـــاهدون الأشـــياء بعين العبر ، ويشاهدونها بأعين الفكر . والحال الثاني من المشاهدة : الأوســـط وهو الذي أشار إليه أبو سعيد الخراز حيث يقول : الخلق في قبضة الحق وفي ملكه ، فـــإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى . والحـــال الـــثالث : مـــا أشار إليه عمرو بن المكي فقال : إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت ، فشاهدوه بكل شيء ، وشاهدوا كل الكائنات به [٣] .

فـــنظرية وحـــدة الشهود – إذن – أصبحت من الغايات التي ينتهي إليها الصوفي في طـــريقه إلى الله ﷻ ، وتظهر هذه النظرية عند أبي القاسم الجنيد كما هي واضحة في رسالته المسماة " رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق الدينية " حيث وضع فيها أصول التوحيد ، والمعـــرفة والفـــناء ، والسكر والصحو ، وحقيقة الوجود ، وحقيقة الشهود ، والترقي من أحدهما إلى الآخر ، فيقول الجنيد في التوحيد : " اعلم أن أول عبادة الله ﷻ معرفته ، وأصل معـــرفة الله توحيده ، ونظام توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والأين ، فبه استدلال عليه ، وكـــان ســـبب اســـتدلاله به عليه توفيقه ، وبتوفيقه وقع التوحيد لـــه ، ومن توحيده وقع التصـــديق به ، ومن التصديق به وقع التحقيق عليه ، ومن التحقيق جرت المعرفة به ، ومن المعرفة به وقعت الاستجابة لـــه فيما دعا إليه ، ومن الاستجابة له وقع الترقي إليه ، ومن الترقي إليه وقع الاتصال به ، ومن الاتصال به وقع البيان لـــه ، ومن البيان له انقطع عن الوصـــف لـــه ، وبذهابه عن الوصف وقع في حقيقة الوجود لـــه ، ومن حقيقة الوجود وقع حقيقة الشهود بذهابه عن وجوده ...

---

(١) اللمع للطوسي ص١٠٠ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطي ، أحد أصحاب الجنيد والنوري ، وأحد المشاركين في وضع الكثير من أصول التصوف (ت ٣٢١هـ) انظر : طبقات الصوفية ص٣٠٢ ، والرسالة القشيرية ص٤٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

وترد عليه المشاهدة لإنزال الأشياء منازلها ووصفها مواصفها لا استدراك صفاته ببقاء آثاره ، والاقتداء بفعله بعد بلوغه غاية ماله منه " [١] .

قال محمد جلال معلقا على هذا النص : " هكذا يلخص لنا الجنيد كل معاني التصوف من مقامات وأحوال ، ولكن بقي معنى هام في هذا النص نلمس فيه فارقا جوهريا بين الصوفي الذي يعاني حالا أو تجربة صوفية ونعني بذلك " وحدة الشهود " وبين الذي لا تتصل أقواله بتجربة روحية ؛ بل هي مجرد نظرية فلسفية لا يقصد بها وحدة الألوهية بل وحدة الحقيقية الوجودية كما هي موجود عند محي الدين ابن عربي ، أي أن هناك اختلافا كبيرا بين وحدة الشهود عند الجنيد وغيره من الصوفية ووحدة الوجود عند ابن عربي وغيره من الإشراقيين [٢] . فوحدة الشهود حال ، وليست علما ولا اعتقادا ، ولا تخضع لوصف ولا لتفسير ، وهي أخص مظهر من مظاهر الحياة الصوفية ، وهي الحال التي يسموها بالفناء وعين التوحيد وحال الجمع " [٣]

والجنيد قد أشار إلى مثل هذا المعنى ، أي حال الفناء والجمع والتفرقة . فالجمع كما يقول القشيري : هو ما سلب عن العبد ، والتفرقة أو الفرق ما نسب إليه ، فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة ، ومن أشهد الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع ، فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع " [٤] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد : " وهم قد يتكلمون في " الفرق والجمع " ويدخل في ذلك من العبارات الملفتة نظير ما دخل في الفناء فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات يبقى قلبه متعلقا بها ..إما محبة وإما خوفا وإما رجاء ؛ فإذا انتقل إلى الجمع اجتمع قلبه على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فالتفت قلبه إلى الله بعد التفاته إلى المخلوقين ، فصارت محبته لربه وخوفه من ربه ورجاؤه لربه واستعانته

---

(١) رسائل الجنيد في التصوف والأخلاق الدينية : ورقة رقم ٦٣ ، مخطوطة شمسية ، تصوير حامد مراد رقم ١٠٣٦ ب مكتبة آداب الإسكندرية ، نقلا عن التصوف الإسلامي ومدارسه ص ٣١١- ٣١٢ .

(٢) الإشراق عند الصوفية هو حدوث الإلهامات من الله للصوفي بطريق مباشر وعلى باطنه أو قلبه .

(٣) التصوف الإسلامي ومدارسه ص ٣١٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٦٤- ٦٥ .

بربه . وهو في هذا الحال قد لا يسع قلبه النظر إلى المخلوق ليفرق بين الخالق والمخلوق فقد يكون مجتمعا على الحق معرضا عن الخلق نظرا وقصدا وهو نظير النوع الثاني من الفناء .

ولكن بعد ذلك " الفرق الثاني " وهو : أن يشهد أن المخلوقات قائمة بالله مدبرة بأمره ويشهد كثرتها معدومة بوحدانية الله ﷻ وأنه سبحانه رب المصنوعات وإلهها وخالقها ومالكها فيكون مع اجتماع قلبه على الله ناظرا إلى الفرق بين الخالق والمخلوق مميزا بين هذا وهذا يشهد تفرق المخلوقات وكثرتها مع شهادته أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه هو الله لا إله إلا هو ، وهذا هو الشهود الصحيح المستقيم وذلك واجب في علم القلب وشهادته وذكره ومعرفته : في حال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته " [(١)] .

ومع ذلك لا بد من الابتعاد من كلمة وحدة الشهود ، لأن هذه الحالة لم يمارسها رسول الله ﷺ ولا نطق باسمها في عبادته لربه ﷻ ، ولا نطق بها أصحابه الكرام ، ومن المأثور عن حالهم أنهم يعبدون الله وهم على أشد ما يكونون من الوجل والخوف أن ترد عليهم أعمالهم مع وجود غاية الطمع والرغبة في نفوسهم لعفو ربهم ﷻ ، فلم تكن لهم حال ما يسمى بوحدة الشهود أو وحدة الوجود [(٢)] .

وبهذا كما قال الدكتور غالب عواجي : " فينبغي أن نبتعد عن هذه الكلمة — وحدة — أشد البعد فإن الله تعالى هو الواحد القهار لم يشارك أحدا في خلقه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [(٣)] ، ولنا في العبادات الطيبة التي تربطنا بربنا مجال واسع كالإسلام والإيمان والإحسان كما جاء في حديث جبريل ، حيث سأله عن تلك الأمور و لم يسأله عن وحدة الشهود ولا وحدة الوجود ولا الحلول ولا الكشف ، ولا غير هذا مما هو من اختراع الصوفية تبعا لأفكار ضالة ليس بينها وبين الإسلام أي صلة أو تقارب " .

ثم " إن وحدة الشهود تؤدي في النهاية إلى القول بالحلول " [(٤)] . وهذا هو الموقف الصحيح ، فلنبتعد عن استخدام هذه الكلمة لئلا ننحرف عن منهج السلف الصالح .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٢٢٤- ٢٢٥ .

(٢) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام ، للدكتور غالب بن علي عواجي ، ط٥ مصر (دار لينة للنشر ١٤٢١هـ) ٢/٨٥٨- ٨٥٩ .

(٣) سورة الإخلاص ، الآيتان (٣- ٤) .

(٤) المرجع نفسه ٢/٨٦٠ .

المبحث السادس
الحقيقة والشريعة

لقد ردد المتصوفة كثيرا مصطلح الحقيقة والشريعة ، وقرنوا بينه وبين مصطلح آخر لهم هو الظاهر والباطن .

فالشريعة – كما يروها – هي مجموعة الأحكام العلمية التكليفية ، أي ما يسمى بالفقه الإسلامي ، والحقيقة هي ما وراء هذه الأحكام من إشارات وأسرار . فالفقهاء – على حسب قولهم – يعلمون الناس أركان الصلاة وسننها ... والصوفية يهتمون بأعمال القلوب من المحبة والخشية ... وبعبارة أخرى : أن الشريعة التي يجيء بها النص ، بينما الحقيقة التي يأتي بها الكشف ، واعتبارهم الأولى من نصيب العوام ، والثانية من حظ الخواص .

والتقسيم بهذا غير صحيح ، لأن الحقيقة والشريعة كلمتان متفقتان في المعنى ، وإن ثم فرق فهو في المعنى اللغوي فحسب ؛ فالتفريق الذي جرى على ألسنتهم ومن سار بسيرهم من أن الحقيقة غير الشريعة غير مسلم به ، لأنه لم يرد في كتاب الله ولم يجر على لسان رسوله ﷺ ، ولا على ألسنة الخلفاء والصحابة ومن تبعهم بإحسان ، كيف وربنا الله ﷻ يقول : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [١] ويقول أيضا : ﴿ أَ فَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ ﴾ [٢] ويقول : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [٣] ويقول ﷻ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [٤] ويقول : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥] . ويقول الرسول ﷺ : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » [٦] .

---

(١) سورة يونس ، الآية (٣٢) .

(٢) سورة يونس ، الآية (٣٥) .

(٣) سورة محمد ، الآية (٣) .

(٤) سورة الشورى ، الآية (١٣) .

(٥) سورة الجاثية ، الآية (١٨) .

(٦) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/ ١٠ (ح ٣٥) .

فتبين من الأدلة أن الحقيقة والشريعة لمسمى واحد وهو الدين ، ولم يجر هذا التفريق إلا على ألسنة الصوفية ليبينوا على ما يسمونه الحقيقة أوهامهم للناس ، حتى إنهم يسمون علماء الشريعة بأهل الظاهر ، وعلماء الحقيقة بأهل الباطن .

وقد جر الصوفية مصطلح آخر وهو الظاهر والباطن ، حيث يقولون : إن للقرآن ظاهرا وباطنا ، فالظاهر هو ما يؤخذ من ألفاظه حسب الفهم العربي أو السياق أو غير ذلك من الأصول المرعية في التفسير وهو ما يهتم به علماء الظاهر ، أو ما يطلقونه عليهم علماء الرسوم ، وأما الباطن فهو العلم الخفي وراء تلك الألفاظ وهي المراد الحقيقي بها ، وهذا لا يطلع عليه إلا الخواص من أصحاب المقامات السامية ، ويطلقون عليه (الإشارات) وهم يغمزون أهل الفقه بأنهم لا يهتمون بأعمال القلوب [١] . ويريدون أن يقولوا بأن علم الباطن هو التصوف بعينه ، وهو ما أشار إليه الكلاباذي نقلا عن عبد الواحد بن زيد أنه قال : " سألت الحسن عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن ، فقال سألت الله ﷻ عن علم الباطن فقال : هو سر من سري ، أجعله في قلب عبدي ، ولا يقف عليه أحد من خلقي " [٢] .

إذا نظرنا في هذه الرواية وجدنا أنها جاءت عن طريق عبد الواحد بن زيد وهو رجل صوفي غفل عن الإتقان ، وكثرت المناكير في حديثه ، بل هو متروك الحديث ، ورمي بالقدر ، فالرواية – إذن – باطلة من حيث السند ، كما أنها مرفوضة من حيث المتن ، لأنها توحي بأن الرسول ﷺ على معرفة من علم الباطن وأنه وحي من الله ﷻ ولم يقم بتبليغه للناس ! مع أن الرسول ﷺ مأمور أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [٣] والكتمان مستحيل في حقه ﷺ حيث لم يذكر أن هناك علم الباطن إذ لو كان لبلغه إلينا ، والدين قد اكتمل قبل وفاته ﷺ فقال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [٤] .

---

(١) الصوفية ، نشأتها وتطورها ص ٥٦ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٥- ١٠٦ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٦٧) .

(٤) سورة المائدة ، الآية (٣) .

قال ابن القيم مستنكرا قول الصوفية بأن هناك علما باطنا وظاهرا : " ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات ، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات ، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات ، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات ، وأوحى إليهم : أن وراء العلم طريقا إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان ، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن ، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها ، وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل الدنيا ، وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم ، والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء ، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم ، فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الأباطيل ، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفا وعيانا ، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا : لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن ، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ، ولكم القشور ولنا اللباب ، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ، ثم أحالها في سلوكهم على تلك الخيالات ، وأوهمهم أنها من الآيات البينات وأنها من قبل الله إلهامات وتعريفات ، فلا تعرض على السنة والقرآن ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان ... وكلما ازدادوا بعدا وإعراضا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم " [(١)] .

وقال ابن عقيل منتقدا المتصوفة الذين يعتقدون بهذا المعتقد ومحذرا منهم :

" فالله الله في الإصغاء إلى هؤلاء الفرغ الخالين من الإثبات وإنما هم زنادقة جمعوا بين مدايح العمال مرقعات وصوف ، وبين أعمال الخلعاء الملحدة أكل وشرب ورقص وسماع وإهمال لأحكام الشرع ، ولم تتجاسر الزنادقة أن ترفض الشريعة حتى جاءت المتصوفة فجاءوا بوضع أهل الخلاعة .

فأول ما وضعوا أسماء وقالوا حقيقة وشريعة ، وهذا قبيح لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين وكل من رام الحقيقة في غير الشريعة فمغرور مخدوع " [(٢)] .

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن القيم ، تحقيق د. السيد الجميلي ، القاهرة (دار الحديث ١/١٢٧

(٢) تلبيس إبليس ص ٤٤٩- ٤٥٠ .

وقــال ابن القيم في معرض النقد للمتصوفة أيضا : " وقد فرق كثير من الصوفية بين الشريعة والحقيقة ، وهذا جهل من قائله لأن الشريعة كلها حقائق " [١] .

وبذلك يتبين أن التفرقة بين الحقيقة والشريعة وبين الظاهر والباطن غير صحيحة ؛ بل هــي باطــلة مجانــبة للصواب ، لأن أي تجزئة للإسلام فهي من قبيل اتخاذ القرآن عضين ، والإســلام كلــه متكامل كالجسم الواحد ، فلا بد أن ندرك به ونفهمه فهما صحيحا كما فهمه الصحابة عن رسول الله ﷺ .

وقد تنبه بعض الصوفية المتقدمين في القرن الثالث الهجري لهذا الأمر ويشعر بخطأ هذه الــتفرقة فيحذر وينصح وهو سهل بن عبد الله التستري حيث قال : " احفظوا السواد على الــبياض (يعني العلم) فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق " . وكذلك أبو سعيد الخراز حيث قال : " كل باطن يخالف ظاهرا فهو باطل " [٢] .

وقال سيد الطائفة الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، وقال أيضا : من لم يحفظ القرآن و لم يكتب الحديث لا يقتدي به في هذا العلم ، لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة .

وقــال السري السقطي : التصوف اسم لثلاثة معان وهو : لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بسر باطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله . وقال أيضا : من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط .

وقــال أبو الحسين النوري : من رأيته يدعي مع الله تعالى حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربه ، ومن رأيته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه .

ولا شــك أن هــذه النصوص بمثابة النقد من الصوفية المتقدمين على الصوفية الذين يفــرقون بين الشريعة والحقيقة ، وبين الظاهر والباطن ، ودلالة واضحة على موقف بعض الصــوفية الأخيار في القرن الثالث الهجري من العلم بأنهم لا يستمدون إلا من كلام الله ﷻ ورسوله ﷺ ، ولا يعملون إلا بأوامرهما .

وأمــا الدكــتور إحسان ظهير فقد بين بأن فكرة الظاهر والباطن فكرة تسربت من التشــيع إلى التصــوف فاعتنقتها الصوفية ، وهي فكرة تقسيم الشريعة إلى الظاهر والباطن

---

(١) نفسه ص ٣٩٤ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٩٥ .

والعام والخاص ، ذلك أن الشيعة يعتقدون بأن لكل ظاهر باطنا ، وقد اختص بمعرفة الباطن علـــي ﷺ وأولاده ، أي أئمتهم المعصومون حسب زعمهم ، فسموا الموالين لهم بالخاصة ، وغير المؤمنين بهذه الفكرة بالعامة [١] .

وقـــالوا : " لا بـــد لكل محسوس من ظاهر وباطن ، فظاهره ما تقع الحواس عليه ، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنه فيه ، وظاهره مشتمل عليه " [٢] .

وقـــالوا : " إن الظاهـــر هـــو الشريعة والباطن هو الحقيقة ، وصاحب الشريعة هو الرسول محمد ﷺ ، وصاحب الحقيقة هو الوصي علي بن أبي طالب ﷺ " [٣] .

ثم أخذ المتصوفة بدورهم أفكار الشيعة ومعتقداتهم فآمنوا بها ، وجعلوها من الأصول والقواعد لأتباعهم فقالوا ما قالـــه الشيعة والفرق الباطنية : " العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وبـــاطن الباطن ، فعلم الشريعـــة ظاهر ، وعلم الطريقـــة باطن، وعلم الحقيقـــة باطن الباطن " [٤] .

وهكذا فالصوفية يزعمون بأن علم الباطن هو المسمى بعلم القلب وبعلم التصوف .. وهو أجل العلوم وأشرفها عندهم ، وهو الزبدة المخوضة من الشريعة التي لم تبعث الأنبياء عـــليهم الصلاة والسلام إلا لأجلها ..وهو علم طريق الآخرة ، وهو العلم الذي درج عليه الســـلف الصـــالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين . إلا أن الصوفية المتقدمين – كما سبق – لا يرتضون غير العلم الذي يستمد من كلام الله ﷻ وسنة رسوله الأمين ﷺ .

---

[١] التصوف : المنشأ والمصادر ص ٢٤٣ .

[٢] كتاب أساس التأويل للنعمان القاضي ص ٢٨ ، نقلا عن المرجع السابق ص ٢٤٢ .

[٣] المرجع نفسه .

[٤] الفتوحات الإلهية لابن عجيبة ص ٣٣٣ نقلا عن المرجع نفسه ص ٢٤٥ .

المبحث السابع

السماع

إن ما يسمونه السماع من الآداب الهامة عند الصوفية ، ويضيفونه إلى موضوع الذكر ، ومعناه في اللغة : الغناء ، وقيل : الذكر المسموع الحسن الجميل ، وكل ما التذته الأذن من صوت حسن السماع [(١)] .

وفي اصطلاح المتصوفة فيعرفه الكلاباذي بأنه " استجمام من تعب الوقت وتنفس لأرباب الأحوال ، واستحضار الأسرار لذوي الأشغال " [(٢)] . ويعرفه ذوالنون المصري بأنه " وارد حق يزعج القلوب إلى الله فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزندق " [(٣)] . أما أبو بكر الشبلي فالسماع عنده : " ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبارة ، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية " [(٤)] .

وعد بعضهم مجالسه من مجالس نزول الرحمة كما قال بذلك الجنيد : " تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن ، عند السماع فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقولون إلا عن وجد ، وعند أكل الطعام فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم فإنهم لا يذكرون إلا صفات الأولياء " [(٥)] .

وكان الحارث المحاسبي يقول : ثلاث إذا وجدن متع بهن ، وقد فقدناها : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء [(٦)] .

فمسألة السماع — إذن — كانت معروفة في القرن الثالث الهجري ، وهو عبارة عن اللحن والغناء والاستماع إليه والرقص ، ويبدو أن السماع قد اشتهر منذ وقت مبكر ، ويدل عليه أن معظم المؤلفين المعتبرين في التصوف اهتموا به اهتماما كبيرا ، فعدوا له

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٦٥/٨ ، والمعجم الوسيط ٤٤٩/١ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٦١ .

(٣) اللمع للطوسي ص ٣٤٣ ، والرسالة القشيرية ص ٣٤٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٢ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ٣٤٠ .

(٦) المصدر نفسه .

بابـــا وفصولا خاصة في مصنفاقم ، مثل ما صنع أبو نصر السراج في اللمع [١] ، والقشيري في رسالته [٢] ، والسهروردي في عوارف المعارف [٣] والغزالي في الإحياء [٤] .

فهـــذا رويم بن أحمد لما سئل عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم فتشير إليهم إلي إلي .. ، فيتنعمون بذلك من الفرح ، ثم يقع الحجاب ، فيعـــود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يخرق ثيابه ، ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكي ، كل إنسان على قدره [٥] .

وحينما سئل إبراهيم الخواص : ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ولا يجد ذلـــك في سمـــاع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة ، لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك فيه .

أما أبو سعيد الخراز فيبدو من كلامه أنه انتقد من ادعى أنه غلب عند السماع حينما قـــال : " مـــن ادعى أنه مغلوب عند الفهم يعني في السماع وأن الحركات مالكة لـــه فعلامته تحسين المجلس الذي هو فيه بوجده " [٦] .

وكذلك أبو حفص النيسابوري حينما قال لـــه رجل " إن فلانا من أصحابك ، أبدا يـــدور حول السماع ، فإذا سمع هاج وبكى ، وفرق ثيابه ، فقال أبو حفص : أيش يعمل الفريق ؟ يتعلق بكل شيء يظن نجاته فيـــه " [٧] .

فنظرا إلى أن السماع قد يكون فيه الذمّ إذا رافقته الكلمات الخبيثة والبدعية ، وآلات اللهو المعروفة عند أهل البطالة والمجون واللغو .. فقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية موقف أهل السـنة والجماعـــة مـــن مسألة السماع لما سئل عنها فأجاب : " السماع الذي أمر الله به ورســوله واتفـــق عـــليه سلف الأمة ومشايخ الطريق هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين، وسمـــاع العـــالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال ﷻ : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ

---

(١) انظر : ص ٣٣٨- ٣٧٤ من الكتاب المذكور .

(٢) انظر : ص ٣٣٥- ٣٥٠ .

(٣) انظر : ص ١٢٤- ١٤٧ .

(٤) انظر : ص ١٩٢- ٢٣٠ .

(٥) المصدر السابق ص ٣٤٢ .

(٦) المصدر نفسه ص ٣٤٣ .

(٧) طبقات الصوفية ص ١١٩ .

عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [(١)] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [(٢)] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [(٣)] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [(٤)] " [(٥)] .

ويكفي للمسلمين شرفا أن الله مدح أصحاب هذا السماع المتبعين لأحسنه ويفهمونه ، ثم يعملون به كما قال تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [(٦)] .

وكما أثنى على أهل هذا السماع ذم المعرضين عنه ، الذين إذا تليت عليهم آيات الله لا تزيدهم إيمانا بل أدبروا وأعرضوا كأنهم لم يسمعوها ، لأنهم يتضايقون من سماع كلام الله ﷻ ، إن هؤلاء توعدهم الله بالعذاب الشديد يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [(٧)] .

وأوضح الله ﷻ أن المقبل والمتمسك بهذا السماع المشروع من الفائزين الناجين من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة ، وأن المعرض عن سماع القرآن واتباعه جزاؤه المعيشة الضنك في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، ويحشر يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة .

---

(١) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

(٢) سورة الإسراء ، الآيات (١٠٧ - ١٠٩) .

(٣) سورة المائدة ، الآية (٨٣) .

(٤) سورة الأنفال ، الآيات (٢ - ٤) .

(٥) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٨٨/١١ .

(٦) سورة الزمر ، الآيتان (١٧ - ١٨) .

(٧) سورة لقمان ، الآية (٧) .

ثم إن الاجتماع على السماع المشروع لـــه فوائد وآثار إيمانية ، كما أشار إلى ذلك شـــيخ الإســـلام حيث قال رحمه الله : " وهذا سماع لـــه آثار إيمانية من المعارف القدسية والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها ، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن ، وكانت موجودة في أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين أثنى عليهم في القرآن ، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة : الاضـــطراب ، والاختلاج ، والإغماء ، أو الموت والهيام ، فأنكر بعض السلف ذلك إما لبدعتهم وإما لحبهم .

وأمـــا جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك فإن السبب إذا لم يكن محظورا كان صاحبه فيما تولد عنه معذورا ، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم وضعف قلوبهم عن حملـــه ، فـــلو لم يؤثر السماع لقسوتهم.كانوا مذمومين كما ذم الله الذين قال فيهم ﴿ ثُمَّ قَسَـــتْ قُـــلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ [١] وقال ﷻ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْـــرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَـــتْ قُـــلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [٢] ولو أثر فيهم آثارا محمودة لم يجذهم عن حد العقل لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضا ومعذورين " [٣] .

فأمـــا سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك ؛ إما نشيد مجرد نظير الغبار ، وإما بالتصفيق ونحو ذلك ، فهو السماع المحدث في الإسلام فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي ﷺ حيث قال : ((خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)) [٤] ، وقد كرهه أعيان الأمة و لم يحضره أكابر المشايخ ..

ومن هؤلاء المشايخ الصوفية المتقدمون مثل : إبراهيم بن أدهم ، والفضيل بن عياض، ومعـــروف الكرخي ، والسري السقطي ، وأبو سليمان الداراني .. ثم قال شيخ الإسلام : " وأكـــثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم ؛ كالجنيد فإنه حضـــره وهو شاب ، وتركهم في آخر عمره ، وكان يقول : من تكلف السماع فتن به ،

---

[١] سورة البقرة ، الآية (٧٤) .

[٢] سورة الحديد ، الآية (١٦) .

[٣] مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ٥٩١/١١ .

[٤] سبق تخريجه .

ومن صادفه السماع استراح به ، فقد ذم من يجتمع لـــه ، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ولا اعتماد للجلوس لـــه " [١] .

ومما يدل على تراجعه قولـــه : " إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة " [٢] .

إذن نفهـــم مما سبق أن السماع إما أن يكون مشروعا أو ممنوعا ، فالسماع المشروع هو سماع الوحي وهو سماع النبيين والمؤمنين ، وأن الاجتماع على هذا السماع يحصل للعبد فيه فوائد كثيرة كغشيان الرحمة ، ونزول السكينة ، وحضور الملائكة ، وذكر الله لهم فيمن عـــنده كمـــا ورد ذلك في الحديث الصحيح ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كـــتاب الله ، ويتدارســـونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)) [٣] .

وأما السماع الممنوع فهو الغناء المحرم ، وهو الذي اجتمعت فيه آلات اللهو كدف وشبابة ، ورجال ونساء ، ورافقته الكلمات الخبيثة والبدعية ونحو ذلك .. وقد نهى الشارع الحكـــيم عـــن هذا السماع المذموم لما فيه من المفاسد العظيمة والعواقب الوخيمة التي تعود على العباد في الدنيا والآخرة .

وهـــذا النوع من السماع محرم ومحدث ، ولهذا كرهه السلف الصالح من هذه الأمة و لم يستمعوا إليه ، وكذلك مشايخ الصوفية الأخيار كانوا بعيدين عن هذا اللغو و لم يحضروا إليـــــه .

---

(١) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ١١/٥٩١- ٥٩٢ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب الدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/٢٠٧٤ .

المبحث الثامن

المقامات والأحوال

المقامات في اللغة جمع مقام وهو موضع القيام ، ويشمل الأمر الحسي كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [١] والمعنوي كقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [٢] وهو مقام الشفاعة يوم القيامة .

وفي اصطلاح المتصوفة : " معناه مقام العبد بين يدي الله ﷻ ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات ، والانقطاع إلى الله ﷻ قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ [٤] " [٥] .

وبين القشيري بأن المقام : " هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له ، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر مالم يستوف أحكام ذلك المقام .. ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود [٦] إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة " [٧] .

أما الحال فهي معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اكتساب . وقد بينه الطوسي بأن معناه " ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار مستدلا بما حكي عن الجنيد أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم ..وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات .. " [٨] .

وقد اهتم المتصوفة كثيرا بذكر المقامات والأحوال للتدليل على تدرج السالك لطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى ، ولما يتعرض له في تدرجه هذا في المقامات من

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٢٥) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٧٩) .

(٣) سورة إبراهيم ، الآية (١٤) .

(٤) سورة الصافات ، الآية (١٦٤) .

(٥) اللمع للطوسي ص ٦٥ .

(٦) أي : أن يرى حظوظ نفسه ، وتقابله الغيبة ، وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها . انظر : معجم مصطلحات الصوفية ص ١٤٢ .

(٧) الرسالة القشيرية ص ٥٦- ٥٧ ، والتعريفات ص ١٥٦ .

(٨) اللمع للطوسي ص ٦٦ .

أحـــوال تأتيه من نسمات الرحمة الإلهية ، فإذا دامت واستقرت سميت مقاما ، لأن الأحوال توهـــب للعـــبد من الله ﷻ ، بينما المقامات يمكن أن يتوصل إليها العبـــد باكتسابه وبذل جهـــده .

وفي الـــتعريفات السابقة والتفريق بين المقام والحال يبدو أن بينهما تشابها وتداخلا ، حيـــث يتراءى للبعض المقام حالا ، ويتراءى للآخر الحال مقاما ، وكلتا النظرتين تكاد أن تكـــون صـــحيحة لوجود تداخلهما ، ولذا لا بد من ضابط يفرق بينهما من خلال اللفظ والعبارة ، الذي يشعر بالفرق .

وعـــلى كـــل ، فالحـــال سمي حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره . ولكن للمقام الذي يؤسسه العمل ثمرة هي الحال المستقرة كالرضا مثلا وهو مقام ينتج الأنس بالله ﷻ ، وهـــو حـــال الأنس يقتضي الحب ، وهو حـــال ترقى فتحول معه الأنس إلى حب وهكذا [١] .

وبعد هذا الإيضاح يمكننا أن ننتقل إلى شرح بعض المقامات والأحوال .

التوبة :

إن أول مقـــام من مقامات السالكين إلى الله ﷻ عند الصوفية هو مقام التوبة ، وهي تعني الندم على ما فعل الإنسان من المخالفات ، والعزم على عدم الرجوع إليها ، فالتوبة من الرجوع ، تقول العرب : تاب أي رجع .

فسالك الطريق إلى الله ﷻ عليه أن يطلب التوبة من الله ﷻ في كل وقت من أوقاته ، لأنهـــا ملازمـــة للعبد السالك إلى الله تعالى حتى يأتيه اليقين [٢] ، ولأن الله ﷻ حث عباده المؤمـــنين على التوبة فقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣] وقال تعالى أيضا : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٤] .

لهـــذا عـــد المتصوفة التوبة منطلقا أساسيا لسلوك الطريق ، وهي شرط لا بد منه ، فالعبد التائب ينتقل من مقام إلى مقام فينسى ذنبه بعد الندم ، وما ينسيه الذنب هو ذكر الله ﷻ ، والتوجه إليه بالكلية ابتغاء مرضاته ﷻ .

---

(١) انظر : عوارف المعارف ص ٤٦٩ ، وجمهرة الأولياء ١/١٩١- ١٩٢ .

(٢) مدارج السالكين ١/١٩٦ .

(٣) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢) .

والـــتوبة بمعنى الرجوع عن المعاصي هي توبة العوام ، أما الخواص فلهم توبة من نوع آخـــر ، فهـــم يريدون الحضور مع الحق دائما ، وقلوبهم عامرة بذكره أبدا ، فإذا غفلوا عن ذكره لحظة واحدة سارعوا بالتوبة عن هذه الغفلة . وإلى ذلك أشار ذوالنون المصري بقوله: أن الـــتوبة توبـــتان : " توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة " [١] . وحول هذا المعنى يقول عبد الله بن علي التميمي : " شتان ما بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات .."[٢] .

أمـــا الجنيد فيقول في معنى " التوبة على أنها ثلاثة معان : أولها الندم ، وثانيها العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه ، وثالثها السعي في أداء المظالم " [٣] .

ولكـــن أبو سعيد الخراز هو أكثر توضيحا لهذا الأمر حيث قال : " فأول التوبة هو الـــندم على ما كان من التفريط في أمر الله تعالى ونهيه ، والعزيمة على ترك العود في شيء مما يكـــرهه الله ﷻ ، ودوام الاستغفار ورد كل مظلمة للعباد من مالهم ، والاعتراف لله تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن ، والإشفاق ألا تكون مصححا ، والخوف أن لا تقبل توبتك، ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى على بعض ما يكره فمقتك . وهكذا يروي عن الحسن البصـــري أنه قال : ما يؤمنني أن يكون قد رآني على بعض ما يكره فقال : اعمل ما شئت فلا غفرت " [٤] .

وأضـــاف أبـــو ســـعيد قائلا : " ومن صدق التوبة ترك الأخدان والأصحاب الذين أعـــانوك على تضييع أمر الله تعالى ، والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعون إلى الله ..ومن صدق التوبة خروج المآثم من القلب ، والحذر من خفايا التطلع إلى ذكر شيء مما أنبت إلى الله منـــه " [٥] .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١١ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٩٥ .

(٣) نفسه والصفحة .

(٤) كتاب الصدق ص ٨٧- ٨٨ .

(٥) المصدر نفسه .

ثم قال : " واعلم أن المؤمن كلما صحح وكثر علمه بالله تعالى دقت عليه التوبة أبدا، ألا تـرى أن الـنبي ﷺ يقول : ((إنه ليغان [١] على قلبي فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة)) [٢].

وكذلك سهل بن عبد الله التستري فقد بين هذا المقام فقال : " أول ما يؤمر به المبتدئ التوبة ، وهي الندامة والإقلاع والتحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة ، ولا تصح التوبة للعبد حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح الصمت حتى يلزم الخلوة ، ولا يلزم الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح أداء حق الله تعالى إلا بحفظ الجوارح ، ولا يصح شيء مما ذكرنا حتى يستعين بالله تعالى على ذلك كله " [٣] .

كما أن أحمد بن أبي الحواري وضع أيضا الشروط التي لا بد من توفرها لدى التائب حتى تتحقق توبته ، وأشار إلى أن مقامات وأحوالا أخرى تتفرع من التوبة حيث كان يقول : " لا يكون العبد تائبا حتى يندم بالقلب ، ويستغفر باللسان ، ويرد المظالم فيما بينه وبين الناس ، ويجتهد في العبادة ، ثم يتشعب له من التوبة الاجتهاد والزهد ، ثم يتشعب له من الزهد الصدق ، ثم يتشعب له من الصدق التوكل ، ثم يتشعب له من التوكل الاستقامة ، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة ، ثم يتشعب له من المعرفة الذكر ، ثم يتشعب له من الذكر الحلاوة والتلذذ ، ثم بعد التلذذ الأنس ، ثم بعد الأنس الحياء ، ثم بعد الحياء خوف الاستدراج ، ثم بعد الاستدراج الخوف من الحياء ، وفي هذه الأحوال لا يفارق خوف تحويل هذه الأحوال قلبه دون لقائه " [٤] .

---

(١) الغين : أي الغيم ، يقال : غينت السماء إذا أطبق عليهم الغيم ، وأراد الرسول ﷺ ما يغشاه من سهو لا يخلو منه بشر ، لأن قلبه أبدا كان مشغولا بالله تعالى ، فإن عرض وقتا ما عارض بشري يشغله عن أمور الأمة والملة ومصالحها عد ذلك ذنبا وتقصيرا فيفزع إلى الاستغفار . انظر : مجمع بحار الأنوار ٨٥/٤ .

(٢) أخرجه مسلم ، في الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار .., ٢٠٧٥/٤ (ح٢٧٠٢) .

(٣) تهذيب الأسرار ، لعبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الخركوشي (ت ٤٠٧هـ) تحقيق بسام محمد باردو ، أبو ظبي (المجمع الثقافي ١٩٩٩م) ص ٩٤ .

(٤) نفسه ص ٩٧- ٩٨ .

الورع :

الـــورع مـــن المقامات العالية عند السالكين لطريق الله ﷻ ، ويعني الخروج من كل شبهة [١] ، وترك الإنسان لما لا يعنيه بوجه عام ، ويقتضي الورع من المتحقق به أن يتحرى كـــل ما يعرض له من أعراض الدنيا متفحصا ، فإن وجد فيه أدنى شبهة غادره تجنبا للوقوع في الحرام .

قـــال أبو نصر الطوسي في وصف أهل الورع : " منهم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه وهي ما بين الحرام البين والحلال البين ، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك فيتورع عنهما " [٢] .

ولأهميـــة الـــورع كـــان الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين يتحدثون عنه ، ويقومون بتطبيق معانيه .

فهـــذا الحســـن البصري – رحمه الله – قـــال : " أفضل العلم الورع والتوكل " [٣] وقـــال : " الفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة محمد ﷺ ، الذي لا يسخر بمن أسفل منه ، ولا يهـــزأ بمن فوقه ، ولا يأخذ على علم علمه الله ﷻ حطاما " [٤] . وما في الأرض شيء أحبه للناس من قيام الليل ، فقال له قائل : فأين الورع ؟ قال : به به ذلك ملاك الأمر " .

ومحمد بن سيرين يقول : " ليس شيء أهون علي من الورع ، إذا رابني شيء تركته" وكذلـــك إبراهيم بن أدهم يشير إلى أن الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات [٥] .

والفضـــيل بـــن عياض يوضح ما يقوله الناس بأن الورع شديد لقوله ﷺ : ((دع ما يريـــبك إلى ما لا يريبك)) [٦] فيقول : فخذ ما حل وطاب من الأشياء ، وابذل المجهود في

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٧٠ .

(٣) الزهد للإمام أحمد ص ٣٢٥ .

(٤) الآداب الشرعية ٤٥/٢ .

(٥) مدارج السالكين ٢٤/٢ .

(٦) صحيح سنن الترمذي ، ٣٠٩/٢ (ح ٢٥٢٠) ، وصحيح سنن النسائي ١١٥٣/٣ (ح ٥٧١١) .

طلب الشيء الصافي من الحلال ، لأن الله ﷻ قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ (١) .

أما سفيان الثوري فيرى أن الورع أيسر له في الأمر وذلك من خلال قوله : " ما رأيت أسهل من الورع ! ما حاك في نفسك تركته " (٢) . ثم يبين أهميته ويحث عليه قائلا : عليك بالورع يخفف الله حسابك ، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك ؟ (٣) .

وكذلك الحارث المحاسبي كان لا يمد يده إلى طعام فيه شبهة . وبشرالحافي يحكى عنه أنه حمل إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه ، إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة .

وسئل سهل التستري عن الحلال الصافي فقال : هو الذي لا يعصي الله فيه ، فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذي سئل عنه الشبلي فقيل له : يا أبا بكر ما الورع ؟ فقال: أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله ﷻ طرفة عين (٤) .

وهكذا فالإنسان الورع هو الذي يقوم على الإنفاق والتصرف بالحلال الطيب وهو ذاكرا الله ﷻ ومراقبته له ، فيرعى حق الله ﷻ وحق العباد حتى في حلاله .

الزهد :

قال السراج الطوسي : " والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، ممن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة " (٥) .

ثم قسم الزهاد إلى ثلاث طبقات :

فمنهم المبتدئون ، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك ، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم كما قال أبو القاسم الجنيد حينما سئل عن الزهد فأجاب بأنه : تخلي أيدي من

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٢) كتاب الصدق ص ١٠٠ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ١١١ .

(٤) اللمع للطوسي ص ٧١ .

(٥) نفسه ص ٧٢ .

الأملاك ، وتخلي القلوب من الطمع ، وكما قال سري السقطي بأنه : خلو قلب الإنسان مما خلت منه يده .

ومنهم متحققون في الزهد ، وصفهم رويم بن أحمد حينما سئل عن الزهد فقال : ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا وهذا زهد المتحققين ، لما في الزهد في الدنيا من حظ للنفس ، لما في الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده .

أما الطبقة الثالثة فقوم علموا وتيقنوا أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملكا حلالا ، ولا يحاسبون عليها في الآخرة ، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئا ، ثم زهدوا فيها لله ﷻ ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة من ماء ، فعند ذلك زهدوا في زهدهم وتابوا من زهدهم كما سئل عنه الشبلي فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لا شيء ، والزهد في لا شيء غفلة [١] .

ومن خلال عبارات المتصوفة السابقة نفهم أن الزهد — في مفهومهم — هو تخلي الأيدي من الأملاك ، وترك الدنيا والإعراض عنها بالكلية ، وإخلاء الأيدي من كل ما يملكه الإنسان ، وعدم القيام بالأسباب ؛ فهو مفهوم خاطئ مناقض للقرآن الكريم حيث قال الله ﷻ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] وقال أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٣] .

التوكل :

إن مقام التوكل من مقامات السالكين إلى الله ﷻ ، ويعني بالثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس [٤] ، ذلك أن المتوكل على الله الذي يعلم أن الله ﷻ كافل رزقه وأمره ، فيركن إليه وحده ولا يتوكل على غيره .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٤) التعريفات ص ٥٢ .

ومقـــام التوكل على الله مقام جليل القدر ، عظيم الأثر ، أمر الله عباده به ، وحثهم عـــليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم فقال ﷻ : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) ، وقـــد جعل الله التوكل سببا لنيل محبته فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (٢) ، وضمن الله سبحانه لمن يتوكل عليه القيام بأمره فقال ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٣) .

أما مفهوم التوكل عند الصوفية فيتضح بما يلي :

قـــال ســـري الســـقطي : التوكل الانخلاع من الحول والقوة ، وقال ابن مسروق : الـــتوكل الاستسلام لجريان القضاء في الأحكام (٤) ، وسئل ابن عطاء عن حقيقته فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها (٥) .

أمـــا أبـــو سعيد الخراز فقد تكلم بعبارة جميلة بأن : " المتوكل على الله إذا ملكه الله تعـــالى شـــيئا مـــن أمر الدنيا وفضل عنده لم يدخره لغد ، إلا بالنية أن الشيء إنما هو لله ، وموقـــوف لحقـــوق الله ، وهـــو خازن من خزان الله ، فإذا رأى موضع الحاجة شارع إلى الإخراج والبذل والمواساة ، وكان في الذي يملك وإخوانه سواء " (٦) .

وأمـــا الحـــارث المحاسبي فقد انتقد القوم الذين يقعدون ولا يسعون في طلب الرزق قائلا: " وقد زعم قوم أن التوكل لا يثبت لأهله إلا بترك الحركة في طلب الرزق ، والقعود عـــن الاضطراب ، فمنعوا أن يكون في ذلك إباحة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، فجهـــلوا ما أخبرنا عن إسماعيل بن إبراهيم ، عن الأعمش عن إبراهيم عن عائشة رضي الله عـــنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه » (٧) ، وهذا خبر عن رسول الله ﷺ لا يدفعه أهل العلم والنقل ولا أعلمهم يختلفون فيه .. " (٨) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٥٩) .

(٣) سورة الطلاق ، الآية (٣) .

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٢٠ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١٦٤ .

(٦) كتاب الصدق ص ١٢٤- ١٢٥ .

(٧) صحيح سنن ابن ماجة في التجارات ، باب الحث على المكاسب ٢/٥(٢١٣٨) .

(٨) المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ص ١٨٣ .

وقـــال ذوالنون المصري عن التوكل بأنه " تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة ، وإنمـــا يقـــوي العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه " . وعبارة ذي النون تعني المتوكل على الله لا ينبغي لـــه أن يقوم بأي سبب لأنه ينافي التوكل على الله ﷻ ؛ بل عليه أن يقطع الأسباب نهائيا ، وهو مفهوم خاطئ حيث من الممكن أن يكون هذا تواكـــلا وليـــس توكلا ، ويؤيد على هذا قول ذي النون بعبارة أخرى بأن " التوكل خلع الأرباب وقطع الأسباب " [١] .

أمـــا سهل بن عبد الله التستري فقد قال : " إن أول مقام التوكل أن يكون العبد بين يدي ﷻ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون لـــه حركة ولا تدبير [٢] .

ونفهـــم من ذلك – إذن – أن الإنسان المتوكل على الله ينبغي لـــه أن يقعد ولا يـــتحرك في هـــذه الحياة لتأمين لوازم الحياة ؛ وإلا لا يوصف بأنه متوكل على الله ، وهذا مفهـــوم خاطئ للتوكل لأنه ليس من التوكل على الله قطع القيام بالأسباب التي تكون سببا لحصول الإنسان على رزقه الحلال ، أو تناول دواء يكون سببا لشفائه .

الصبر :

إن الصـــبر مقـــام ومنزل من منازل السالكين ، لا يتم جهد بدونه ، ولا يتوصل إلى هـــدف بغيره ، ولا يصل بلاء إلى غايته بالنسبة للسالك إلى الله ﷻ مالم يركب فيه مركب الصـــبر ، وإذا كـــان السالك يحتاج إلى الصبر في تحققه بكل مقام سابق من التوبة والورع ..فإنـــه يظل كذلك حتى يصبح الصبر مقاما لـــه ، ويصير مفتاحه في كل شأن من شؤونه قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [٣] .

ولأهمية الصبر لدى السالكين إلى الله فقد قام بعض الصوفية بإعطاء تعريف له .

قال إبراهيم الخواص : الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة . وقال عمرو بن عـــثمان : الصـــبر هو الثبات مع الله تعالى ، وتلقي بلائه بالرحب والدعة . وقال ذوالنون

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٦٥ .

(٢) نفسه ص ١٦٣ .

(٣) سورة الزمر ، الآية (١٠) .

المصـــري : الصبر هو الاستقامة بالله تعالى [١] . وأشار سهل التستري إلى أنه انتظار الفرج من الله ، وهو أفضل الخدمة وأعلاها [٢] .

أمـــا أبو سعيد الخراز فبين أن الصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ؛ وهو الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حـــال ، في الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعا وكرها .

ثم الصبر عن كل ما نهى الله ﷻ عنه ، ومنع النفس من كل ما مالت إليه بهواها ، مما ليس لله تعالى فيه رضا ، طوعا وكرها ..

ثم الصـــبر على النوافل وأعمال البر ، مما يقرب العبد إلى الله تعالى فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه ، للذي رجاه من ثواب الله ﷻ .

أمـــا الصـــبر الرابع فهو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعاك إليه بالنصـــيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله جل ذكره إلى العباد ، لا يجوز لهم رده ، فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله تعالى أمره [٣] .

ثم قـــال أبو سعيد : وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق ، الذي يكون لا يسعهم جهله ، ولا بد لهم منه .

وهذا التقسيم قد يرجع إلى القسمين الإثنين : الأول صبر على ما هو كسب للعبد ، والآخـــر صبر على ما ليس بكسب لـــه ؛ أما الذي يكتسبه العبد فداخل تحت الأمر والنهي ، وأما الذي لا يكتسبه فهي أحكام الله عليه ، وما قد يناله فيها من مشقة وبلاء [٤] .

ولكـــن لو نظرنا إلى الصبر فإنه ينصرف عادة إلى القسم الثاني أكثر مما ينصرف إلى القسم الأول؛ لأن القسم الثاني وهو الصبر على ما يترل بالسالك من أنواع البلاء فهو الذي يأخذ أكثر الحديث عن الصبر .

يقول الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق في جنب الله شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله ﷻ أشد ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١١٢- ١١٣ .

(٣) كتاب الصدق ص ٨٣- ٨٤ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٨٣ .

وحينما سئل عن الصبر فقال : تجرع المرارة من غير تعبيس [١] ، وذلك يشمل الوجهين الذين أوردهما القشيري عن الصبر .

ويعتمد الطوسي على تقسيم ابن سالم للصبر فيقول : " متصبر ، وصابر ، وصبار ؛ فالمتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر ، ومرة يجزع . والصابر من يصبر في الله ولله ، فلا يجزع وقد تقع منه الشكوى . وأما الصبار فهو الذي يصبر في الله وبالله ، وهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ، ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة " [٢] .

والصبر ليس عملا سلبيا محضا كما قد يتخيله البعض ؛ فهو في الأمور السلبية عمل سلبي ، ولكنه في الأمور الإيجابية عمل إيجابي ، فهو في كل أمر بحسبه .

فالصبر على العبادة عمل سلبي ، والصبر تحت مواقع القضاء عمل سلبي بحسب ظاهره ، ولذلك يستعان على قضاء المصالح وتحقيق الآمال بالصبر ، وهو كفيل أن يصل بصاحبه إلى تحقيق أهدافه ، ولذلك يقولون : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر في المحن عنوان الفرج .

الشكر :

من المقامات التي يتحقق بها السالكون في طريقهم إلى الله ﷻ مقام الشكر ، ويعني تحقق الصوفي بالشكر أن يكون معترفا بنعمة المنعم عليه مع استشعار الخضوع له ﷻ .

ولأهمية الشكر في حياة العبد السالك إلى الله ﷻ فقد تحدث عنه الأعلام الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

قال الحسن البصري : " الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر ، فكم من منعم عليه غير شاكر " [٣] . وقال : " إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا ، ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، والجالب لأنه يجلب النعم المفقودة " [٤] .

---

[١] المصدر السابق ص ١٨٣ .

[٢] اللمع للطوسي ص ٧٦ .

[٣] إحياء علوم الدين ١٣٤/٤ .

[٤] عدة الصابرين ص ١٢٢ .

وقال الفضيل بن عياض : " عليكم بملازمة الشكر على النعمة ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم " . وبين أن من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستقم ذلك حتى يرى الزيادة لقوله ﷻ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [١]وإن من شكر النعمة أن يحدث بها " [٢]

وقال أبو سليمان الداراني : " جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل في قلبه خصالا : الكرم والسخاء والحلم والرأفة والشكر والبر والصبر " [٣] .

أما أبو سعيد الخراز فقد بين أن الشكر على ثلاثة وجوه : شكر القلب ، وشكر اللسان ، وشكر البدن .

فأما شكر القلب فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره . وأما شكر اللسان فالحمد والثناء عليه ، ونشر آلائه وذكر إحسانه . وأما شكر البدن فلا تستعمل جارحة منحها الله تعالى وأحسن خلقها في معصية ؛ بل تطيع لله تعالى بها .

وكذلك كل ما خولك وملكك من الدنيا جعلته عونا لك على طاعته ، ولم تحوله في باطل ، ولم تنفقه في سرف ، ثم تبذل لله — ﷻ ذكره وعز جده — الخدمة ، وتعطيه الجهد من نفسك .. [٤] .

والعبد لم يبلغ هذا المبلغ ما لم يكن هناك ما يبعثه على الشكر ، وقد بين المحاسبي ذلك فقال : يبعث على الشكر الحرص على مداومة تذكر النعم وخوف حلول النقم [٥] . وكذلك استكثار العبد منن الله ﷻ وشدة الحياء ، حيث لو تذكر إحسان الله وكثرة نعمه عليه استحى من التقصير في حقه ، ودأب في أداء شكره ﷻ .

الرضا :

اعتبره كثير من أئمة الصوفية نهاية ما يتحقق به السالك في طريقه ، ويعنون به أن يكون السالك للطريق راضيا عن الله ﷻ ، وغير معترض على تقديره ﷻ ، ولهذا فهو مقام

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية (٧) .

(٢) إحياء علوم الدين ١٢٧/٤ .

(٣) عدة الصابرين ص ١٢٠ .

(٤) كتاب الصدق ص ١٣٩- ١٤٠ .

(٥) المسائل في أعمال القلوب والجوارح ..ص ٥٣ .

صـعب لـلغاية ، لأن الإنسان كثير الجزع إذا ما صادفته عقبة أو شدة ، وجزعه يتضمن اعتراض على قضاء الله ﷻ .

يسـندون الرضـا إلى قوله ﷻ : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [(١)] فواجب العبد السالك أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به فيما عدا المعاصي فلا وجه للرضا بها أو عنها ، وفي هـذا المعنى يقول القشيري : " واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمـر الرضـا به ، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين " [(٢)] . وكذلك فإن رضا العبد عن الله ﷻ فيما يورده سواء كان محنة أو منة هو من علامة رضا الله ﷻ عنه مصداقا لما جاءت به الآية السابقة .

ويسـتند الرضا كذلك إلى شواهد من السنة منها قول النبي ﷺ : ((ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)) [(٣)] .

فهـذا الحديـث يفيد أن من لم يتحقق بالرضا لم يلاق حلاوة الإيمان ، ويكون إيمانه صـورة لا روح فيهـا ، وأما المتحقق بالرضا فهو مستسلم لله منقاد لحكمه ، وواجد لذة العيش وراحة التفويض فهو مؤمن على الحقيقة .

وقد اختلف الصوفية في شأن الرضا ، ففريق منهم يعتبره من جملة المقامات ، وأنه مما يتوصـل إليه العبد باكتسابه ، وفريق آخر يعتبره من جملة الأحوال ، وأنه ليس كسبا للعبد بـل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال ، وفريق ثالث يجمع بين الفريقين فيقول : بداية الرضـا مكتسـبة للعبد ، وهي من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة ، وهذا هو الأقرب إلى الصواب .

ولأهميـة مقام الرضا في حياة العبد السالك إلى الله ﷻ نجد بعض الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد عبروا عنه ؛

فهذا عبد الواحد بن زيد أشار إلى أن " الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا " [(٤)] .

وقـال الفضيل لبشر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته .

---

(١) سورة المائدة ، الآية (١١٩) .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٩٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربا .. ٦٢/١ (ح ٥٦) .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٩٤ .

وسئلت رابعة العدوية متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقال أبو سليمان الداراني : أرجو أن أكون طرفا من الرضا ، لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيا .

وقال رويم : الرضا استقبال الأحكام بالفرح . وهذا يشبه ما قاله الحارث المحاسبي من أن الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام ، وما عبر عنه النوري بأنه سرور القلب بمر القضاء . وكذلك ما قاله ذوالنون المصري حينما بين ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء [(١)] .

ولا شك أن الرضا مما أجمع العلماء على استحبابه واختلفوا في وجوبه ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ممن ذهب إلى القول باستحبابه فيقول رحمه الله : " ولم يجئ الأمر به كما جاء بالصبر وإنما جاء بالثناء على أصحابه ومدحهم " [(٢)] .

الخوف والرجاء :

الخوف والرجاء عند الصوفية مقامان من مقامات السلوك ، وهما يقتسمان نفس السالك في طريقه إلى الله ﷻ .

فالسالك يتحقق بمقام الخوف حينما يخشى أن يسلبه الله ﷻ ما هو عليه من أحوال ومقامات لعلمه بأن الله عليم حكيم ، ذو قدرة ومشيئة ، متى أراد أن يسلبها عنه فعل ذلك ولا يسأل الله عما يفعل وهم يسألون .

على أن خوف العبد من أن تسلب عنه أحواله ومقاماته لا ينبغي أن يستبد به ، وعليه ألا يفقد الرجاء في الله ﷻ ، فهو إذا خوف ينبغي أن يعلم أن من وراء خوفه أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته ، وأنه ﷻ ما خوفه إلا ليجمعه عليه وليرده بذلك إليه ، وبهذا يكون مقام الخوف موصلا إلى مقام الرجاء .

ووردت آثار وأقوال الزهاد في القرنين الثاني والثالث الهجريين في الخوف والرجاء ؛ عن الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ قال : الخوف الدائم في القلب . وقال : " إن الرجل يذنب الذنب فما ينساه ،

---

(١) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٢) مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ١٠/٤٠ .

ومـــا يـــزال متخوفا منه حتى يدخل الجنة " [١] . وقال في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَـــوا وَقُـــلُوبُهُمْ وَجِـــلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [٢] بأنهم " كانوا يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله " [٣] .

وســـئل عبد الله بن المبارك عن رجلين أحدهما خائف والآخر قتيل في سبيل الله ﷻ قال : " أحب إلي أخوفهما " .

وقال الفضيل بن عياض : " الخوف أفضل من الرجاء ما كان الرجل صحيحا ، فإذا نزل الموت فالرجاء أفضل " [٤] .

وقال أبو سليمان الداراني : " أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله ﷻ ، وكل قلب ليس فيه خوف فهو قلب خرب " [٥] .

أمـــا أبو علي الرذوباري فقد بين الترابط والعلاقة بين الخوف والرجاء وشبه بجناحي الطائـــر فقال : " الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت " [٦] .

وقال أبو سعيد الخراز في كلام لـــه : " شكوت إلى بعض العارفين الخوف فقال لي : إني أشـــتهي أن أرى رجلا يدري أيش الخوف من الله ؟ ثم قال : إن أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم من الله شفقة منهم على أنفسهم وعملا في خلاصها من أمر الله ﷻ " [٧] .

وهكـــذا فالمؤمنون بالله ﷻ لا يأمنون طرفة عين من مجيء عذاب الله لخطأ أو زلة قد يقعـــون فيها ، ولذا فالخوف يعطيهم صفة الحذر من النفس ومن وساوس الشيطان ، وحالة الخـــوف هـــذه تحفظهم من ارتكاب المعاصي ، وتزيد درجة الورع عندهم ، ويعبرون عن ذلك بالسجود لله ﷻ إعلانا للطاعة ، ويقرنون سجودهم بالبكاء ، وهو التعبير عن الخوف

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص ٣٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية (٦٠) .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٤) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ، لابن رجب ، تحقيق بشير محمد عون ، دمشق ، (مكتبة دار البيان ١٤١٣هـ) ص ٢٣ .

(٥) نفسه ص ٧ .

(٦) مدارج السالكين ٣٧/٢ .

(٧) اللمع للطوسي ص ٩٠ .

والخــشــوع فهــــؤلاء وصفتهم الآيــة : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [(١)] .

ولأهميــة الخوف الذي هو حصن من الوقوع في المعاصي أو الأخطاء حث النبي ﷺ عــليه ورغب فيه وقال : ((عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله)) [(٢)] .

وقد كان الخوف والبكاء من الصفات التي عرف بها السلف الصالح كما كانا يخيمان على الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز والحسن البصري ، حتى قيل من شدة خوفهما كأن النار لم تخلق إلا لهما .

ولكــن العبد لو عاش حال الخوف دون الرجاء لسد باب أمله وازدادت وساوسه ، ولكن الترغيب والوعد بغفران الله ﷻ يشكل حصنا يمنع الإنسان من السقوط والقنوط من رحمة الله ﷻ .

وهـــذا ما يجعل القشيري يورد أن من معاني الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله ، أو ارتيــاح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب [(٣)] . لذا فإن كل من يتوقع الحسنى في المستقبل يعتبر راجيا مؤملاً .

ومــن المفيد أن يكون العبد دائما بين حالي الخوف والرجاء ، لأن الخوف يردعه عن المعصية ، والرجاء يدفعه إلى العمل مما يضبط سلوكه ويحصنه ، ويجعله فيمن رضي عنهم الله وأحــبهم . فالمؤمن يراعي قاعدة الالتزام بفعل المعروف والانتهاء عن المنكر خوفا من النيران وطمعــا بالجنان قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [(٤)] .

---

(١) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في الجهاد ، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ٢٧٦/٣ . وأورده الألباني في صحيح الترمذي ١٢٧/٢ (١٣٣٨) .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٣٢- ١٣٣ .

(٤) سورة السجدة ، الآيتان (١٥- ١٦) .

الباب الثاني

موقف الفقهاء الأربعة من التصوف

وتحته أربعة فصول

الفصل الأول : الإمام أبو حنيفة والتصوف

الفصل الثاني : الإمام مالك بن أنس والتصوف

الفصل الثالث : الإمام الشافعي والتصوف

الفصل الرابع : الإمام أحمد بن حنبل والتصوف

الفصل الأول

الإمام أبو حنيفة والتصوف

وتحته أربعة مباحث

المبحث الأول : عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

المبحث الثاني : الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام أبي حنيفة وحياته

أولا : عصره

لقد عاش الإمام أبو حنيفة – رحمه الله- في عهدي الدولة الأموية والعباسية ، وشهد ما كان في تلك الفترة من فتن وأحداث ، كما رأى – كذلك – مشاهد المجادلات والمناقشات بين الفرق المتنازعة من شيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة .. وجماعات من الفقهاء والعباد والزهاد مما أدى ذلك إلى اتخاذ رأيه وموقفه من تلك الظواهر .

واتسعت الحياة المادية والاجتماعية – في عصره- بعد الفتوحات الإسلامية ودخول شعوب مختلفة في دين الله ﷻ ، فأصبح المجتمع يضم أجناسا وأفكارا متعددة ، فتغيرت البيئة وظهرت مسائل وأمور لم تكن قد شاعت في عهد رسول الله ﷺ ، فكثرت الأقوال في الفقه الإسلامي ، وبدرت محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية ، وظهرت آراء ومذاهب [١] تتفق في العقائد وفي أصول الفقه وتختلف في فروعه وفي عدد من تفاصيل العبادات والمعاملات ، وقد أدى الاختلاف في تفسير نصوص القرآن الكريم إلى نشأة المذاهب الأربعة هذا في الفروع [٢] .

أما الأصول فمن المعروف أن العراق كان موطنا للفرق المختلفة ومحلا للأفكار لمدنيات قديمة ، فكان ملتقى الشعوب والأجناس المتباينة ؛ مما أدى ذلك إلى ظهور المذاهب التي كانت تنشر بين المسلمين في الخفاء لإفساد عقيدتهم ، أو للتشكيك في أمور دينهم ، أو لتفكيك وحدتهم ، وإثارة النزعات الفكرية بينهم [٣] .

ووجدت كذلك في العصر الأموي حركة فكرية نشطة ، وهي حركة الاتصال بالفلسفة اليونانية ، وبدأت ترجمة كتب الطب ، وأخذ المسلمون – أيام المنصور- ينقلون كتب العلوم والفلسفة اليونانية إلى العربية .

وهكذا نشأت حركة علمية في هذا العصر ، ولكن كان أساسها الدين ، الذي يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وقد كان بحث العلماء يدور حول تفسير آية

---

(١) الأئمة الأربعة ، لأحمد الشرباصي ، بيروت (دار الجيل) ص ١٥ .

(٢) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، بيروت (دار القلم ١٣٩٢هـ) ص ٢٢٣ .

(٣) انظر : أبو حنيفة ، لأبي زهرة ، ط٢ (دار الفكر العربي ١٣٦٤هـ) ص ٩٤-٩٦ .

قـــرآنية ، أو روايـــة لحديث مسند يتصل برسول الله ﷺ ، هذا عدا محاولات ترجمة كتب فلسفية والتي قام بها البعض في عصر المنصور وغيره من الخلفاء الذين جاءوا من بعده .

ثانيا : حياته

هو أبو حنيفة النعمان [١] بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي الخزاز، الإمام فقيه الملة ، عالم العراق ، المنتسب إلى أسرة شريفة في قومه ، أسلم جده أيام عمر بن الخطاب ﷺ [٢] .

ونسب إلى الخزّاز [٣] لأنه كان يبيع الخز ، ويأكل منه طلبا للحلال [٤] ، وأما نسبته إلى الكوفي فلأن موطنه الذي ولد وعاش فيه هو الكوفة ، وأما كونه تيميا فلأن جده زوطي مـــولى لـــبني تيم الله بن ثعلبة من بني ربيعة . وقد نفى إسماعيل بن حماد بن حنيفة أن يكون الـــرق قد وقع على أجداده [٥] . وسواء جرى الرق على جده أم لا فإن هذا الأمر لا ينقص من قدر الإمام أبي حنيفة وعلمه شيئا ، لأن الإسلام قد ساوى بين البشر كلهم لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى .

ولد الإمام أبو حنيفة سنة ثمانين من الهجرة بالكوفة على القول الراجح في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان [٦] . ونشأ بها أيضا ، واشتغل في مبدأ أمره تاجرا في الخز ، وكان أمينا في تجارتـــه ، ثم توســـعت تجارته وازدهرت حتى صار لـــه معمل لحياكة الخز ، وعنده صـــناع وأجـــراء ، وقـــد أخذ أبو حنيفة هذه المهنة عن أبيه . وبهذا يتبين أنه نشأ في بيت إسلامي خالص [٧] .

وقد وصفه صاحبه أبو يوسف بأنه اتصف بالخصال الحميدة حينما سأله عنها الخليفة العباســـي هارون الرشيد فقال : يا أبا يوسف صف لي أخلاق أبي حنيفة ﷺ فقال : إن الله

---

(١) انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٣٢٤/١٣ – ٣٥٤ ، والتاريخ الكبير ٨١/٨ ، وطبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٦ ، الجـــرح والـــتعديل ٤٤٩/٨ ، وتذكرة الحفاظ ١٦٨/١ ، وسير أعلام النبلاء ٣٩٠/٦ ، ومناقب أبي حنيفة للمكي ، بيروت ، (دار الكتاب العربي ١٤٠٠هـــ) وغيرها .

(٢) سير أعلام ٣٩٠/٦– ٣٩١ ، ووفيات الأعيان ٤٠٥/٥ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٢٤/١٣ .

(٤) الأنساب للسمعاني ٤٠٥/٥ .

(٥) تاريخ بغداد ٣٢٦/٣١ .

(٦) أبو حنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء ص ٤٧ .

(٧) انظر : أبو حنيفة لأبي زهرة ص٢١ ، وتاريخ المذاهب الإسلامية ١٣١/٢ .

تعـــالى يقـــول : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [1] وهو عند لسان كل قائل ، كـــان علمي بأبي حنيفة أنه كان شديد الذّب عن محارم الله ، شديد الورع أن ينطق في دين الله بمـــا لا يعـــلم ، يحب أن يطيع الله ولا يعصي ، دائم الفكر ، على علم واسع ، لم يكن مهـــذارا ولا ثرثارا ، إن سئل عن مسألة كان عنده ما فيها علم نطق به وأجاب فيها بما سمع ، وإن كـــان غـــير ذلك قاس على الحق واتبعه ، صائنا نفسه ودينه ، بذولا للعلم والمال ، مستغنيا بنفسه عن جميع الناس ، لا يميل إلى طمع ، بعيدا عن الغيبة ، لا يذكر أحدا إلا بخير ، فقال لـــه الرشيد : هذه أخلاق الصالحين ، ثم قال للكاتب اكتب هذه الصفة وارفعها إلى ابني ينظر فيها [2] .

وقـــد اتســـم عصـــره – رحمه الله – بكثرة العلماء ، فأخذ العلم عن الكثير منهم ، ووصـــف أبـــو حنيفة عصره فيقول : " كنت في معدن العلم والفقه فجالست أهله ولزمت فقيهـــا من فقهائهم يقال لـــه حماد بن أبي سليمان فانتفعت به " [3] . كما أخذ العلم عن عدد كبير من التابعين حيث ذكر لنا أنه لقي عطاء بن رباح (ت ١١٤هـــ) فسأله أبو حـــنيفة عن شيء فقال لـــه عطاء من أين أنت ؟ أجابه من أهل الكوفة ، فسأله من أي الأصـــناف أنت ؟ أجابه فممن لا يسبُّ السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا بذنب ، فقال عطاء عرفت فالزم [4] .

كـــان لأبي حنيفة تلامذة كثيرون ، منهم من كان يرحل إليه ويستمع أمدا ، ثم يعود إلى بلده بعد أن يأخذ طريقه ومنهاجه ، ومنهم من لازمه [5] .

فمـــن تلامذتـــه عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـــ) وداود الطائي (ت ١٦٥هـــ) والفضيل بن عياض (ت ١٨٧هـــ) وشقيق البلخي (ت ١٩٤هـــ) وغيرهم .

وتوفي – رحمه الله – سنة ١٥٠هـــ .

---

(١) سورة ق ، الآية (١٨) .

(٢) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ، للصيمري ص ٣١-٣٢ .

(٣) مناقب أبي حنيفة ، للموفق المكي ٥٢/١ .

(٤) مناقب أبي حنيفة للكردي ٨٢/٢-٨٣ .

(٥) المصدر نفسه ١٣١/٢ .

المبحث الثاني

الإمام أبو حنيفة وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن معرفة الله تبارك وتعالى في اعتقاد سلفنا الصالح – كما سبق – مودعة في أعماق الإنسان ، ومستقرة في القلوب ، وأن العباد مفطورون على معرفة خالقهم ورازقهم ، وإن الإمام أبا حنيفة ليقرر ذلك ، يتبين من خلال النصوص الآتية :

ذكر الإمام الموفق [١]بن أحمد المكي في كتابه " مناقب أبي حنيفة " أن جماعة من الزنادقة يريدون قتل أبي حنيفة فناظرهم النعمان " فقال لهم : على رسلكم حتى تجيبوني عن مسألة ثم أنتم وشأنكم ، فقالوا له هات فقال : ما تقولون في رجل يقول لكم إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأمتعة والأثقال قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة وأمواج مختلفة ، وهي من بينها تجري مستوية ليس فيها ملاح يجرها ويقودها ويسوقها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا : لا ، هذا شيء لا يقبله العقل ولا يجيزه الوهم ! فقال لهم أبو حنيفة – رحمه الله - : فيا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل وجود سفينة تجري مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أمورها وأعمالها ، وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟ فبكوا جميعا وقالوا : صدقت فأغمدوا سيوفهم وتابوا عن غيهم وضلالهم " [٢] .

وذكر الملا علي القاري الحنفي هذا الحدث بصيغة أخرى قائلا : " إن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم : أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة تذهب فتمتلئ من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها ، فترسى بنفسها وتتفرغ بنفسها ، وترجع كل ذلك من غير أن يديرها أحد ، فقالوا : هذا محال لا يمكن أبدا ، فقال لهم : إذا كان هذا محالا في سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله ؟ وما أحسن قول العارف إبراهيم الخواص في هذا المعنى :

لقد وضح الطريق إليك حقا فما أحد أرادك يستدل ..

---

(١) الموفق بن أحمد المكي ، فقيه أديب خطيب ..(ت ٥٦٨) ، انظر : معجم المؤلفين ٥٢/١٣ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ، ١٥١/١ .

وكذلك قول أبي العتاهية ما أحسنه !

فوا عجبا كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تـــحريكـــة ... وتسكينة أبدا شاهـــد

وفي كل شيء له آيـــــة ... تدل على أنه واحـــد [١] .

وكذلك ما ذكره الإمام أبو حنيفة أنه قال : " لا عذر لأحد في الجهل بخالقه لما يرى مـــن خـــلق السماوات والأرض ، وخلق نفسه ، وسائر ما خلقه ربه " [٢] . قال الملا علي القـــاري مبينا ذلك : " وقد أعرض الإمام عن بحث الوجود ، اكتفاء بما هو ظاهر في مقام الشـــهود .. فوجـــود الحق ثابت في فطر الخلق كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [٣] ويومئ إليه حديث ((ما من مولود إلا يولد على الفطرة)) [٤] " [٥]

ومـــا يؤكـــد فطـــرية المعرفة عند الإمام أبي حنيفة — رحمه الله — أن كتب المذهب الحنفي جميعا تقرر : أن الصبي من أولاد الكفار إذا سبي بدون أبويه ومات عند المسلمين أنه يصـــلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، وهذا تأكيد على أنه مفطور على فطرة الإسلام ومعرفة ربه ﷻ [٦] .

وقد بين الإمام أبو حنيفة أيضا أن معرفة الله لا بد أن تكون كما وصفه الله في كتابه وسنة رسوله ﷺ فقال : " نعرف الله تعالى حق معرفته كما وصف الله نفسه في كتابه بجميع صفاته ، وليس يقدر أحد أن يعبد الله تعالى حق عبادته كما هو أهل له ، ولكن يعبده بأمره كما أمره بكتابه وسنة رسوله " [٧] .

---

(١) شرح كتاب الفقه الأكبر ، للملا علي القاري الحنفي ، ط ١ بيروت (دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ)ص٢٢

(٢) المصدر نفسه ص٢٠٧ ، ودرء تعارض العقل والنقل ٦٢/٩ .

(٣) سورة الروم ، الآية (٣٠) .

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ؟ ٥٨٢/٢ (ح ١٣٥٩) ، ومسلم في القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ (ح ٢٦٥٨)

(٥) المصدر السابق ص١٦-١٧ .

(٦) انظر : براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة ، د. عبد العزيز أحمد بن محسن الحميدي ، ط ١ القاهرة ، (دار ابن عفان ١٤٢٠هـ) ص١٤٦ .

(٧) كتاب الفقه الأكبر ص٥- ٦ .

ووضـــح كذلك أن " المعرفة وحدها لا تكون إيمانا ، لأنها لو كانت إيمانا لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين ، لقوله تعالى في حق أهل الكتاب : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [١] " [٢] .

فمـــن خلال ما سبق تبين لنا أن معرفة الله ﷻ - عند الإمام أبي حنيفة — فطرية ، وأن العـــباد مفطورون جميعا على معرفة خالقهم وبارئهم ، ومن ثم فهم مطالبون أن يحققوا العبودية لله وحده ﷻ . وبذلك وافق الإمام أبو حنيفة ما ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة مـــن أن طـــريق معـــرفة وجود الله فطري وأمر بديهي ، لا ينبغي الخوض فيه ، بل هو من القضـــايا المسلمة ، التي لا تحتاج إلى بحث وعناء ، وهو بذلك خالف — رحمه الله — منهج بعـــض المتصوفة ، الذي يقول : بأن الحيرة هي أقصى حد يبلغها العارف بالله ، أو أن طريق الوصول إلى معرفة الله لا بد عن طريق الاتحاد بالله أو الجمع به ﷻ .

فمعرفة الله تعالى — إذن — لا تتطلب مجاهدة روحية ، أو رياضة قلبية ، تنشأ عنها حـــالات نفسية معينة تعرف بالأحوال والمقامات ، حيث يرتقي المريد من حال إلى حال ، ومـــن مقـــام إلى مقام حتى يصل إلى معرفة الله ﷻ ، أو أن معرفة الله تعالى تكون على فئة خاصـــة مـــن الناس كما يعتقدها ذوالنون المصري ، أو أن الإنسان لا يجد المعرفة إلا ببطن جـــائع .. وأن الذي يشتغل بالإيمان والعبادة لا يصل إلى معرفة الله تبارك وتعالى كما عند البسطامي والحلاج .

---

[١] سورة البقرة ، الآية (١٤٦) .

[٢] الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١/١٥٦ .

٢- العبوديـــة

إن النصـــوص الواردة عن الإمام أبي حنيفة في عبادته واجتهاده في التقرب إلى الله ﷻ بألوان الطاعات والقربات لتؤكد أنه محب الله ﷻ ، وولي من أوليائه ﷻ .

فقـــد روى الموفق المكي بسنده إلى بكير بن معروف [١] قال : كنت بطانة أبي حنيفة في الســفر والحضر ، وأشهده في الليالي في منزله ، وكان قلّ ما يستتر عليّ أمر من أموره ، فمـــا رأيـــت أحدا أكثر اجتهادا منه ، صائما بالنهار، قائما بالليل ، تاليا لبيان الله ، خاشعا دائبا في طاعة الله ، محتسبا في التعليم وفي تنوير ما يشكل على الناس من المعاني .. [٢]

وبـــه إلى حفص بن عبد الرحمن [٣] قال : كان أبو حنيفة يحفظ القرآن ، فيختمه في الشـــهر ثلاثين مرة . وقال أيضا : كنت شريك أبي حنيفة ثلاثين سنة فكان يختم القرآن في ثلاثة أيام ولياليها ، وكان يتصدق كل يوم بصدقة [٤] .

هـــذا هـــو الإمـــام أبو حنيفة العابد القانت لله تعالى ، يتلو كتاب الله ويجعله ديدنه وأنيســـه ، - وإن كان في ختمه للقرآن مشقة - يقوم بالليل لله ﷻ خائفا وجلا ، ويصوم الأيام الكثيرة ، ويحج كل عام منذ حج مع والده حجة الإسلام ويتصدق كل يوم بصدقة .

وقـــد مـــر مســـعر[٥] بن كدام الزاهد بأبي حنيفة وأصحابه ، فوجدهم قد ارتفعت أصـــواقم فأقـــام مـــليا ، ثم قـــال : هؤلاء أفضل من الشهداء والعباد والمتهجدين ، هؤلاء يجـــاهدون في إحياء سنة محمد ﷺ ، ويجتهدون في إخراج الجهال من جهلهم ، هؤلاء أفضل الـــناس ، ثم اقترب من الحلقة فقال لأصحابه : يا هؤلاء ارفقوا بالشيخ فإنه — مع ما هو فيه — قد أحيا ليالي متواليات ، شهدته الليلة التي مضت منها .

---

(١) بكير بن معروف الأسدي ، أبو معاذ أو أبو الحسن الدامغاني ، قاضي نيسابور ، ثم نزيل دمشق ، صـــدوق (ت ١٦٣ هـــ) . تقريب التهذيب ١/١١٦ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ١/٢٢١ .

(٣) حفص بن عبد الرحمن بن عمر ، أبو عمرو البلخي الفقيه ، النيسابوري قاضيها ، صدوق عابد ، (ت١٩٩ هـــ) . تقريب التهذيب ١/١٨٦ .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) مسعر بن كدام بن ظهير الهلالي العامري ، أبو سلمة ، من ثقات أهـــل الحديث ، كوفي (ت ١٥٢هـــ) . الأعلام ٧/٢١٦ .

وبذلك وجدنا من العلماء من يمدحونه ويثنون عليه ، فقال الفضل بن سويد ، الذي قدم الكوفة وسئل بعد عن أبي حنيفة : صحبناه كثيرا فما عرفناه إلا صوّاما قوّاما .

وقال أبو مقاتل : صحبت أبا حنيفة الصحبة الطويلة في حضره وأسفاره ، فما رأيت أحدا أكثر صلاة منه ، ولا أعبد ولا أورع منه ..

وقال عطاء بن جبلة : لم أر أحدا من العلماء يختلف أن أبا حنيفة كان أفقه القوم ، وأورع القوم ، وأكثرهم صلاة وعبادة [١] .

فكان الإمام أبو حنيفة — إذن — عابدا من العباد الصالحين ، ولكنه مع كونه مكثرا للعبادة ، ومجتهدا في التقرب إلى الله ﷻ ، ووليا من أوليائه ﷻ كان حريصا أشد الحرص على حماية جناب التوحيد الخالص لله تعالى ، حريصا على سد جميع منافذ الشرك بالله ، فقد جاء عنه — رحمه الله — وأتباعه النهي عن كل ما يفضي إلى الشرك ، مما يتعلق بتعظيم القبور وأهلها والغلو فيها كما يفعلها غلاة المتصوفة والمبتدعة ، احتجاجا منهم أن تلك الأعمال تجعلهم في مصاف العابدين لله المحبين له ، أو أنها عمل من أعمال أولياء الله ﷻ .

قال الألوسي [٢] الحنفي واصفا حال المستغيثين بغير الله ﷻ ، وتعلقهم الشديد بالأموات حيث صرفوا لهم أنواعا من الطاعات ، كالنذر وغيره ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ [٣] إشارة إلى ذم المغالين في أولياء الله تعالى ، حيث يستغيثون بهم في الشدة — أي الأولياء — غافلين عن الله ، وينذرون لهم النذور ، والعقلاء منهم يقولون إنهم وسائلنا إلى الله تعالى — وإنما ننذر لله وحده — ونجعل ثوابه للولي ، ولا يخفى أنهم في دعواهم الأولى أشبه الناس بعبدة الأصنام القائلين : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [٤] . ودعواهم الثانية لا بأس بها لو لم يطلبوا منهم بذلك شفاء مريضهم ، أو رد غائبهم أو نحو ذلك [٥] .

---

(١) مناقب أبي حنيفة ٢٢١/١ .

(٢) محمود شكري بن عبد الله بن شهاب الدين الألوسي ، أبو المعالي ، مؤرخ ، عالم بالأدب والدين ، من الدعاة إلى الاصلاح (ت ١٣٤٢هـ) . الأعلام ١٧٢/٧ .

(٣) سورة الحج ، الآية (٧٣) .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٣) .

(٥) روح المعاني ، لمحمود الألوسي ١٧/٢١٢-٢١٣ .

وقـال أيضا : " ولقد رأيت من يبيح ما يفعله الجهلة في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالحجر والآجر ، وتعليق القناديل عليها ، والصلاة إليها ، والطواف بها ، واستلامها والاجتماع عندها في أوقات مخصوصة إلى غير ذلك .. وكل ذلك محادة لله تعالى ورسوله ﷺ ، وإبداع دين لم يأذن به الله ﷻ ، ويكفيك في معرفة الحق تتبع ما صنع أصحاب رسول الله ﷺ في قبره عليه الصلاة والسلام ، وهو أفضل قبر على وجه الأرض ، والوقوف على أفعالهم في زيارتهم له ﷺ ، فتتبع ذاك وتأمل ما هنا وما هناك والله ﷻ يتولى هداك " [١]

وقال الإمام ولي الله الدهلوي [٢] : " وإذا كنت — أيها القارئ — تتوقف بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم ، فانظر إلى المنحرفين في هذا العصر ، لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام ، ما هي تصوراتهم عن الولاية ، فرغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء في عصرنا هذا من المستحيلات ، ويؤمون القبور والعتبات ، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبدع والخرافات ، وتمكن منهم التحريف والتشبيه ، وتغلغل في نفوسهم حتى لم يبق بحكم ما جاء في الحديث الصحيح «لتتبعن سنن من كان قبلكم..الخ» بلية من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين — اسما — تخوض فيها وتتعلق بها ، عافانا الله ﷻ عن ذلك " [٣] .

وبهذا الموقف من الإمام أبي حنيفة وأتباعه أقول : إذا كانت الصوفية تتحدث كثيرا عن العبودية والحب الإلهي فقد كان الإمام أبو حنيفة سبقهم في هذا المقام ، وفهم معنى العبودية التي انعكست في حياته ؛ بل حرص كل الحرص على أن تكون العبادة خالصة لله ﷻ ، ونقية من كل شائبة ، وهكذا فهم أئمة سلفنا الصالح الغاية العظمى من الخلق الذي قال الله فيه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [٤] فإذا عبدوا الله كانوا في غاية الحب والذل والإحسان لوصف الرسول ﷺ هذه المنزلة «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [٥] .

---

[١] المرجع نفسه ١٥/٢٣٩-٢٤٠ .

[٢] أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي ، الملقب بشاه ولي الله ، فقيه حنفي من المحدثين ، (ت ١١٧٦هـ) . الأعلام ١/١٤٩ .

[٣] الفوز الكبير ص٢٦ نقلا عن عقيدة الإمام أبي حنيفة ٤١- ٤٢ .

[٤] سورة الذاريات ، الآية (٥٦) .

[٥] أخرجه مسلم ، في كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والاحسان .. ١/٣٦ (ح ١) .

وأدركـــوا أن الطريق الوحيد الذي يتوصل به العبد إلى تحقيق العبودية لله ﷻ ومحبته هـــو الطريق الذي شرعه الله ورسوله ﷺ ، حيث أمر الله ﷻ رسوله أن يبين المنهج الصحيح نحـــو الوصول إلى محبة الله ﷻ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾ [١] ، وقد جعل الله في هذه الآية الشرط الأساسي لحب الله لعباده المؤمنين متابعة الرسول ﷺ واجتناب مـــا نهـــى عنه ، وبهذا تتحقق العبودية لله وحده ، ويرتقي فيها العبد إلى درجات تجعله في مصاف أوليائه ﷻ كما جاء في الحديث القدسي ((.. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ممـــا افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) [٢]

٣- العلم

إن فضـــل العلم وشرفه لا يخفى على أحد ، لأنه وسيلة إلى التقوى ، التي يستحق بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية في الدار الآخرة .

ونظـــرا لمـــا للعلم من مترلة رفيعة وأهمية عظيمة فقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على مكانة أهل العلم ومترلتهم ، منها : قولـــه ﷻ : ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٣] . وقوله تعالى : ﴿ .. يَـرْفَعِ اللَّهُ الَّذِيـنَ آمَـنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [٤] . وقولـــه ﷻ : ﴿ فَاسْـأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [٥] . كذلك وردت الأحاديث الكثيرة تدل عـــلى قيمـــته ، منها : قول رسول الله ﷺ : ((من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)) [٦] . وقولـــه ﷺ : ((ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة)) [٧] .

وقد دعا الإمام أبو حنيفة إلى طلب العلم وعدم تركه والابتعاد عنه لأي سبب ، حتى لـــو كـــان السبب في بعد الإنسان عن طلب العلم هو البحث عن الرزق ، لما وجد فيه من

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

(٢) سبق تخريجه في ص ١٥٥ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٨) .

(٤) سورة المجادلة ، الآية (١١) .

(٥) سورة النحل ، الآية (٤٣) .

(٦) أخرجه البخاري مع الفتح في العلم ، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ١٦٤/٢ (٧١) .

(٧) أخرجه مسلم في الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٢٠٧٤/٤ (ح٢٦٩٩) .

فـائدة ومـتعة يقول : " إن بقيتَ عشرة سنين بغير كسب ولا قوت فلا تعرض عن العلم فإنك إن أعرضت عنه كانت معيشتك ضنكا "[١] .

وروى الموفـق المكي بسنده إلى شقيق بن إبراهيم قال : قال أبو حنيفة لإبراهيم بن أدهـم إنك رزقت من العبادة شيئا صالحا فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وبه قوام الأمور "[٢] .

وروى الموفـق المكي أيضا بسنده إلى الحسن بن صالح[٣] عن أبي حنيفة — رحمه الله — قـال مجيـبا لسائله : اعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمـل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفـازة مـع الهدايـة بها أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير ، وكذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٤] "[٥] .

ولهـذا اعتـبر الإمام أبو حنيفة الفقهاء والعلماء أولياء الله وأحباءه فقد روى الموفق المكـي بسـنده إلى أبي نعيم بن دكين[٦] بأنه سمع أبا حنيفة يقول : " إن لم يكن أولياء الله تعالى في الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء فليس لله ولي "[٧] .

وبـين أبو حنيفة أن الإنسان لا بد أن يمنعه العلم عن ارتكاب المحارم والمعاصي حتى يصـير من المفلحين ، وقد سمع زفر بن الهذيل[٨] أبا حنيفة يقول : " من لم يمنعه العلم عن محارم الله و لم يحجزه عن معاصي الله تعالى فهو من الخاسرين "[٩] .

---

(١) الطبقات السنية ص ١٦٢ .

(٢) مناقب أبي حنيفة ١/٣٥٠ .

(٣) الحسن بن صالح بن صالح بن حي ، الإمام الكبير ، أحـد الأعلام ، أبو عبـد الله الهمداني الثوري الكوفي ، الفقيه العابد (ت ١٦٨هـ) . سير أعلام النبلاء ٧/٣٦١ .

(٤) سورة الزمر ، الآية (٩) .

(٥) مناقب أبي حنيفة ١/٨٦ .

(٦) الفضل بن دكين ، الكوفي ، واسم دكين عمرو بن حماد بن زهير التيمي مولاهم ، الأحول ، أبو نعيم الملائي ، ثقة ثبت (ت ٢١٨هـ) . التقريب ٢/١١٦ ، وسير أعلام ١٠/١٣٢ .

(٧) المصدر نفسه ١/٣٤٠ .

(٨) زفر بن الهذيل بن قيس العنبري البصري ، أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة ، وعين من أعيان الأئمة والأعلام ، (ت ١٥٨هـ) . الطبقات السنية ٣/٢٥٤- ٢٥٥ .

(٩) مناقب أبي حنيفة ١/٣٤٠ .

وذكـــر الإمـــام أبو حنيفة أن العلماء لا بد أن يبينوا العلم للناس ولا يكتمونه ، وأن العـــلم ليـــس لـــه خواص وعوام كما يعتقده بعض المتصوفة ، فقد ذكر ذلك الموفق المكي بســـنده إلى مكـــرم بن أحمد أنبأ أحمد أنبأ مليح أنبأ أبي عن أبي حنيفة أن رجلا أتاه بكتاب شـــفاعة ليحدثه فقال ما هكذا يطلب العلم قد اتخذ الله الميثاق على العلماء لتبيننه للناس ولا تكتمونه ، ولا يكون العلم لـــه خواص وعوام ، ولكن يعلم الناس ويريد الله بتعليمه "[١] . لأن الله ﷻ أوجـــب عـــلى العلماء أن يبلغوا العلم وينشروه بين الناس ، لأن كتمانه من أعظم الظلم للناس لهذا قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾ [٢] .

كما بين الإمام أبو حنيفة أن ما يقوله مثل ما قاله الرسل عليهم الصلاة والسلام بأنهم لا يعلمون الغيب ، لأن الله وحده ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِـــن رَّسُولٍ ﴾ [٣] فبيان ذلك ما رواه الموفق المكي بسنده إلى حماد بن أبي حنيفة .. حينما ســـأله جماعة من الخوارج في أمر جنازتين أحدهما : رجل شرب الخمر حتى كظته وحشرج بهـــا فمات غرقا في الخمر، والأخرى : امرأة زنت حتى إذا أيقنت بالحبل قتلت نفسها فقال لهم أبو حنيفة من أي الملل كانا أمن اليهود ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن النصارى ؟ قالوا : لا ، قال : أفمن المجوس ؟ قالوا : لا ، قال : من أي الملل كانا ؟ قالوا : من الملة التي تشهد أن لا إلـــه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .. قال : فما سؤالكم إياي عن قوم زعمتم وأقررتم أنهمـــا كانا مؤمنين ، قالوا : دعنا عنك أمن أهل الجنة هما أم من أهل النار ؟ قال : أما إذا أبيـــتم فإني أقول فيهما ما قال نبي الله إبراهيم عليه السلام في قوم كانوا أعظم جرما منهم ، ﴿ فَمَن تَبِعَـــنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٤] وأقول فيهما ما قال نبي الله عيسى عليه السلام في قـــوم كانوا أعظم جرما منهما ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ

---

[١] المصدر السابق ١/١٩٠-١٩١ .

[٢] سورة البقرة ، الآية (١٥٩) .

[٣] سورة الجن ، الآيتان (٢٦-٢٧) .

[٤] سورة إبراهيم ، الآية (٣٦) .

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١] وأقول فيهما ما قال نبي الله نوح ﷺ وعليهم أجمعين وعلى نبينا محمد ﷺ ﴿ قُلْ لاَ أَقُولَ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ .. ﴾ [٢] " [٣] .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا أن الإمام أبا حنيفة له موقف في الدفاع والذب عن عقيدة السلف الصالح ، وأن العلم يأتي عن طريق التعلم كما قال النبي ﷺ : ((إنما العلم بالتعلم)) [٤] ولا يأتي عن طريق الخرافات والمنامات والعبادات المبتدعة ، ويكون الاعتماد على الكتاب والسنة ، لا كاعتماد بعض المتصوفة على الإلهام والكشف بحجة أنه يكشف لهم عن أمور مغيبة عما سواهم ، فهي ظاهرة لديهم خافية على غيرهم .

كما أن عبارات الإمام أبي حنيفة ترد على الذين يتزهدون في العلم ، ويستغنون عنه كقول من قال : " نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت ، وأنتم تأخذونه من حي يموت ، وقول من قال : " العلم حجاب بين القلب وبين الله ﷻ " ، وترد على من قال : " إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ " أخبرنا " و " حدثنا " فاغسل يدك منه " [٥] .

ولهذا قال ابن القيم – رحمه الله – : " ومن أحالك على غير " أخبرنا " و " حدثنا " فقد أحالك : إما على خيال صوفي ، أو قياس فلسفي ، أو رأي نفسي ، فليس بعد القرآن و " أخبرنا " و " حدثنا " إلا شبهات المتكلمين ، وآراء المنحرفين ، وخيالات المتصوفين .. ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة ، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم " [٦] .

---

[١] سورة المائدة ، الآية (١١٨) .

[٢] سورة هود ، الآية (٣١) .

[٣] المصدر السابق ١/١٠٨– ١٠٩ .

[٤] سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٤٢ .

[٥] انظر : مدارج السالكين ٢/٤٣٨ .

[٦] المرجع نفسه ٢/٤٣٩ .

٤ – الزهـــد

روى أبـــو عبد الله الصيمري بسنده إلى عبد الله بن المبارك يقول : وذكر أبوحنيفة فقـــال : مـــا تقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الدنيا والأموال العظيمة فنبذها وراء ظهـــره فضرب بالسياط ، وقيل لـــه : خذ الدنيا ، فصبر على السراء والضراء ، ولم يدخل فـــيما كـــان غيره يطلبه ويتمناه ، والله لقد كان على خلاف من أدركناه يطلبون الدنيا ، والدنيا تهرب منهم ، وتأتيه الدنيا فيهرب منها .

وروى أيضـــا بسنده إلى أبي يوسف [١] قوله : سئل أبو حنيفة بعد صلاة الصبح عن مسائل فأجاب فيها ، فقيل لـــه : أليس كانوا يكرهون الكلام في مثل هذا الوقت إلا بخير ! فقال أبو حنيفة : وأي خير أكبر من أن تقول هذا حلال وهذا حرام ! تتره الله وتحذر الخلق من معاصيه ! .

وروى أيضـــا بسنده إلى عبد الرزاق [٢] كان يقول : كنت إذا رأيت أبا حنيفة رأيت آثار البكاء في عينيه وخديه [٣] .

وروى الموفـــق المكي بسنده إلى خارجة بن مصعب [٤] قال : أجاز المنصور أبا حنيفة بعشرة آلاف درهم فدعي ليقبضها فشاورني وقال : هذا رجل إن رددتها عليه غضب ، وإن قبلتها دخل علي في ديني ما أكرهه فقلت : إن هذا المال عظيم في عينيه فإذا دعيت لقبضها فقل لم يكن هذا أملي من أمير المؤمنين ، فدعي ليقبضها فقال ذلك ، فرفع إليه خبره فحبس الجائزة ، قال : وكان أبو حنيفة لا يكاد يشاور في أمره غيري [٥] .

وروى أيضـــا بسنده إلى يحي بن نصر قال : كان أبو حنيفة – رحمه الله – من أزهد الناس في درهم يأخذه من السلطان لقد أمر له أمير المؤمنين بجائزة مائتي دينار فما قبلها [٦] .

---

(١) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي ، أبو يوسف ، صاحـــب الإمام أبي حـــنيفة ، وتلميذه وأول من نشر مذهبه ، كان فقيها علامة ، من حفاظ الحديث . الأعلام ١٩٣/٨ .

(٢) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم ، أبو بكر الصنعاني من حفاظ الحديث الثقات (ت ٢١١ هـــ) . الأعلام ٣٥٣/٣ .

(٣) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص٣٥ .

(٤) خارجة بن مصعب ، الإمام العالم المحدث ، شيخ خراسان (ت١٦٨هـــ) . سير أعلام ٣٢٦/٧ .

(٥) مناقب أبي حنيفة ١٨٧/١– ١٨٨ .

(٦) المصدر نفسه ١٨٩/١ .

وروى الصيمري إلى زيد بن أبي الزرقاء [١] يقول : قال رجل لأبي حنيفة : تعرض عليك الدنيا ولك عيال ! فقال : الله للعيال ! وإنما قوتي في الشهر درهمان ، فما جمعي لمن يسألني الله عن الجمع له إن أطاعوا الله أو عصوه ، فإن رزق الله غاد ورائح على العاصين والمطيعين ، ثم يقول : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [٢] " [٣] .

نفهم من النصوص السابقة أن الإمام أبا حنيفة عَلَمٌ من الأعلام الزهاد ، ولكن زهده وإعراضه عن الدنيا ومباهجها ليس معناه أنه يقعد عن الكسب والعمل ، أو يهجر المال والعيال ..لأن الإمام أبا حنيفة بجانب كونه زاهدا كان كريما واسع الكرم ، حسن المواساة لإخوانه ، فهو ينفق ويعاون ويهدي ، ويتفضل بالمعروف على كل من يتصل به قدر طاقته ووسعه ، ولعل غناه قد عاونه على ذلك الكرم كل المعاونة ، فهو إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها ، وإذا لبس ثوبا جديدا كسا بقدر ثمنه ، وكان يتصدق بأكثر من نصف طعامه [٤] . وكل ذلك فضل من الله عليه ، لأنه كان يعمل ويسعى في طلب الرزق الحلال في هذه الحياة ، حيث كان خزازا – كما هو واضح من سيرته - ، ولديه محل ومعمل لحياكة الخز ، وعنده عمال وأجراء ...

وقد حدثنا الخطيب البغدادي أن أبا حنيفة كان يجمع أرباح التجارة عنده من سنة إلى سنة أخرى ، ثم يشتري بها حوائج الشيوخ والمحدثين وأقواتهم وكسوتهم وجميع حوائجهم ، ثم يدفع باقي الدنانير والأرباح إليهم ويقول : أنفقوا في حوائجكم ، ولا تحمدوا إلا الله ﷻ ، فإني ما أعطيكم من مالي شيئا ولكن من فضل الله عليَّ فيكم ، وهذه أرباح بضائعكم ، فإنه والله ما يجريه الله لكم على يدي فما في رزق الله حق لغيره [٥] .

وحينما رأى أبو حنيفة ملابس بالية على بعض جلسائه فأعطاه الدراهم ، وأمره أن يغير حاله ، كما ذكر ذلك الموفق المكي عن الحسن بن زياد قال : رأى أبو حنيفة على بعض جلسائه ثيابا رثة فأمره أن يجلس فجلس ، حتى تفرق الناس وبقي وحده ، فقال له : ارفع المصلى وخذ ما تحته ، فرفع الرجل المصلى وكان تحته ألف درهم ، فقال له : خذ هذه

---

(١) زيد بن أبي الزرقاء ، الإمام القدوة ، أبو محمد الموصلي (ت ١٩٧هـ) . سير أعلام ٣١٧/٩ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية (٢٢) .

(٣) أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص٣٧ .

(٤) مناقب أبي حنيفة ٢٣٧/١، ٢٤٠ .

(٥) تاريخ بغداد ١٣/ ٣٦٠ ، ومناقب أبي حنيفة ٢٤١/١ ، وأخبار أبي حنيفة ص٤٧ .

الدراهم فغير بها حالك ؟ فقال الرجل إني موسر وأنا في نعمة ولست أحتاج إليها فقال له : أما بلغك الحديث «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [١] ؟ فينبغي لك أن تغير حالك حتى لا يغتم بك صديقك " .

وصرح الإمام أبو حنيفة بأن التقوى ليست أن تترك الدنيا ، وإنما أن تملكها فإذا ملكتها وأنت عبد الله فأنت وما في يدك له ﷻ .

فيرى الإمام أنه ليس من التقوى أن تترك الدنيا أي بما فيها من متع وطيبات ، ولكن أن تملكها ، أي إن استطعت أن تملكها فلا بأس بذلك ، وذلك سوف يمكنك من القيام بالعبادات .

وهذا هو الصواب ، لأن العبد إذا كان متمكنا من الدنيا بأن ملك الأشياء والنقود فإنه يستطيع الوصول إلى الله ﷻ بطرق شتى ، كالصدقة والحج والجهاد في سبيل الله ، والتيسير على المعسرين ، والتبرع للمساكين والمحتاجين ، وهكذا يكون هو وماله لله تعالى .

ومن هنا نقول : إنه ليس من الزهد ترك الدنيا بل علينا أن نكد ونعمل ما في وسعنا حتى نقوى على مواجهة الدنيا بما فيها ، ولا نتركها لأعداء الله وأعداء الأمة الإسلامية ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٢] .

٥- الورع

روى المكي بسنده إلى حفص بن عبد الرحمن – شريك أبي حنيفة – وكان أبو حنيفة يجهز عليه ، فبعث إليه في رفقة بمتاع ، وأعلمه أن في ثوب كذا وكذا عيبا ، فإذا بعته فبين ، فباع حفص المتاع ونسي أن يبين ، ولم يعلم لمن باعه ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بالمتاع كله ، وكان ثمنه ثلاثين ألف درهم [٣] .

وروى بسنده إلى يزيد بن هارون [٤] قال : كتبت عن ألف حملت عنهم العلم ، فما رأيت والله أشد ورعا من أبي حنيفة ولا أحفظ للسانه .

---

(١) سبق تخريجه في ص ٧٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٣) مناقب أبي حنيفة ١٦٨/١ ، وتبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة ص ١١٨ .

(٤) يزيد بن هارون بن زاذي ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام ، أبو خالد السلمي مولاهم الواسطي ، الحافظ ، (ت ٢٠٦هـ) سير أعلام النبلاء ٣٥٨/٩ .

ولهـذا ، قـال حفص بن عبد الرحمن : جالست أنواع الناس من العلماء والفقهاء والـزهاد والنساك وأهل الورع ، فلم أر أحدا فيهم أجمع لهذه الخصال من أبي حنيفة . وقال أيضـا — وقد سبق أنه كان شريكه في التجارة — في طول ما صحبت أبا حنيفة وخالطه لم أره يعـلن بخلاف ما يسر ، ولم أر أحدا يتوقى مما لا خطر لـه مثل ما كان يتوقاه ، وكان إذا دخلت عليه شبهة من أي شيء أخرج من قلبه ذلك ولو بجميع ماله [١] .

وقـال الحسن بن صالح : كان أبو حنيفة — رحمه الله — شديد الورع ، هائبا للحرام تاركـا لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، ما رأيت قط أشد صيانة لنفسه وعلمه منه ، وكان جهازه كله إلى قبره [٢].

وقـال عبد الله بن المبارك إذا سمعت الرجل ينال من أبي حنيفة لم أحب أن أراه ، ولا أجالسـه مخافة أن يترل به من آيات الله تعالى فيعجل بي معه ، اللهم تعلم أني ما أرضى ما يذكر به ، وما يذكره أحد إلا وهو خير منه ، كان والله ورعا حافظا للسانه ، طيب المطعم مع علم والله كثير واسع [٣] .

وقـال ابن عيينة : قال ابن جريج بلغني عن النعمان فقيه أهل الكوفة أنه كان شديد الورع ، صائنا لدينه ولعلمه ، ولا يؤثر أهل الدنيا على أهل الآخرة [٤] .

وبهـذا الخلق الرفيع جعل المعاصرين لأبي حنيفة من الأكابر يمدحون — كما تقدم — فيه ، ويثنون عليه ، ذلك أن الورع مقام شريف يرتقي إليه من كان متصفا بالتقوى وخشية الله ﷻ ، وقد كان الإمام أبو حنيفة — فعلا — أسبق من الصوفية في هذا المقام .

وهذا ليس بغريب على الزهاد الأوائل ، فأبو بكر الصديق ﷺ من الأعلام المشتهرين بـالورع الشديد ، فهو الذي لم يكن ليأكل من طعام قبل أن يسأل عنه ويتحرى مصدره ، فإن وجد فيه شبهة امتنع عن تناوله ، كما حدث مع خادمه الذي قدم له طعاما أخذه بدل رقـي مارسه لقوم في جاهليته ، وأكل منه أبو بكر لقمة ، ولما عرف تقيأها ، وأقسم أنها لو لم تخرج إلا مع نفسه لأخرجها .

---

(١) مناقب أبي حنيفة ١٧٦/١ .
(٢) المصدر نفسه ١٨١/١ .
(٣) المصدر نفسه ١٨٠/١ .
(٤) المصدر نفسه ١٨٢/١ .

ومـــا حصـــل لأبي حنيفة أنه تصدق بمال حلال خالطه حرام دون علمه – وإن بلغ ذلـــك آلافا من الدرهم – وأنه إذا دخلت عليه شبهة من أي شيء أخرج ذلك من قلبه ولو بجميـــع مالـــه فهو سيرة من سير السلف الصالح ، وثمرة الامتثال لله ﷻ حيث يقول الله في كـــتابه العزيز : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [1] واتـــباع سنة رسول الله ﷺ حينما حث على الناس فقال : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.. » [2] .

٦- الخوف والرجاء

قـــال أسد بن عمرو [3] : كان بكاء أبو حنيفة يسمع بالليل حتى يرحمه جيرانه [4] ، وقال وكيع : كان والله عظيم الأمانة ، وكان الله تعالى في قلبه جليلا كبيرا .. [5] وقال يحي بـــن القطان : كنت إذا نظرت إليه عرفت أنه يتقي الله ﷻ [6] ، وقام ليلة بهذه الآية يرددها ويـــبكي ويتضرع ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [7] وبلغ في ليلة ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [8] فرددها حتى أصبح [9] .

وقـــال يـــزيد بن الليث – وكان من الأخيار – : قرأ الإمام ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ وأبو حنيفة خلفه ، فلما فرغ نظرت إليه فإذا هو جالس يتفكر ويتنفس ، فقمت لئلا ينشغل قلـــبه ، وتـــركت القنديل وزيته قليل ، ثم جئت وقد طلع الفجر وهو قائم ، قد أخذ بلحية نفسه وهو يقول : يا من يجزي بمثقال ذرة خيرا ، ويا من يجزي بمثقال ذرة شرا أجر النعمان عندك من النار وما يقرب منها ، وأدخله في سعة رحمتك ، قال : فأتيت فإذا القنديل يزهو وهـــو قائم ، فلما دخلت قال لي : تريد أن تأخذ القنديل ؟ قلت : قد أذنت لصلاة الغداة ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ، ٧٠٣/٢ (ح ١٠١٥) .

(٣) هو أسد بن عمرو بن عامر القرشي البجلي ، أبو المنذر ، قاض من أهـــل الكوفة ، من أصحاب أبي حنيفة ، وهو أول من كتب كُتب أبي حنيفة (ت ١٨٨هـ) . الأعلام ٢٩٨/١ .

(٤) تاريخ بغداد ٣٥٤/١٣ .

(٥) المصدر نفسه ٣٥٨/١٣ .

(٦) عقود الجمان ص٢٢٤ .

(٧) سورة القمر ، الآية (٤٦) .

(٨) سورة التكاثر ، الآية (١) .

(٩) عقود الجمان ص٢٣٠ .

قال : أكتم ما رأيت ، وركع ركعتي الفجر ، وجلس حتى أقيمت الصلاة ، وصلى معنا الغداة على وضوء أول الليل "[١] .

وفي النصوص السابقة دليل واضح على أن أبا حنيفة له حال متقدم على أحوال الصوفية في الخوف والرجاء ، حيث كان – رحمه الله – يخاف الله ﷻ ويرجو لقاءه وسعة رحمته ، وهذا هو منهج سلف هذه الأمة ، وهذا ما فعله الرسول ﷺ حيث كان يدعو بدعاء جامع كدعائه ﷺ ((.. اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرا))[٢] .

وهكذا ينبغي أن يكون العبد دائما بين حالي الخوف والرجاء ؛ فالخوف يردعه عن المعصية ، والرجاء يدفعه إلى الجد والعمل مما يضبط سلوكه ويحصنه ، ويجعله فيمن رضي عنهم الله وأحبهم ، فالمؤمن يراعي قاعدة الالتزام بفعل المعروف والانتهاء عن المنكر خوفا من النار وطمعا بجنات النعيم .

فالمؤمنون العابدون الذاكرون هم من واظبوا على عبادة الله ﷻ ، وهذه الشعيرة التي جعلت جنوبهم لا تستقر في مضاجعها رغبة ورهبة ، ولقد وصفهم الله ﷻ في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[٣] .

٧- السماع

كان الإمام أبو حنيفة يكره الغناء ويجعل سماعه من الذنوب ، وكذلك مذهب سائر أهل الكوفة ، كإبراهيم النخعي ، والشعبي ، وحماد بن أبي سليمان ، وسفيان الثوري ، وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك[٤] .

---

(١) مناقب أبي حنيفة ١/٢١٥- ٢١٦ .

(٢) صحيح ابن ماجة في الدعاء ، باب الجوامع من الدعاء ٣/٢٥٧ (ح ٣١١٦) .

(٣) سورة السجدة ، الآيتان (١٥- ١٦) .

(٤) كشف القناع لأبي العباس القرطبي ص٥٠- ٥١ ، وتلبيس إبليس ص٢٨٢ .

كما لا يعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهية ذلك والمنع منه ، إلا ما روى عن عبيد الله بن الحسن العنبري [١] أنه كان لا يرى به بأسا [٢] .

وما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة وأهل الكوفة والبصرة من تحريم السماع الذي هو الغناء موافق لما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة .

فمن نصوص الكتاب ما يلي :

١- قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [٣] قال عبد الله بن مسعود ﷺ في تفسير هذه الآية : الغناء والذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات [٤] .

٢- وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ [٥] قال مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ الغناء والمزامير [٦] .

٣- وقوله ﷻ : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ [٧] قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية اسمدي لنا ، أي تغنى لنا [٨] . وقال مجاهد : هو الغناء ، يقول أهل اليمن سمد فلان إذا غنى [٩] . فذم المعرض عما يجب من استماع المشتغل عنه باستماع الغناء ، كما هو فعل كثير من الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا

---

(١) هو : عبيد الله بن الحسن العنبري البصري ، ولي قضاء البصرة ، ثقة فقيه ، ذكر ابن حجر أنه اتهم في مسائل ورجع عنها ، وقال أبو العباس القرطبي : مبتدع في اعتقاده غير مرضي في علمه (ت ١٩٨هـ) انظر : تهذيب التهذيب ٧/٨- ٩ ، وكشف القناع للقرطبي .

(٢) كشف القناع ص٥٥ ، وتلبيس إبليس ص٢٨٢ .

(٣) سورة لقمان ، الآية (٦) .

(٤) رواه ابن جرير الطبري ٢١/٦١ ، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/٣٠٩ ، والحاكم في المستدرك وصححه ، ووافقه الذهبي ٢/٤١١ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية (٦٤) .

(٦) رواه ابن جرير الطبري ١١/١١٨ .

(٧) سورة النجم ، الآيات (٥٩- ٦١) .

(٨) رواه ابن جرير الطبري ٢٨/١٨ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/٢٢٣ .

(٩) تلبيس إبليس ص٢٨٥ .

الشهوات ، وحال كثير من المتنسكة في اعتيادهم بسماع المكاء والتصدية عن سماع قول الله تعالى [(١)] .

أما النصوص من السنة فكثيرة منها :

١- عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري سمع النبي ﷺ يقول : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَمٍ يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم – يعني الفقير – لحاجة ، فيقولوا : ارجع إلينا غدا فيبيتهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » [(٢)] .

٢- عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، فقال رجل من المسلمين يا رسول الله ومتى ذلك ؟ قال : إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور » [(٣)] .

٣ – عن نافع مولى ابن عمر أن عمر سمع صوت زمارة راع فوضع أصبعيه في أذنه ، وعدل راحلته عن الطريق ،وهو يقول : يا نافع أتسمع ؟ فأقول : نعم ، فيمضي حتى قلت : لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله ﷺ وسمع صوت زمارة راع فوضع مثل هذا " [(٤)] .

لقد كان الإمام أبو حنيفة – إذن – كغيره من علماء السلف له موقف في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، حيث جعل الاستماع إلى الغناء الصوفي من الذنوب والمعاصي ، وهو مذهب أهل الكوفة أيضا ، فموقف الإمام أبي حنيفة في هذا الموضوع بمثابة الرد على الصوفية الذين اعتقدوا حل هذا الأمر ، لأنه يحي القلوب على حسب زعمهم .

والحق أن نقول : إنه ينبت النفاق والمعصية في القلب ويميته ، ويدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصد عن حقيقة ذكر الله ﷻ ، ولهذا ذم السلف هذا النوع من السماع وآلاته ،

---

(١) الاستقامة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٩/١ .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح في الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ، ١١/ ٣٥ (ح ٥٥٩٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ، باب ما جاء في أشراط الساعة ٤٩٣/٤- ٤٩٤ ، وأورده الألباني في صحيح الترمذي ٢٤٢/٢ (١٨٠١) .

(٤) رواه أحمد ٢٤٥/٦- ٢٤٦ (ح ٤٥٢٥) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح . وأبو داود ٢٨٠/٤-٢٨٢ والبيهقي في السنن ٢٢٢/١٠ .

قـــال شـــيخ الإسلام ابن تيمية : " فمذهب الأئمة الأربعة أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثـــبت في صـــحيح البخاري وغيره ، أن النبي ﷺ أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير " [١] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٥٧٦ .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام أبي حنيفة في التصوف

١- حضور الخضر إلى الإمام أبي حنيفة

" ذكر الشعراني في كتابه : معارج الألباب عن بعض شيوخه أنه ذكر له أن الخضر عليه السلام كان يحضر مجلس فقه أبي حنيفة في كل يوم بعد صلاة الصبح يتعلم منه الشريعة ، فلما مات (أي أبو حنيفة) سأل الخضر ربه أن يرد روح أبي حنيفة إلى قبره ، حيث يتم له علم الشريعة ، وأن الخضر كان يأتي إليه كل يوم على عادته يسمع منه الشريعة داخل القبر ، وأقام على ذلك خمس عشرة سنة حتى أكمل علم الشريعة " [(١)] .

التعليق على النص بالأمور الآتية :

أولا : إذا نظرنا في الرواية فإنها خالية من الاسناد الصحيح ، وقد جاءت عن طريق الصوفي عن شيوخه الصوفية ، فهي رواية مبتدعة لتهويل الأمر الصوفي ، وربما تأثرت بكتابات الحكيم الترمذي الصوفي ، - في أواخر القرن الثالث الهجري — حيث كان له دور في تأليف العلوم الصوفية المنسوبة إلى الخضر عليه السلام ، فقد ذكر في كتابه " ختم الولاية " أن الخضر عليه السلام كان منذ بدء الخلق قد عاين شأن الصوفية وأوليائهم ، فأحب من ذلك الحين أن يدركهم ، فأعطي الحياة حتى يبلغهم ، ويعيش معهم فيحشر في زمرتهم ، ويكون ذلك تبعا لمحمد ﷺ ، وذكر أن الخضر رجل من قرن إبراهيم عليه السلام وذي القرنين ، وكان في مقدمة جنده ، حيث طلب ذوالقرنين عين الحياة ففاتته وأصابها الخضر " [(٢)] .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الخضر رمز التصوف ومرجع القصص الصوفية ، وصارت دعاوى لقيا الخضر مشهورة عندهم ، ويقول محمد أحمد لوج : " فما من صوفي يريد تشريع ذكر من الأذكار ، أو صلاة من الصلوات إلا ويدعي أنه لقي الخضر ، وأنه هو الذي أعطاه إياه ، وما من أحد منهم يرتكب جريمة خلقية أو جنائية ، أو يهمل فريضة من فرائض الله إلا ويواجه منتقديه بأن صاحب الظاهر ليس من حقه أن ينتقد صاحب المقام

---

(١) معارج الألباب ص٤٤ نقلا عن الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص١٣٧- ١٣٨ .

(٢) ختم الأولياء لأبي عبد الله الترمذي ، تحقيق عثمان إسماعيل يحي ، ص١٢٥ .

الخضـــري ، فمتى ما اشتهر شخص منهم بمخالفة الأوامر والنواهي الشرعية قالوا عنه : كان خضري المقام ، أو كان يسير على سنن الخضر " [١] .

ثانيـــا : وأما من حيث الموضوع فهو بعيد كل البعد عن العقيدة الإسلامية الصافية ، والمنطق العقلي ، فهو مخالف للنقل والعقل .

ثالـــثا : في النص سوء أدب مع الرسول ﷺ وأصحابه الكرام – رضوان الله عليهم – الذيـــن هم أعلم الناس بالشريعة ، ونتساءل لماذا لم يتعلم الخضر الشريعة على يد محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، إذا كانوا يزعمون أنه كان حيا ذلك الوقت ؟ ولماذا لم يحضر الـــدروس على أيدي الخلفاء الراشدين وهم أعلم الناس بالشريعة بعد رسول الله ﷺ ، ولقد قـــال أبو حنيفة نفسه دعوا قولي لقول أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أعلم بالتنزيل ، فـــإذا كان أبو حنيفة يأمرنا أن نترك قوله لقول رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام فكيف يترك الخضـــر المـــزعوم تعلم الشريعة عن الرسول ﷺ وأصحابه ، وينتظر حيا حتى يأتي أبو حنيفة ليتعلم منه الشريعة .. [٢]

فالحكاية – إذن – مكذوبة على الإمام أبي حنيفة ، لأنها تذل مكانته من خاتم الأنبياء والرســـل وأصـــحابه ، بـــل تحقر من قدره كإمام من الأئمة المشهود لهم بالخير والصلاح والتقوى ، كما أن الحكاية مكذوبة أيضا على الخضر عليه السلام إذ كيف يليق به هذا التلقي عند القبر وهو نبي من أنبياء الله عليهم السلام على أرجح الأقوال .

رابعـــا : في الـــنص دليل على أن الخضر عليه السلام ما زال حيا و لم يمت ، وهو مخالف لما ذهب إليه جمهور أهل العلم من أن الخضر عليه السلام قد مات [٣] .

مـــن هؤلاء العلماء : البخاري وإبراهيم الحربي الذي سئل عن بقائه فقال : " من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان " [٤] ، وكذلك ابن الجوزي [٥] حيث حكم على الأحاديث الواردة في حياته بالبطلان ، وقد ألف كتابا مستقلا

---

(١) تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة ، لمحمد أحمد لوح ، ط ١ الرياض (دار الهجرة ١٤١٦هـ) ١/٣٨٦ .

(٢) انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص١٣٨ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١١/٤١ .

(٤) انظر : المرجع نفسه .

(٥) انظر : الموضوعات ١/٩٩ . وتفسير روح المعاني ١٥/٣٢٠

في الموضـــوع أورد فيه أدلة دامغة على موت الخضر ، والقاضي أبو بكر بن العربي [١] وأبو حيـــان الأندلسي [٢] ، وشيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : " والصواب الذي عليه محققو العلماء أن إلياس والخضر ماتا " [٣] .

وأدلة القائلين بموت الخضر عليه السلام كثيرة منها :

١- قوله تعالى :﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ [٤] نقـــل ابن كثير عن ابن الجوزي قوله : " فالخضر إن كان بشرا فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح " ثم قال ابن كثير : " والأصل عدمه حتى يثبت ، ولم يذكر ما فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله " [٥] .

٢- قولـــــه ﷺ في آخـــر حياته : ((أرأيتكم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد)) [٦] .

ولما سئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما حيان ؟ قال : " كيف يكون هذا وقد قال النبي ﷺ : أرأيتكم .. فذكره " [٧] .

٣- قوله ﷺ يوم بدر : ((اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض)) [٨] .

قـــال ابـــن القـــيم : " سئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال : لو كان الخضر حيا لوجـــب عـــليه أن يأتي النبي ﷺ ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر : ((الـــلهم إن تهـــلك هذه العصابة ..فذكر الحديث)) ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ ؟ " [٩] .

---

(١) انظر : الجامع الأحكام ١١/٤١ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٦/١٤٧ .

(٣) منهاج السنة النبوية ١/٩٧ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٣٤) .

(٥) البداية والنهاية ١/٣٣٤ .

(٦) أخرجه البخاري في العلم ، باب السمر في العلم ١/٥٨ (ح١١٦) ومسلم في فضائل الصحابة باب (٥٣) ٤/١٩٦٥ (ح٢٥٣٧) .

(٧) المنار المنيف ص٦٧ .

(٨) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/١٣٨٣ .

(٩) المنار المنيف ص ٦٨ .

ولا شك أن عدم مجيئه إلى النبي ﷺ لمبايعته والصلاة معه ، والانضمام إلى صفه في الجهاد في سبيل الله لمن الأدلة القوية الدالة على موته ، وعلى هذا يكون الخضر صاحب موسى قد مات ، لأنه لو كان حيا للزمه اتباع النبي ﷺ والإيمان به .

وقال ابن حجر : " وذكر ابن الجوزي في جزئه الذي جمعه في ذلك عن أبي يعلى بن الفراء الحنبلي قال : سئل بعض أصحابنا عن الخضر ، هل مات ؟ فقال : نعم ، وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن العبادي ، وكان يحتج بأنه لو كان حيا لجأ إلى النبي ﷺ ..

ثم استدل بما أخرجه أحمد من طريق مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني » [1] .

قال : فإذا كان هذا هو حق موسى ، فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيا ، فيصلي معه الجمعة والجماعة ، ويجاهد تحت رايته ، كما ثبت أن عيسى يصلى خلف إمام هذه الأمة ..؟ " [2] .

وبذلك نصل إلى أن ما ذكر من التقاء الخضر عليه السلام وتعلمه من الإمام أبو حنيفة مخالف للعقل والنقل ، وما ذلك إلا حكاية صوفية يريدون منها تهويل الفكر الصوفي ، ولفت أنظار الناس أن الإمام أبا حنيفة – باعتباره من الأئمة الأربعة – كان واحدا من أقطاب الصوفية وهو منهم بريء ، وهو أيضا بريء من هذه الحكاية المفترى عليه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٥٠/٥ .

(٢) الزهر النضر في نبأ الخضر ، لابن حجر العسقلاني ، تعليق سمير حسين حلبي ، ط ١ ، بيروت (دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ) ص ٥٠- ٥٢ .

٢- الرؤى المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

" قال أبو عبد الله محمد [١] بن الحسن الشافعي في كتابه " مجمع الأخبار " : رأيت في بعض الكتب أن الإمام أبا حنيفة قال : رأيت رب العزة في المنام تسعا وتسعين مرة [٢] ، فقلت في نفسي : إن رأيت تمام المائة لأسألنه بم ينجو الخلائق من عذابك يوم القيامة ؟ قال : فرأيته تبارك وتعالى فقلت : يا رب جل ثناؤك بم ينجو الخلائق من عذابك يوم القيامة ؟ فقال ﷻ : من قال بالغداة والعشي : " سبحان الله الأبدي الأبد ، سبحان الله الواحد الأحد ، سبحان الله الفرد الصمد ، سبحان الله رافع السماء بغير عمد ، سبحان من بسط الأرض على ماء جمد ، سبحان من قسم الرزق و لم ينس أحدا ، سبحان من خلق الخلق وأحصاهم عددا ، سبحان من لم يتخذ زوجة ولا ولدا ، سبحان الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد نجا من عذابي " [٣] .

التعليق على النص بالأمور الآتية :

أولا : هذا الكلام المنسوب إلى أبي حنيفة لا يصح لخلوه من السند ، إذ أخبر القائل من خلال ما رآه في بعض الكتب ، كما لا يصح أيضا من حيث الموضوع ، لأن الأدعية المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي رئيت في المنام لا يحتج بها في مجال العقيدة والشريعة ، وإن كانت تتحدث عن بعض أسماء الله وصفاته ، لأن منهج السلف الصالح في أسماء الله وصفاته هو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه العزيز ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وكلمة " الأبدي الأبد " لم يصف الله به نفسه ﷻ و لم يصفه به رسوله ﷺ ، وإن صحت الكلمة – معنى – فيبقى الكلام في النص ، لأنه وارد عن الرؤية وهي ليست من الوحي الصحيح .

ثانيا : في النص إشارة إلى أحد المصادر عند الصوفية ، وهي الرؤى والأحلام ، حيث يتلقون الشرع – حسب زعمهم – ممن يرونهم يقظة أو مناما ، وهذا مخالف لما اعتقده

---

(١) هو محمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني ، مفسر ، عالم بأصول الفقه ، من شيوخ الشافعية (ت ٧٧٦ هـ) قال ابن عماد : كتب الكثير بخطه نسخا وتصنيفا بخط حسن ، من كتبه " مجمع الأخبار في مناقب الأخيار " مخطوطة بدار الكتب ، انظر : الأعلام ٨٧/٦ .

(٢) حياة الإمام أبو حنيفة ، للسيد عفيفي ، القاهرة (المطبعة السلفية) ص٢٢٨ ، وانظر : شرح كتاب الفقه الأكبر ص٢١٦ .

(٣) المرجع نفسه ص٢٢٨ .

السلف الصالح من هذه الأمة ، لأن الرؤى والأحلام- عندهم- لا تعتبر دليلا شرعيا ، ولا يحتج بها في إثبات العقيدة ، أو في جواز فعل أو ترك ؛ ذلك أن الشرع قد حدد أدلة الأحكام في الكتاب والسنة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس الصحيح ، ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا شخص من الناس غير المعصومين ، حيث أمر الله ﷻ اتباع ما أنزل منه وما أنزله على رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [١] وقال تعالى أيضا : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [٢] .

ثم إن منابع الرؤيا متنوعة : منها ما هو روحاني ، ومنها ما هو نفساني ، ومنها ما هو شيطاني ، لقوله ﷺ : « الرؤيا ثلاث : فبشرى من الله ، وحديث النفس ، وتخويف من الشيطان » [٣] ، ولقوله ﷺ في حديث آخر : « الرؤيا ثلاث : منها أهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم ، ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » [٤] .

والتمييز بين هذه الأنواع الثلاثة لا يمكن إلا بميزان الشرع ؛ فالرؤيا الصادقة ، هي من دلائل الهداية ، وهي من الله ﷻ خاصة ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وهي حق لأن الوحي لا يدخله خلل ، لأنه محفوظ من الشيطان ، وهذا باتفاق الأمة [٥] .

وقال الإمام الشاطبي في هذا الموضوع : " وأضعف هؤلاء (أي المبتدعة) احتجاجا قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات ، وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلانا الرجل الصالح (أي في المنام) فقال لنا : اتركوا كذا واعملوا كذا وكذا ، ويتفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين برسم التصوف ، وربما قال بعضهم : رأيت النبي ﷺ في النوم ، فقال لي كذا وأمرني بكذا ، فيعمل بها ويترك بها معرضا عن الحدود الموضوعة في الشريعة وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعا على حال ، إلا أن تعرض على ما في أيدينا

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣) .

(٢) سورة الحشر ، الآية (٧) .

(٣) صحيح سنن ابن ماجة في الرؤيا ، باب الرؤيا ثلاث ٢٧٦/٣ (٣١٦٨) .

(٤) صحيح سنن ابن ماجة في الرؤيا أيضا ٢٧٦/٣ (٣١٦٩) .

(٥) انظر : موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ... للقرضاوي ص١٢٤- ١٢٥ .

مـــن الأحكام الشرعية ، فإن سوغها عمل بمقتضاها ، وإلا وجب تركها والإعراض عنها ، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة ، وأما استفادة الأحكام فلا .

كما يحكى عن الكناني – رحمه الله- قال : رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت : ادع الله ألا يميــت قلبي ، فقال : " قل كل يوم أربعين مرة : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت " . فهذا كــلام حسن لا إشكال في صحته ، وكون الذكر يحي القلب صحيح شرعا ، وفائدة الرؤيا التنــبيه عــلى الخــير ، وإنما يبقى الكلام في التحديد بالأربعين ، وإذا لم يوجد على اللزوم استقام " [1] .

فلو رأى في النوم قائلا يقول : إن فلانا سرق فاقطعه ، أو عالم فاسأله ، أو اعمل بما يقــول لك ، أو فلان زنى فحده وما أشبه ذلك.. لم يصح له العمل ، حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، وإلا كان عاملا بغير شريعة ، إذ ليس بعد رسول الله ﷺ وحي [2] .

وجمــلة القــول : إن الرؤى والأحلام لا يحتج بها في تقرير عقيدة ولا شريعة ، ولا تكفــي الــنجاة في الآخــرة من عذاب الله ﷻ بمجرد الأذكار – بصيغة واحدة – يقرأها الإنســان في الغداة والعشي ما لم يكن معه الإيمان والتقوى والعمل الصالح ، مع توفر شروط قبول الأعمال وهما : الإخلاص والموافقة لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ .

فالأذكــار المنســوبة إلى الإمــام أبي حنيفة هي نوع من الأذكار التي تدخل ضمن التشريعات الصوفية ، والتي بثها مشايخهم على أتباعهم ، فاستبدلوها بالأذكار النبوية الثابتة وانحرفوا عن الطريق الصحيح ، وعن العقيدة الصحيحة .

قــال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد : " ومن أشد الناس عيبا من يتخذ حزبا ليــس بمأثور عن النبي ﷺ وإن كان حزبا لبعض المشايخ ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم ، وإمام الخلق وحجة الله على عباده " [3] .

ثالــثا : في النص كلام عن رؤية الله ﷻ في المنام ، وهي قضية اتفق الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم على جوازها ووقوعها ، لورود الأدلة على ذلك حيث روى أهل العلم حديثا من طرق كثيرة أنه ﷺ رأى ربه في المنام ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) انظر : الاعتصام للشاطبي ٢٦٠/١ .

(٢) انظر : المرجع نفسه .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥٢٥/٢٢ .

أن النـبي ﷺ قال : ((رأيت ربي في أحسن صورة فقال : يا محمد ! قلت : لبيك وسعديك قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : يا رب لا أدري ، قال : فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما بين المشرق والمغرب ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك ربي وسعديك، قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال قلت يا رب في الكفارات : المشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء على المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، من حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير ، وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه)) [١] .

قال الدكتور أحمد بن ناصر الحمد معلقا : " في الحديث دليل على رؤية محمد ﷺ لربه مناما .. والذي نقل عن الإمام أحمد من إثبات رؤية النبي ﷺ لربه إنما يعني رؤية المنام فإنه سئل عن ذلك فقال : رآه فإن رؤيا الأنبياء حق ، وكان لفظ أحمد كلفظ ابن عباس رضي الله عنهما ، هذا في حق النبي ﷺ .

ويجوز لغيره من المؤمنين رؤيته في المنام ومخاطبته ، واستدل الدكتور أحمد بقول شيخ الإسلام ابن تيمية [٢] حيث قال رحمه الله : " وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة منتزعة على قدر إيمانه ويقينه ، فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة ، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه ، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة ، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق " [٣] .

وعقب شيخ الإسلام موضحا : " ..ولكن لا بد أن تكون الصورة التي رآه فيها مناسبة ومشابهة لا اعتقاده في ربه ، فإن كان إيمانه واعتقاده مطابقا أتى من الصور وسمع من الكلام ما يناسب ذلك ، وإلا كان بالعكس .

قال بعض المشايخ : إذا رأى العبد ربه في صورة كانت تلك الصورة حجابا بينه وبين الله ، وما زال الصالحون وغيرهم يرون ربهم في المنام ويخاطبهم ، وما أظن عاقلا ينكر ذلك ، فإن وجود هذا مما لا يمكن دفعه ، إذ الرؤيا تقع للإنسان بغير اختياره وهذه مسألة معروفة ، وقد ذكرها العلماء من أصحابنا وغيرهم في أصول الدين ،وحكوا عن طائفة من المعتزلة وغيرهم إنكار رؤية الله والنقل بذلك متواتر عمن رأى ربه في المنام ، ولكن لعلهم

---

(١) كتاب التوحيد ، لابن خزيمة ص٢١٧- ٢١٨ .

(٢) رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها ، د/ أحمد بن ناصر الحمد ، ط١ معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ١٤١١ هـ . ص١٧٦ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/٣٩٠ ، وانظر : شرح الفقه الأكبر ص١١٣ .

قـــالوا لا يجـــوز أن يعتقد أنه رأى ربه في المنام ، فيكونون قد جعلوا مثل هذا من أضغاث الأحـــلام ، ويكون من فرط سلبهم ونفيهم نفوا أن تكون رؤية الله في المنام رؤية صحيحة كســـائر مـــا يرى في المنام ، فهذا مما يقوله المتجهمة وهو باطل ومخالف لما اتفق عليه سلف الأمـــة وأئمتها . بل ولما اتفق عليه عقلاء بني آدم ، وليس في رؤية في المنام نقص ولا عيب يتعلق به ﷻ ، وإنما ذلك بحسب حال الرائي وصحة إيمانه وفساده واستقامة حاله وانحرافه ، وقول من يقول : ما خطر بالبال أو دار في الخيال فالله بخلافه ، ونحو ذلك إذا حمل على مثل هـــذا كان محملا صحيحا ، فلا نعتقد أن ما تخيل للإنسان في منامه أو يقظته من الصور أن الله في نفسه مثل ذلك " [١] .

ونصل بذلك إلى أن رؤية الله ﷻ في المنام ومخاطبته من عباده المؤمنين لا غبار عليها، فهـــي جائـــزة لهـــم ، ولكـــن الرؤيا المنامية والأذكار المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة ليست بصحيحة ، بل هي نوع من الأوراد والرؤى التي تدخل ضمن التشريعات الصوفية .

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لشيخ الإسلام ٧٣/١ — ٧٤ .

٣- الهواتف المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

ذكـــر ملا علي القاري بعض مناقب أبي حنيفة فقال : " وكان يقوم كل الليل وسمع هاتفـــا في الكعـــبة أن يا أبا حنيفة أخلصت خدمتي وأحسنت معرفتي فقد غفرت لك ولمن تبعك إلى قيام الساعة " . وفسر ذلك القاري قائلا : " وفي آخر خزانة المفتين أنه حكى أن أبـــا حنيفة لما حج حجة الوداع ودخل الكعبة وقام بين العمودين على رجله اليمنى حتى قرأ نصف القرآن ، وركع وسجد ثم قام على رجله اليسرى ، وقد وضع قدمه اليمنى على ظهر رجلـــه اليســـرى حتى قرأ القرآن ، فلما سلم بكى وناجى وقال : إلهي ما عبدك هذا العبد الضـــعيف حـــق عبادتك ، ولكن عرفك حق معرفتك فهبه نقصان عبادته لكمال معرفته ، فهـــتف هاتف من جانب البيت قد عرفت وأخلصت المعرفة ، وخدمت وأحسنت الخدمة ، فقد غفرناك ولمن تبعك وكان على مذهبك إلى قيام الساعة " [(١)] .

التعليق على النص بما يلي :

أولا : في النص رائحة من روائح المتصوفة الذين يعتبرون الهواتف وهي الأصوات التي يســـمعها الشـــخص ولا يرى قائلها ، وهي مما لبس على الصوفية به ، حيث جعلوها من المصادر في التلقي عند هؤلاء القوم ، وبنوا عليها بعضا من معتقداهم وأعمالهم .

ولا شـــك أن هـــذا مخـــالف لمـــا ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة ، حيث كان مصدرهم كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة ، وإجماع السلف الصالح .

ثانيا : إذا نظرنا في النص أيضا فإنه بعيد عن روح تعاليم ديننا الحنيف ؛ لأن الإسلام ديـــن يســـر ، فلا يكلف نفسا إلا وسعها ، ولم يأمر أن يعذب الإنسان نفسه ، كما أنه لم يحث على الشخص أن يصلي ويقف على رجل واحدة طول الليل ،لأن هذا العمل ما أنزل الله بـــه مـــن سلطان ، فهو من بدع الصوفية ، بل هو من تلاعب الشيطان هم ، فليس الله بحاجـــة أن يتقرب الشخص إليه ﷻ بهذه الطريقة الصعبة ، وليس بها سبب الوصول إلى محبة الله ومرضـــاة الله ﷻ قال تعالى ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [(٢)] ، وإنما يرضى الله عن المؤمنين إذا عبدوا الله ﷻ كما أمرهم الله ورسوله ﷺ .

---

(١) شرح عين العلم وزين الحلم ، لملا علي القاري ، بيروت (دار المعرفة) ١/ ٥٠ .

(٢) سورة الحج ، الآية (٧٨) .

ثالـــثا : إن صدور الأمر عن طريق الهواتف أو عن طريق الأحلام لا تعتبر حجة سواء في بـــاب المعـــارف والاعتقادات أم في باب الأعمال والتعبدات ، وإنما يكون مصدرا عن الفكـــر الصوفي ، والشواهد على ذلك كثيرة ، منها : كما مر بنا في النص ، ومنها ما قاله أبـــو يـــزيد البســـطامي عـــن نفسه فيقول : " خرجت أول مرة إلى الحج فغلبني الزحام ، وخرجت ثانية فغلبني البيت ، وثالثة ، وخرجت الرابعة فنوديت في بعض المتاهات : إلى أين يا أبا يزيد ؟ فقلت : إليه ، فناداني : خلفته ببسطام ! فنبهت عن غفلتي " [١] . وهذا الهاتف هتف بأبي يزيد ودله على الشرك ، عياذا بالله ﷻ .

وروى أيضـــا عنه حيث يقول : " قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي ، فهتف بي هاتف ؛ من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب " [٢] .

ولما سئل إبراهيم بن أدهم كيف بدؤك ؟ قال : " كان أبي من ملوك خراسان وكنت شـــابا ، فركبت إلى الصيد فخرجت يوما على دابة لي ومعي كلب ، فأثرت أرنبا أو ثعلبا ، فبينا أنا أطلبه إذ هتف بي هاتف لا أراه ، فقال : يا إبراهيم ألهذا خلقت أم أمرت ؟ ففزعت ووقفـــت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل بي مثل ذلك ثلاث مرات ، ثم هتف بي هاتف مـــن قربوس السرج والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت . قال : فترلت فصادفت راعيا لأبي يرعى الغنم فأخذت جبته الصوف .." [٣] .

ففي هذا النص تصريح من أبي إسحاق أنه سمع الهاتف و لم يره ، وهو الذي دله على الطريق فالتزم به ، وهذا ليس بغريب على الصوفية الذين جاءوا بعده !

وروى أحمد بن محمد بن أبي سعدان ، وهو من أصحاب الجنيد والنوري قوله : " من سمـــع بأذنـــه حكـــى ، ومن سمع بقلبه وعى ، ومن عمل بما يسمع هدى واهتدى " [٤] . والهواتف من سماع الأذن .

وعلى ذلك نفهم من كلامهم أنهم كلما أخطأوا هتف بهم هاتف ليردهم إلى الطريق الصـــحيح ، وهـــذا قـــريب من حالة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) حيث إن الوحي يوجههم إن ارتكبوا محظورا مع أنهم معصومون من الخطأ .

---

(١) شطحات الصوفية ص١٢٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٣٠ .

(٤) طبقات الصوفية ص ٤٢١ .

أمـــا الأوليـــاء فليسوا بمعصومين كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ؛ بل قد وقع أوليـــاء الصـــوفية في الشـــرك والمعاصي ، فالصوفية حين جعلوا الهواتف من مصادر تلقيهم الشرع – حسب زعمهم – رفعوا منازلهم إلى مترلة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وهذا مـــناقض للعقيدة الصحيحة ، وغير جائز في الشرع . فالأنبياء لم يتلقوا الهواتف وإنما يتلقون الوحي من عند الله العليم الخبير .

وبهذا نصل إلى أن الهواتف المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة ليست صحيحة لأنها مناقضة لمـــا ذهب إليه أهل السنة والجماعة ، كما أن العمل الشاق المنسوب إليه ليس بصحيح أيضا لمخالفـــته لتعالـــيم دينـــنا الحنيف ، لأننا لم نأثر من كلام الإمام أبي حنيفة ، ولا من كلام أصـــحابه الأخيار الذي يحث على ذلك ، وهل من الشرع ختم القرآن كل ليلة كما رويت عن الإمام أبي حنيفة ؟ .

٤ – العبادة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

قال الخطيب البغدادي :

١- " أخبرنا علي بن المحسن المعدل حدثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن يعقوب الكاغدي حدثنا أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن يعقوب بن الحارث الحارثي البخاري حدثنا أحمد بن الحسين البلخي حدثنا حماد بن قريش قال : سمعت أسد بن عمرو يقول : صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء صلاة العشاء أربعين سنة ، فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة ، وكان سمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه ، وحفظ عليه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة " [١] .

وقال الخطيب أيضا :

٢- " أخبرنا الحسين بن علي بن محمد المعدل حدثنا القاضي أبو نصر محمد بن سهل النيسابوري حدثنا أحمد بن هارون الفقيه حدثني محمد بن المنذر بن سعيد الهروي حدثنا محمد بن سهل بن منصور المروزي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال سمعت منصور بن هاشم يقول : كنا مع عبد الله بن المبارك بالقادسية إذ جاءه رجل من أهل الكوفة فوقع في أبي حنيفة فقال له عبد الله : ويحك أتقع في رجل صلى خمسا وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد ، وكان يجمع القرآن في ركعتين في ليلة " [٢] .

التعليق :

إذا نظرنا في الرواية الأولى من حيث الإسناد فيه مجاهيل ، لأن كتاب الجرح والتعديل لم يتكلم عنهم ، ولم أعثر على ترجمة حماد بن قريش ، وكذلك أحمد بن الحسين البلخي ، وعلي بن المحسن المعدل ، أما أبو عبد الله بن محمد بن يعقوب ابن الحارث الحارثي (ت ٣٤٠ هـ) فقد ضعفه أبو زرعة – أحمد بن الحسين الحافظ – كما ضعفه الذهبي ، واتهمه الخطيب البغدادي بالكذب ووضع الأسانيد ، والذي دعاهم لتضعيفه أنه كثير التدليس [٣] .

---

(١) تاريخ بغداد ٣٥٤/١٣ .

(٢) المصدر نفسه ٣٥٥/١٣ .

(٣) انظر : لسان الميزان ٣٤٨/٣ ، وميزان الاعتدال ٤٩٦/٢- ٤٩٧ ، وتاريخ بغداد ١٢٦/١٠ ، وشذرات الذهب ٣٥٨/٢ ، وسير أعلام ٤٢٥/١٥ .

أمـــا الرواية الثانية ففي إسنادها مجاهيل أيضا وضعاف ، لأن أحمد بن إبراهيم مجهول ليـــس في الرواة عن منصور بن هاشم ، ومنصور بن هاشم مجهول أيضا ليس في الرواة عن عبد الله بن المبارك ، وكذلك لم أعثر على ترجمة بعض الأسانيد في الرواية .

وبهذا يتضح لنا أن الرواية المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة لا تصح من حيث السند .

وأمـــا مـــن حيـــث المتن والموضوع — في الروايتين — ففيه مبالغة في الدين ، وهي مرفوضـــة في تعاليم ديننا الحنيف ، إذ كيف حمَّل أبو حنيفة نفسه بالمشقة خلال أربعين عاما في الصلاة والقيام دون أن ينام من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر .

وأستبعد أن يعمل أبو حنيفة مثل هذه العبادة ، وهو عَلَمٌ من أعلام السلف الصالح ، قـــريب من عهد النبوة والرسالة ، ولم نعثر على أثر من الرسول ﷺ ولا من أصحابه الكرام أنهم لم يناموا في الليل خلال أربعين سنة ؛ بل عثرنا ما يناقض ذلك حينما جاء ثلاثة نفر إلى رســـول الله ﷺ فأنكر عليهم رسول الله ﷺ مبالغتهم في القيام والصيام وترك النكاح ، بل قال لهم الرسول ﷺ أما إني أخشاكم لله ولكني أقوم من الليل وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء [1] .

وبذلـــك أقول : إن الرواية باطلة سندا ومتنا ، وخاصة في الحكاية الثانية فهي بعيدة عن الصحة ؛ بل هي مستحيلة إذ كيف يستطيع الإنسان أن يصلي خمسا وأربعين سنة خمس صـــلوات على وضوء واحد ؟ لا يحدث بنوم ولا بول ولا غائط ولا ريح ! وهذه الاستحالة في العقـــل والـــنقل لدليل آخر على صحة ما أثبتناه من أن الإمام أبا حنيفة بريء من طريق العبادة المنسوبة إليه ، وهي المبالغة والتشدد في الدين .

وهـــذه ليست من عمله — رحمه الله — وإنما هي عقيدة أو بدعة من بدع المتصوفة ، أو مبالغة من المبالغات التي تكثر في كتب المناقب .

---

(١) سبق تخريجه ، انظر : ص ٢٨ .

٥- الملامة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة

قـال الهجويري : " ومدون لدى العلماء أن في عهد أبي جعفر المنصور فكروا في أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم : الإمام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم : سفيان ، وثالثهم : مسعر بن كدام ، ورابعهم : شريك رحمة الله عليهم .

وكـان هـؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لإحضارهم جميعا ، وأثـناء سـيرهم في الطريق قال أبو حنيفة سأتفرس في كل منا فراسة في ذهابنا هذا قالوا : يستصـوب ، قال : أنا أدفع عن نفسي في هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفـر سفيان في الطريق ، ولجأ إلى سفينة وقال : خبئوني لأنهم يريدون قطع رأسي ، فأخفاه الملاح ، وحمل الثلاثة إلى المنصور ، فقال أولا لأبي حنيفة : ينبغي أن تتولى القضاء ! فقـال : يا أمير المؤمنين أنا رجل غير عربي ومن موالي العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمـي ، فقال أبو جعفر : هذا العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغي لـه العلم وأنت مقدم عـلماء الزمان ، فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفي هذا القول إذ قلت : لا أليق لا يخرج عن اثنين : إن قلت الصدق فقد قلت لنفسي لا أليق ، وإذا كذبت فالكاذب لا يليق للقضاء بـين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتي بكاذب وتجعله خليفتك ، وتكل إليه أموال المسلمين وفروجهم وأنت خليفة الله قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر بن كدام وأمسك بيد الخليفة وقال لـه : كيف حالك وأولادك ؟ وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فإنه مجنون .

وقـالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء فقال : أنا رجل سوداوي ورأسي خفيف ، فقـال له المنصور : عالج نفسك بالعصا ئد الموافقة والأنبذة المثلثة ليكتمل عقلك ، وعندئذ أسـند القضاء إلى شريك ، وقاطعه أبو حنيفة ﷺ ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حالـه لمعـنيين : أولهمـا : صدق فراسته في كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة وصحة الملامة وإقصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم " .

ثم قـال الهجويري : " وهذه الحكاية دليل قوي على صحة الملامة ، إذ أقصى هؤلاء الشيوخ الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة ، واليوم لا ينظر جملة العلماء إلى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنوا إلى أهوائهم ، ونفروا من طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء قبلتهم

وصيروا دور الظلمة بيتهم المعمور ، وجعلوا بساط الجبابرة موازيا لمنزلة قاب قوسين أو أدنى وينكرون كل ما يخالف هذه المعاني "[١] .

التعليق على النص بما يلي :

نفهـم من خلال النص السابق أن الهجويري نسب إلى الإمام أبي حنيفة قضية الملامة والفراسة ، وهما من موضوعات التصوف .

لا شـك أن هذه الحكاية أوردها الهجويري تدعيما لمعتقدات الصوفية ، وإيهام الناس بـأن الإمـام أبا حنيفة كان واحدا منهم ، وهذا مالا أقبله إن أراد الهجويري ذلك ، لأن الملامـة قضـية ظهرت في القرن الثالث الهجري بعد قرن واحد من وفاة الإمام أبي حنيفة ، كمـا أستبعد أن تنسب الملا متية إلى أبي حنيفة بعد أن تبلور بعض مفاهيمها لدى الصوفية بأنه النفاق ، وهذا مالا ينبغي أن يلصق بإمام من الأئمة الأخيار .

وأمـا إذا كـان يريد من هؤلاء الأئمة بأنهم يفعلون ما يحبه الله ﷻ ورسوله ﷺ ولا يخـافون في الله لومة لائم فإن الإمام أبا حنيفة كان من الأعلام الذين لا يخافون في الله لومة لائم في امتثال ما أمر الله بهم وانتهاء عما نهى الله عنهم .

أمـا الملامة – التي يعنيها – الهجويري فهي قضية صوفية ، وأهل الملامة فرقة صوفية ظهـرت في النصـف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان ، وقد أطلق الهجويـري عـلى هذه الفرقة اسم " الفرقة القصارية " أو " الحمدونية " نسبة إلى حمدون القصار (ت ٢٧١)[٢] ، ووصفه السلمي بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة[٣] ، وأساسه يقوم على الملامة .

يقول أبو حفص الحداد موضحا حالهم : " أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفـظ أوقـاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والعـبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ماهم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم .

---

[١] كشف المحجوب ٣٠٣/١- ٣٠٤ .

[٢] المصدر نفسه ٢٥٩/١ .

[٣] طبقات الصوفية ص ١٢٣ .

وقـــد وصفهم ابن عربي بأنهم في أعلى درجات السالكين [١] ، ووقف السهروردي مـــنهم موقفا وسطا فهو يصف الملامتي بالإخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفي في مرتبة أعلى ، ويصفه بأنه المخلص الخالص [٢] .

أما ابن الجوزي فقد انتقد منهم فوصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله تعالى لمخالفة الشرع [٣] .

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد قسم الملامية إلى قسمين :

١- ملاميـــة يفعلون ما يحبه الله ورسوله ، ولا يخافون لومة لا ئم في ذلك ، وهؤلاء هم أهل الملام المحمود .

٢- وملاميـــة يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ، ويصرون على الملام في ذلك والصبر عليه ، وهؤلاء هم أهل الملام المذموم .

وقـــال : " وبهـــذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ، ولا يخافون لومة لائم في ذلك ، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك " [٤] .

وأمـــا مـــا يتعلق بالفراسة فهي قضية معروفة لدى السلف الصالح ، ولها شواهد من الشـــرع ، مـــنها : قولــــه ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ " [٥] . قال مجاهد : المتفرســـين ، وقـــال ابن عباس رضي الله عنهما : الناظرين ، وقال قتادة : المعتبرين ، وقال مقاتل : للمتفكرين .

قـــال ابـــن القـــيم : " ولا تنافي بين هذه الأقوال ، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبـــين ومـــنازلهم ، وما آل إليه أمرهم أورثه فراسة وعبرة وفكرة . وقال تعالى في حق

---

(١) الفتوحات المكية ٤٦/٣ .

(٢) عوارف المعارف ص ٥٤ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٤٣٨ .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦١/١ .

(٥) سورة الحجر ، الآية (٧٥) .

المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [١] فالأول : فراسة النظر والعين ، والثاني : فراسة الأذن والسمع " [٢] .

والفراسة قد قسمها ابن أبي العز الحنفي إلى ثلاثة أنواع :

فراسة إيمانية ، وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده ، وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب بنفي ما يضاده ، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة ، ومنها اشتقاقها ، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان ، فمن كان أقوى إيمانا فهو أحد فراسة .

وفراسة رياضية ، وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي ، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها ، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ، ولا تدل على إيمان ولا على ولاية ، ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم ، بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبادة الرؤساء والأظناء ونحوهم .

وفراسة خلقية ، وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم ، واستدلوا بالخلق على الخُلُق لما بينهما من الارتباط ، الذي اقتضته حكمة الله .

والفراسة الإيمانية قد تحدث عنها الصوفية المتقدمون ، فهذا أبو سعيد الخراز يقول : "من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة ، بل حكم حق جرى على لسان عبده ، وقوله : نظر بنور الحق يعني بنور خصه به الحق ﷻ [٣] .

ويقول عمرو بن نجيد : كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطئ ، حيث كان يقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته .

ويقول أحمد بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق ، فإنهم جواسيس القُلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون من حيث لا تحتسبون .

أما الجنيد فقد تكلم على الناس يوما ، فوقف علي شاب نصراني مستنكرا فقال : أيها الشيخ ما معنى قول النبي ﷺ : ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)) ؟ فأطرق الجنيد ، ثم رفع رأسه إليه وقال : أسلم ، فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام [٤] .

---

(١) سورة محمد ، الآية (٣٠) .

(٢) مدارج السالكين ٤٥٢/٢ .

(٣) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٠٣ ، ومدارج السالكين ٤٥٣/٢- ٤٥٦ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص٢٣٤- ٢٣٥ ، ومدارج السالكين ٤٥٤/٢ .

إذن فالفراسـة المنسـوبة إلى الإمام أبي حنيفة كانت معروفة عند سلف هذه الأمة ، ليست عـند الصـوفية المتقدمين فحسب ، بل حتى عند الصحابة الكرام ، حيث " كان الصـديق ﷺ أعظم الأمة فراسة ، وبعده عمر بن الخطاب ﷺ ، ووقائع فراسته مشهورة ، فإنـه مـا قال لشيء " أظنه كذا " إلا كان كما قال ، ويكفي في فراسته : موافقته ربه في المواضع المعروفة " ففراسة الصحابة رضوان الله عليهم أصدق الفراسة [١] .

وبذلك أقول : إن تأييد الله ونصرته ليست ببعيد على من أكرمهم الله ﷻ من عباده المؤمـنين المخلصـين نتيجة استقامتهم على الطريق المستقيم ، وملازمتهم لتقوى الله في كل حـال مـن أحوالهم ، وفي كل شأن من شئوهم ، لقولـه ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْـرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [٢] وقولـه ﷻ : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُـرْقَانًا ﴾ [٣] وقولـه ﷻ : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [٤] .

ولقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : ((.. وما تقرب إلي عبدي أحب إلي مما افترضته عـليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع بـه ، وبصـره الـذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ..)) [٥] .

---

(١) انظر : مدارج السالكين ٢/٤٥٥ .

(٢) سورة الطلاق ، الآيتان (٢- ٣) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٢٩) .

(٤) سورة يونس ، الآيات (٦٢- ٦٤) .

(٥) سبق تخريجه في ص ١٥٥ .

المبحث الرابع

موقف بعض تلامذته من التصوف

عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ)

تفقه ابن المبارك على أبي حنيفة ، وأخذ عنه علما غزيرا ، وبدا ذلك في ترجمته حيث كان من كبار تلامذته .

وقد كان ابن المبارك شديد الإعجاب بعلم أستاذه أبي حنيفة وعقله وتقواه ، ولذلك كان لا يزال يذكر أبا حنيفة وفقهه وورعه ، وعقله وزهده ، ويدافع عنه ، بل ويرد عنه أقوال المتحاملين والشانئين ، حتى قال يحي بن معين : ما سمعت أحدا يصف أبا حنيفة ويذكره بمثل ما كان ابن مبارك يصفه ويذكره به من الخير [١] ، وذلك أنه كان كثير التحدث عنه ، فمن أقواله في فقهه :

" ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة ، وما رأيت أحدا قط تكلم في الفقه أحسن من أبي حنيفة " [٢] .

وكان يقول في عقله وورعه : ما رأيت رجلا أعقل منه ، وما رأيت أورع من أبي حنيفة قد جرب بالسياط والأموال [٣] .

ويقول في زهده وتقواه وبعده عن الاغترار بالدنيا : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها ؟ فقالوا : أبا حنيفة ..ما رأيت أحدا أورع منه ، ما تقدرون أن تقولوا في رجل عرضت عليه الأموال العظيمة فنبذها ، وضرب بالسياط فعبد على السراء والضراء ، ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه [٤] .

إن معرفة ابن المبارك الحقيقية لأبي حنيفة وعلمه ، وصلته الوثيقة به ، وأخذه العلم عنه ، كل ذلك جعل من ابن المبارك أكبر المناصرين لشيخه والمدافعين عنه ضد المتحاملين عليه ، فقد ذكر أبو حنيفة مرة عند ابن المبارك فقال : أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا

---

(١) الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان ص٤١ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٢٠

(٣) نفسه ٢/٢٢١ .

(٤) الخيرات الحسان ص٣٩ .

بجذافيرها ففر منها ، وما خالط الظلمة مع سؤالهم لـــه في ذلك وإلحاحهم عليه وتهديده إن لم يفعل ، وما قبل منهم شيئا قط وإن قلّ [١] .

أما الحديث عن ابن المبارك فقد وصفه أبو نعيم بأنه " السخي الجواد ، الممهد للمعاد المتزود من الوداد ، أليف القرآن والحج والجهاد ، جاد فساد ، وروجع فزاد ، ماله مشارك ، وفعله مبارك ، وقوله مبارك " [٢] . وبهذا يعده أبو نعيم من جملة المتصوفة والأولياء .

وذكـــر اليافعي وابن العماد أن ابن المبارك توفي في بعض البراري سائحا مختارا للعزلة والخمول بعد الشهرة والجاه العظيم ، وهو بذلك مات ميتة الصوفية السائحين الذين يؤثرون العزلة وقلة الملاقاة للناس ؛ ولكن هذا الخبر ليس لـــه وجود في الكتب القديمة التي ترجمت لابن المبارك ، ولم يذكر هذا الخبر ابن سعد ، ولا ابن حبان البستي ، ولا الخطيب البغدادي ولا عبد الله الحاكم النيسابوري .

وهـــذا القـــول في تصوف ابن المبارك وموته سائحا ومختارا للعزلة مصادم ومناقض لحياتـــه العـــلمية والعمـــلية ، حيث كانت حياته موزعة بين أداء الحج والجهاد والمرابطة في الـــثغور ، والتجارة والإنفاق على العلماء وطلاب الحديث ، وتصنيف المصنفات ونشرالدين والدعوة إلى الله تعالى ...

وهنا أتساءل كيف يموت من هذا دأبه هذه الميتة الغريبة الخاملة ؟ وكيف يموت هذه الميتة المتواكلة من فرغ نفسه للعمل ابتغاء وجه الله ﷻ ؟ بل وكيف يوصف بذلك وهو يذم الناســك الـــذي سكن بغداد معلما إياه أن العبادة عند الثغور ؟ وحثا عليه أن يجمع العبادة والجهاد والعلم والعمل فيقول [٣] :

أيها الناسك الذي لبس الصو ... ف وأضحى يُعدُّ في العباد

الزم الثغر والتعبد فيـــــه ... ليس بغداد مسكن الزهـــاد

إن بغداد للملوك محـــــل ... ومناخ للقارئ الصيـــاد .

وأغـــلب الظـــن أن هذا الزعم صدر من أوهام متأخري الصوفية ، لأنهم يعدون ابن المبارك من الأبدال [٤] .

---

(١) المرجع السابق ص٦ .

(٢) حلية الأولياء ١٧٢/٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٣١/١ .

(٤) انظر : عبد الله بن المبارك المروزي ، د. عبد المجيد المحتسب ، طبعة عمان (١٣٩٢هـ) ص١٣٦ .

وإذا كـــان يحلو لبعض المتصوفة أن يفهم الزهد على أنه رفض للدنيا كلية ، واعتزال للـــناس ، واعـــتماد عـــلى هبات المحسنين والمتصدقين فيعتزل في بيته ، وينطوي على نفسه ليكون متعبدا لله ﷻ ، تاركا الدنيا لا يجد فيها ولا يعمل ، وكأن الدنيا خلقت لغيره ! فإن عـــبد الله بن المبارك لم يفهم الزهد كذلك ، إنه عرف حقيقة الزهد وفهمه على أن تجد في هـــذه الحيـــاة ، فتكسب المال وتتاجر وتسعى في مناكب الأرض تبتغي من فضل الله ، فإذا رزقت بالمال أنفقته في سبيل الله ، واستعنت به على طاعة ربك !

بهـــذا المفهـــوم فهـــم عبد الله بن المبارك الزهد ، فكدَّ وجدَّ في هذه الحياة ، وتاجر بالبضـــائع ، وكســـب المال الحلال ليصون به وجهه ، ويكرم به عرضه ، ويستعين به على طاعة ربه ﷻ ، وينفقه في وجوه الخير ، وأدرك أن الإسلام لا يحرم على الناس أسباب الغنى ، ولا يمـــنعهم من البيع والشراء ، لأن الرسول ﷺ - وهو القدوة الحسنة لأمته — قد تاجر واكتسب وأنفق ...

فابن المبارك طلب الدنيا لا لنفسه بل لله ﷻ لينفقها في سبيل الله ، وقد ذكر الخطيب الـــبغدادي بأنـــه خرج من بغداد يريد المصيصة [١] ، فصحبه الصوفية فقال لهم : أنتم لكم أنفـــس تحتشمون أن ينفق عليكم ، يا غلام هات الطست ؟ فألقى على الطست منديلا ، ثم قـــال : يـــلقي كـــل رجل منكم تحت المنديل ما معه ، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم ، والرجل يلقي عشرين ، فأنفق عليهم إلى المصيصة ، فلما بلغ المصيصة قال : هذه بلاد نفير ، فنقسم ما بقي ، فجعل يعطي الرجل عشرين دينارا ، فيقول : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت درهما، فيقول : وما تنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته [٢] .

وحدث علي بن الفضيل بن عياض قال : سمعت أبي وهو يقول لابن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة ، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام كيف ذا ؟ فقـــال ابن المبارك : يا أبا علي إنما أفعل ذلك لأصون به وجهي ، وأكرم به عرضي ، وأســـتعين بـــه على طاعة ربي ، لا أرى لله حقا إلا سارعت إليه حتى أقوم به ، فقال لـــه

---

(١) المصيصة : بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة ، وهي مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرطوس ، وكانت من مشهور ثغور الإسلام ، قد رابط بها الصالحون قديما ، انظر : معجم البلدان ٨٠/٨ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٧٧/١٠ .

الفضـــيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذاك [١] ، وكان ﷺ يقول : لا يخرج العبدَ عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس [٢] .

فقـــد كان ابن المبارك زاهدا لكنه غني ، وله أموال وفيرة وتجارة واسعة لكنه زاهد ، وكـــان له رأس مـــال نحو أربعمائة ألف ينفقها كلها في أهل العبادة والزهد والعلم ..وربما أنفـــق من رأس ماله . وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها ، وفيها من أنواع المأكولات من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك ، ثم يطعم الناس وهو صائم في الحر الشديد .

هذا هو الزهد الحقيقي ، زهد الاختيار لا زهد الاضطرار ، وزهد الغنى لا زهد الفاقة والحـــرمان ، ولـــرب ثري واسع الغنى كعثمان بن عفان والزبير بن عوام وعبد الرحمن بن عـــوف – رضي الله عنهم – كانوا أزهد في الدنيا من كثيرين ممن يلبسون مرقعات الصوف ، ويكـــتفون بالخبز والملح ، وينامون على التراب وقلوبهم متعلقة بالدنيا ، وأنظارهم شرهة إلى ما في أيدي الأغنياء .

فـــليس الـــزهد في الدنيا – إذن – أن يزهد فيها الإنسان وهي عنه مدبرة فهذا زهد الاضـــطرار ، وكذلـــك فليس الغنى مانعا من الزهد لأن الزهد محله القلب ، وكم من مدع للزهد والطمع يملك قلبه !

وما أحسن قول ابن القيم في ذلك إذ يقول : " الزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد منها ، وقد جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنب الحلال ، فاعتزلوا الناس ، فضيعوا الحقوق، وقطعـــوا الأرحـــام ، وجفوا الأنام ، واكفهروا في وجوه الأغنياء ، وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال ، ولم يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب ، وأن أصله موت الشهوة القلبية ، فلما اعـــزلوها بـــالجوارح ظـــنوا أنهـــم استكملوا الزهد ، فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة " [٣] .

ولقد دل ابن المبارك علمه الغزير على تفضيل الآخرة وجعل الدنيا طريقا لها ، فوازن بـــين الدنيا دار الفناء وبين الآخرة دار القرار ، فوجد أن الدنيا الفانية لا تعدل الآخرة الباقية

---

(١) تاريخ بغداد ١٦٠/١٠ .

(٢) طبقات الشعراني ٦٠/١ .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٧٣/٤ .

الخالدة ، وما فيها مالم تره عين ، ولم تسمعه أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولأجل هذا كان ينشد إذا خرج إلى مكة :

بغض الحياة وخوف الله أخرجني — وبيع نفسي بما ليست له ثمنا
إني وزنت الذي يبقى ليعدله — ما ليس يبقى فلا والله ماتزنا [١] .

ومع هذا الزهد كان الإمام عبد الله بن المبارك العالم العامل ، والمؤمن القوي ، فقد كان مع علمه الغزير ، وزهده العجيب ، وورعه وتقواه من أكبر المجاهدين ، كان إماما في ساحة الجهاد ، كما كان إماما في محراب المسجد ، وذلك لأن العلم والتقى والزهد والورع ليست من مبررات القعود عن الجهاد كما رأى البعض في عصرنا الحاضر ، بل كل ذلك يؤكد الجهاد ويدفع إليه ، ويجعله أوجب وآكد .

فمن الطراز الممتاز من العلماء المجاهدين كان ابن المبارك ، وقد قال فيه ابن كثير : وكان كثير الغزو والحج [٢] ، وقال عنه الذهبي في تذكرته : فخر المجاهدين [٣] ، وكان — وهو في الثغور والجهاد — لا ينسى أن يعلم الناس العلم والحديث ، فكان إذا وصل إلى الثغر اجتمع المجاهدون حوله يتعلمون منه العلم ، ويكتبون عنه الحديث ، كما يتعلمون منه الشجاعة [٤] .

وقد بعث ابن المبارك من الثغر أبيات مع محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة إلى الفضيل بن عياض التي يقول فيها :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا — لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه — فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل — فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا — رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا — قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في — أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا — ليس الشهيد بميت لا يكذب

---

(١) شذرات الذهب ١٩٦/١ ، ووفيات الأعيان ٢٣٩/٢ .
(٢) البداية والنهاية ١٧٧/١٠ .
(٣) تذكرة الحفاظ ٢٥٣/١ .
(٤) انظر : تقدمة الجرح والتعديل ص٢٧٨ .

ولما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وذرفت عيناه بالدموع ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح [١] .

قال الدكتور عبد العزيز الحميدي في معرض حديثه عن شمول العبادة وعلق على هذه الأبيات قائلا : " ففي هذه الأبيات الشعرية الرائعة بين الإمام عبد الله بن المبارك جانبا من الفهم الصحيح للعبادة ، فليست العبادة محصورة في الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام ، ولكن العبادة الحقة تكون أولا بأداء الفرائض واجتناب المحرمات كما جاء في قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » ثم تكون بأداء فروض الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال كونها فرض كفاية ، فإن أداء فروض الكفاية أفضل من أداء النوافل ، لأن فروض الكفاية تدخل في باب الفروض ولكن كونها غير متعينة على إنسان بعينه يجعل تاركها غير ملوم بتركها إذا قام بها من يكفي .

ثم تأتي بعد ذلك النوافل على درجاتها المعروفة ، فعبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض قد قاما – كما هو معروف عن سيرتهما – بأداء فروض الأعيان ، وافترقا في أن ابن المبارك قام بعد ذلك بالإسهام في أداء فروض الكفاية في باب الجهاد ، إلى جانب ما عرف عنه من اجتهاده في النوافل ، أما الفضيل بن عياض فإنه قد اجتهد في النوافل وبالغ في ذلك، وعوض بذلك ما فاته من الجهاد ، وإن ابن المبارك في هذه الرسالة الشعرية يلوم الفضيل بن عياض على تقصيره في المشاركة في الجهاد ، ويبين له أنه قد اكتفى بالأقل حيث اشتغل بالنوافل ، وترك الجهاد الذي هو أعلى لأنه فرض كفاية " [٢] .

نفهم مما سبق أن عبد الله بن المبارك قد فهم العبادة بشمولها ، وأنه لم يذهب مثلما ذهب إليه الصوفية المنحرفون الذين يقتصرون على العبادة المعينة ويبالغون فيها ، أو الذين يبتعدون عن الناس ، ويمتنعون عن القيام بأي سبب يحصل الإنسان عن طريقه على الرزق الحلال الطيب ؛ الذي يعف به نفسه وعائلته ، ويدعون إلى ترك الأسباب وعدم الالتفات إليها بحجة أنه ينافي التوكل حسب زعمهم ، ومن المعلوم أن الله ﷻ أمر بالإعداد اللازم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤١٢– ٤١٣ .

(٢) الرسائل الشمولية ، د . عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ، طبعة دار الدعوة بالإسكندرية ، ودار العيون بمكة المكرمة، ص١٩٦ .

لمواجهــة الأعــداء من القوة . فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْــلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [١] ، وإعــداد القــوة اللازمة لمواجهة الأعداء يعتبر من الأسباب ، وقد أمر الله به ﷻ فلو كان مباشرة الأسباب تنافي التوكل لما أمر الله به ولنهى عنه .

ونفهم أيضا أن ما يقوم به عبد الله بن المبارك من المرابطة والجهاد ضد أعداء الإسلام لهــو رد صــريح على المتصوفة الذين يصرفون الناس عن القتال في سبيل الله ﷻ بحجة أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، وأما جهاد الأعداء فجهاد أصغر .

وبيــان ذلــك ما ذكره السهروردي – ومن نحا نحوه – حيث فسروا بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجهاد من أجل أن يثبتوا بأن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، فمن هذه التفسيرات :

ما روي عن داود بن صالح أنه قال : قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن : يا ابن أخي هــل تــدري في أي شــيء نزلت هذه الآية ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْــلِحُونَ ﴾ ؟ قلت : لا ، قال : يا ابن أخي لم يكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيــل ولكــنه انتظار الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط لجهاد النفس ، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه [٢] .

وقــال بعــض المتصوفة في قوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [٣] هو مجــاهدة الــنفس والهوى ، وذلك حق الجهاد وهو الجهاد الأكبر على ما روي في الخبر عن رســول الله ﷺ قــال حين رجع من بعض غزواته : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) [٤] .

هــذه دعوة باطلة لأن جهاد الأعداء هو الجهاد الأكبر كما فهمه عبد الله بن المبارك وهــو من فروض الكفاية ، ومن أفضل الأعمال التي يقوم بها المؤمن ابتغاء مرضات الله ، ثم إن الحديث الــذي اســتدل به المتصوفة فهو كذب وافتراء على رسول الله ﷺ الذي جاء بشريعة الجهاد ، وبذل كل غال ونفيس في سبيل نشر دعوة التوحيد .

---

[١] سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

[٢] عوارف المعارف ، الملحق بإحياء علوم الدين ٨٢/٥ .

[٣] سورة الحج ، الآية (٧٨) .

[٤] عوارف المعارف الملحق بالإحياء ٨٢/٥ . وسيأتي الحكم عليه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الحديث الذي استدلوا به :

" وأما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله .

وجهاد الكفار من أعظم الأعمال ، بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله ﷻ : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال : ((إيمان بالله ورسوله)) قيل : ثم ماذا ؟ قال : ((الجهاد في سبيل الله)) قيل ثم ماذا ؟ قال : ((حج مبرور)) " (٣) .

وبذلك أقول : إن عبد الله بن المبارك خير من فهم الزهد الصحيح لاتباعه شرع الله وسنة رسوله ﷺ ، حيث كان يسير في عبادته وزهده وفي كل شؤونه على هدى وبصيرة ، وقد كان غناه طاعة وعبادة ، كان مجاهدا يرابط على الثغور ويسهر للحراسة في سبيل الله ، ولم يفهم من الزهد – كما يفهم بعض المتصوفة – أن يقعد مع القاعدين وأن يكون مع الخوالف ، وقد كان ورعا تقيا عابدا مخبتا يحاسب نفسه ويقيمها على شرع الله ، وقد سأله رجل عن الرباط فقال : رابط نفسك على الحق حتى تقيمها عليه فذلك أفضل الرباط (٤) .

وتوفي عبد الله بن المبارك سنة (١٨١ هـ) في رمضان لعشر مضين منه في ساعة السحر بعد انصرافه من الجهاد في سبيل الله .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان (٩٥- ٩٦) .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٩ .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ، في الإيمان ، باب من قال إن الإيمان هو العمل ٧٧/١ (ح ٢٦) ، ومسلم في الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال ٨٨/١ (٨٣) .

وانظر : مجموع فتاوى لشيخ الإسلام ١٩٧/١١- ١٩٨ .

(٤) حلية الأولياء ١٨١/٨ .

الفصل الثاني

الإمام مالك بن أنس والتصوف

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام مالك وحياته

المبحث الثاني : الإمام مالك وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام مالك وحياته

أولا : عصره :

إن عصر الإمام مالك بن أنس يشبه عهد الإمام أبي حنيفة ، إلا أن الإمام مالك أدرك من الدولة العباسية حظا أوفر ، ورأى حضاراتها قد امتزج في مبادئها الإسلامية بعض مظاهر المدنيات الفارسية والهندية والرومانية [(١)] .

وقد عاش الإمام مالك في عصر كانت المدن الإسلامية تموج بعناصر مختلفة ، وفي وقت اتسعت كذلك رقعة البلاد الإسلامية ، وكثرت الحواضر والعواصم ، فكل يحمل حضارة وثقافة جنسه ، وأصبح المجتمع الذي يكون على مثل هذا الوضع في أمس حاجة إلى الشريعة التي تصدر الحكم في كل الأحداث صغيرها وكبيرها [(٢)] .

وإذا كانت المدن الإسلامية فيها كل هذه المظاهر — المدن الحجازية — التي كانت مأوى أفئدة المسلمين ، ولا زالت كذلك إلى اليوم ترى فيها كل الألوان والصور وأشكال الحياة حيث يأتي الناس إليها من كل فج عميق ؛ فكذلك المدينة المنورة التي كانت إليها الهجرة ، وبها مسجد رسول الله ﷺ صارت مزارا للمسلمين في حجهم وعمرتهم ، فيتمنى بعضهم البقاء أو المكث فيها ، وبهذه الظاهرة ارتضى الإمام مالك أن يتخذ المدينة مقرا له ليعيش بين الناس معلما إياهم شؤون دينهم ودنياهم ، هذه بعض النواحي الاجتماعية [(٣)] .

أما من حيث النواحي الفكرية — في عهد الإمام مالك — فقد اتسمت بها ، والتي نجمت عن اتصال الفكر الإسلامي بالفلسفة اليونانية والفارسية والهندية إثر حركة الترجمة .. مما أدى إلى منازعات فكرية حول عقائد متباينة ، وآراء متناحرة مثل ما حدث في عصر أبي حنيفة ، إلا أن أبا حنيفة كان بالعراق موطن هذا الخلاف ، فتأثر بها تأثرا مباشرا ، بينما كان مالك بالمدينة المنورة التي ابتعدت بمنأى عن هذه الخلافات الفكرية ، ولم يروج في سوقها هذه المذاهب ؛ بل راج فيها علم الكتاب والسنة [(٤)] .

---

(١) انظر : مالك وحياته وعصره ، لأبي زهرة ، طبعة دار الفكر العربي ص ١٢١ .

(٢) انظر : نفسه ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٣) انظر : نفسه .

(٤) نفسه .

فاســتطاع الإمام مالك في جو المدينة الهادئ أن يصون نفسه عن موجة أهل الأهواء العارمة ، التي كادت تشغل أذهان المسلمين عن حقيقة الدين ، كالشيعة والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة وغيرها .

ثانيا : حياته :

هــو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن ختيل بــن عمــرو بن الحارث الأصبحي الحميري المدني [١] ، ولــد عام (٩٣هــ) على أشهر الأقوال [٢] .

ونشأ في بيت علم وصلاح ، وبدأ برحلة علمية منذ الصغر ، وتفرغ لطلب العلم ، وأكــثر ملازمة العلماء ، حتى قال الزبير عنه : رأيت مالكا في حلقة ربيعة وفي أذنه شنف ، وهذا يدل على ملازمته طلب العلم منذ نعومة أظفاره [٣] .

وبــلغ مــن صبره على العلم وتحمله المشقة في ذلك أنه قال : كنت آتي نافعا نصف النهار ، وما تظلني الشجرة من الشمس أتحين خروجه ، فإذا خرج أتركه ساعة كأني لم أره ، ثم أتعــرض لـــه فأسلم عليه وأدعه ، حتى إذا دخل أقول لـــه : كيف قال ابن عمر في كــذا وكذا ؟ فيجيبني ثم أحبس عنه وكان فيه حدة ، وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل [٤] .

وقــد حرص على الانتفاع وعدم تضييع الوقت أنه كان يسعى في تحصيل العلم حتى في أيام العيد التي يستريح الناس فيها ، قال مالك : شهدت العيد فقلت : هذا اليوم يخلو فيه ابــن شهاب فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه ، فسمعته يقول لجاريته : انظري مــن علــى الــباب ؟ فنظرت ، فسمعتها تقول : مولاك الأشقر مالك ، قال : أدخليه ؟ فدخــلت ، فقال : ما أراك بعد انصرفت إلى مترلك ؟ قلت : لا ، قال : هل أكلت شيئا ؟

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ١٠٤/١ ، وشذرات الذهب ١٢/٢ ، وحلية الأولياء ٣١٣/٦ ، وصفة الصفوة ٩٩/٢ ومرآة الجنان ٣٧٣/١ ، ومروج الذهب ٣٥٠/٣ ، وسير أعلام النبلاء ٤٨/٨ .

(٢) الديباج المذهب ٥٥/١ .

(٣) ترتيب المدارك ١٢١/١ .

(٤) المصدر نفسه .

قـلت : لا ، قـال : فاطعم ؟ قلت : لا حاجة لي فيه ، قال : فما تريد ؟ قلت : تحدثني ، فحدثني سبعة عشر حديثا [١] .

وكان الإمام مالك يحمل معه خيطا ، كلما سمع حديثا من الشيخ عقد عقدة ليستعين بذلـك عـلى الحفظ ، وكان يتبع ظلال الشجر ليتفرغ لما يريد ، فقالت أخته لأبيه : هذا أخي لا يأوي مع الناس ، قال : يا بنية إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ [٢] .

لم يكـن حرصـه عـلى طلب العلم وصبره على ذلك وإخلاصه لله ﷻ وحده هو السبب الوحيد لأن يكون إماما ومعلما ؛ بل كانت هناك أسباب أخرى – بعد توفيق الله – جعلـته يبلغ هذه المكانة العلمية والمنزلة العالية ! فهو لا يريد تلقي العلم وسماع الحديث إلا مـن أهله ، ويشتد انتقاده للرجال ، ويتحرى عن حالهم لأنه كان يرى أن العلم دين ، ولا بد لمن يريد أن يعرف دينه أن يأخذه عن ثقة [٣] .

قال ابن أبي أويس : سمعت خالي مالكا بن أنس يقول : " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، لقد أدركت سبعين ممن يحدث ، قال فلان : قال رسول الله ﷺ فما أخـذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا لكنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن " [٤] .

وفي رواية ابن كنانة عن مالك أنه قال : سمعت مالكا يقول : ربما جلس إلينا الشيخ فـيحدث كـل نهـاره ما نأخذ عنه حديثا واحدا ، وما بنا أن نتهمه ولكن ليس من أهل الحديث [٥] .

وكـان الإمام مالك – كذلك – يتبع السنن ويكره المحدثات ، حيث كان يقول : " المـراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم من قلب العبد ، وقيل لـه : الرجل لـه علم بالسنة أيجادل عنها ؟ قال : لا ولكن ليخبر بالسنة فإن قبل منه وإلا سكت " [٦] .

---

(١) المصدر السابق ١٢١/١ .

(٢) المصدر نفسه ١٩١/١ .

(٣) نفسه ١٢٤/١ .

(٤) نفسه ١٢٣/١ .

(٥) رواه ابن عبد البر في التمهيد ٦٨/١ .

(٦) الديباج المذهب ١١٥/١ .

قال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : إذا جاءه أحد من أهل الأهواء أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه ، ثم قرأ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١] .

وكـــان يقـــول : إذا ذكـــر- عنده - أحد منهم قال عمر بن عبد العزيز ﷺ : سن رســـول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكتاب الله تعالى ، واستكمال لطاعة الله تعـــالى ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا النظر في شيء خالفها ، مـــن اهـــتدى بها فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمـــنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا [٢] ، وكان مالك إذا حدث بها ارتج مسرورا .

وجاء رجل من أهل المغرب فقال : إن الأهواء كثرت ببلادنا فجعلت على نفسي إن أنـــا رأيـــتك أن آخـــذ بما تأمرني به ، فوصف لـــه مالك شرائع الإسلام الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ثم قال : خذ بهذا و لا تخاصم أحدا [٣] .

وقـــد تـــلقى الإمام مالك العلم عن عدد كثير من المشايخ والعلماء ، قال الزرقاني : أخذ عن تسعمائة شيخ فأكثر ، وما أفتى حتى شهد له سبعون إماما أنه أهل لذلك [٤] .

وذكـــر الذهبي أسماء الذين أخذ عنهم الإمام مالك فبلغ العدد ١٣٥ شيخا [٥] . من هؤلاء الشيوخ : ربيعة بن أبي عبد الرحمن (ت ١٣٦هـــ) ، و محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـــ) ، ونافع ، أبو عبد الله المدني ، مولى ا بن عمر (ت ١١٧هـــ) ، وغيرهم .

وتتـــلمذ على الإمام مالك وروى عنه الموطأ كثيرون ، وقد صنف الخطيب البغدادي مؤلفا خاصا بالرواة عن مالك فعد منهم ٩٩٣ رجلا [٦] ، أما القاضي عياض فقد عد منهم

---

[١] سورة يوسف ، الآية (١٠٨) .

[٢] حلية الأولياء ٣٥٤/٦ .

[٣] الديباج المذهب ١١٥/١- ١١٦ .

[٤] انظر : شرح الموطأ للزرقاني ٢/١ ، وحلية الأولياء ٢٤٥/٦ .

[٥] انظر : سير أعلام النبلاء ٤٩/٨- ٥٢ .

[٦] تزيين الممالك ص ١٨ .

١٣٠٠ رجل ، وذكر المشهورين منهم ، وترجم لهم في ترتيب المدارك ورتبهم على البلدان والطبقات [١] .

وعد منهم الذهبي في السير ١٢٦ رجلا [٢] . من هؤلاء : الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ) ، وعبد الرحمن بن القاسم (ت ١٩١هـ) وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) ، وغيرهم .

وتوفي الإمام مالك – رحمه الله – في شهر ربيع الأول سنة ١٩٧هـ ، وعمره ست وثمانون سنة ، ودفن بالبقيع بالمدينة المنورة [٣] .

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ٢٥٤/١ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٥٣/٨- ٥٤ .

(٣) ترتيب المدارك ٢٣٢/٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٣٠/٨- ١٣٥ .

المبحث الثاني

الإمام مالك وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن معـــرفة الله تبارك وتعالى عند الإمام مالك شيء فطري ، يشعر بها كل إنسان في هـــذه الحياة ، وإن كنا لم نعثر على نص صريح عنه – رحمه الله – في هذه المسألة ، ولكن حديـــث الفطرة الذي روى عنه فيه إشارة إلى هذا الموضوع ، فقد روى أبو داود في سننه حديث : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ..» [١] الحديث .

ثم روى عـــن عـــبد الله بـــن وهب قال : سمعت مالكا قيل لـــه : إن أهل الأهواء يحـــتجون علينا بهذا الحديث ، قال مالك : احتج عليهم بآخره ، " قالوا أرأيت من يموت وهو صغير؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين " [٢] .

فالقدريـــة يحتجون بأول الحديث على مذهبهم في نفي القدر ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فالقدرية من المعتزلة وغيرهم يقولون : كل مولود يولد على الإسلام والله لا يضل أحدا ، ولكن أبواه يضلانه " [٣] .

فلما سئل مالك عن ذلك بيّن أن آخر الحديث يرد عليهم . وذلك من وجهين اثنين وضحهما شيخ الإسلام مستفيدا من كلام الإمام مالك السابق .

الوجـــه الأول : قـــال رحمه الله : " ولهذا قالوا لمالك بن أنس : إن القدرية يحتجون علينـــا بأول الحديث ، فقال احتجوا عليهم بآخره ، وهو قوله : الله أعلم بما كانوا عاملين ، فبين الإمام أنه لا حجة فيه للقدرية ، فإنهم لا يقولون إن نفس الأبوين خلقا تهوده وتنصره ، بل هو تهود وتنصر باختياره ، لكن كانا سببا في ذلك بالتعليم والتلقين ، فإذا أضيف إليهما بهـــذا الاعتـــبار فلأن يضاف إلى الله الذي هو خالق كل شيء بطريق الأولى ، لأن الله وإن

---

(١) أخرجـــه أبو داود في كتاب السنة ، بـــاب في ذراري المشركين ٨٦/٥ (٤٧١٤) ، وأخرجه – بمعناه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة – البخاري في الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي ، و في القدر٨/ ١٥٣ بـــاب الله أعـــلم بما كانوا يعملون . ومسلم في القدر (٢٦٨٥) باب معنى " كل مولود يولد على الفطرة " . وأخرجه الترمذي – مختصرا – من حديث أبي صالح عن أبي هريرة في القدر (٢١٣٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، والباب نفسه ٨٨/٥ (ح ٤٧١٥) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل ٣٧٧/٨ .

خـــلقه مولودا على الفطرة سليما ، فقد قدر عليه ما سيكون بعد ذلك من تغيـــيره وعـــلم ذلـــك " [١] .

الوجه الثاني : قال رحمه الله : " (إنهم القدرية) يقولون : إن معرفة الله لا تحصل إلا بالـــنظر المشـــروط بالعقل ، فيستحيل أن تكون المعرفة عندهم ضرورية ، أو تكون من فعل الله، وأمـــا آخر الحديث فهو دليل على أن الله تعالى يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة ، هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين ؟ أو يغيروها فيصيرون كفارا " [٢] .

وبما أن معرفة الله ﷻ فطرية لدى كل إنسان لم تطمس فطرته السليمة ؛ انتقل الإمام مالك رحمه الله إلى تقرير قضية أخرى ، وهي القضية الشرعية التي كلف الله عباده بها ، بل جعـــلها أول الواجبات الشرعية عليهم وهي توحيد الله ﷻ ، وأن تعليم الناس قضية التوحيد هو من أهم المهمات التي قام بها النبي ﷺ .

فقـــد أخرج الهروي عن الشافعي قال : سئل مالك عن التوحيد فقال مالك : " محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علّم أمته الاستنجاء و لم يعلمهم التوحيد ، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : ((أمـــرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ..)) [٣] فما عصم به المال والدم حقيقة التوحيد " [٤] .

فهـــذا نص الإمام مالك رحمه الله على أن حقيقة التوحيد هي إفراد الله ﷻ بالعبادة ، وهـــي القضـــية الشرعية التي يسلم الكافر وبها يعصم الدم والمال ، وإليها دعا الرسول ﷺ وقـــاتل ، وهـــي قضية التوحيد ، التي تعني لا مستحق للعبادة إلا الله ﷻ وحده ، و لم يفسر الـــتوحيد بأنه الربوبية ، أو بالقدرة على الاختراع والصنع ونحو ذلك كما هي طريقة أهل الكـــلام ، أو يقسم التوحيد إلى توحيد العامة ، والخاصة ، وخاصة الخاصة كما هي طريقة أهل التصوف .

لقـــد قرر الإمام مالك مثلما قرر غيره من أهل السنة والجماعة على أن أول ما يجب عـــلى العـــبد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإفراد الله ﷻ بالعبادة ، وهو

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٣٦٢/٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، باب وجوب الزكاة ٢٦٢/٣ (ح ١٣٩٩) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ٥١/١ (ح ٣٢٤) .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٦/١٠ .

المقصد الأعظم الذي أرسل لأجله الرسل – عليهم السلام – وأنزلت الكتب وخلق له الجن والإنس .

ووجدنا نصا آخر يبين موقف الإمام مالك رحمه الله من معرفة الله ﷻ ، كما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن نافع قال : " قال مالك : الله في السماء وعلمه في كل مكان " [١] .

هذا النص إثبات لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الله ﷻ في السماء ، وأن علمه شامل لكل الكائنات . ليس كما زعم أهل التعطيل من أن الله تعالى لا فوق العالم ولا تحته ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه . وليس أيضا كما زعمته بعض الجهمية والصوفية من أن الله ﷻ في كل مكان ، أو أن الله تعالى في كل شيء، أو أن الله ﷻ كل شيء كما يزعمه الحلولية والاتحادية ؛ بل الصحيح الحق الذي يدل عليه النقل والعقل والفطرة والإجماع أن الله تعالى فوق عرشه ، عال على خلقه ، وأن علمه وقدرته وملكه ﷻ في كل مكان ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، لا يشبهه شيء من مخلوقاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [٢] ، فهو المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن النقائص والعيوب ، فمن اعتقد أن الله ﷻ متحد بمخلوقاته وأن العبد عين الرب ، والرب عين العبد فقد كفر ، وخالف الفطر والشرائع .

لهذا رد شيخ الإسلام ابن تيمية على الذين يعتقدون بوحدة الوجود كما عند الاتحادية الصوفية ، وبين رحمه الله أن كفرهم أشر من كفر أهل الكتاب [٣] ؛ ذلك أن الله ﷻ كفر النصارى الذين قالوا : إن الله ﷻ اتحد بعيسى ابن مريم فقال ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [٤] بينما الاتحادية يقولون : بأن الله ﷻ متحد مع جميع مخلوقاته ، وبهذا يكون كفرهم أشد ، لأنهم يعتقدون بأن الله ﷻ متحد بجميع ما في هذا الكون ، ولأن فطرهم مطموسة في سبيل معرفة الله ﷻ .

ثم ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بأن الإمام مالك رحمه الله كان من جملة العلماء الذين قالوا بتكفير أهل الوحدة والاتحاد فقال :

---

(١) أخرجه أبو داود في مسائل الإمام أحمد ص ٢٦٣ ، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ١/١٠٧ .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١١) .

(٣) انظر : الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ١/١٣٠ .

(٤) سورة المائدة ، الآية (١٧) .

" من المشايخ الذين قالوا بتكفير الاتحادية هم : سعيد بن المسيب ، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز ، ومالك بن أنس ، والأوزاعي ، وإبراهيم بن أدهم ، وسفيان الثوري، والفضيل بن عياض ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل وغيرهم " .

إلى أن قـــال رحمه الله : " كل هؤلاء متفقون على تكفير هؤلاء ومن هو أرجح منهم ، وأن الله ســـبحانه ليس هو خلقه ولا جزءا من خلقه وصفة لخلقه ؛ بل هو ﷻ مميز بنفسه المقدســـة بائن بذاته المعظمة عن مخلوقاته ، وبذلك جاءت الكتب الأربعة الإلهية من التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وعليه فطر الله تعالى عباده وعلى ذلك دلت العقول "[1] .

---

(١) الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٦/١ .

٢- العبودية

إن اجتهاد الإمام مالك رحمه الله وحرصه على العبادة ومناجاته ﷻ وبكائه الشديد في صلاة الليل والناس نيام دليل واضح على أنه عَلَمٌ من الأعلام العابدين الوجلين الخاشعين لله ﷻ في السر والعلانية .

ذكر القاضي عياض عن هذا المشهد في كتابه ترتيب المدارك : " قال المغيرة : خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة فمررت بمالك بن أنس ، فإذا أنا به قائم يصلي ، فلما فرغ من الحمد لله ابتدأ بسورة التكاثر حتى بلغ ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُن يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [1] فبكى بكاء طويلا وجعل يرددها ويبكي ، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي التي خرجت إليها ، فلم أزل قائما وهو يرددها ويبكي حتى طلع الفجر ، فلما تبين له ركع فصرت إلى منزلي فتوضأت ، ثم أتيت المسجد فإذا به في مجلسه والناس حوله ، فلما أصبح نظرت فإذا أنا بوجهه قد علاه نور حسن " [2] .

ولهذا ، قال محمد بن خالد بن عتمة : كنت إذا رأيت وجه مالك رأيت أعلام الآخرة في وجهه ، فإذا تكلم علمت أن الحق يخرج من فيه [3] .

وقال ابن مهدي : ما رأيت أحدا الله في قلبه أهيب منه في قلب مالك ، وقال أبو مصعب : كان مالك يطيل الركوع والسجود في ورده ، وإذا وقف في الصلاة كأنه خشبة يابسة لا يتحرك منها شيء ، فلما ضرب قيل له : لو خففت في هذا قليلا ، فقال : ما ينبغي أن يعمل لله عملا إلا إذا أحسنه والله تعالى يقول : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [4] " [5] .

وكان أكثر عبادته بالسر ، قال ابن وهب : " كان أكثر عبادة مالك في السر بالليل والنهار حيث لا يراه أحد ، وقد كان في كمه - رحمه الله - منديل مطوي على أربع

---

(١) سورة التكاثر ، الآية (٨) .

(٢) ترتيب المدارك ١٧٨/١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) سورة هود ، الآية (٧) ، وسورة الملك ، (٢) .

(٥) ترتيب المدارك ١٧٨/١ .

طاقـــات ، فـــإذا سجد سجد عليه فقيل لـــه في ذلك ، فقال : أفعله لئلا يؤثر الحط على جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل " [١] .

وقـــال ابن المبارك : رأيت مالكا فرأيتـــه من الخاشعين ، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبيـــنه ، وذلـــك أني كثيرا ما كنت أسمعه يقول : من أحب أن يفتح لـــه فرجه وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية [٢] .

لقـــد أثر القرآن الكريم وقول الرسول ﷺ على الإمام مالك – رحمه الله – ذلك أن الله ﷻ فرض على العباد أن يخافوه فقال تعالى : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٣] وقال ﷻ : ﴿ فَإِيَّـــايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [٤] ، وكذلك الرسول ﷺ قد خوف فقال : ((لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)) [٥] .

فـــالذي حـــدث للإمام مالك من خوف وخشية أثناء الصلاة وتلاوة القرآن لهو من صـــفات عـــباد الله المؤمـــنين ، الذين قال عنهم ﷻ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [٦] ، ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [٧] .

ولـــئن كان الصوفية يتحدثون كثيرا عن العبودية والخشوع والخوف والمراقبة والحزن والشـــوق .. فـــإن حـــال الإمام مالك يشير إلى أنه من الخاشعين الوجلين ، وأنه أسبق من الصوفية إلى القيام بالعبادة التي يسمونها الأحوال والمقامات .

---

(١) المصدر السابق ١/١٧٩- ١٨٠ .

(٢) نفسه ١/١٧٨ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (١٧٥) .

(٤) سورة النحل ، الآية (٥١) .

(٥) أخرجه البخاري مع الفتح ، في كتاب الرقاق ، باب (٢٧) ١٣/١١٥ (ح ٦٤٨٥ ، ٦٤٨٦) .

(٦) سورة الأنفال ، الآية (٢) .

(٧) سورة مريم ، الآية (٥٨) .

٣- العلـــم

روى أبـــو نعـــيم بسنده إلى ابن وهب " قال مالك : وحق على من طلب العلم أن يكـــون لـــــه وقار وسكينة وخشية ، والعلم حسن لمن رزق خيره ، وهو قسم من الله فلا تمكـــن الـــناس من نفسك ، فإن من سعادة المرء أن يوفق للخير ، وإن من شقوة المرء أن لا يزال يخطئ ، وذل وإهانة للعلم أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه .. " [١] .

وقســـم الإمام مالك الناس في العلم إلى : " رجل علم فعمل به ، فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [٢] . ورجل علم به و لم يعلمه فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى .. ﴾ [٣] ، ورجل علم علما و لم يعمل به فمثله في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ﴾ [٤] " [٥] .

وقيـــل لـــــه : ما تقول في طلب العلم ؟ قال : حسن جميل ، ولكن انظر الذي يـــلزمك مـــن حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه ، وقال : العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع [٦].

وقال : العلم نور يجعلـــه الله حيث يشاء ، ليس بكثرة الرواية وإنما نور يضعه الله في القلوب [٧] .

وذكر الحافظ ابن عبد البر في التمهيد قال : هذا كتبته من حفظي وغاب عني أصلي : أن عـــبد الله العمـــري [٨] العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل – أي على العزلة والتعبد – فكتب إليه مالك : إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق ، فرب رجل فتح لـــه في الصلاة و لم يفتح له في الصوم ، وآخر فتح له في الصدقة و لم يفتح له في الصوم

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٤٩/٦ .

(٢) سورة فاطر ، الآية (٢٨) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٥٩) .

(٤) سورة الفرقان ، الآية (٤٤) .

(٥) ترتيب المدارك ١٩٠/١ .

(٦) نفسه ١٨٥/١ ، وحلية الأولياء ٣٤٩/٦ .

(٧) نفسه ١٨٤/١ ، وحلية الأولياء ٣٤٨/٦ .

(٨) عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله ، أبو عبد الرحمن العمري ، الإمام القدوة (ت١٨٤هـ) انظر : سير أعلام النبلاء ٣٧٨/٨ .

، وآخر فتح لــه في الجهاد ، فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لي فيه ، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه ، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر [١] .

قـال الدكتور عبد العزيز الحميدي : " وهكذا أبان الإمام مالك فضل العلم ، وبين لذلـك العـابد شمول العبادة ، حيث ذكر أن نشر العلم من أفضل الأعمال الصالحة ، وأن العالم الذي ينشر علمه ليس بأقل عملا ممن قصر علمه على أداء الشعائر التعبدية " .

ثم أضاف قائلا : " وهذه نظرة مهمة في بيان شمول العبادة ، حيث تشمل كل عمل مشـروع أراد بـه فاعله وجه الله تعالى ، وإن من أفضل الأعمال التي تدخل في ذلك نشر العـلم ؛ بل إنه أفضل من الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية من النوافل ، لأن هذه نفعها قاصر على فاعلها ، ونشر العلم يصل نفعه إلى من قام به ومن استفاد من ناشره " [٢] .

وهـذا - بـلا شك - رد على بعض الأفكار الصوفية التي تفضل العزلة والتعبد من طـلب العلم ، كما أنه تصحيح على الذين يقتصرون دورهم في هذه الحياة على المبالغة في أداء الـنوافل ، دون أن يلتفـتوا إلى الغاية العظمى التي خلقوا من أجلها في هذه الدنيا ؛ ألا وهي تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له .

وعلى جانب اهتمام مالك على نشر العلم فقد بين موقفه من تفريق ما يسمونه بعلم الباطن من جانب آخر ، أو الذي اهتم بعلم الباطن ولا يلتفت إلى علم الظاهر ، حيث قال رحمـه الله : " شر العلم الغريب ، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس " [٣] . وحينما " سـأل رجـل مالكا عن الشيء من علم الباطن فغضب وقال : علم الباطن لا يعرفه إلا من عـرف علم الظاهر ، فمتى عرف علم الظاهر وعمل به فتح الله عليه علم الباطن ، ولا يكن ذلك إلا مع فتح قلبه وتنويره . ثم قال للرجل : عليك بالدين المحض ، وإياك وبنيات الطريق ، وعليك بما تعرف واترك ما لا تعرف " [٤] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠٢/٨ .

(٢) الرسائل الشمولية ص ١٩٤ .

(٣) ترتيب المدارك ١٨٤/١ .

(٤) نفسه ١٧٢/١ .

وهكذا كان موقف الإمام مالك مع أهل الأهواء كما قال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : إذا جاءه بعض أهل الأهواء ، يقول : أما أنا فعلى بينة من ربي ، وأما أنت فشاك ، فاذهب إلى مثلك فخاصمه ، ثم قرأ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ .. ﴾ [(١)] .

قـــال مطرف : سمعت مالكا إذا ذكر عنده فلان من أهل الزيغ والأهواء يقول : قال عمـــر بـــن العزيز رحمه الله تعالى سن رسول الله ﷺ لولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها اتباع لكـــتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ، ولا الـــنظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها استنصر ، ومن انتصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا " [(٢)] .

نفهـــم مـــن النصوص السابقة أن الإمام مالك - رحمه الله - حث على طلب العلم كغـــيره من علماء السلف الصالح ؛ ذلك أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، كما وجه إلى من يطلب العلم أن يخشى الله ﷻ .

ونـــدرك منه كذلك إنكاره — رحمه الله — على ما يعتقده بعض المتصوفة بأن لديهم علوما خاصة لا يطلع عليها أحد إلا من كان معهم ، وأن للدين ظاهرا وباطنا ، وأن الظاهر للعوام وهو الشريعة عندهم ، وأن الباطن للخواص وهو الحقيقة عندهم .

ولا شك أن هذا المعتقد أثر من آثار المعتقدات الشيعية والباطنية ، لأنهم قاموا بتفسير عـــلومهم تفسيرا باطنيا ، كما قال الغزالي : " وهذه العلوم — علوم المكاشفة — هي علوم ســـرية لا يجوز الإفضاء بها ، ولا تستطيرها في كتاب .. " [(٣)] ثم قسم العلوم إلى قسمين : العلم الظاهر ، والعلم الباطن ، واستدل بهذا التقسيم بحديث موضوع (العلم علمان ، فعلم بـــاطن في القلب فذلك هو العلم النافع ..) [(٤)] ، وهو شبيه بالتقسيم الباطني للعلوم ، الذي شجع الباطنية على الإسراف في التأويلات .

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٨) .

(٢) المصدر السابق ١٧٢/١ .

(٣) إحياء علوم الدين ٢٤٦/٤ .

(٤) إتحاف السادة المتقين ٣٤٩/١ ، وأبو حامد الغزلي والتصوف ص ١١٦ .

٤- الـزهـد

قـال الإمام مالك رحمه الله : " الزهد في الدين طيب المكسب ، وقصر الأمل " [١] بمعـنى أن يكون كسب الإنسان في هذه الحياة من حلال طيب ، وألا يطول الأمل فيها ، ثم ذكر لرجل طلب منه الوصية فيقول لـه : " أوصيك أن تعمل صالحا وتأكل طيبا " [٢] .

لا شـك أن هـذا الموقـف وهذه النصيحة موافقة لتوجيهات القرآن الكريم والسنة النـبوية المطهرة ، حيث قال الله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلا تَتَّـبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [٣] وقال تعالى أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٤] .

وقال الرسول ﷺ : " أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بمـا أمـر بـه المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [٥] " [٦] .

أما قصر الأمل في هذه الحياة فقد بينه الإمام مالك فيقول : " بغيتك منها ما يكفيك، فأقل عيشها يغنيك ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى " [٧] .

فهذا توجيه سليم من الإمام مالك – رحمه الله – حيث يعلم الإنسان الرضا والقناعة ، ويرشـده كيف يعيش في هذه الحياة القصيرة ، ويبين أن المقصد الأعظم في هذه الحياة هو عبادة الله جل جلاله مع الانتفاع بما أحل الله لـه بلا إسراف ولا تقتير ، وليس المراد من وجوده في هذه الحياة مجرد الانتفاع بما لا يأمر به الله ﷻ وبما لا ينفعه ، ويلهيه الأمل ، لأن الله ﷻ ذم الذيـن يتمتعون في هذه الدنيا ويلهيهم الأمل فقال سبحانه : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ . ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [٨] .

---

(١) ترتيب المدارك ١٨٤/١ .

(٢) نفسه ١٨٨/١ .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٦٨) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٧٢) .

(٥) سورة المؤمنون ، الآية (٥١) .

(٦) سبق تخريجه في ص ٢٣٦ .

(٧) ترتيب المدارك ١٨٧/١ .

(٨) سورة الحجر ، الآيتان (٢- ٣) .

لقـــد اتضـــح زهد الإمام مالك - رحمه الله - من خلال بعض مواقفه من متع هذه الحيـــاة ، قال الحارث مسكين : " رحم الله مالكا ما كان أصونه للعلم وأصبره على الفقر ولزوم المدينة ! أمر لـــه بجوائز ثلاثة آلاف دينار فما استبدل مترلا غير المترل الذي كان فيه ، ولا استفاد منه غلة ولا صنعة ولا تجارة " [(١)] .

ولكـــن لا بد من التنبيه بأن زهد الإمام مالك لم يكن زهدا منحرفا ، أو كان هجرا لـــلمال والعيـــال – كمـــا عند الصوفية المنحرفين – وإنما كان زهده نابعا من تعاليم ديننا الحـــنيف ، التي تأمر بالرضا بالقليل والقناعة بما وهبها الله ﷻ من نعم ، وتحث على العمل والسعي في مناكب هذه المعمورة الواسعة .

ومـــا ذكره القاضي عياض خير بيان وتوضيح لهذا الموقف حيث قال : أن لمالك بن أنـــس أربعمائـــة دينار يتجر لـــه بها ، فمنها كان قوام عيشه ومصلحته [(٢)] ، وكان أخوه النضر يتجر في البز ، فشاركه مالك حيث كان يبيع معه ويتجر فيه .

فـــلما أفضى به الأمر وشرع بطلب العلم أنفق ما كان يملك ، حتى بلغ به الحال إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه .. [(٣)] .

إلى جانب هذا الزهد كان الإمام مالك - رحمه الله – يعتني بلباسه أتم عناية ، وكان يقـــول : إن مروءة العالم أن يختار الثوب الحسن الذي يرتديه ويظهر به ، فقد كان – رحمه الله – يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله .

قـــال القاضـــي أبـــو الوليد : استحسن عمر ﷺ لأهل العلم والصلاح حسن الزي والـــتجمل المباح ، لأن ذلك مشروع ، وقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ((إن الله جميل يحب الجمال ، والكبر من بطر الحق وغمط الناس)) [(٤)] ،

---

(١) المصدر السابق ١٨٢/١ .

(٢) المصدر نفسه ١٨٤/١ .

(٣) الديباج المذهب ص ١٩ .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ٩٣/١ (ح ٩١) .

ولما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [1] قال : أن يعيش ويأكل ويشرب غير مضيق عليه [2] .

وحينما سئل الإمام مالك عن لباس الصوف الغليظ وغيره ؟ فقال : لا خير في لبسه إلا في سفر كما لبسه النبي ﷺ لأنه شهرة – تظاهر بالزهد – ، وإنه لقبيح بالرجل أن يعرف دينه بلباسه ، وقال – رحمه الله – : ما أدركت فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان ، وكان يقول : أحب للقارئ – أي الفقيه – أن يكون أبيض الثياب . كما كان يحب لأحد أنعم الله عليه أن يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم ، ينبغي لهم أن يظهروا مروآتهم في ثيابهم إجلالا للعلم [3] .

وكان – رحمه الله – يكره خلق الثياب ، أي البالي منها ، وقال الضحاك : كان مالك جميل الوجه نقي الثوب ، يكره أخلاق اللباس [4] .

ولا شك أن موقف الإمام مالك مما سبق ذكره يعتبر ردا وتصحيحا لمفهوم الصوفية الخاطئ في الزهد ؛ وهو التخلي عن المال كلية ، وتعذيب الجسد وعدم الاعتناء به . كما أنه أيضا رد على الصوفية التزامهم لبس الصوف ليعرفوا ، ذلك لأن من مبادئه ألا يعرف دين الرجل من ثوبه .

---

(١) سورة القصص ، الآية (٧٧) .

(٢) عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لابن شاس ، الدكتور محمد أبو الأجفان وغيره ، ط١ (دار الغرب الإسلامي) ٣/٥٢١- ٥٢٢ .

(٣) انظر : ترتيب المدارك ١/١١٤ ، وعقد الجواهر الثمينة ٣/٥٢٢ .

(٤) انظر : الديباج ص ١٨ .

٥- التقــوى

روى أبــو نعــيم بسنده إلى خالد بن خداش قال : ودعت مالكا بن أنس فقلت : أوصني يا أبا عبد الله ، قال : تقوى الله ، وطلب الحديث من عند أهله [١] .

إذا نظرنا في وصية الإمام مالك وجدناها قصيرة لكنها جماع الخيرات ، ومأخوذة مما دل عليه الكتاب والسنة .

حيــث وصــى الله ﷻ الأولــين والآخرين بالتقوى فهي خير وصية فقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللّهَ ﴾ [٢] .

وأمــرنا الله بأن نتزود بالتقوى لأنها خير الزاد قال تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [٣] .

وأثنى الله ﷻ على المؤمنين بأبرز صفاتهم العملية وهي التقوى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ زُيِّــنَ لِــلَّذِينَ كَفَــرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَــامَةِ ﴾ [٤] .

وذكــر الله ﷻ محبته لعباده المؤمنين بهذه الصفة ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [٥] .

أمــا من السنة ففيها أحاديث كثيرة تحدثت عن التقوى ، ورفعت من شأن المتقين ، فمــن ذلــك قول الرسول لأبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » [٦] .

وقولــه ﷺ لأبي ذر أيضا : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » [٧] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٤٨/٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية (١٣١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٩٧) .

(٤) سورة البقرة ، الآية (٢١٢) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية (٧٦) .

(٦) أخرجه الترمــذي في البر والصلــة ، باب ما جاء في معاشرة الناس ٣٥٥/٤ (ح١٩٨٧) ، والإمام أحمد في المسند ١٥٣/٥، ١٥٨ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٨١/٢ (١٦١٨) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٥٨/٥ .

ونجد رسول الله ﷺ ينهى عن مصاحبة غير الأتقياء حينما يقول : ((لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي)) [(١)] .

ومعلوم أنه ليس المقصود من ذلك مجرد الأكل ؛ وإنما المراد ما يترتب على مجالسة أهل المعاصي في التأثير في مستوى الإيمان .

ثم إن المؤمن التقي لا بد أن يحفظ نفسه عما يشينها ويعرضها للملام أو العذاب ، وذلك بترك أسباب السخط والسخرية والعقوبة ، وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب ، وإنما كمل ذلك ويتم بترك بعض المباحات .

وإلى هذا أشار الحديث الشريف الذي يقول : ((إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)) [(٢)] .

وفي هذا الحديث ما يفيد أن تمام التقوى المشار إليه بقوله ((اتق الشبهات)) مرتبط بطهارة القلب ، ونظافته من الوساوس والهواجس ، ومن سيئ المشاعر وخبيث الخواطر .

ولهذا وجدنا بعض الصوفية كأحمد الجريري قد أشار إلى هذا الجانب معتقدا بأن التقوى سبب الوصول إلى الكشف والمشاهدة .

وكذلك أبو القاسم النصر آباذي قد قال : أن من التزم بالتقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [(٣)] .

وقال بعضهم : من تحقق في التقوى هون الله على قلبه الإعراض عن الدنيا [(٤)] .

ولكن ينبغي أن نفهم أن التقوى لا يعارض التمتع بزينة الله تعالى التي أباحها لعباده ، وقد كان خيار السلف يتمتعون بها ويضربون مع ذلك أمثلة للتقوى ، وحسبنا قدوة في

---

(١) أخرجه أبو داود ، في كتاب الأدب ، باب ١٩ من يؤمر أن يجالس ، والترمذي في كتاب الزهد ، باب صحبة المؤمن (٢٣٩٧) ، وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢٨٥/٢ (١٩٥٢) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٢١٩/٣ (ح ١٥٩٩) والبخاري في الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ٢٨/١(ح٥٢) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية (٣٢) .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٠٥- ١٠٦ .

ذلــك الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – فقد كتب إليه يحي [١] بن يزيد النوفلي ناصحا إيــاه لأنه – رحمه الله – قد أخذ مما أباح الله لــه من نصيب هذه الدنيا فيقول : " ..فقد بلغني أنك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطئ ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطي ، وارتحل إليك الناس ، واتخذوك إماما ، ورضــوا بقولك ، فاتق الله تعالى يا مالك ، وعليك بالتواضع ، كتبت إليك بالنصيحة مني كتابا ما اطلع عليه غير الله ﷻ .." .

فــرد عليه الإمام مالك فيقول : " فقد وصل إلي كتابك ، فوقع مني موضع النصيحة والشفقة والأدب ، أمتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيرا ، وأسأل الله تعالى التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أما ما ذكرت لي إني آكل الرقاق ، وألبس الدقاق وأحــتجب ، وألبس الوطئ فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله تعالى ، قد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] . وإني لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا .." [٣] .

إذن فالــتقوى ليس المراد منها – كما يفهمها بعض الصوفية – هو مفارقة الدنيا أو الإعــراض عــنها ؛ وإنما أن تملكها وتستفيد فيها ، لكي تستطيع أن تقوم بأداء الواجبات ، وتنفيذ ما أمر الله به في هذه الحياة .

---

(١) يحي بن يزيد بن عبد الملك النوفلي ، من عباد أهــل المدينة ، انظر : الجرح والتعديل ١٩٧/٩ ، ولســان الميزان ٣٦٤/٦ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

(٣) انظر : موسوعة أخلاق القرآن ، للدكتور أحمد الشرباصي ٢١١/٢- ٢١٢ .

٦ - الـذكـر

روى أبو نعيم بسنده إلى القعنبي عن مالك أنه بلغه أن عيسى عليه السلام كان يقول : " لا تكـثروا الكـلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعـلمون ، ولا تـنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، ولكن انظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان ، مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية " [١] .

وكـان من ضمن وصاياه " ..وعليك بمعالي الأمور وكرائمها ، واتق رذائلها ، وما سـف منها ، فإن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها ، وأكثر تلاوة القرآن ، واجتهد ألا تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب من ذكر الله .." [٢] .

لاشـك أن كلام الإمام مالك – رحمه الله – في الذكر وتلاوة القرآن موافق لما دل عـليه الكـتاب والسنة ، كما قال الله تعالى مخاطبا أهل الإيمان ، وآمرا لهم بأن يذكروا الله ذكـرا كثيرا في الليل والنهار : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِـيلاً ﴾ [٣] . وقال تعالى أيضا : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [٤] .

والذكـر لـه فضل عظيم ، قال الله تعالى مخبرا عن حال الذاكرين والذاكرات وما أعد لهم ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٥] .

وقال رسول الله ﷺ : "ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجـاتكم ، وخـير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟" قالوا بلى قال : "ذكر الله تعالى" [٦] .

---

[١] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٥٨/٦ .

[٢] الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة ص ٣٣٢ .

[٣] سورة الأحزاب ، الآيتان (٤١- ٤٢) .

[٤] سورة الأعراف ، الآية (٢٠٥) .

[٥] سورة الأحزاب ، الآية (٣٥) .

[٦] أخرجـه الترمذي ، في الدعوات ، باب ما جاء في فضل الذكر ٣٨٩/٥ . و أورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٣٩/٣ (ح٣٦١٧) ، و في صحيح ابن ماجة (ح٢٧٩٠) .

وعن عبد الله بن بسر ﷺ أن رجلا قال : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله » [١] .

وقال ﷺ : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ الم ﴾ حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » [٢] .

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال : « أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟ » فقلنا يا رسول الله نحب ذلك ، قال : « أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم ، أو يقرأ آيتين من كتاب الله ﷻ خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل » [٣] .

وقال ﷺ : « من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضجعا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة » [٤] .

فالإمام مالك – رحمه الله – كان حريصا على ذكر الله وأوصى به ، ولكنه – مع ذلك – ينكر الاجتماع للذكر على صوت واحد كما تفعله المتصوفة المنحرفة ؛ ذلك أن الاجتماع على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمن رسول الله ﷺ ، ولا في زمن الصحابة ولا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان ، ولا عرف ذلك في شريعة محمد ﷺ ، بل هو من البدع التي سماها رسول الله ﷺ ضلالة وهي مردودة .

كما ذكر ذلك ﷺ : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [٥] يعني فهو مردود غير مقبول ، وفي رواية : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

---

(١) أخرجه الترمذي ، في الدعوات ، في فضل الذكر ٣٨٨/٥ . و أورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٣٩(٣٦١٥) ، و في صحيح ابن ماجة (ح٢٧٩٣) .

(٢) أخرجه الترمذي ، في فضائل القرآن ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن (٣٠٨٧) ، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣٤٠/٥ .

(٣) أخرجه مسلم ، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه ١ / ٥٥٣(٨٠٣)

(٤) أخرجه أبو داود ، في كتاب الأدب ، باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله ١٨١/٥(٤٨٥٦)

(٥) أخرجه البخاري في الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٦/٢ (ح٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية ، باب ٨ (ح١٧١٨) .

" وعن الحسن البصري أنه سئل وقيل لـــه : ما ترى في مجلسنا هذا ؟ قوم من أهل السـنة والجماعة لا يطعنون على أحد نجتمع في بيت هذا يوما ، فنقرأ كتاب الله وندعو الله ربـنا ، ونصـلي على النبي ﷺ ، وندعو لأنفسنا ولعامة المسلمين ؟ قال : فنهى الحسن عن ذلـك أشد النهي ، لأنه لم يكن من عمل الصحابة ولا التابعين ، وكل ما لم يكن عليه عمل السـلف الصـالح فليس من الدين ، فقد كانوا أحرص الناس على الخير ، ولو كان فيه خير لفعلوه ، وقد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [١] .

وقـال مالك بن أنس : فما لم يكن يومئذ دينا لم يكن اليوم دينا ، وإنما يعبد الله بما شرع ، وهذا الاجتماع لم يكن مشروعا قط فلا يصح أن يعبد الله به " [٢] .

وهذا دليل على تمسك الإمام مالك – رحمه الله – بما عليه أهل الحق من سلف هذه الأمة ، وحرصه الشديد على أن يكون هذا الدين –كما شرعه الله ﷻ – نقيا من كل شائبة ، وخاليـا من بدع المبتدعين ؛ بل تصحيح للصوفية الذين شرعوا أذكارا أو أورادا من عند أنفسهم كما حصل للصوفية المتأخرين .

---

(١) سورة المائدة ، الآية (٣) .

(٢) انظر : المعيار المعرب والجامع المغرب ١١/٤٠ .

٧- السمــاع

لقـــد ادعى الصوفية بأنهم قوم مرهفو الإحساس عاطفيون ، لذلك أحدثوا ما يسمونه السماع ، وهو الاستماع إلى الغناء والرقص والوجد ، اعتقادا منهم حلــه لأنه يحي القلوب حسب زعمهم .

قال أبو العباس القرطبي : كان الصوفية يطلقون السماع على فهم يقع لأحدهم بغتة، يكون عنده وجد وغيبة سواء كان ذلك في نظم أو نثر أو غيرهما [١] .

وقـــال ابن الجوزي : " اعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين ، أحدهما : أنه يلهي القلب عـــن التفكر في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته . والثاني : أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعـــو إلى اســـتيفائها من جميع الشهوات الحسية ، ومعظمها النكاح وليس تمام لذته إلا في المـــتجددات ، ولا سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل فلذلك يحث على الزنا ، فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس .." [٢] .

ولا شـــك أن الغناء الذي يصاحبه شيء من آلات اللهو كالمزامير وغيرها مجمع على تحـــريمه ، وكذلـــك الغناء الذي لا يصاحبه شيء من آلات اللهو ولكنه فيه شيء من الغزل وذكـــر النساء والحب والغرام ، لأن ذلك من أعمال الفساق والزنادقة ، ومن الأمور التي لم يأمر بها الله تعالى ولا رسوله ﷺ ، ولا سلف الأمة ، ولا أعيان مشايخها .

ولعـــل الحـــدث الذي حصل في عهد الإمام مالك – رحمه الله – يبين لنا موقفه من السماع لدى الصوفية ، وأن ما تقوم به الصوفية من صنعة الغناء والرقص والوجد ..جديرة بالإنكار لأن هذا العمل ليس من فعل الإسلام .

حكـــى عيـــاض عن التنيسي [٣] أنه قال : كنا عند مالك بن أنس وأصحابه حوله ، فقال رجل من أهل نصيبين [٤] : يا أبا عبد الله عندنا قوم يقال لهم الصوفية ، يأكلون كثيرا ثم يأخذون في القصائد ، ثم يقومون فيرقصون ، فقال مالك : أصبيان هم ؟ قال : لا ، فقال

---

(١) انظر : كشف القناع لأبي العباس القرطبي ص ٥٠ ، وإحياء علوم الدين ٢٦٨/٢ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٧٤ .

(٣) هو : عبد الله بن يوسف التنيسي ، أبو محمد الكلاعي ، أصله من دمشق ، ثقة من أثبت الناس في الموطأ ، (ت ٢١٨هـ) ، انظر: التقريب ٤٣٢/١- ٤٣٣ .

(٤) هي : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة العربية على جادة القوافل بين الشام والموصل ، ونصيبين أيضا قرية من نواحي حلب ، وهي أيضا مدينة على شاطئ الفرات . انظر : معجم البلدان ٢٨٨/٥- ٢٨٩ .

مالك : أمجانين هم ؟ قال : لا ، قوم مشايخ عقلاء . قال مالك : ما سمعنا أن أحدا من أهل الإســلام يفعل هذا ، فقال الرجل : بل يأكلون ثم يقومون فيرقصون ، يلطم بعضهم رأسه وبعضهم وجهه ، فضحك مالك وقام إلى منزله .

فقال أصحاب مالك للرجل : يا هذا أدخلت والله مشقة على صاحبنا ، لقد جالسناه نيفا وثلاثين سنة فما رأيناه ضحك إلا هذا اليوم [١] .

وفي النص رأينا كيف أنكر الإمام مالك - وهو إمام أهل السنة - على أن يكون من أهــل الإسلام من يفعل هذا إلا أن يكون مجنونا أو صبيا ، وهذا واضح أنه ليس من تعاليم الإســلام ثم يقال : ولو فعلوه على جهة اللعب كما يفعله الصبي لكان أخف عليهم مع ما فيــه مــن إســقاط الحشمة وإذهاب المروءة وترك هدي الإسلام وأرباب العقول ؛ لكنهم يفعــلونه عــلى جهة التقرب إلى الله ﷻ والتعبد به ، ويعتقدون بأن اللهو واللعب عبادة ، والحق أن ذلك من البدع الموقعة في الضلالة .

قــال إسحاق بن عيسى الطباع [٢] : سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق [٣] .

وهذا محمول على غناء النساء وأما الرجال فغناؤهم مذموم أيضا بحيث إذا داوم أحد على فعله أو سماعه سقطت عدالته ، لما فيه من إسقاط المروءة ومخالفة السلف الصالح .

فموقــف الإمــام مالك من السماع عند الصوفية هنا واضح ، فهو ينكر وينهى عن ذلك كما هو بين من عباراته ، وقد " قال في المدونة [٤] : وأكره الإجارة على تعليم الشعر والــنوح وعلى كتابة ذلك ، قال عياض : معناه نوح المتصوفة وإنشادهم على طريق النوح والبكاء ، فمن اعتقد في ذلك أنه قربة لله تعالى فهو ضال مضل ، ولا يعلم مسكين أن الجنة حفــت بالمكاره وأن النار حفت بالشهوات ، والله تعالى لم يبعث أحدا من الأنبياء (عليهم الصــلاة والســلام) باللهو والراحــة والغنــاء ؛ وإنما بعثوا بالــبر والتقوى ، وما يخالف الهــوى " [٥] .

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ١/١٨٠ ، ومناقب مالك للزواوي ص ١٥٨ .

(٢) هو : إسحاق بن عيسى بن نجيح البغدادي ، أبو يعقوب بن الطباع (ت ٢١٤هـ) انظر : التقريب ١/٧٢

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨٢ .

(٤) انظر : المدونة الكبرى ، طبعة دار صادر ، (بيروت) ٤/٤٢١ .

(٥) المعيار المعرب ١١/٣٣ .

ومما يدل على إنكار الإمام مالك ونهيه عن الغناء واستماعه قوله : إذا اشترى جارية فوجدهـا مغنية كان لـه ردها بالعيب ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده ، فإنه قد حكى زكريا الساجي أنه كان لا يرى به بأسا [١] .

وممـن ذهب إلى تحريمه القاسم بن محمد من علماء أهل المدينة ، وكذلك علماء أهل مكـة كمجـاهد وعطاء ، وعلماء أهل الشام كمكحول والأوزاعي ، وعلماء أهل مصر كالليث بن سعد ، وعلماء أهل الكوفة وغيرهم [٢] .

وأمـا ما نقله القشيري [٣] ومحمد بن طاهر المقدسي [٤] عن الإمام مالك بأنه رخص الغناء فذلك لا يصح عنه ، وخلاف المشهور عنه كما تقدم ذكره .

قـال أبو العباس القرطبي : وقد حكاه بعض الشافعية والقشيري عن مالك ولا يصح عنه بوجه ، ولا عن أحد من أصحابه [٥] .

وقـال السمعاني عن محمد بن طاهر المقدسي : لـه في كتاب إباحة الغناء والرقص والـلهو مـناكير ، فإنه روي فيه عن مالك وغيره من أئمة الهدى المتقدمين حكايات عنهم منكرة باطلة قطعا [٦] .

وقـال شيخ الإسلام ابن تيمية : " .. وإن نقل عن بعض أهل المدينة وغيرهم أنه سمع الغـناء فـلم يقل أحد منهم أنه مستحب في الدين ومختار في الشرع أصلا ، بل كان فاعل ذلـك منهم يرى مع ذلك كراهته ، وأن تركه أفضل ، أو يرى أنه من الذنوب ، وغايته أن يطـلب سـلامته من الإثم أو يراه مباحا ، كالتوسع في لذات المطاعم والمشارب والملابس والمساكن ، فأما رجاء الثواب بفعله والتقرب إلى الله فهذا لا يحفظ عن أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل المحفوظ عنهم أنهم رأوا هذا من ابتداع الزنادقة " [٧] .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٢ .

(٢) نزهة الأسماع لابن رجب ص ٧١ .

(٣) في الرسالة القشيرية ص ٣٣٦ .

(٤) هو : محمد طاهر المقدسي الظاهري الصوفي ، قال الذهبي ليس بالقوي ، فإن له أوهاما كثيرة في تواليفه ، وله انحراف عن السنة إلى التصوف غير مرضي ، وهو نفسه صدوق (ت ٥٠٧هـ) انظر : سير أعلام ٣٦١/١٩ وطبقات الأولياء ص ٢٣٥ .

(٥) كشف القناع ص ٥٧، ١٦٠ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) الاستقامة ٢٣٧/١- ٢٣٨ .

وقال في موضع آخر : " وأما نقلهم لإباحته عن مالك وأهل الحجاز كلهم فهذا غلط من أسوأ الغلط ، فإن أئمة أهل الحجاز على كراهته وذمه ، ومالك نفسه لم يختلف قوله وقول أصحابه في ذمه وكراهته " [١] .

وقال ابن القيم : قال صاحب القرآن في الرد على صاحب الغناء بقول مالك بإباحة الغناء ، وأما نقلك لإباحته عن مالك بن أنس وأهل الحجاز كلهم فهذا من أقبح الغلط وأفحشه [٢] .

وبهذا يتبين لنا أن ما نسب إلى الإمام مالك من إباحة الغناء كذب وافتراء ، ويلاحظ أن الاتهام مصدره من أهل التصوف الذين يبيحون السماع والغناء المحرم . وقد جاء الاتهام أيضا من أبي الفرج الأصبهاني [٣] في كتابه " الأغاني " ، وهو متهم بالتشيع ، وروى الحكاية التي ذكرها ابن طاهر .

ثم وجدنا نقدا من العلماء المالكية لمذهب الصوفية في الغناء ، فقد قال القرطبي – رحمه الله – في تفسير قوله ﷻ في سورة طه ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلاَ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [٤] سئل الإمام الطرطوشي ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية ؟ – واعلم حرس الله مدته – أنه اجتمع جماعة من الرجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى وذكر محمد ﷺ .

ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم ، ويقوم بعضهم برقص ، ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين ، ومن هذا القول الذي يذكرونه :

يا شيخ كف عن الذنوب ... قبل التفرق والزلل
واعمل لنفسك صالحا ... ما دام ينفعك العمل
أما الشباب فقد مضى ... ومشيب رأسك قد نزل

---

(١) الاستقامة ١/٢٧٢- ٢٧٣ .

(٢) انظر : نزهة الأسماع ص ٦٧- ٧١ .

(٣) هو : علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني ، وقال عنه الذهبي : والعجب أنه أموي شيعي . انظر : سير أعلام النبلاء ١٦/٢٠١ .

(٤) سورة طه ، الآيات (٩١- ٩٣) .

وفي هـذا ونحوه الجواب : - يرحمك الله - مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، ومـا الإسـلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثـه أصحاب السامري ، لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار ، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهـو دين الكفار وعباد العجل ، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عـن كتاب الله تعالى ، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقـار ، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمـن بـالله واليـوم الآخر أن يحضرهم ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق " [١] .

وقـال ابن الحاج : " فإن قيل أليس قد روى عن جماعة من الصالحين أنهم سمعوه قلنا مـا بلغـنا أن أحدا من السلف الصالح سمعه ولا فعله ، وهذه مصنفات أئمة الدين وعلماء المسلمين مثل مصنف مالك بن أنس ، وصحيح البخاري ومسلم ، وسنن أبي داود والنسائي رضـي الله عنهم إلى غيرها خالية من دعواكم ، وهذه تصانيف فقهاء المسلمين الذي تدور عـليهم الفتوى قديما وحديثا في شرق البلاد وغربها فقد صنف المسلمون على مذهب مالك ابـن أنـس تصانيف لا تحصى ، وكذلك مصنفات علماء المسلمين على مذهب أبي حنيفة والشـافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من فقهاء المسلمين ، وكلها مشحونة بالذب عن الغناء وتفسيق أهله ، فإن كان فعله أحد من المتأخرين فقد أخطأ ، ولا يلزمنا الاقتداء بقوله ونترك الاقتداء بالأئمة الراشدين .

ومن هنا زل من لا بصيرة لـه ، نحتج عليهم بالصحـابة والتابعين وعلماء المسلمين ، ويحتجون علينا بالمتأخرين سيما وكل من يرى هذا الرأي الفاسد عار من الفقه عاطل من العلم لا يعرف مأخذ الأحكام ولا يفصل الحلال من الحرام ، ولا يدرس العلم ولا يصحب أهلـه ولا يقـرأ مصـنفاته ودواوينه ، وقد قال النبي ﷺ : ((من يرد الله به خيرا يفقهه في الديـن)).. [٢] .

فمـن هجـر أهل الفقه والحكمة وانقضى عمره في مخالطة أهل اللهو والبطالة كيف يؤمـن بهذه المسألة وغيرها ؟ ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللّٰهُ ﴾ فيا من رضي بدينـه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/٢٣٧- ٢٣٨ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٢٢٨ .

ودنياه وتوثق لآخرته ومثواه باختياره مالك بن أنس وفتواه إن كنت على مذهبه ، وباختيار أبي حـنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل إن كنت ترى رأيهم كيف هجرت اختيارهم في هذه المسألة وجعلت إمامك فيها شهواتك وبلوغ أوطارك ولذاتك ؟ " [١] .

ومـن خلال النصوص السابقة يتبين لنا أن الإمام مالك – رحمه الله – وأتباعه كانوا يكـرهون سماع الغناء ، أو السماع المنهي عنه الذي يكون فيه ضرب بالقضيب على شيء من الأديم (كالنوبة والطار) ، والذي يكون مصحوبا بالرقص والتواجد والقصائد الشركية ونحو ذلك .

أمـا السـماع الذي شرعه الله ﷻ لعباده المتقين فلا كراهة فيه ؛ بل كان ذلك أمر مشـروع ومطـلوب ، وهو سماع آي القرآن الكريم تلاوة وتدبرا وحفظا ، والمواظبة على الأذكـار الراتبة التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها ، ومذاكرة الحديث والاشتغال به وبالعلوم الشرعية .

وقـد كان أصحاب النبي ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ عليهم شيئا من القـرآن الكريم والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب ﵁ يقول لأبي موسى الأشعري ﵁ يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون [٢] .

وعـن عبد الله بن مسعود ﵁ قال : قال النبي ﷺ : « اقرأ علي القرآن » قلت : أقرأه عـليك وعليك أنزل ؟ فقال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة النساء حـتى وصـلت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ قال : « حسبك » فنظرت فإذا عيناه تذرفان [٣] .

---

(١) المدخل لابن الحاج ١٠٨/٣ .

(٢) أخرجه الدارمي في سننه ٣٣٩/٢ (ح٣٤٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح في فضائل القرآن ، باب البكاء عند قراءة القرآن ١٢١/١٠ (ح ٥٠٥٥) .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام مالك في التصوف

١- ما نسب إليه الكلام في الحقيقة

قال ابن عجيبة [(١)] في " إيقاظ الهمم في شرح الحكم " :

" قال مالك رحمه الله : من تصوف و لم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه و لم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق " [(٢)] .

وقال محمد أمين الكردي [(٣)] : بعد أن بين الشريعة والطريقة والحقيقة : " لا بد لسالك طريق الآخرة من الجمع بين هذه الثلاثة وعدم التعطيل لشيء منها ، وذلك لأن الحقيقة بلا شريعة باطلة ، والشريعة بلا حقيقة عاطلة " ثم استدل بقول الإمام مالك : " من تشرع و لم يتحقق فقد تفسق ، ومن تحقق و لم يتشرع فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق " [(٤)] .

التعليق :

هذه النصوص لا تصح نسبتها إلى إمام دار الهجرة لعدة أمور :

أولا : إذا نظرنا في النصوص فليس فيها سند يمكن الرجوع إليه ، ذلك أن السند وارد عن أناس لهم ذوق وميل إلى التصوف ، حيث أخذوا يدعمون أفكارهم ومبادئهم بالكلام المصطنع لعلم من ا لأعلام الكبار ، وهذا ليس بغريب على بعض المتصوفة الذين يحاولون جذب الناس إلى معتقداتهم كما فعل ذلك الشعراني وغيره حيث أدرج الصحابة الكبار والأئمة الأخيار ضمن أعلام التصوف ، وكما ذكر ذلك محمد أبو الفيض المنوفي مؤخرا من أن الأئمة الأربعة كانوا من الصوفية [(٥)] .

---

(١) هو أحمد بن محمد المهدي بن عجيبة ، صوفي من أهل المغرب ، وله كتب كثيرة في التصوف منها : الفتوحات الإلهية ، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم ، (ت ١٢٢٤هـ) انظر : جمهرة الأولياء ١/٢٣٤ .

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، لابن عجيبة ، بيروت (دار المعرفة) ١/٥ ، ومقدمة التعرف ص ٨ .

(٣) هو محمد أمين بن فتح الله الإربلي الكردي ، واعظ (ت ١٣٣٢هـ) انظر : الأعلام ٦/٤٣ ، ومعجم المؤلفين ٩/٧٧ .

(٤) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب ، لمحمد أمين الكردي ط١ سوريا (دار القلم ١٤١١م) ص ٤٦٨ .

(٥) انظر : جمهرة الأولياء وأعلام التصوف ١/١٥٥ .

ثانيا : وأما من حيث المتن فإني أبعد أن يصدر مثل هذا المصطلح عن الإمام مالك — رحمه الله — لعدم ورود النصوص في الكتب المعتمدة لدى إمام دار الهجرة وتلامذته ، ولدى كتاب تراجمه من العلماء المشهورين ، وأتساءل كيف يقر الإمام مالك على التصوف وهو من المنكرين أشد الإنكار على أعمال صدرت من الصوفية ؟!

كما حكى لنا عبد الله بن يوسف التنيسي فقال : " كنا عند مالك بن أنس فقال رجل من أهل نصيبيين : يا أبا عبد الله ! عندنا قوم يقال لهم الصوفية يأكلون كثيرا ، فإذا أكلوا أخذوا في القصائد ثم يقومون فيرقصون ، فقال مالك : هم مجانين ؟ فقال له : لا ، قال : هم صبيان ؟ قال : لا ، هم مشايخ عقلاء ، قال مالك : ما سمعنا أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هكذا .

فقال الرجل : بل يأكلون ثم يقومون فيرقصون ، يلطم بعضهم رأسه ، وبعضهم يلطم وجهه ، فضحك مالك وقام إلى مترله ، فقال أصحاب مالك للرجل : يا هذا أدخلت والله مشقة على صاحبنا ، لقد جالسناه نيفا وثلاثين سنة فما رأيناه ضحك إلا هذا اليوم " .

وبذلك فالنصوص المنسوبة إليه التي تتعلق بالتحدث عن التصوف والكلام عن الحقيقة مستبعدة من حيث السند والمتن والموضوع .

ثالثا : أما التحدث عن الزندقة فقد تكلم الإمام مالك عنها ، حيث كان من أشد الناس نهيا عن الاشتغال بعلم الكلام ، وعن مجالسة المتكلمين لأن هذا العمل مؤد إلى الزندقة ، ومخالف لما كان عليه السلف الصالح .

كما أخرج ذلك الهروي عن إسحاق بن عيسى قال : " قال مالك : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب " [١] .

وأخرج أبو نعيم عن يحي بن الربيع قال : " كنت عند مالك بن أنس ودخل عليه رجل فقال : يا أبا عبد الله ! ما تقول فيمن يقول القرآن مخلوق ؟ فقال مالك : زنديق فاقتلوه ، فقال يا أبا عبد الله إنما أحكي كلاما سمعته ، فقال : لم أسمعه من أحد إنما سمعته منك ، وعظم هذا القول " [٢] .

---

(١) ذم الكلام وأهله للهروي ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد العزيز ٧١/٥ .

(٢) حلية الأولياء ٣٥٥/٦ ، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢٤٩/١ من طريق أبي محمد يحي بن خلف عن مالك ، وأورده القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤٤/٢ .

وأخـــرج ابـــن عبد البر عن مصعب بن عبد الله الزبيري قال : " كان مالك بن أنس يقـــول : الكلام في الدين أكرهه ، و لم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكل ما أشبه ذلك ، ولا يحب الكلام إلا فيما تحته عمل ، فأما الكلام في ديـــن الله ، وفي الله ﷻ فالســـكوت أحب إلي ، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل " [١] .

وأخـــرج أبـــو نعيم عن عبد الله بن نافع قال : " سمعت مالكا يقول : لو أن رجلا ركـــب الكبائر كلها بعد ألا يشرك بالله ثم تخلى من هذه الأهواء والبدع – وذكر كلاما – دخل الجنة " [٢] .

كمـــا أخـــرج أيضا عن الإمام الشافعي : " كان مالك بن أنس إذا جاءه بعض أهل الأهـــواء قـــال : أمـــا إني فعـــلى بينة من ربي وديني ، وأما أنت فشاك اذهب إلى شـــاك فخاصـــمه " [٣] .

رابعـــا : أما مصطلح الحقيقة والطريقة – كما يفهمهما المتصوفة – فمصطلح جديد وتقسيم غير صحيح ، ولأنه لم يرد في كتاب الله ﷻ ، و لم يجر على لسان رسول الله ﷺ ، ولا عـــلى ألسنة الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام ، ولا من أئمة الأخيار ، وإنما صدر هذا التفريق وهذا المصطلح من بعض المتصوفة .

والحق أن نقول : إن الشريعة عند أهل السنة هي الحقيقة ، فلا يوجد فصل بينهما ، فالصـــلاة – مثلا – حركات معينة ولكنها تستلزم الخشية والإنابة ، وهكذا كل الأحكام الشرعية القيام بها يعني الإتيان بها على تمامها كما أراد الله ﷻ .

٢ – ما نسب إلى الإمام مالك في التوسل

روى القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى :

" قال حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري ، وأبو القاسم أحمد بـــن لقـــي الحـــاكم وغير واحد فيما أجازوا فيه قالوا : حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهـــاث ، حدثنا أبو الحسن علي بن فهر ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج ، حدثنا

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٤١٥ .

(٢) حلية الأولياء ٣٥٥/٦ .

(٣) نفسه ٣٥٤/٦ .

أبو الحسن عبد الله بن المنتاب ، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله ﷻ أدب قوما فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ [١] ومدح قوما فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ [٢] الآية ، وذم قوما فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ .. ﴾ [٣] الآية ، وإن حرمته ميتا كحرمته حيا ، فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام ، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله " [٤] .

التعليق :

هذه الحكاية لا تصح نسبتها إلى الإمام مالك – رحمه الله – للأمور الآتية :

١- فمن حيث السند فقد رد عليه العلماء بأن سنده مظلم منقطع ، كما أشار إلى ذلك صاحب كتاب الصارم المنكي قائلا : " وهذه الحكاية التي ذكرها القاضي عياض ورواها بإسناده عن مالك ليست بصحيحة عنه .

وقد ذكر المعترض في موضع من كتابه أن إسنادها إسناد جيد وهو مخطئ في هذا القول خطأ فاحشا ؛ بل إسنادها إسناد ليس بجيد ، بل هو إسناد مظلم منقطع ، وهو مشتمل على من يتهم بالكذب ، وعلى من يجهل حاله ، وابن حميد هو محمد بن حميد الرازي ، وهو ضعيف كثير المناكير غير متصلة ، وقد ظن المعترض أنه أبو سفيان محمد بن حميد المعمري أحد الثقات المخرج لهم في صحيح مسلم قال : فإن الخطيب ذكره في الرواية عن مالك ، وقد أخطأ فيما ظنه خطأ فاحشا ووهم وهما قبيحا ، فإن محمد بن حميد المعمري رجل متقدم لم يدركه يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل راوي الحكاية عن ابن حميد ، بل بينهما مفازة بعيدة ، وقد روى المعمري عن هشام بن حسان ومعمر والثوري ، وتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائة قبل أن يولد يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، وأما محمد بن حميد الرازي فإنه في طبقة الرواة عن المعمري كأبي خيثمة وابن نمير وعمرو الناقد

---

(١) سورة الحجرات ، الآية (٢) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية (٣) .

(٣) سورة الحجرات ، الآية (٤) .

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، بيروت (دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ) ٢/٤٠- ٤١ .

وغيرهـــم ، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائتين ، فرواية يعقوب بن إسحاق عنه ممكنة بخلاف روايته عن المعمري فإنها غير ممكنة ، وقد تكلم في محمد بن حميد الرازي وهو الذي رويت عنه هذه الحكاية من غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب ..

ثم أضـــاف بعـــد سرد لأقوال أئمة الجرح فيقول : " فإذا كانت هذه حال محمد بن حميـــد الرازي عند أئمة هذا الشأن فكيف يقال في حكاية روايتها منقطعة إسنادها جيد مع أن في طريقها إليه من ليس بمعروف " [1] .

٢- أمـــا من حيث المتن فيتبين من ركاكة اللفظ وأسلوب الألفاظ بغير اللغة العربية الفصـــيحة ، فـــإن معنى قوله : " استشفع به فيشفعك الله به " لحن صريح فإن الاستشفاع معـــناه طـــلب الشفاعة من المستشفع به ، فمعنى استشفع به اطلب منه الشفاعة يشفع لك الرسول فالرسول شافع ، وإذا كان كذلك كان الصحيح أن يقال : استشفع به فيشفعه الله فيك ، لا أن يقال : استشفع به فيشفعك الله ، فإن المستشفع بالرسول ليس شافعا ، والذي يشفع هو الشافع لا المشفوع له يقينا ، ومثل الإمام مالك العربي مولده ونشأته محال أن يقع في مثل هذا الخطأ .

٣- وأمـــا مـــن حيث الموضوع فإن الرواية تدل على أنها كذب على الإمام مالك ، وذلك مما فيه " بل استقبله " لأن الإمام مالك دون الفقه وروى عنه أصحابه الثقات ، وفيه لا يستقبل القبر وقت الدعاء [2] .

٤- وقولـــــه : " استشفع به " والاستشفاع به لم يؤثر من الصحابة رضي الله عنهم والـــتابعين بعـــد الممات ، وقد مرت بهم حالات عسيرة فلم يحاولوا الذهاب إلى القبر ، بل يقصدون الزيارة للسلام كما نقل عن عبد الله بن عمر ﷺ حيث لا يقدم من سفر إلا ذهب وســـلم على النبي ﷺ وصاحبيه ولا يزيد على ذلك ، وإن كان جمهور الصحابة لا يفعلون ذلك ، كما أنهم يدخلون في المسجد النبوي في الأوقات كلها للصلوات ولغيرها ، و لم ينقل عنهم لفظ الزيارة بل كره مالك أن يقول : زرنا قبر النبي ﷺ .

---

(1) الصارم المنكي في الرد على السبكي ، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي ، ط١ بيروت (دار الكتب العلميـــة) ص ٢٥٥- ٢٥٧ .

(2) انظر : البصائر للمتوسلين بالمقابر ، للشيخ محمد طاهر ، طبعة الدوحة بقطر (١٤٠٣هـــ) ص٣٨٥- ٣٨٦

٥- وقـد عقـد القاضي عياض بابا لحرمة ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه ، ثم أورد هذه الواقعة ولم يقل ولم يعقد بابا للاستشفاع به ﷺ فكأنه استنكر هذه الرواية .

٦- ثم إن الله ﷻ قـد نزه مالكا عن البدعة حتى استبعد تنحنح المؤذن فوق المنارة ، ونهى الذي قال له احرم من عند القبر وقال لـه : لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة في هذه ، فإنما هي أميال أزيدها قال : وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ .

وذكـر الشاطبي في كتابه الاعتصام كثيرا من ذلك فقد علم مما ذكرنا أن هذه الواقعة المـنكرة كذب على الإمام مالك – رحمه الله – ، وقد كذبوا عليه في أشياء كثيرة ينسبون إليـه مـثل أنه كان يأخذ طنبورا يضرب ويغني ... حتى إن كثيرا من المصنفين يقولون في إباحـة السماع كأبي عبد الرحمن السلمي والقشيري وأبي حامد ومحمد بن طاهر المقدسي وغيرهم ، يذكرون إباحته عن مالك وأهل المدينة وهو كذب " [١] .

وبذلك نصل إلى أن التوسل المنسوب إلى الإمام مالك – رحمه الله – باطل من حيث السـند والمـتن والموضوع ، ولأنه توسل غير مشروع ومناقض لعقيدة سلف هذه الأمة ، وخلاف ما اعتقدوا به وعملوا به .

فالتوسل المشروع عندهم هو ما يتقربون به إلى الله ﷻ من الواجبات والمستحبات ، وكـان عـن طريق العلم والعمل به مع تحري مكارم الشريعة كما قال الراغب الأصبهاني وشيخ الإسلام ابن تيمية .

قال الراغب : " الوسيلة : التوسل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعـنى الرغـبة قـال تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [٢] . وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى : مـراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي كالقربة ، والواسل : الراغب إلى الله تعـالى " [٣] .

---

[١] انظر : المرجع السابق ص ٣٨٨- ٣٩٠ .

[٢] سورة المائدة ، الآية (٣٥) .

[٣] المفردات ص ٥٢٣- ٥٢٤ .

وقال شيخ الإسلام : " فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغي إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغون إليه هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات .. وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرما أو مكروها أو مباحا " [١] .

فالتوسل الذي شرعه الله ﷻ معروف عند سلف هذه الأمة على النحو الآتي :

١- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فيذكر الأسماء والصفات المناسبة لدعائه متوسلا بها ، وهذا التوسل له شواهد من الكتاب والسنة منها :

أ- قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [٢] أي ادعوه متوسلين إليه بأسمائه الحسنى ، حسب الرغبة اللائقة بكل اسم كما قال بذلك القرطبي في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ : " أي اطلبوا منه بأسمائه فيطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزاق ارزقني ، يا هادي اهدني ، يا فتاح افتح لي ، يا تواب تب علي وهكذا " [٣] .

ب - ما ذكره ﷻ من دعاء سليمان ﷺ قال : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٤] فتوسل برحمة الله التي هي صفة من صفاته ﷻ .

ج - ومن السنة ما قاله الرسول ﷺ : « من كثر همه فليقل : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ... » [٥] رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني .

٢- التوسل إلى الله ﷻ بعمل من أعمال الداعي ، وهذا ثابت أيضا في الكتاب والسنة :

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٧٩ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٨٠) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٧/٧ .

(٤) سورة النمل ، الآية (١٩) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٩١/١ ، ٤٥٢ ، والحاكم في المستدرك ٥٠٩/١ ، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح ١٩٩) .

أ- فمـــن الكـــتاب قوله ﷻ : ﴿ الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُــوبَنَا وَقِنَا عَـــذَابَ النَّارِ ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْـــنَا الرَّسُـــولَ فَاكْـــتُبْنَا مَعَ الشَّـــاهِدِينَ ﴾ [٢] وهـــؤلاء يتوجهون إلى ربهم طالبين المغفرة والوقاية من عذاب النار ، ولم يجدوا وسيلة إلى ذلك أقرب من إيمانهم واتباعهم الرسول فتوسلوا بهما .

ب- أما من السنة فالأدلة في هذا الموضوع كثيرة منها :

ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما – عن قصة أصحاب الغار – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى آووا المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكـــنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي في طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فلبثت والقـــدح على يدي ، أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج)) .

قـــال النبي ﷺ : ((وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي ، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني ، حتى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومائـــة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت : لا أحل لـــك أن تفـــض الخاتم إلا بحقه ، فتحرجت من الواقع عليها ، فانصرفت عنها وهي أحب الـــناس إلي ، وتـــركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفجرت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها)) .

قـــال النبي ﷺ : ((وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم ، غير رجـــل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقـــال : يا عبد الله أدّ إلي أجري ؟ فقلت لـــه : كل ما ترى من أجلك – من الإبل والبقر والغـــنم والرقيق – فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا أستهزئ بك ، فأخذه

---

[١] سورة آل عمران ، الآية (١٦) .

[٢] سورة آل عمران ، الآية (٥٣) .

كلـــه فاستقامه فلم يترك منه شيئا ، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[١] .

هذا الحديث دليل واضح على مشروعية التوسل إلى الله ﷻ بكل الأعمال الصالحة ، التي تصدر من العبد سواء كان بفعل المأمورات أم بترك المحظورات .

٣- التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح .

أيـــد هذا التوسل ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال : " أصابت الناس سنة على عهد النبي ﷺ فبينا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله ! هلك المال وجـــاع العيال فادع لنا ، فرفع يديه — وما نرى في السماء قزعة — فو الذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ .. "[٢] .

وروى أنـــس بن مالك أيضا : " أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال : فيسقون "[٣] .

هـــذا هو التوسل المشروع المعروف عند سلف هذه الأمة ، وهو التوسل الذي عرفه الأئمـــة الأربعـــة ، وبذلـــك نجزم بأن التوسل المنسوب إلى الإمام مالك ليس بمشروع ولا بصحيح ؛ بل ذلك من البدع المحدثة في الدين ، وقد نهانا الرسول ﷺ عن ذلك فقال : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[٤] .

---

[١] أخرجه البخاري مع الفتح في كتاب الإجارة ، باب من استأجر أجيرا فترك أجره ٥/٢٠٩- ٢١٠ (٢٢٧٢) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب قصة أصحـــاب الغار الثلاثة والتوســـل بصالح الأعمـــال ٤/٢٠٩٩ (٢٧٤٣) .

[٢] أخرجه البخاري في الجمعة ، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة ١/٣١٥ (٨٩١) ، ومســـلم في صلاة الاستسقاء ، باب الدعاء في الاستسقاء ٢/٦١٢ (٨٩٧) .

[٣] أخرجه البخاري في الاستسقاء ، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ١/٣٤٢ (٩٦٤) .

[٤] سبق تخريجه في ص ٢٩٠ .

المبحث الرابع

موقف بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- وكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) .

هـو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي ، أبو سفيان الكوفي ، ثقة حافظ عابد [١] ، أحـد الأعـلام الذين عاشوا في القرون الموصوفة بالخيرية لقرب عهدهم بعصر النبوة ، وقد امـتاز بـين أهـل العـلم لما كرس حياته في نشر المعارف النبوية والآثار السلفية بالتأليف والـتحديث والـرواية ، وأخذ الرحلات العلمية حيث كان يرى أن هذا العمل أفضل من النوافل والأذكار [٢] .

إلى جانب هذا العمل فهو إمام في الدفاع عن العقيدة ، وشديد الإنكار على كل زيغ وضـال مـن أصحاب الفرق الضالة ، مهتم بجانب السلوك والأخلاق والقيم ، حتى اشتهر أمره ووصف براهب الكوفة ، وبأخشع أهل عصره .

قال الإمام أحمد عنه : ما رأيت أحدا أوعى للعلم من وكيع ، ولا أشبه بأهل النسك منـه [٣] .

فقد كان إماما زاهدا ورعا ، تقيا ، خاشعا ، قانتا ، منيبا لله .

وقـال عـلي بن الحسن الهرثمي : سمعت — وسأله أبو بكر الخراز وغيره — أبا داود البسـتي : من أفضل من أدركت عندك ؟ فقال : ما أدركت رجلا كان أخشع لله ﷻ من وكيع [٤] .

عبادته وزهده وورعـه

لقد كان وكيع بن الجراح قواما صواما ، معتكفا كثير الصلاة .

قـال يحي بن أيوب : حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه ، أن وكيعا كـان لا يـنام حـتى يقرأ جزءه من كل ليلة ثلث القرآن ، ثم يقوم في آخر الليل ، فيقرأ المفصل، ثم يجلس ، فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر [٥] .

---

(١) تقريب التهذيب ٣٣٨/٢ .

(٢) انظر : ذم الكلام للهروي ١٠٧/١ .

(٣) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٠ .

(٤) نفسـه ص ٢٢٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٤٨/٩- ١٤٩ .

وكان كثير البكاء أي يخاف الموت ويجزع ، قال يحي بن معين : سمعت وكيعا يقول كـثيرا : وأي يوم لنا من الموت ؟ و رأيته أخذ في كتاب " الزهد " يقرؤه ، فلما بلغ حديثا مـنه ، ترك الكتاب ، ثم قام ، فلم يحدث ، فلما كان من الغد ، وأخذ فيه بلغ ذلك المكان قام أيضا و لم يحدث ، حتى صنع ذلك ثلاثة أيام ، قال عباس ليحي : وأي حديث هو ؟ قال : حديث «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل [(١)]» [(٢)] .

وقال يحي بن أكثم : صحبت وكيعا في الحضر والسفر ، وكان يصوم الدهر ، ويختم القرآن كل ليلة .

قال الذهبي معلقا على المبالغة في الإكثار في التعبد على هذا الوصف (قلت) : هذه عـبادة يخضـع لها ، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة ، فقد صح نهيه عليه السـلام عن صوم الدهر ، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث ، والدين يسر ، ومتابعة السنة أولى ، فرضي الله عن وكيع ، وأين مثل وكيع ...؟ [(٣)] .

وكان يتجنب أن يذكر أحدا بالسوء ، فقال عمرو بن علي : ما سمعت وكيعا ذاكرا أحدا بسوء قط [(٤)] .

وكان يتعفف عن المسألة ويدعو كثيرا أن يصونه الله تبارك وتعالى عن المسألة ، فكان أحمـد كثيرا ما يقول في دبر صلاته : " كما صنت وجهي من السجود لغيرك فصن وجهي عـن المسألة لغيرك " ، فقال له ابنه عبد الله : أسمعك تكثر من هذا الدعاء فعندك فيه أثر ؟ قال : نعم ، كنت أسمع وكيع بن الجراح كثيرا يقول هذا في سجوده ، فسألته كما سألتني ، فقـال لي : كنت أسمع سفيان الثوري يقول هذا في سجوده ، فسألته ، فقال لي : كنت أسمع منصور بن المعتمر يقوله [(٥)] .

وكـان يجتنب الشهرة وما كان يحب أن يطلع الناس على صومه وصلاته وعبادته ، فقـال يحي بن زياد : كنا عند وكيع ومعنا جماعة ، فقدم إلينا طبقا من رطب ، فجعل يرفع التمرة إلى فيه ، يوهمنا أنه يأكل ، ولا يأكلها إذ هو صائم .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : «كن في الدنيا كأنك غريب» (ح٦٠٥٣) .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٤٩/٩ .

(٣) نفسـه ١٤٢/٩- ١٤٣ .

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٣ .

(٥) المنهج الأحمد ٢٨/١ .

وكان يقول : ما نعيش إلا في ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف أمر عظيم [(١)] .

وروى أبـو نعـيم بسنده بأن وكيعا جاءه رجل يناظره في شيء من أمر المعاش أو الورع ، فقال له وكيع : من أين تأكل ؟ قال : ميراثا ورثته عن أبي ، ومن أين هو لأبيك ؟ قـال : ورثه عن أبيه ، قال : من أين هو كان لجدك ؟ قال : لا أدري ، فقال له وكيع : لو أن رجـلا نذر لا يأكل إلا حلالا ، ولا يلبس إلا حلالا ، ولا يمشي إلا في حلال لقلنا له : اخلع ثيابك وارم بنفسك في الفرات ، ولكن لا تجد إلا السعة ، ثم قال وكيع : لو أن رجلا بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء ما قلنا لـه زاهدا ، لأن الزهد لا يكون إلا عـلى تـرك الحلال المحض ، والحلال المحض لا نعرفه اليوم ، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات ، فالحلال حساب ، والحرام عذاب ، والشبهات عتاب ، فأنزل الدنيا بمنزل الميتة ، خذ منها ما يقيمك ، فإن كانت حلالا كنت قد زهدت فيها ، وإن كانت حراما كنت قد أخـذت مـنها ما يقيمك لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك ، إن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير " [(٢)] .

كما روى أبو نعيم بسنده أيضا إلى أحمد بن أبي الحواري قال : سمعت وكيعا يقول : إنما العاقل من عقل عن الله أمره ، ليس من عقل أمر دنياه [(٣)] .

وقـد كان لزهده وورعه أثر على عينيه ووجهه من نور جمال ملفت للأنظار قال أبو جعفر الجمال : أتينا يوما وكيع بن الجراح فلم يخرج إلينا ، فظننا أنه يغسل ثيابه ، فلما كان بعد غد ، خرج ونحن قعود وعليه ثياب التي غسلت ، فلما بصرنا به ، فزعنا من النور الذي يتلألأ من وجهه ، وقال لي رجل بجنبي : من هذا ؟ ملك هذا ؟ فتعجبنا من ذلك النور [(٤)] .

أما عن حلمه وتواضعه فقد كان الإمام وكيع رجلا كريما حليما متواضعا ، وكان لا يغضـب عـلى أحد ، ولا يعنف أحدا وإن أسيء إليه ، فكان لا يثور ولا ينفخ ، بل كان يفكر في نفسه يقومها إذا اعتراها اعوجاج أو نقص .

قال يحي بن جعفر : كان وكيع لا يغضب بواحد ، فإذا غضب سكن غضبه بالتؤدة والوقـار ، وكان وكيع إذا أتى مسجد الجامع يوم الجمعة في يوم مطر كان يخرج ونعلاه في

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٢٣ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/٤١٤- ٤١٥ .

(٣) المصدر نفسـه .

(٤) تقدمة الجرح ص ٢٢٢ ، وسير أعلام النبلاء ٩/١٥٧ .

يـده ، يخوض الطين ثم يدخل فيصلي ، فقيل له : أكان يغسل قدميه ؟ قال : لا ، وكان لا يصحبه أحد إلى المسجد ، فإن سأله أحد في الطريق كان لا يزيد على أن يقول في الطريق على التؤدة [١] .

أما الحديث عن ثرائه وسخائه فقد كان رجلا ثريا وسخيا حيث كان ينفق على العلماء وأصحابه وأصدقائه وذوي الحاجات .

قال يحي بن أيوب : حدثني رجل من أهل بيت وكيع قال : أورثت وكيعا أمه مائة ألف درهم ، قال : وما قاسم وكيع ميراثا قط ، قال يحي بن أيوب فأخبرني معاوية الهمداني قال : قلت : أيش صنعتم ؟ قال : كما كنا نصنع في الميراث ، قال : وكان يؤتي بطعامه ولباسه ولا يسأل عن شيء ولا يطلب شيئا وكان لا يستعين بأحد ولا على وضوء ، كان إذا أراد ذلك قام هو [٢] .

وكان يدعو الناس إلى مائدة الطعام في مناسبات وغيرها ، وحينما حضره جماعة يقدم ما عنده من طعام وشراب ، ويطعمهم ويسقيهم ، ويلطف معهم .

وبعد ، فمن خلال الدراسة لحياة الإمام وكيع تبين لنا أنه أحد الأعلام الأخيار ، فهو صاحب سنة ، ورجل عقيدة ، حيث كان يدافع عن السنة ، ويقضي على البدع والانحرافات ، وينكر أشد الإنكار على أهلها . وقد روى عنه محمد بن سلام البيكندي : سمعت وكيعا يقول : من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنة ، ومن طلبه ليقوي به رأيه فهو صاحب بدعة [٣] .

إلى جانب ذلك فهو أحد الزهاد الذي اهتم أيما اهتمام بجانب السلوك والأخلاق ، فقد جمع ما ورد عن الأحاديث المرفوعة وأقوال الصحابة والتابعين مما يرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا ، ويرقق القلوب ، وروى عن النبي ﷺ في الزهد ، وعن الدنيا وهواها ، والاجتهاد في العمل ، والحث على الصبر ، والمحاسبة ، والتوبة ، والحب في الله ﷻ ، وما إلى ذلك .. وكتابه " الزهد " خير دليل وشاهد على ذلك .

---

(١) تاريخ دمشق ٤٠٠/١٧ .

(٢) تاريخ بغداد ٣٦٩/١٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٤٤/٩ .

فالـــزهد – عـــنده – هـــو الزهد الإيجابي ، حيث نهى عن المبالغة في الامتناع عن استخدام ما أحل الله في هذه الحياة ، ونهى عن تعذيب الجسد إن أدى ذلك إلى هلاكه ، بل على الإنسان أن يأخذ قدر ما يسد به رمقه .

وهـــذا مبدأ من تعاليم شريعتنا السمحة ، لأن الله ﷻ لا يريد أن يجعل علينا في الدين مـــن حـــرج ، ولا يكلف نفسا إلا وسعها . قال تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ﴾ [١] ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [٢] .

وأمـــا ما حرم الله في هذه الحياة فقد استثنى الله ﷻ شيئا منه في حالة الاضطرار فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٣] .

وقال تعالى أيضا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٤] .

---

[١] سورة المائدة ، الآية (٦) .

[٢] سورة الحج ، الآية (٧٨) .

[٣] سورة البقرة ، الآية (١٧٣) .

[٤] سورة المائدة ، الآية (٣) .

٢- يحي بن يحي الليثي (ت ٢٣٠ هـ) .

هـو يحـي بن يحي بن كثير بن وسلاس المصمودي الليثي [١] ، رحل إلى المشرق ، فسمع من مالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد ، وابن القاسم ، وابن وهب ، وتفقـه بالمدنيين والمصريين ، من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته ، وهو أحد رواة " الموطأ " ، وصفه ابن عبد البر فقال : كان إمام بلده ، المقتدى به ، المنظور إليه ، المعول عليه ، وكان ثقة عاقلا حسن الهوى والسمت [٢] .

كـان أحمد بن خالد بن الحباب الحافظ يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس من الحظوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحي بن يحي [٣] .

وكـان مالك يعجبه سمت يحي وعقله ، روى عنه أنه كان عنده يوما جالسا في جملة أصـحاب مالك ، إذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ، فقال له مالك: لم لا تخرج فتراه ؟ إذ ليس بأرض الأندلس ؟ فقال له يحي : إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، لا إلى أن أنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك وسماه العاقل [٤] .

قـال يحـي : لما ودعت مالكا سألته أن يوصيني ، فقال لي : عليك بالنصيحة لله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم [٥] .

موقفه من الزهد والتوكل والفقر

ذكـر القاضي عياض أن يحي سئل عن الزهد في الدنيا ، فقال : من لم يرض منها إلا بالحلال فهو فيها زاهد ، وإن كان عليها مكباً حريصا .

وقـال قـوم ليحي : (يا أبا محمد) لو توكلنا على الله حق توكله لآتانا بالرزق إلى بيوتـنا كما يأتي الطير ، قـال : والله ما كان يأتي عيسى بن مريم البقل البري حـيث هو جالس ، حتى يخرج إليه إلى الصحراء يلتمسه .

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ٥٣٤/٢ ، وتاريخ علماء الأندلس ١٧٩/٢- ١٨١ ، وسير أعلام ٥١٩/١٠ .

(٢) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ١٨٠/٢ .

(٤) ترتيب المدارك ٥٣٧/٢ .

(٥) نفسـه ٥٣٨/٢ .

وقيل ليحي : إن من مضى كان يتمنى الفقر ، فأنكر يحي ذلك ، وقال : لا ينبغي لمن يعقل أن يتمنى ما تعوذ منه نبيه ﷺ .

وكان يحي يلبس الوشي الرفيع ، يريد القطن ، ثمنه المال العظيم في الأعياد والدخول على الأمراء [1] .

التعليق :

لقد فهم يحي بن يحي أن الزاهد في هذه الحياة أن لا يقتنع بالحلال فحسب ، أو أن يترك الدنيا لا يجدّ ولا يكد فيها ؛ بل الزاهد الحقيقي – عنده – من لم يرض من الدنيا إلا بالحلال ، ثم يمشي في مناكب الأرض طلبا للرزق الطيب ، هذا هو الزهد المشروع ، الذي أمر به الإسلام .

فالإسلام لا يحرم على الناس أن يبحثوا عن أسباب الغنى ، ولا يمنعهم من البيع والشراء ، أو من الفلاحة والزراعة .. ! لأن هذا العمل الجليل قد مارسه سلفنا الصالح كما ذكرهم الله في محكم التنزيل : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [2] ، لم ينف عنهم الأسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء ، فلا يخرجهم عن دائرة المدح غناهم إذا قاموا بحقوق الله ﷻ .

هكذا فهم سلف هذه الأمة – رضوان الله عليهم – الزهد ، وهم أزهد الزاهدين ، حيث وجد منهم تجار ، ووجد منهم أغنياء ، ولكنهم مع ذلك كانوا زهادا ، فهؤلاء هم الزهاد الحقيقيون .

أما موقف يحي من التوكل فهو موقف صحيح ، وهو بمثابة الرد على المفهوم الصوفي الخاطئ ، الذي يعتقد بأن التوكل الحقيقي – عندهم – هو ترك القيام بأي سبب يحصل الإنسان من ورائه على رزقه الطيب .

صحيح أن الرسول ﷺ قد قال : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » [3] ولكن ليس معنى ذلك ترك التكسب

---

[1] ترتيب المدارك ٥٤٤/٢ .

[2] سورة النور ، الآيتان (٣٦- ٣٧) .

[3] أخرجه أحمد في المسند٣٠/١، وفي الزهد ص٤٢ ، والترمذي (٢٣٤٥) وقال حديث حسن صحيح .

والقيـــام بأي سبب في هذه الحياة ، والقعود منتظرا إتيان رزقه من الله ﷻ ! لأن هذا المفهوم خـــاطئ ومخـــالف للصواب ، ولمعنى الحديث الذي يذكر أن الطير تروح وتغدو أي تعمل وتكد وتأخذ بالأسباب .

وقد كان السلف يكرهون القعود في المساجد وانتظار ما يأتي من الناس من صدقات

قال سعيد بن المسيب – رحمه الله – :

" من لزم المسجد وترك الحرفة وقبل ما يأتيه فقد ألحف في السؤال " .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ :

" يا معشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا على المسلمين " [(١)] .

وعـــن محمـــد بن عاصم قال : " بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا رأى غلاما فأعجبه سأل عنه ، هل لـــه حرفة ؟ فإن قيل : لا ، قال : سقط من عيني " [(٢)] .

أما موقف يحي من الفقر فموقف صحيح أيضا ، حيث استند إلى قول الرسول ﷺ في أدعيته الآتية :

((الـــلهم إني أعـــوذ بك من الفقر ، والقلة ، والذلة ، و أعـــوذ بك من أن أظلم أو أُظلم)) [(٣)] .

((اللهم إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، والهرم ، والقسوة ، والغفلة ، والعَيلة ، والذلة ، والمسكنة ، وأعوذ بك من الفقر ..)) [(٤)] .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤٦ .

(٢) نفســه ص ٣٤٧ .

(٣) أخرجــه النسائي في الاستعاذة من الجوع ٨/٢٦٣ . وأورده الألبــاني في صحيح سنن النسائي ٣/١١١١، و في صحيح الجامع ١/٤٠٧ .

(٤) انظر : صحيح الجامع ١/٤٠٦ ، وإرواء العليل برقم ٨٥٢ .

الفصل الثالث

الإمام الشافعي والتصوف

وتحته أربعة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام الشافعي وحياته

المبحث الثاني : الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الرابع : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام الشافعي وحياته

أولا : عصره .

لقد عاش الإمام الشافعي في القرن الأول من الحكم العباسي ، العصر الذي يعتبر من أنضـــر عصور الإسلام حضارة وفكرا وثقافة وعلما ، حيث تجلت في هذه الفترة قوة الحكم واستقراره كما حدث لدى الإمام مالك .

وازداد الازدهـــار في هـــذا العصـــر حينما شمله رخاء وانبساط بنشاط خلفاء الدولة العباسية في حفر الترع والمصارف ، والسعي على تحسين الزراعـــة وتنمية الموارد .. . حتى تكـــدس الإنتاج الزراعي في أسواق بغـــداد وغيرها من البلدان ، ورخصت الأسعار بصورة أشـــبه إلى الخيـــال ، حـــتى روى أن الرجل من عامة الناس في عهد الرشيد كان يكفيه هو وعائلتـــه ثلاثمائة درهم في السنـــة [١] .

ويشـــهد لذلك ما روى الخطيب البغدادي بسنده عن داود بن صغير يقول : " رأيت في زمـــن أبي جعفـــر كبشـــا بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت تسعة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم " [٢] .

وكـــان الـــناس في العصر العباسي الأول يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية ، كما يلتهون بلعبة الشطرنج والنرد ، ويتسلون بالرمي بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكن والصولجان والجريد ونحوها ، كما كان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية في ذلك العصر [٣] .

أمـــا الأغـــلب من العلماء وطلاب العلم ، فقد كانوا بعيدين عن معظم ما ذكر من الملاهي وأنواع الترفيه ، التي لا تليق مع شرف العلم وكرامته ، بل كانوا منهمكين في طلب العلم ومذاكرته ومدارسته ، وكتب تراجم علماء الإسلام شاهدة لذلك .

وهكـــذا الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – فقد عاش في هذا العصر بعيدا عن هذه الملاهـــي مشمرا عن ساعدي الجد في سبيل الحصول على العلم ، وكان يضرب في الأرض

---

(١) انظر : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ١٩٩– ٢٠٠ .

(٢) تاريخ بغداد ١/٧٠ .

(٣) تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن ٢/٣١٩– ٤٢٤ ، والعالم الإسلامي في العصر العباسي ص٢٢٧ –٢٢٨ .

ويكـثر مـن الـرحلات طلبا للعلم وقياما بواجب التعليم لما رزقه الله من الفهم والمعرفة بالكـتاب والسـنة ؛ فكون مدرسة تمثل التربية الإسلامية في صفائها ونقائها دونما تخبط في العقيدة ، أو شطحات في الفكر كما اعتقد بعض الصوفية ومن سلك مسلكهم .

أمـا من الناحية الدينية فإن الكثرة الكاثرة من جموع المسلمين فقد كانت تابعة لأئمة الديـن الذين اجتهدوا أن يكونوا في دينهم وعلمهم على هدي النبي ﷺ وأصحابه الكرام ، حـتى وإن نشـأت فـرق الشيعة والخوارج والمعتزلة ... وكثر الجدل والنقاش بين الفرق المتنازعة فإن الكثيرين كانوا أدنى إلى قلوب المؤمنين الصادقين .

أمـا إذا تحدثـنا عن الزهاد في هذا العصر فإنهم فئة انصرفوا عن الدنيا وزخارفها ، وشـغلوا أنفسهم بطاعة الله ﷻ ومراقبته ، وتقللوا ما أمكنهم ذلك من متاع الحياة الدنيا ، وتحـروا حلالها ، وشغلتهم أهوال القيامة ورهبة الآخرة ، وكأن وجودهم ردة فعل لخوض الكثرة من الناس في غمرات الدنيا ، ولكنهم كانوا منارة هدى في الدين والورع وخشية الله من هؤلاء : الفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وبشر الحافي وغيرهم وهم سلف لمن سموا بالصوفيـة [١] .

ثانيا : حياتـه .

هـو أبو عبد الله ، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي المطلبي ، مـن بني عبد المطلب بن عبد مناف ، جدّ جد النبي ﷺ ، ولد بغزة بالشام في آخر يوم من رجـب سـنة (١٥٠هـ) وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة رحمه الله [٢] . وأقام أبوه بعسقلان ثم مات فيها وكان بسيط الحال .

ثم حملـتـه أمه (التي هي من أزد) من غزة إلى مكة موطن آبائه ، فنشأ بها يتيما في حجر أمه ، وكانت – رحمها الله – من العابدات القانتات ، ومن أذكى الخلق فطرة [٣] .

وفي مكة استظهر القرآن في صباه ، وقد روى المزني عن الشافعي قولـه : " حفظت القـرآن وأنا ابن سبع ، وحفظت الموطأ – موطأ مالك – وأنا ابن عشر " [٤] . حفظه في

---

(١) انظر : الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر ، لعبد الغني الدقر ، ط ٢ دمشق (دار القلم ١٣٩٦هـ) ص ٢١-٢٢ .

(٢) انظر : مناقب الإمام الشافعي للبيهقي ٧٢/١ ، ومناقبه للرازي ص ٨ ، وتوالي التأسيس لابن حجر ص٤٩ .

(٣) جمهرة العرب لابن حزم ص ٧٣ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٧٩/٢ .

تسع ليال ، ثم خرج إلى هذيل بالبادية ، وكانوا من أفصح العرب ، فحفظ كثيرا من أشعارهم ، ومكث في البادية عشر سنين ، وعاد من البادية مستفيدا الفصاحة والأدب .

وواصل تلقي العلم في مكة حتى برع في الحديث والفقه والعربية ، ولزم شيخ الحرم المكي مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وتفقه به ، حتى أذن له بالإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقال له : " أفت يا أبا عبد الله ! فقد — والله — آن لك أن تفتي " [١] ، وبرز فقيها بارعا مفسرا للقرآن ، خبيرا بالعربية وهو غلام ، حتى كان سفيان بن عيينة إذا سئل عن التفسير أو الفتيا قال : " سلوا هذا الغلام " [٢] ، وصار معلما في الحرم المكي .

ثم رحل إلى الإمام مالك في المدينة إمام دار الهجرة وهو لا يتجاوز السادسة عشر من عمره فتعلم من الإمام مالك حتى حفظ الموطأ وأتقنه [٣] .

ثم اتجهت نفسه إلى عمل يرتزق منه ، فساعده مصعب بن عبد الله القرشي قاضي اليمن على أن يلي باليمن عملا فولاه في نجران قاضيا ، وأحسن السيرة فيه [٤] .

ثم اتهم في سنة ١٨٤هـ بالتشيع بكيد من الوالي ، وقال عنه للرشيد : يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه القاتل بنفسه ، فأحضره الرشيد إلى العراق في هذه السنة مع تسعة آخرين قتلوا ، ونجا الشافعي بقوة حجته وشهادة محمد بن الحسن ، ودفاع الفضل بن الربيع عنه حتى ثبتت براءته [٥] .

وبعد أن درس فقه العراقيين وقرأ الكتب مع الإمام محمد بن الحسن عاد الإمام الشافعي إلى مكة ، واتجه نحو الاجتهاد بعد أن حفظ علوم الفقهاء والمحدثين وبعد أن ترك أثرا طيبا في العراق حتى قال عنه يحي بن أكثم قاضي البصرة ثم بغداد في عهد المأمون : كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة كثيرا ، فكان الشافعي رجلا قرشي العقل والفهم والذهن ، صافي العقل والفهم سريع الإصابة ، ولو كان أمعن في الحديث لا استغنت به أمة محمد ﷺ عن غيره من العلماء [٦] .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٦٥/١ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٧/١ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٤٧/١ .

(٤) توالي التأسيس ص ٦٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٠ .

(٦) المصدر نفسه ص ٥٦ .

وفي مكـــة في هذه الآونة وضع قواعد الاستنباط ليميز بين فقه الحجاز وفقه العراق ، وأبـــان قواعـــد الاجتهاد ، ثم قام برحلة إلى بغداد سنة ١٩٥هـــ فمكث فيها حوالي سنتين ناشـــرا طريقـــته الجديـــدة في الاجتهاد ، ومجادلا العلماء ومؤلفا الرسائل والكتب ، وعقد حلقات علمية شهيرة في الجامع الغربي ، وتردد على مجلسه كبار العلماء كأحمد بن حنبل ، وإســـحاق بـــن راهويه ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وحسين بن علي الكرابيسي ، فتأثروا بمذهبه وبدفاعه عن السنة .

ثم عـــاد إلى مكـــة فنشر علمه وبشر بمذهبه ، وفي عام ١٩٨هـــ رجع إلى بغداد في رحـــلة ثالـــثة ، وأقام فيها نحو ثمانية أشهر ، ثم اتجـــه إلى مصر عام ١٩٩هـــ [١] ، وبدأت حياتـــه مرحلة جديدة حيث غير اجتهاده بسبب اطلاعه على أحاديث وآراء فقهية جديدة ، ورؤيـــته أعرافا وأحوالا اجتماعية مغيرة لما عرفه في الحجاز والعراق ، فبدأ يقرر فقها جديدا في مســـجد عمـــرو بن العاص في الفسطاط ، وأملى كتابه (الأم) على تلاميذه ، وأعاد تصنيف كتابه (الرسالة) [٢] .

وأمـــا مشايخ الإمام الشافعي فكثيرون في مكة والمدينة واليمن والعراق ، وقد جاء في تـــوالي التأسيس لابن حجر ترتيب شيوخ الشافعي على حروف المعجم وهم واحد وثمانون شيخا .

أما بالنسبة لتلاميذه فكان أكثر بكثير من شيوخه ، لأن مذهبه أكثر المذاهب انتشارا ولتـــنقله في البلاد ، وانبهار الطلاب بعلمه ، وقد رتب ابن حجر أسماء تلامذة الشافعي على حروف المعجم حتى في الآباء والأجداد ، وذكر مائة واثنين وستين تلميذا .

وأما وفاته – رحمه الله – فقد قال عنه الربيع بن سليمان : توفي الشافعي ليلة الجمعة آخر يوم من رجب ، ودفناه يوم الجمعة فانصرفنا فرأينا هلال شعبان سنة أربع ومائتين [٣] .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/٤٨ .

(٢) مناقب الشافعي للرازي ص ٥٧ .

(٣) انظر : آداب الشافعي ص ٢٦، وصفة الصفوة ٢/١٤٧ .

المبحث الثاني

الإمام الشافعي وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن الـروايات الـواردة عن الإمام الشافعي – رحمه الله – في شأن المعرفة لتقرر أن معرفة الله ﷻ فطرية مودعة في فطر الخلق .

مـن ذلـك ما قاله الإمام الشافعي للمزني حينما أتى إليه مستفتيا في أمر التوحيد ، حيـث غضب الإمام الشافعي حينما تكلف المزني وتعمق في البحث في أمور التوحيد التي لا يبـلغها العقل ، ولأن الرسول ﷺ لم يأمر بالسؤال عن ذلك ، ولم يتكلم فيه الصحابة ! ولما سأله الشافعي عن مسألة في الوضوء فأخطأ ، عندئذ قال لـه الإمام الشافعي : شيء تحتاج إليـه في اليوم خمس مرات تدع علمه ، وتتكلف علم الخالق ! إذا هجس في ضميرك شيء من ذلك فارجع إلى الله وإلى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَـنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١] ، فاستـدل بالمخلوق على الخالـق ، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك .." [٢] .

فهـذا الكلام من الإمام الشافعي يجعل الأصل في قلب الإنسان معرفة ربه وخالقه ، عـلى أنه أمر لا يحتمل الشك والريب ، فإذا طرأ هاجس غريب يقدح في هذا الأصل فعليه برده ، ودفعه بالنظر في المخلوقات وآيات الله في كونه ليستدل بالمخلوق على وجود خالقه وقدرتـه ، وهـذه هي طريقة الشرع . فلو أن المتكلمين أو المتصوفين قد عملوا بها ، ولم يتكـلفوا علم الغيوب التي لم تبلغها عقولهم لكان خيرا لهم ، ولما حصل فيهم الانحراف عن الطريق الصحيح !

وروى الـبيهقي عـن الإمام الشافعي أنه قال : " فأما فرض الله تعالى على القلب : فالإقرار والمعرفة ، والعقد والرضا ، والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له " [٣] .

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان (١٦٣- ١٦٤) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٣١/١٠- ٣٢ .

(٣) مناقب الشافعي ٣٧٨/١ ، ٣٩٣ .

وروى البيهقي كذلك عن الإمام الشافعي أنه يقول : بأن أطفال المسلمين إذا ماتوا في المهد فإنهم يدخلون الجنة وذلك يدل على أنهم – عنده – على الفطرة ، وبين البيهقي قوله بأن الإمام الشافعي ذكر في كتاب المناسك ما دل على صحة هذه الطريقة في أولاد المسلمين فقال : إن الله ﷻ بفضل نعمته أثاب الناس على الأعمال أضعافها ، ومنّ على المؤمنين بأن ألحق بهم ذرياتهم ووفر عليهم أعمالهم فقال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِن شَيْءٍ ﴾ [١] ، فلما أن منّ الله على الذراري بإدخالهم الجنة بلا عمل ، كان أن منّ عليهم بأن كتب لهم عمل البر في الحج .. قال : وقد جاءت الأحاديث في أطفال المسلمين أنهم يدخلون الجنة " [٢] .

وبهذا يظهر أن الإمام الشافعي – رحمه الله – يقرر بأن فرض القلوب هو الإقرار والمعرفة والرضا والتسليم ، ويقول بفطرية معرفة الله ﷻ ، وأنه من الأمور الضرورية الملازمة للقلوب ، ويتبين كذلك أن الوصول إلى معرفة الله لا يحتاج إلى كل التعقيدات ، التي أتى بها المتكلمون والمتصوفون ومن نهج نهجهم ، وأفنوا حياتهم في سبيل الوصول إلى معرفة الله ﷻ عن طريقها ؛ بل هو طريق سهل واضح ، لأن معرفة الله فطرة فطرها الله ﷻ النفوس عليها.

فالإمام الشافعي اتبع المنهج الشرعي في الاستدلال على معرفة وجود الله تعالى ، حينما استدل بالمخلوق على الخالق ، وهو أصلح طريق لمعرفة الحق ، حيث أرشد تلميذه إليه من الاعتبار بخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وما بينهما .

٢– العبودية

إن ما عثر عن الإمام الشافعي من أعمال يتقرب بها إلى الله ﷻ ، وما نقل عن قيامه بنوافل العبادات لتؤكد على أنه عابد من العباد الصالحين ، وهو يقوم بعبادة الله خير قيام ، ويحث غيره على أداء العبادة فقال مرة لأحمد بن صالح المصري : " تعبد من قبل أن ترأس ، فإنك إن ترأس لم تقدر أن تعبد " [٣] .

---

(١) سورة الطور ، الآية (٢١) .

(٢) كتاب الاعتقاد ص ٧٦ ، وانظر أيضا : السنن الكبرى ٢٠٣/٦ ، ١٣٠/٩ .

(٣) توالي التأسيس ص ٦٦ .

روى الحافظ بن عساكر أن الشافعي قرأ يوما هذه الآية ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ . فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [١] ،فلم يزل يبكي حتى غشي عليه ، رحمه الله [٢] .

وكان كثير التلاوة للقرآن ، ولا سيما في شهر رمضان كان يقرأ في اليوم والليلة ختمتين ، وفيما عداه في كل يوم وليلة ختمة .

روى ذلك الخطيب البغدادي عن علي بن المحسن القاضي ، عن أبي بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصغار ، عن عبد الله بن محمد بن جعفر القزويني عن الربيع به [٣] .

فالعبادة من أنجح وسائل التزكية والإصلاح ، ذلك أن المداومة على أدائها تربي الإنسان على جملة من الأخلاق الحميدة ، وتدفعه للعمل في الخيرات ، وتوجهه إلى الإدراك بقيمة وجوده في هذه الحياة ، فيدرك أنه لم يخلق عبثا بل خلق لعبادة الله ﷻ ، ويعرف أن كل جهده وعمله وكفاحه إنما هو عبادة لله ﷻ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٤] .

وقد أدرك الإمام الشافعي منزلة العبادة ، ولهذا تقرب إلى الله ﷻ بالفرائض والنوافل حتى يحبه الله ﷻ ، فكان – رحمه الله – يغتنم الليالي ، ويسعد بالخلوات لمناجاة الله ﷻ ، وهذا تلميذه الربيع بن سليمان يقول : بتّ في منزل الشافعي ﷺ ليالي كثيرة فلم يكن ينام الليل إلا يسيرا .

وكان قد قسم الليل ثلاثة أجزاء : فثلثه الأول للأشغال ، والثاني للصلاة ، والثالث للنوم ليقوم إلى صلاة الفجر نشطا .

رواه البيهقي عن الحاكم و حدثني أبو بكر محمد بن محمد البغدادي : حدثنا أبو الحسن علي بن قربن و عن الربيع فذكره [٥] .

---

(١) سورة المرسلات ، الآيات (٣٨- ٤٠) .

(٢) انظر : تاريخ دمشق ٤١٢/١٤ ، والمناقب للبيهقي ١٧٥/٢- ١٧٦ ، والمناقب للرازي ص ١٢٨ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٦٣/٢ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (١٦٢) .

(٥) المناقب للبيهقي ١٥٧/٢ ، وللرازي ص ١٢٧ ، وتوالي التأسيس ص٦٠ ، وحلية الأولياء ١٣٥/٩ ، وصفة الصفوة ١٤٤/٢ .

وقـال زكريا الساجي : عن محمد بن إسماعيل : حدثنا حسين الكرابيسي قال : بت مع الشافعي فكان نحو ثلث الليل يصلي ، وما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة ، وكـان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين ، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوذ بالله منه ، وسأل النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين ، فكأنما جمع له الرجاء والرهبة [١] .

وهكـذا يكون تمام العبادة أن تجمع الرغبة والرهبة ، كما صح عن رسول الله ﷺ أنه كـان إذا مر بآية عذاب وقف وتعوذ [٢] ، قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [٣] وقال تعالى أيضا : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَـتَ اللَّهِ قَـرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [٤] أي يأمر الله ﷻ عباده أن يدعو ربهم ومعبودهم خوفا من ناره وعذابه ، وطمعا في جنته ونعيمه .

فموقـف الإمـام الشافعي في هذا الموضوع يعتبر ردا على المتصوفة الذين يقولون : بـأنهم لا يعبدون الله خوفا منه أو رغبة فيما عنده ، لأن الخوف والرغبة من أنواع العبادة ، حيـث امتدح الله ﷻ الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهم من خيرة البشر فقال ﷻ : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [٥] .

٣- التوبـة

إذا كان معنى التوبة هو الرجوع إلى الله تعالى بحل عقد الإصرار من القلب ، ثم القيام بحقـوق الـرب ، أو الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة [٦] ، وأنها أول مقام من مقامات السالكين إلى الله لدى الصوفية ؛ فإن الإمام الشافعي قد قام بالاستغفار والتوبة إلى الله ﷻ فيقول في إحدى قصائده :

قلبي برحمتـك اللهم ذو أنس	في السر والجهر والإصباح والغلس
وما تقلبت من نومي وفي سنتي	إلا وذكـرك بـين النَّفْس والنَّفَس
لقد مننت على قلبي بمعرفـة	بأنك الله ذو الآلاء والقـدس

---

(١) تاريخ بغداد ٢/٦٣ ، والمناقب للبيهقي ٢/١٥٨ ، وللرازي ص ١٢٧ .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ١/٥٣٦ (ح٢٠٣) .

(٣) سورة الزمر ، الآية (٩) .

(٤) سورة الأعراف ، الآية (٥٦) .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية (٩٠) .

(٦) انظر : التعريفات ص ٥١ .

وقد رأيت ذنوبا أنت تعلمها ... و لم تكن فاضحي فيها بفعل مسي
فامنن علي بذكر الصالحين ولا ... تجعل علي إذاً في الـــدين من لبس
وكن معي طول دنياي وآخرتي ... ويوم حشري بما أنزلت في عبس [١] .

ففـــي هذه الأبيات توضح لنا أن الإمام الشافعي قام بالتضرع إلى الله تعالى مستغفرا ومعترفا بذنوبه ، وتائبا إلى الله ﷻ ، وطالبا منه العفو والمنة والتوفيق في دنياه وأخراه .

ولا شك أن هذا الموقف موافق لما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، لأن الله تعالى قد حث المؤمنين على التوبة وأحب التوابين ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِـــنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢] . وقـــال تعـــالى أيضا : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُـــتَطَهِّرِينَ ﴾ [٣] وكما في الصحيحين من حديث أنس بن مالـــك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لله أفـــرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلـــتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس مـــن راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)) [٤] .

فالإمام الشافعي قد امتثل لنداء الله ﷻ لعباده المؤمنين حينما قال لهم ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [٥] . واستجاب لتوجيهات الرسول ﷺ حينما ينادي : ((يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مـــرة)) [٦] .

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزغبي ، ط ٣ جدة (دار العلم للطباعة ١٣٩٢ هـــ) ص ٥٠- ٥١ .

(٢) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (٢٢٢) .

(٤) أخرجـــه البخاري في الدعوات باب التوبة ٥/٢٣٢٥ (ح٥٩٥٠) ، ومسلم في التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها ٤/٢١٠٤(ح٢٧٤٧) واللفظ له .

(٥) سورة الأحزاب ، الآيتان (٤١- ٤٢) .

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤/٢٠٧٦ (ح٢٧٠٢) .

لقد كان الإمام الشافعي متعبدا ناسكا أوّابا ، وعبر عن الكثير من أدعيته وابتهالاته شعرا ذا مغزى عميق ، وكان في ضراعته – رحمه الله – يفرش لنفسه طريق الآخرة بالاستعبار والاستغفار ، وهو على يقين من أن الله قابل التوب وغافر الذنوب .

وحدث للإمام الشافعي – رحمه الله – أن جلس يوما في مدينة الرسول ﷺ بعد صلاة الصبح ، فدخل عليه رجل فقال له : إني خائف من ذنوبي أن أقدم على ربه وليس لي عمل غير التوحيد ، فطيب الشافعي خاطره وأذهب خوفه مستشهدا بقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَّغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [١] . وقال له : لو أراد الله عقوبتك في جهنم وتخليدك لما ألهمك معرفتك به وتوحيدك له [٢] .

٤– المجاهدة

سأل رجل الإمام الشافعي فقال : " يا أبا عبد الله ! أيهما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى ؟ فقال الشافعي : لا يمكن حتى يبتلى فإن الله قد ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة " [٣] .

لقد أراد الإمام الشافعي بأن التمكين لا يمكن إلا بعد المجاهدة والنجاح في الابتلاء والامتحان في هذه الحياة ، وهؤلاء الأنبياء الذين ضرب بهم الإمام الشافعي المثل على التمكين بعد الصبر الطويل والعناء المتواصل في توجيه الأمم هم أكثر الأنبياء تعبا وأشدهم كفاحا وبذلا في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ، حتى سماهم القرآن بأولى العزم ، وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [٤] .

ويكفي أن نعرف أن أولهم وهو نوح ﵇ مكث في قومه يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين سنة ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [٥] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٣٥) .

(٢) الإمام محمد بن إدريس الشافعي للدكتور مصطفى الشكعة ص ٨٢ .

(٣) الفوائد لابن القيم ص ٢٩٨ .

(٤) سورة الأحقاف ، الآية (٣٥) .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية (١٤) .

قال الإمام الشافعي : " فحق على طالب العلم بلوغ غاية الجهد في الاستكثار من علمه ، والصبر على كل عارض ، دون طلبه وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصا واستنباطا والرغبة إلى الله في العون عليه ، فإنه لا يدرك خيرا إلا بعونه " [١] .

وقال الإمام الشافعي مؤكدا على هذا الموضوع :

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

ومن رام العلا من غير كد ... أضاع العمر في طلب المحال

تروم العز ثم تنام ليلا ... يغوص البحر من طلب اللآلي [٢] .

وفي سبيل المجاهدة فقد اهتم رحمه الله بالاعتناء على الجسد ليستطيع أن يقوم بدوره في هذه الحياة ، وحدد نصيبه من الطعام حتى لا يتعب البدن من قلته ، ولا يعاب بالضرر من كثرته ، بل يتعامل معه بقدر ما تتطلبه الحاجة ، ولهذا يقول رحمه الله :

" ما شبعت منذ خمسة عشر عاما إلا شبعة فطرحتها ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة " [٣] .

فموقف الإمام الشافعي من الجوع موافق لما دل عليه قول رسول الله ﷺ : ((ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه)) [٤] .

ومن المعروف أن من الصوفية من قد تحدث عن الجوع – أيضا – واعتبر أحد أركان المجاهدة كما أشار إلى ذلك القشيري فيقول : " ولهذا كان الجوع من صفات القوم ، وهو أحد أركان المجاهدة ، فإن أرباب السلوك قد تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ، وحددوا ينابيع الحكمة ، وكثرت الحكايات عنهم في ذلك ..

قال يحي بن معاذ : لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٩ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي لنعيم زرزور ص ٩١ .

(٣) حلية الأولياء ١٣٥/٩ ، وسير أعلام النبلاء ٣٦/١٠ .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في كراهية الأكل ٤/ ١٨ (ح٢٤٨٦) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجة في الأطعمة باب الاقتصاد في الأكل ١١١/٢(ح٣٣٤٩) ، والحاكم ٢١/٤ وصححه .

وقـــال ســـهل التستري : لما خلق الله تعالى الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل ، وجعل في الجوع العلم والحكمة .

وقال أبو سليمان الداراني : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع [١] .

إذن فالجوع عند هؤلاء الصوفية مطلب أساسي وأحد أركان المجاهدة ، وهو ممدوح إن لم يـــريدوا بذلك تعذيبا للنفس أو تحريم ما أحل الله ﷻ ، أما إن أرادوا به فهم في ذلك مخالفون لسنة رسول الله ﷺ ، لأن الرسول ﷺ كان يأكل اللحم ، ويحب الذراع من الشاة ويأكل الدجاج ، ويحب الحلوى ، ويستعذب الماء البارد .

وكان الحسن البصري يشتري كل يوم لحما وعلى هذا كان السلف .

فموقـــف الإمام الشافعي من مجاهدة النفس موقف محمود ؛ ولا يعني ذلك أنه يهجر نعم الله تعالى ، فلا يتمتع بها ولا يسعد بالتلذذ بحلاوتها إذ لا رهبانية في الإسلام ، وإلا فلمن خلق الله ﷻ هذه النعم الكثيرة ؟ ! فالإنسان مأمور شرعا بأن يمشي في الأرض ، ويأكل من رزق الله حـــتى يـــؤدي شكر هذه النعم لأن الشكر من الإيمان والله تعالى يقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَـــرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] .

لا بـــأس أن يهـــتم الإنســـان بالأصناف التي يحبها أو التي يكون فيها عناصر الطعام ومكوناتـــه ممـــا يحتاج إليها كل أجزاء الجسم وأعضاؤه ، ولكن المذموم فقط الإسراف في تناوله ، وأخذ كمية كبيرة منه لأنها تتخم المعدة وتملأ الأمعاء وتضر بالجسم .

ولقـــد كـــان الإمـــام الشافعي رحمه الله يهتم بالغذاء كما كان يهتم بالأصناف التي يحبـــها ، فقد نزل رحمه الله يوما في بغداد عند صديقه وتلميذه الزعفراني " وكان الزعفراني يكـــتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها إلى الجارية ، فأخذ الشافعي الرقعة في بعـــض الأيام وألحق بها لونا آخر بخطه ، فلما رأى الزعفراني ذلك اللون أنكر ، وقال : ما أمرت بهذا ، فعرضت الجارية الرقعة ملحقا فيها خط الشافعي ، فلما وقعت عينه على خطه فرح بذلك وأعتق الجارية سرورا باقتراح الشافعي عليه " [٣] .

---

[١] الرسالة القشيرية ص ١٤٢ .

[٢] سورة الأعراف ، الآية (٣٢) .

[٣] إحياء علوم الدين ١٢/٢ .

وبهـــذا يظهر أن موقف الإمام الشافعي من الانتفاع مما أباحها الله لعباده من الطيبات مـــن الرزق موافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، ومخالف لما ذهب إليه بعض المتصوفة الذين يعذبـــون نفوســـهم بالـــتجويع بحرمانها مما أحلها الله ﷻ ، ويجهدون أنفسهم بشتى أنواع الرياضات الشاقة المناقضة لتعاليم الإسلام السمحة .

٥- الزهـــــد

قـــال الإمام الشافعي : " من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومـــن زهد في الدنيا قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا .. كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة راغبا ، واصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين " [١] .

هذه هي النظرة الثاقبة من الإمام الشافعي لحقيقة الحياة الموصولة بالله ، المدركة لواقع الإنســـان وطـــبيعة ارتباطه بالآخرة وولائه لها ، وعمله من أجل إرضاء الله ﷻ والنجاة في الحياة الدائمة الباقية ، جعلت الإمام الشافعي يصل إلى هدفه المنشود بسهولة ، ويحدد هدفه من الدنيا وتوجهه للآخرة واتخاذه العدة والزاد والصدق مع الله طريقا إلى الفلاح .

ولا شـــك أن هذا الموقف موافق لـــما دل عليه حديث رسول الله ﷺ حيث يقول : ((مـــن كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع لـــه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة . ومـــن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر لـــه)) [٢] . ويقول ﷺ : ((من جعل الهموم هما واحدا ، هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك)) [٣] .

فالإنســـان بحاجـــة ماســـة إلى أن يعرف حقيقة الحياة وهدفه منها ، وأن يدرك سر وجوده وحكمته ﷻ منه ، ومن هذا الكون الذي يعيش فيه ، ويقول في ذلك الشافعي :

إن لله عبـــادا فطنـــــا	تركوا الدنيا وخافوا ا لفتنـــا
نظروا فيها فلما علمـــوا	أنها ليســـت لحي وطنـــــا

---

[١] تهذيب الأسماء واللغات ٥٦/١ .

[٢] أخرجه الترمذي في أبواب القيامة ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض ٢٥٢/٤ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣٠٠/٢ (ح٢٥٩٦) .

[٣] أخرجه ابن ماجة في الزهد ، باب الهم بالدنيا ٤٠٨/٢ . وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣٩٣/٢ (ح٤١٠٦) .

جعلوهـــا لجة واتخذوا   صالح الأعمال فيها سفنـــا [١] .

إن الســـعادة الحقيقية تكمن في أن يعرف الإنسان سر حياته وسبب خلقه ووجوده ، وأن يحدد دوره في هذه الحياة ووظيفته فيها ، ويرسم هدفه منها ، ويعرف نهايته ومصيره .

فالإمـــام الشـــافعي قد عرف دوره في هذه الحياة ، وبين أن من زهد في الدنيا رزق الآخرة – كما سبق بيانه – وأضاف قائلا في إحدى دواوينه :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لهـــا   يمسي ويصبح في دنياه سفـــارا

هلا تركت لذي الدنيا معانقة   حتى تعانق في الفردوس أبكـــارا

إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها   فينبغي لك أن لا تأمن النـــارا [٢] .

وبين أحوال الناس في هذه الحياة قائلا :

بلوت بني الـــدنيا فلم أر فيهـــم   سوى من غدا والبخل ملء إهابـــه

فجردت من غمد القناعة صارما   قطعت رجائي منهم بذبابـــــه

فلا ذا يراني واقفا في طريقـــه   ولا ذا يراني قاعدا عند بابـــــه

غني بلا مال عن الناس كلهـــم   وليس الغني إلا عن الشيء لا بـــه [٣] .

وقد صور هذه الدنيا بأنها متاع الغرور لمن يغتر بها وينهمك فيها فقال :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتهـــا   وسيق إلينا عذبها وعذابهـــــا

فلم أرها إلا غرورا وباطـــــلا   كما لاح في ظهر الفلاة سرابهـــا

وما هي إلا جيفة مستحيلـــة   عليها كلاب همهن اجتذابهـــــا

فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها   وإن تجتذبها نازعتك كلابـــــها

فطوبى لنفس أولعت قعر دارها   مغلقة الأبواب مرخى حجابهـــا [٤] .

هكذا كان الإمام الشافعي – رحمه الله – ينظر إلى هذه الحياة ، ويدرك الهدف منها، ويتخذ العدة والزاد والصدق مع الله ﷻ سبيلا إلى الدار الآخرة الباقية .

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٨٤- ٨٥ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفســـه ص ٢٣ .

(٤) نفســـه ص ٢١- ٢٢ .

٦- التوكل على الله تعالى

التوكل على الله تعالى سمة من سمات المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١] وقال تعالى أيضا : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [٢] .

وقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بالتوكل عليه فقال ﷻ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [٣] .

قال الإمام الشافعي : " نزه الله ﷻ نبيه ، ورفع قدره وعلمه وأدبه ، وقال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ ، وذلك أن الناس في أحوال شتى : متوكل على نفسه ، أو على ماله ، أو على زرعه ، أو على سلطانه ، أو على عطية الناس . وكل مستند إلى حي يموت أو على شيء يفني يوشك أن ينقطع به ، فنزه الله نبيه ﷺ وأمره أن يتوكل على الحي الذي لا يموت " [٤] .

ولا شك أن هذا الكلام استلهام نير واستدلال منطقي دقيق من الإمام الشافعي ، يدل على نظرته العميقة ، حيث يشير إلى ينابيع السعادة الحقيقية التي لا تغيض ، تلك الينابيع التي يكتسب استمرارها من صلتها الوثيقة بالله ﷻ فتمنح أصحابها السكينة والطمأنينة والأمل والأمن والراحة والرضا والحب والسعادة ، وقد قيل : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

فالإمام الشافعي يتوكل على الله ﷻ - كغيره من العلماء السلف — وهو في طلب الرزق متوكل على الله تعالى فيقول :

توكلت في رزقي على الله خالقي ... وأيقنت أن الله لا شك رازقي

وما يك من رزقي فليس يفوتني ... ولو كان في قاع البحار العوامق

سيأتي به الله العظيم بفضله ... ولو لم يكن مني اللسان بناطق

ففي أي شيء تذهب النفس حسرة ... وقد قسم الرحمن رزق الخلائق [٥] .

---

[١] سورة المائدة ، الآية (٢٣) .

[٢] سورة الأنفال ، الآية (٢) .

[٣] سورة الفرقان ، الآية (٥٨) .

[٤] أحكام القرآن للشافعي ١٨٠/٢ .

[٥] ديوان الإمام الشافعي ص ٦٦ .

ولكن مع ذلك بين الإمام الشافعي أن طلب الرزق لا بد فيه من التأني والتعب والنصب فيقول :

ورزقك ليس ينقصه التأني   وليس يزيد في الرزق العناء [١] .

ولا غرو أن يفيض معين الشافعي بكل هذا اليقين ، ولا عجب كذلك أن يتعهد طلابه ويربيهم على هذه المعاني الكريمة ، وأن يربيهم حسن الثقة في الله ، وعظيم التوكل عليه سبحانه وتعالى .

يحكي الربيع تلميذ الإمام الشافعي كلاما طيبا دار بين الشافعي وعبد الله بن عبد الحكم " قال عبد الله بن عبد الحكم – من كبار شيوخ المالكية في مصر – للشافعي إذا أردت أن تسكن البلد – يعني مصر – فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به ، فقال له الشافعي : يا أبا محمد ! من لم تعزه التقوى فلا عز له ، ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط " [٢] وقال رحمه الله : " ما فزعت من الفقر قط " [٣] .

هكذا القلب المؤمن الموصول بالله ﷻ ، والذي تغلغل حب الله في أعماقه فعلم أن الله هو الخالق الرازق وهو المعطي المانع ، وهو النافع الضار ، وأن الأمر كله لله لا يهاب مخلوقا ولا يجامل سلطانا ولا يداهن أحدا أبدا " قال الحارث بن شريح : دخلت مع الشافعي على خادم الرشيد وهو في بيت قد فرش بالديباج ، فلما وضع الشافعي رجله على العتبة أبصر الديباج فرجع و لم يدخل ، فقال له الخادم : ادخل فقال : لا يحل افتراش هذا ، فقام الخادم متمشيا حتى دخل بيتا فرش بالأرميني ، ثم دخل الشافعي فأقبل عليه وقال : هذا حلال وذاك حرام ، وهذا أحسن من ذاك وأكثر ثمنا منه ، فتبسم الخادم وسكت " [٤] .

هكذا كان الإمام الشافعي حسن الثقة في الله وعظيم التوكل عليه ، عفيفا ورعا راضيا مطمئنا بقضاء الله وقدره ﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [٥] .

---

[١] المصدر السابق ص ١٦ .

[٢] توالي التأسيس ص ٦٧ .

[٣] تهذيب الأسماء واللغات ١/٥٤ .

[٤] حلية الأولياء ٩/١٣٤ ، وتوالي التأسيس ص ٦٦ .

[٥] سورة الرعد ، الآية (٢٨) .

٧- القناعـــة

إذا كـــان الإمـــام الشـــافعي يرضى بقضاء الله وقدره فهو يرضى أيضا بالقسمة التي قسمت من عند الله ، ويتجلى ذلك من خلال كلماته حينما يقول :

رأيت القناعة رأس الغنى　　فصرت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابـــه　　ولا ذا يـــراني منهـــمك
فصرت غنيا بلا درهـــم　　أمر على الناس شبه الملك [١] .

وما أتعس الحياة إذا عاشها الإنسان بلا هدف ، وأطلق لنفسه العنان في اقتفاء اللذات واقتـــناص الشهوات ، إنها حياة تافهة أشبه بحياة البهائم ، يقول الإمام الشافعي " من عفَّ أمن ، ومن شرهت نفسه طال همـــه " [٢] .

فمـــا أعظم القناعة ! إنها لتملأ النفس غنى ، وتعطي القلب شعورا بالأمن والراحة ، والإنســـان العـــاقل الحكـــيم هـــو الذي لا تفرح نفسه إلى شيء محرم عليه ، تعجز قدراته وإمكاناته عن الوصول إليه .

ثم إن الإمام الشافعي عرف أن العزة تأتي بالقناعة فيقول :

أمتُّ مطامعي فأرحت نفسي　　فإن النفس ما طمعت تهـــون
وأحييت القنوع وكان ميتـــا　　ففي إحيائه عرض مصـــــون
إذا طمع يحل بقلب عبـــــد　　علته مهانة وعـــــلاه هـــون [٣] .

ويقول رحمه الله أيضا :

ولا حزن يدوم ولا سرور　　ولا بؤس عليك ولا رخـــــاء
إذا ما كنت ذا قلب قنوع　　فأنت ومالـــك الـــدنيا سواء [٤] .

ويقـــول : " من غلبته شدة الشهوة للدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع " [٥] .

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٦٨ .

(٢) الإمام الشافعي لعبد الحليم الجندي ص ٤٨ .

(٣) ديوان الإمام الشافعي ص ٨٦ .

(٤) المصدر نفســـه .

(٥) تهذيب الأسماء واللغات ١/٥٥ .

وهكـــذا حين يقتنع الإنسان فلا بد أن يشعر بالراحة والاطمئنان ، وهكذا حين يحس بمعيـــة الله ﷻ ويشعر بالقرب منه ، ويلوذ بجنابه ويعوذ برضاه ، ويتذلل بين يدي الله بعبادته إياه فلا بد أن يشعر بالأمن والأمان .

٨- السخـــاء

أخـــرج أبـــو نعيم بسنده إلى الربيع بن سليمان يقول : سمعت الحميدي يقول : قدم الشـــافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار في منديل فضرب خباءه في موضع خارجا من مكة فكان الناس يأتونه فيه فما برح حتى وهب كلها [١] .

وأخـــرج أبو نعيم أيضا بسنده إلى عمرو بن عثمان قال : قال لي الربيع : سأل رجل الشافعي فقال : إني رجل من أمري كيت وكيت ، تأمرني بشيء ؟ وما كان معه يومئذ إلا ديـــنارا فأعطاه إياه ، فقال له بعض جلسائه : هذا لو أعطيته درهما أو درهمين كان كثيرا ، فقال : إني أستحي أن يطلب مني رجل بيني وبينه معذرة فلا أعطيه [٢] .

كمـــا أخـــرج بسنده إلى المزني الذي يقول : " ما رأيت رجلا أكرم من الشافعي ، خـــرجت معـــه ليلة عيد من المسجد وأنا أذاكره في مسألة حتى أتيت باب داره فأتاه غلام بكيس فقال : مولاي يقرئك السلام ويقول لك : خذ هذا الكيس ، فأخذه منه وأدخله في كمه ، فأتاه رجل من الحلقة فقال : يا أبا عبد الله ! ولدت امرأتي الساعة ولا شيء عندي ، فدفع إليه الكيس وصعد وليس معه شيء " [٣] .

فالإمام الشافعي يحث على الجود والبذل والعطاء فيقول :

أجود بموجود ولو بت طاويـــا ... على الجوع كشحا والحشا يتألم
وأظهر أسباب الغنى بين رفقتي ... ليخفـــاهم حـــالي وإني لمعـــدم
وبيني وبين الله أشكو فاقـــتي ... حقيقا فإن الله بالحـــالي أعـــلم [٤] .

ويحـــض عـــلى البذل قبل أن يفوتهم الأوان وتشغلهم أمور هذه الحياة ، ذلك أن من يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه الله له فيقول :

إذا لم تجودوا والأمور بكم تمضي ... وقد ملكت أيديكم البسط والقبضا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٣٨/٩ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٣٩/٩ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤٠/٩ .

(٤) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٦ .

فما يرجى منكم إن عزلتـــم وعفتكم الدنيا بأنيابهـــا عضـا
وتسترجع الأيام ما وهبتكـــم ومن عادة الأيام تسترجع القرضـــا [١] .

وبـــين فضل السخاء والكرم بأنهما يستران عيوب الدنيا والآخرة ، كما أخرج ذلك أبـــو نعيم بسنده إلى يحي بن علي يقول : " سمعت الشافعي يقول : السخاء والكرم يغطيان عيوب الدنيا والآخرة بعد أن لا يلحقهما بدعـــة " [٢] .

والسخاء لدى الإمام الشافعي – كما مر – سمة واضحة كما حكى لنا ابن أبي حاتم فقـــال : حدثنا الربيع قال : " تزوجت ، فقال لي الشافعي : كم أصدقها ؟ فقلت : ثلاثين دينارا ، قال : كم أعطيتها ؟ قلت : ستة دنانير ، فصعد داره ، وأرسل إلي بصرة فيها أربعة وعشرون دينارا " [٣] .

وقـــال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن روح ، حدثـــنا الزبير بن سليمان القرشي عن الشافعي قال : خرج هرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هـــارون الرشـــيد ، وقال : قد أمر لك بخمسة آلاف دينار ، قال : فحمل إليه المال ، فدعا بحجـــام يـــأخذ من شعره ، فأعطاه خمسين دينارا ، ثم أخذ رقاعا ، فصر من تلك الدنانير صررا صررا ، ففرقها في القرشين ، الذين هم في الحضرة ، ومن هم بمكة ، حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينار [٤] .

وقـــال البيهقي : أخبرنا الحاكم ، أخبرنا نصر بن محمد ، حدثنا أبو علي الحسن بن حـــبيب بن عبد الملك – بدمشق – قال : سمعت الربيع بن سليمان يقول : رأيت الشافعي راكب حمار ، فمر على سوق الحذائين ، فسقط سوطه من يده ، فوثب غلام من الحذائين ، فـــأخذ الســـوط ومسحه بكمه ، وناوله إياه فقال الشافعي لغلامه : ادفع تلك الدنانير التي معك إلى هذا الفتى ، قال الربيع : فلست أدري كانت تسعة دنانير أو سبعة دنانير " [٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥ .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٤٢/٩ ، والمناقب للبيهقي ٢٢٧/٢ .

(٣) المناقب للبيهقي ١٩٥/١ ، وسير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

(٤) آداب الشافعي ص١٢٧- ١٢٨ ، والمناقب للبيهقي ٢٢٦/٢ ، وتوالي التأسيس ص ٦٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٧/١٠ .

٩- الخوف والرجاء

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى حسين بن علي – يعني الكرابيسي- " قال : بت مـــع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحو ثلث الليل ، فما رأيت يزيد على خمسين آية ، فإذا أكـــثر فمائـــة ، وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين ، ولا يمر بآية عـــذاب إلا تعوذ منها وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين ، قال : فكأنما جمع لـــه الرجاء والرهبة جميعا " (١) .

وحـــدث المزني – وهو أبو إبراهيم بن يحي – فقال : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا وللإخوان مفارقا ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله جل ذكره واردا ، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ فأعزيها ، ثم بكى وأنشأ يقول مناجيا ربه ويرجو رحمته ويخشى عذابه :

خف الله وارجوه لكل عظيمـــــة	ولا تطع النفس اللجوج فتندمـــا
وكن بين هاتين من الخوف والرجاء	وابشر بعفو الله إن كنت مسلما
ولما قسا قلبي وضاقت مذاهـــبي	جعلت الرجا مني لعفوك سلـــما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتـــــــه	بعفوك ربي كان عفوك أعظـــما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل	تجود وتعـــفو منـــة وتكرمـــا
فلولاك لم يصمد لإبليس عابد	فكيف وقد أغوى صفيك آدمـــا
فيا ليت شعري هل أصير لجنة	أهنا وإما للســـعير فأنـــدمـــــا (٢) .

ولقـــد كـــان الإمام الشافعي – رحمه الله – لشدة إيمانه بأثر الدعاء وثقته في قبوله ويقينه بالإيجابة يدعو ربه ويطلب من غيره أن يدعو له ، كما أخبر بذلك حرملة قائلا : قال لي الشافعي : اذهب إلى إدريس العابد فقل له : يدعو الله ﷻ لي (٣) .

فكان – رحمه الله – يعيش ساعات الليل يتعاهد كتاب الله ﷻ حفظا وتدبرا وتعبدا، ولمـــا سمع من يقرأ قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ . وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (٤) بكـــى بكـــاء شديدا ، وتغير لونه واقشعر جلده ، وخر مغشيا عليـــه ، فلما أفـــاق جعل

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٦٣/٢ .

(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٨- ٧٩ .

(٣) توالي التأسيس ص ٨٣ .

(٤) سورة المرسلات ، الآيتان (٣٥- ٣٦) .

يقول : " أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي فهب لي جودك ، وجللني بسترك واعف عن تقصيري بكرم وجهك " [1] .

وكان إذا مر بآية فيها ذكر النار والعذاب تعوذ بها – كما سبق – أسوة بالرسول ﷺ ، كما حكت لنا عائشة رضي الله عنها قائلة : كنت أقوم الليل مع رسول الله ﷺ ليلة فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فلا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا الله ﷻ واستعاذ ، ولا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله ﷻ ورغب إليه استجابة لقول الله ﷻ : ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [2] .

فقد كان الإمام الشافعي يدعو الله ﷻ ويناجيه بالمأثور عن رسول الله ﷺ فيستفتح الصلاة قائلا : " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين " . وفي الركوع يقول : " اللهم لك ركعت ولك أسلمت وبك آمنت وأنت ربي خشع لك سمعي وبصري وعظمي وشعري وبشري وما استقلت به قدمي لله رب العالمين " .

وإذا رفع من الركوع يقول : " اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد " . فإذا سجد واقترب قال : " اللهم لك سجدت ولك أسلمت وبك آمنت ، أنت ربي سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين " .

فإذا انتهى من صلاته لهج لسانه بذكر ربه قائلا : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة والفضل وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " [3] .

---

[1] إحياء علوم الدين ٢٦/١ .

[2] سورة الأعراف ، الآية (٥٦) .

[3] كتاب الأم ١٠٦/١، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٦ .

١٠- التـــغبـــير [١]

قـــال ابن قدامة المقدسي : " قال الحسن بن عبد العزيز الجروي [٢] : سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول : " تركت بالعراق شيئا يقال لـــه : التغبير ، أحدثته الزنادقة يصدون به الناس عن القرآن " [٣] .

وقـــال أبـــو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري [٤] : قال الشافعي : الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ، قال : وكان الشافعي يكره التغبير .

قـــال الطـــبري : قد أجمع علماء الأمصار على كراهية الغناء والمنع منه ، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري .

وقد قال رسول الله ﷺ : ((عليكم بالسواد الأعظم)) [٥] وهي الفرقة الناجية ، كما جاء في رواية الإمام الطبراني حينما سئل رسول الله ﷺ عن نعتهم فقال : السواد الأعظم [٦]

وقـــال ابـــن الجوزي : وقد كان رؤساء أصحاب الشافعي رضي الله عنهم ينكرون السماع [٧] .

" وأما قدماؤهم فلا يعرف بينهم خلاف ، وأما أكابر المتأخرين فعلى الإنكار ، منهم أبو الطيب الطبري وله ذم في الغناء والمنع كتاب مصنف ...

قـــال : لا يجـــوز الغـــناء ولا سماعه ولا الضرب بالقضيب ، قال : ومن أضاف إلى الشافعي هذا فقد كذب عليه ، وقد نص الشافعي في كتاب أدب القضاء على أن الرجل إذا دام على سماع الغناء ردت شهادته وبطلت عدالته " [٨] .

---

(١) قال محقق كتاب ذم ما عليه مدعو التصوف : المغبرة : قوم يغبرون بذكر الله ، أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة ونحوها ، سموا بذلك لأنهم يرغبون الناس في الغابرة أي الباقية ، والحق أن الترغيب بالآخرة يكون بما جاء عن الله ورسوله ﷺ من الوعظ والإرشاد والرقائق المباحة . ص ٧ .

(٢) هو : أبو علي الجروي (ت ٢٥٧هـــ) قال أبو حاتم ثقة ، انظر : الجرح ٢٤/٣ ، وتاريخ بغداد ٣٣٨/٧ .

(٣) ذم ما عليه مدعو التصوف ، لابن قدامة المقدسي ، ط ٢ بيروت المكتب الإسلامي ١٤٠٣ هـــ ص ٧ .

(٤) فقيه بغداد (ت ٤٥٠هـــ) انظر : تاريخ بغداد ٣٥٨/٩- ٣٥٩ وسير أعلام ٦٦٨/١٧ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٣٧٥/٤ .

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/٦ وقال : رجاله ثقات .

(٧) تلبيس إبليس ص ٢٨٣ .

(٨) نفســـه ص ٢٨٣- ٢٨٤ .

ويدل إنكار الإمام الشافعي – أيضا – على السماع ما حكاه أحمد بن مقاتل العكي فيقـــول : " لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومعه قوال يقول شيئا ، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه فأذن له ، فابتدأ يقول :

صغير هواك عذبني — فكيف به إذا احتـــنكا

وأنت جمعت من قلبي — هوى قد كان مشتركا

أما ترثي لمكـــتئب — إذا ضحك الخلي بكى

قـــال : فقام ذو النون وسقط على وجهه ، والدم يقطر من جبينه .. ثم قام رجل من القوم يتواجد . فقال له ذو النون : ﴿ وَالَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [١] فجلس الرجل " [٢] .

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فهذا ونحوه هو الذي أشار إليه الأئمة ، كالشافعي في قوله : " خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن " فيكون ذو النون أحد الذين حضروا التغبير الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف .." [٣] .

١١- تصرف الولي

يقـــول الإمـــام الشـــافعي : " من قال مطرنا بنوء [٤] كذا وكذا على ما كان أهل الجاهـــلية يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا فذلك كفر كما قال رسول الله ﷺ ، لأن النوء وقت ، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا ، ومن قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا فلا يكون كفرا وغيره من الكلام أحب إليه منه " [٥] .

هـــذا النص يرد على الفكر الصوفي الذي يعتقد بأن للأولياء تصرفا خاصا في أمور لا يقـــدر عـــليها إلا الله كما ينسبون إلى الأولياء بأنهم يملكون إنزال المطر [٦] . رغم أن هذه الأمور لا تليق إلا بالله ﷻ .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية (٢١٨) .

(٢) الاستقامة ٣٨٤/١ – ٣٨٥ ، وانظر : الرسالة القشيرية ص ٣٤٤ .

(٣) الاستقامة ٣٨٥/١ .

(٤) النوء : النجم مال للغرب ، أو سقوط النجم في المغرب في الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق ، انظر : القاموس المحيط مادة (نوء) .

(٥) كتاب الأم ٢٥٢/١ .

(٦) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (أبدال) .

فقـــد كان الإمام الشافعي حريصا على التمسك باعتقاد سلف هذه الأمة ، والدفاع عـــنه مـــن كل شائبة قد تشوبه ، فكان يقف موقف المؤمن الذي يعتقد بأن الغيث لا يقدر عـــلى إنزاله إلا الله ﷻ ، بل ولا يعلم وقت نزوله غيره ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [١] .

وكمـــا أن الله ﷻ هـــو وحده المدبر والمتصرف والمالك لإنزال المطر في الوقت الذي يـــريده ويختـــار فكذلك هو وحده المنفرد بمنعه إذا شاء قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ [٢] .

وموقـــف الإمام الشافعي – رحمه الله – لـــه سند من قول رسول الله ﷺ ، كما في حديـــث زيد بن خالد الجهني ﷺ قال : "صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قـــالوا : الله ورســـوله أعلم ، قال : أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب" رواه الشيخان [٣] .

قـــال الشـــيخ سليمان بن عبد الله : " فإن اعتقد قائل ذلك أن للنوء صنعا في ذلك فكفـــره كفـــر شرك ، وإن اعتقد ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك ، ولكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة " [٤] .

وهذا النص يبين بأن ليس هناك فرقا بين من ينسب إيجاد المطر إلى الكوكب وبين من ينسبه إلى المخلوقين سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر ، لأن المخلوق – كما في كلام الشافعي – لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا .

---

[١] سورة لقمان ، الآية (٣٤) .

[٢] سورة الملك ، الآية (٣٠) .

[٣] أخرجه البخاري في صفة الصلاة ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ٢٩٠/١ (ح٨١٠) ، ومسلم في الإيمان باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ٨٣/١ (ح٧١) .

[٤] تيسير العزيز الحميد ص ٤٥٩ .

المبحث الثالث

بطلان ما نسب إلى الإمام الشافعي في التصوف

١- الأوتـــــاد

إن كلمة الأوتاد جمع الوتد ، وهو ما رز في الأرض أو الحائط من خشب .

وأوتـــاد الأرض : الجبال ، وفي التتريل العزيز : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا . وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [١] ، وأوتاد البلاد رؤساؤها [٢] .

أما الأوتاد في المصطلحات الصوفية فهم " الرجال الأربعة الذين على منازلهم الجهات الأربـــع مـــن العالم ، أي المشرق والمغرب والجنوب والشمال ، بهم يحفظ الله تلك الجهات لكوهم محال نظره تعالى " [٣] .

وفي الفكر الصوفي كان الإمام الشافعي – رحمه الله – أحد الأوتاد ، وجهات العالم الأربـــع ، كمـــا ذكره الشعراني عن شيخه ابن عربي حينما قال : " اعلم أن بالقطب تحفظ دائـــرة الوجـــود كلـــه مـــن عالم الكون والفساد ، وبالإمامين يحفظ الله تعالى عالم الغيب والشـــهادة ، وهـــو ما أدركه الحس ، وبالأوتاد يحفظ الله تعالى الجنوب والشمال والمشرق والمغـــرب ، وبالأبدال يحفظ الله الأقاليم السبعة ، وبالقطب يحفظ الله تعالى جميع هؤلاء لأنه هـــو الـــذي يدور عليه عالم الكون كله ، فمن علم هذا الأمر علم كيف يحفظ الله الوجود عـــلى عالم الدنيا ونظيره من الطب علم تقويم الصحة (فإن قلت) : فهل للقطب تصريف في أن يعطـــي القطبية لمن يشاء من أصحابه وأولاده ؟ (فالجواب) : ليس لـــه تصريف في ذلـــك قد بلغنا أن بعض الأقطاب سأل الله أن تكون القطبية من بعده لولده ، فإذا بالهاتف يقول له ذلك لا يكون إلا في الإرث الظاهر ، وأما في الإرث الباطن فذلك إلى الله وحده ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

فعـــلم أنـــه ما حفظ من حفظ من الأولياء وغيرهم من جهاته الأربع إلا بالأوتاد ، الذيـــن كان منهم الإمام الشافعي ، وما حفظ من حفظ في صفاته السبع إلا بالأبدال السبعة

---

(١) سورة النبأ ، الآيتان (٦- ٧) .

(٢) انظر : لسان العرب ، والقاموس المحيط مادة (وتد) .

(٣) مصطلحات الصوفية للجفني ص ٢٦٤ .

فكـــل صفة لها بدل يحفظها على صاحبها من حياة وعلم وقدرة وإرادة وسمع وبصر وكلام انتهى "[١] .

التعـــليـــق :

قال عبد الرحمن عبد الخالق معلقا على هذه النصوص :

" وهكـــذا يريد المتصوف إيهامك أن ما حفظ من سمعك وبصرك وقدرتك وعلمك وحياتك وإرادتك إنما مرجعه إلى بدل من الأبدال السبعة الذين كان منهم الشافعي في زمانه الشـــافعي هذا ﷺ الذين يكذبون عليه ، والذي قال عن الصوفية بعد أن ارتحل عن العراق إلى مصر قال : " تركت بغداد وقد أحدث الزنادقة فيها شيئا يسمونه السماع "

وقال أيضا : " لا أرى إنسانا يتصوف أول النهار إلا أن يكون أحمق في آخره "[٢] .

قلت : فمن خلال النصوص السابقة التي ذكرها الشعراني نرى أن فيها أقوالا وأعمالا شـــركية ، تتصادم مع تعاليم الكتاب العزيز ، وتخالف عقائد الأئمة الأربعة ؛ بل نرى فيها العمـــل المنسوب إلى الإمام الشافعي وهو عاجز عنه ، حيث لا أحد يقدر عليه إلا الله ﷻ ، لأن السماوات والأرض وما فيهما ملك لله وحده ﷻ ، وأن حفظهما من خصائص ربوبيته ﷻ ، حيث قال : ﴿ لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٣] ، وقال تعالى أيضا : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُـــمْ وَبَـــثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[٤] .

فجهات العالم الأربع لا دخل للإنسان في حفظها ، فالله وحده ﷻ هو المالك المدبر، ومصـــرف الأمـــور لا يشـــاركه فيها أحد ، فلا يحفظ العالم بالأوتاد الأربعة ، أو بالأبدال السبعة ، أو بحسب مراتب الترتيب التي يرتبها المتصوفة .

ولعل استخدام هذه المصطلحات من قبل المتصوفة ، وإسنادها إلى أحد الأئمة الكبار ما هو إلا وسيلة من وسائل جذب الناس إلى معتقداتهم .

---

(١) اليواقيت والجواهر ٨٢/٢ .

(٢) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ص ٢٤١ .

(٣) سورة المائدة ، الآية (١٢٠) .

(٤) سورة لقمان ، الآيتان (١٠- ١١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم : " وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ، بل هذا الترتيب والأعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية ، والنصيرية ، ونحوهم في السابق والتالي والناطق ، والأساس والجسد وغير ذلك من الترتيب الذي ما نزل الله به من سلطان " [١] .

ولا ننكر أن لفظ " الأوتاد " معروف في اللغة العربية ، وقد استخدمه القرآن الكريم، الذي يعني تثبيت الأرض بالجبال كي لا تتحرك وتميل إلينا وهذا المعنى لا غبار عليه ، كذلك " يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعني أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والدين في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كان بحسبه ، وليس ذلك محصورا في أربعة ولا أقل ولا أكثر ؛ بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض " [٢] .

ولكن الصوفية اعتبرت الأوتاد مرتبة من مراتب الأولياء ، وهم الذين يحفظون هذا الكون الذي نعيش فيه – حسب زعمهم – ، وقد وصفهم محي الدين ابن عربي فقال : " واعلم أن هؤلاء يحوون على علوم جمة كثيرة ، فالذي لا بد لهم من العلم به ، وبه يكونون أوتادا فما زاد من العلوم فمنهم من له خمسة عشر علما ، ومنهم من له ولا بد ثمانية عشر علما ، ومنهم من له واحد وعشرون علما ، ومنهم من له أربعة وعشرون علما ، ولكل وجهة وقد يشفع يوم القيامة فيمن دخل عليه إبليس من جهته " [٣] .

وبهذا المفهوم ننفي ونبعد أن يكون الإمام الشافعي واحدا منهم ، وخاصة أن مصطلح الأوتاد عند الصوفية يصطدم اصطداما واضحا مع العقيدة الصحيحة .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٤٣٩ .

(٢) نفسه ١١/٤٤٠ .

(٣) الفتوحات المكية ٢/٤٠١ .

٢- السماع

. قال أبو القاسم القشيري : " وأما الشافعي – رحمه الله – فإنه لا يحرمه (السماع) ويجعلـه في العـوام مكروها ، حتى لو احترف الغناء ، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجـه التـلهي تـرد به الشهادة ، ويجعله مما يسقط المروءة ، ولا يلحقه بالمحرمات ، وليس كلامنا في هذا النوع من السماع فإن هذه الطائفة جلت رتبتهم عن أن يستمتعوا بلهو ، أو يقعـدوا للسـماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم متفكرين في مضمون لغو ، أو يستمعوا على صفة غير كفء " [١] .

التعـليـق على النص :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " لم يختلف قول الشافعي في كراهته والنهي عنه للعوام والخـواص ، لكـن هل هي كراهة تحريم أو تتريه ، أو تفضيل بين بعض وبعض ؟ هذا مما يتنازع فيه أصحابه ، وهذا قوله في سماع العامة ، وأما السماع الديني الذي جعله أبو القاسم للخاصة فهو عند الشافعي من فعل الزنادقة ، كما قال : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير ويصدون به الناس عن القرآن .

فعـنده أن هـذا السـماع أعظم من أن يقال فيه مكروه أو حرام ، بل عنده مضاد للإيمان ، وشرع دين لم يأذن به ، ولم يترل به سلطان ، وإن كان من المشايخ الصالحين من تـأول ذلك ، وبتأويله واجتهاده يغفر الله لـه خطأه ، ويثيبه على ما مع التأويل من عمل صالح ، فذلك لا يمنع أن يقال ما في الفعل من الفساد ، إذ التأويل من باب المعارض في حق بعض الناس ، تدفع به عنه العقوبة ، كما تدفع بالتوبة والحسنات الماحية ، وهذا لمن استفرغ في وسعه في طلب الحق " [٢] .

ثم قال رحمه الله : " فقول الشافعي ﷺ في هؤلاء كقوله في أهل الكلام : حكمي في أهـل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جـزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام ، وقوله : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام .

---

[١] الرسالة القشيرية ص ٣٣٧ .

[٢] الاسـتقامـة ٢٧٩/١ .

ومع هذا فقد ابتلى البعض بذلك على وجه التأويل من أهل العلم والدين والتصوف والعبادة .

ولهذا كان الكلام في السماع على وجهين :

أحدهما : سماع اللعب والطرب ، فهذا يقال فيه مكروه أم محرم ؟ أو باطل أو مرخص في بعض أنواعه ؟

والثاني : السماع المحدث لأهل الدين والقرب ، فهذا يقال فيه : إنه بدعة وضلالة ، وإنه مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ، وإجماع السالفين جميعهم ، وإنما حدث في الأمة لما أحدث الكلام ، فكثر هذا في العلماء وهذا في العباد " [١] .

ويمكن إرجاع بدعة العبادة بالرقص وسماع الأغاني إلى بدعة يهودية ، حيث إن النص وارد في أسفار العهد القديم عندهم ، ويدعو إلى عبادة الله بالرقص والدف والغناء كما هو واضح من هذا النص : " هللوا يا غنوا للرب ترنيمة جديدة تسبيحة في جماعة الأتقياء ليفرح إسرائيل بخالقه ، ليبتهج بنور صهيون بملكهم ، ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا له الأب راض عن شعبه ... سبحوا برباب وعود سبحوا بدف ورقص سبحوه بأوتار ومزمار " [٢] .

ويؤيد هذا أيضا ما ذكره القرطبي عن أحد العلماء حين سئل عن مذهب الصوفية في الرقص والتواجد حتى يقع أحدهم مغشيا عليه ؟ فأجاب : " مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ... إلى أن قال :

فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ، وغيرهم من أئمة المسلمين " [٣] .

---

[١] المصدر السابق ١/٢٨٠ .

[٢] العهد القديم ، المزامير — المزمور (١٤٩- ١٥٠) .

[٣] جامع الأحكام للقرطبي ١١/٢٣٧- ٢٣٨ .

كـــان الإمام القرطبي – إذن – مؤيدا لما ذهب إليه الإمام الشافعي في إنكار السماع المحدث ، الذي ابتدعته الزنادقة واتخذوه دينا .

ويقـــول شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقربة يتقرب بهـــا إلى الله فقـــد ضاهى هؤلاء في بعض أمورهم " [١] أي أنهم يتشبهون بالمشركين الذين اتخذوا المكاء والتصدية عبادة .

وحكاية أخرى تنسب إلى الإمام الشافعي في السماع .

تقـــول الحكايـــة : " وحكى إسماعيل بن علية [٢] قال : كنت أمشي مع الشافعي – رحمه الله – وقت الهاجرة ، فجزنا بموضع يقول فيه أحد شيئا ، فقال : مِلْ بنا إليه ، ثم قال : أيطربك هذا ؟ فقلت : لا ، فقال : مالك حسّ " [٣] .

التعـــليـــق على النص :

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا النص فيقول : " وقد كان مستغنيا عن أن يستشـــهد عـــلى الأمور الحسية بحكاية مكذوبة على الشافعي ، فإن إسماعيل بن علية شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه ، ولم يرو هذا عن الشافعي ؛ بل الشافعي الذي روى عنه ، وهو من أجلاء شيوخ الشافعي ...

إلى أن قال رحمه الله : " فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنى معرفة بالناس ، ولو صـــحت عمن صحت عنه لم يكن فيها إلا ما هو مدرك بالإحساس من أن الصوت الطيب لذيـــذ مطرب ، وهذا يشترك فيه جميع الناس ، ليس هذا من أمور الدين ، حتى يستدل فيه بالشـــافعي ، بـــل ذكر الشافعي في مثل هذا غض من منصبه ، مثل ما ذكر ابن طاهر عن مـــالك – رحمـــه الله – حكاية مكذوبة ، وأهل المواخر أعلم بهذه المسألة من أئمة الدين ، ولـــو حكى مثل هذا عن إسحاق بن إبراهيم النديم ، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني لكان أنسب من يحكيها عن الشافعي " [٤] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٥٩/٣ .

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم ، الإمام ، العلامة ، الحافظ .. أبوبشر الأسدي المشهور بابن علية ، وهي أم ، (ت ١٩٣هـــ) ، انظر : سير أعلام ١٠٧/٩ ، وتذكرة الحفاظ ٣٢٢/١ .

(٣) الاستقامة ٣٣٧/١

(٤) نفســـه ٣٣٧/١- ٣٣٨ .

ثم يقـــال : كون الصوت الحسن فيه لذة أمر حسي ، لكن أي شيء في هذا مما يدل عـــلى الأحكام الشرعية ، من كونه مباحا أو مكروها أو محرما ؟ ومن كون الغناء قربة أو طاعـــة ؟

بـــل مـــثل هـــذا أن يقـــول القائل : استلذاذ النفوس بالوطء مما لا يمكن جحوده ، واســـتلذاذها بالمباشرة للجميل من النساء والصبيان مما لا يمكن جحوده ، واستلذاذها بالنظر إلى الصور الجميلة مما لا يمكن جحوده ، فأي دليل في هذا لمن هداه الله على ما يحبه ويرضاه أو يبيحه ويجيزه ؟ " [١] .

ثم قـــال شيخ الإسلام – رحمه الله – : " ومن المعلوم أن هذه الأجناس فيها الحلال والحرام ، والمعروف والمنكر ، بل كان المناسب لطريقة الزهد في الشهوات واللذات ومخالفة الهـــوى أن يســـتدل بكون الشيء لذيذا مشتهى على كونه مباينا لطريق الزهد والتصوف ، كما قد يفعل كثير من المشايخ يزهدون بذلك في جنس الشهوات واللذات .

وهـــذا وإن لم يكن في نفسه دليلا صحيحا ، فهو أقرب إلى طريقة الزهد والتصوف من الاستدلال بكون الشيء لذيذا على كونه طريقا إلى الله .

وكل من الاستدلالين باطل ، فلا يستدل على كونه محمودا أو مذموما ، أو حلالا أو حراما ، إلا بالأدلة الشرعية لا بكونه لذيذا في الطبع أو غير لذيذ " [٢] .

ولهذا ينكر على من يتقرب إلى الله بترك جنس اللذات ، كما قال النبي ﷺ للذين قال أحدهم : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم ، فقال النبي ﷺ : ((لكـــني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) [٣] " [٤] .

---

[١] الاستقامة ٣٣٨/١- ٣٣٩ .

[٢] نفســـه ٣٣٩/١ .

[٣] سبق تخريجه ٢٨ .

[٤] المصدر نفسه ١٤٠/١ .

٣- التبرك بالقبر وبصاحبه

روى الإمـــام الصـــيمري أنا عمر بن إبراهيم المقري أنبأ مكرم بن أحمد أنبأ عمر بن إســـحاق بـــن إبراهيم أنا علي بن ميمون سمعت الشافعي ﷺ يقول : إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجـــيء إلى قبره كل يوم – يعني زائرا – فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضي " [١] .

وروى الخطيب البغدادي بإسناده ثم ذكر الرواية السابقة [٢] .

وقال السيد عفيفي : " لم يزل العلماء وذوو الحاجات يزورون قبر الإمام أبي حنيفة ، ويتوســـلون إلى الله تعالى عنده في قضاء حوائجهم ويرون نجاح ذلك ، ومن هؤلاء العلماء الإمام الشافعي ﷺ ثم ذكر الرواية أيضا .. " [٣] .

التعـــليـــق بالأمور الآتية :

أولا : إذا نظرنا في الرواية من حيث السند فإنها رواية ضعيفة ، بل باطلة ، كما قال الشـــيخ الألـــباني في (سلسلة الضعيفة ٣١/١) ذلك أن عمر بن إسحاق بن إبراهيم غير معـــروف ، وليس له ذكر في شيء من كتب الرجال ، ويحتمل أن يكون هو (عمرو) بن إســـحاق بن إبراهيم بن حميد بن السكن أبو محمد التونسي ، وقد ترجـــمه الخطيب (١٢/ ٢٢٦) ، وذكـــر أنه بخاري قدم حاجا سنة (٣٤١هـــ) ، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا فهـــو مجهـــول الحـــال ، ويبعد أن يكون هو هذا ، إذ أن وفاة شيخه علي بن ميمون سنة (٢٤٧هـــ) على أكثر الأقوال ، فتبين وفاتهما نحو مائة سنة ، فيبعد أن يكون قد أدركه .

ثانيا : أما من حيث المتن فإن الرواية لا تصح نسبتها إلى الإمام الشافعي ، لأن النص معـــلوم كذبه عند من لـــه معرفة بالنقل ، فإن الإمام الشافعي لما قدم بغداد لم يكن بها قبر ينتاب للدعاء عنده البتة ، وقد رأى الإمام الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر ، ومن الأنبياء والصحابة والتابعين من كان أصحابها عنده وعند المسلمين أفضل من أبي حنيفة وأمـــثاله من العلماء ، فلماذا الإمام الشافعي لم يتوخ الدعاء إلا عنده ؟ ثم إن أصحاب أبي

---

[١] مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ٤٥٣/١ .

[٢] انظر : تاريخ بغداد ١٢٣/١ .

[٣] حياة الإمام أبي حنيفة ص ٢٢٥- ٢٢٦ .

حنيفة الذين أدركوه مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وطبقتهم لم يكونوا يتحرون الدعاء لا عند قبر أبي حنيفة ولا عند قبر غيره .

ثالثا : وأما من حيث الموضوع فقد ابتعد عن الإمام الشافعي لأنه كان من أكثر الناس حرصا على حماية جناب التوحيد والتحذير من وسائل الشرك ، وأشدهم نهيا عنها ، وكذلك أتباعه ، وقد وردت عنهم في ذلك نصوص كثيرة منها :

قال الإمام الشافعي : " وأكره أن يعظم مخلوق حتى يجعل قبره مسجدا مخافة الفتنة عليه ، وعلى من بعده من الناس " [١] .

وهذا تناقض بين القول والفعل يتره عنه الشافعي ، ولو كان هذا التبرك صحيحا لقال له الناس كيف تخشى على الناس فتنة لا تخشاها على نفسك ؟

وقال أيضا : " وأكره أن يبنى على القبر مسجد وأن يسوى ، أو يصلى عليه وهو غير مسوي ، أو يصلي إليه " [٢] . واستعماله – رحمه الله – للفظ الكراهية إنما يقصد به التحريم كما هو مقتضى النصوص الشرعية ، وليس المقصود بكلامه الكراهة باصطلاح الفقهاء المتأخرين .

كما قال أيضا : " يكره أن يجصص القبر وأن يكتب عليه اسم صاحبه ، أو غير ذلك وأن يبنى عليه " [٣] .

وقال ابن حجر المكي الهيثمي : " الكبيرة الثالثة ، والرابعة ، والخامسة ، والسادسة ، والسابعة ، والثامنة والتسعون اتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها ، واتخاذها أوثانا ، والطواف بها ، واستلامها ، والصلاة إليها ... ثم قال : تنبيه : عدّ هذه الستة من الكبائر وقع في كلام بعض الشافعية ، كأنه أخذ ذلك مما ذكرته من هذه الأحاديث ووجه أخذ القبر مسجدا منها واضح لأنه – يعني النبي ﷺ – لعن من فعل ذلك ، وجعل من فعل ذلك بقبور صلحائه شر الخلق عند الله يوم القيامة ، ففيه تحذير لنا كما في رواية ((يحذر ما صنعوا)) [٤] أي يحذر أمته بقوله لهم ذلك من أن يصنعوا كصنع أولئك ، فليلعنوا كما

---

(١) انظر : الأم ٢٧٨/١ ، والمهذب ١٣٩/١– ١٤٠ ، وروضة الطالبين ٦٥٢/١ ، والمجموع ٢٦٦/٥ .

(٢) الأم ٢٧٨/١ .

(٣) المجموع على شرح المهذب ٢٦٦/٥ .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ، باب مرض النبي ﷺ (ح٤٤٤٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٧/١ (ح٥٣١) .

لعـــنوا .." ، إلى أن قـــال : فـــإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مســـاجد أو بناءها عليها والقول بالكراهة محمول على غير ذلك ، إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي ﷺ لعن فاعله ، ويجب المبادرة لهدمها وهدم القباب التي على القبور ، إذ هـــي أضر من مسجد الضرار ؛ لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ لأنه نهى عن ذلك ، وأمـــر ﷺ بهدم القبور المشرفة ، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على القبر ولا يصح وقفه ونذره " (١) .

وقـــال الإمام النووي : " ولا يجوز أن يطاف بقبره ﷺ ، ويكره لصاق البطن والظهر بجـــدار القـــبر ، قاله أبو عبد الله الحليمي وغيره ، قالوا : ويكره مسحه باليد وتقبيله ، بل الأدب أن يبعد منه ، كما يبعد منه من حضره في حياته ﷺ .

هـــذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه ، ولا يغتر بمخالفة كثير من العوام وفعـــلهم ، وكذلك فإن الإقتداء والعمل إنما يكون بالأحاديث الصحيحة واقوال العلماء ، ولا يلـــتفت إلى محدثات العوام وجهالاتهم وغيرها .. ومن خطر بباله أن المسح باليد ونحوه أبـــلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته ، لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وكيف يبتغى الفضل في مخالفة الصواب ؟ " (٢) .

قـــال الرافعي في شرح المنهاج : " وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو عـــلى اسم من حلها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فإن قصد الـــناذر بذلك – وهو الغالب أو الواقع قصود العامة – تعظيم البقعة أو المشهد أو الزاوية أو تعظـــيم مـــن دفـــن بها أو نسبت إليه أو بني على اسم ، فهذا النذر باطل غير منعقد ؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات ويرون أنها مما يدفع بها البلاء ويستجلب بها النعماء ، ويستشـــفى بالنذر لها من الأدواء ، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم إنه استند إليه عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني أو المكان الفـــلاني يقبل النذر ، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض ، أو قدوم غـــائب ، أو سلامة مال ، وغير ذلك من أنواع نذر المجازات ، فهذا النذر على هذا الوجه بـــاطل لا شـــك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا ، ومن ذلك نذر

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/١٩٥ .

(٢) المجموع على شرح المهذب ٨/٢٥٧- ٢٥٨ .

الشـــموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل ﷺ ، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء ، فإن الــناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركا وتعظيما ، ظانا أن ذلك قربة فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا " [١] .

وقــال الإمــام النووي : " إذا نذر المشي إلى مسجد غير المساجد الثلاثة ، وهي : المسجد الحرام ، والمدينة ، والأقصى لم يلزمه ولا ينعقد نذره عندنا " [٢] .

ومن خلال النصوص السابقة تبين لنا مدى حرص الإمام الشافعي وأتباعه – رحمهم الله – على حماية التوحيد من كل شوائب ، وكذلك حرصهم الشديد على إبعاد كل مظهر من مظاهر الشرك ، وإغلاق أبوابها ، فحرموا كل ما يؤدي إليه من تعظيم القبور بأي شكل كان .

وبذلــك نصل إلى أن ما نسب إلى الإمام الشافعي من تبركه بالقبر أو إتيانه إليه كل يــوم ، وطلــبه من الله الحاجة عنده ، كل ذلك كذب وافتراء عليه وعلى أتباعه الكرام ، حيــث لم نجد واحدا منهم من يخبرنا بأن الإمام الشافعي يتبرك بالقبر وبصاحبه ، بل وجدنا منهم الحرص الشديد على حماية التوحيد من كل مظاهر الشرك والوثنية .

فالتــبرك بالأموات والقبور من بدع القبورية ، وهي طريق واسع سريع إلى الوثنية ، وكذلك زيارة القبور لأجل التوسل بأصحابها لرفع البلاء ، والاستغاثة بهم في قضاء الحوائج وغفران الذنوب هي عين الوثنية الجاهلية ، ولا يمت ذلك بأي صلة للشرع السماوي ودين الــتوحيد ، والرســل – عليهم الصلاة والسلام – قد بعثوا لقمع هذه التوسلات ، فزيارة القبور إنما شرعت للاعتبار والدعاء للميت ، ولم تشرع للتبرك ودعاء الميت والتوسل به .

وحكاية أخرى منسوبة إلى الإمام الشافعي في التبرك .

روى عــن الربيع بن سليمان أن الإمام الشافعي – رحمه الله – بعثه بكتاب من مصر إلى الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – ببغداد ، وذكر فيه أنه رأى النبي ﷺ في نومه ، وأنه أمــره أن يبشر أحمد بأنه سيمتحن في القول بخلق القرآن ، وأن الله سيرفع لــه بذلك علما

---

[١] فتح المجيد ص ٢١٣ .

[٢] المجموع ٤٧١/٨ .

إلى يوم القيامة ، فرفع إلى الربيع أحد ثوبيه بشارة ، فلما رجع الربيع إلى مصر تبرك الشافعي بغسالة ثوب الإمام أحمد [١] .

تعـــليق :

هذه الحكاية غير صحيحة لما يأتي :

أن الإمـــام الذهـــبي قد نص على عدم صحتها ، فقد قال – رحمه الله –عند ترجمته لـــلربيع أنه لم يكن صاحب رحلة ، فأما ما يرى أن الشافعي بعثه إلى بغداد بكتابه إلى أحمد بـــن حنـــبل فغير صحيح ، ذلك أن الشافعي لقي من هو أكبر من الإمام أحمد وأفضل و لم يتـــبرك به ، كالإمام مالك ابن أنس – رحمه الله – وهو شيخه ، وكذا سفيان بن عيينة – رحمه الله – .

وممـــا يؤيد كلام الذهبي أن الخطيب البغدادي لم يترجم للربيع في تاريخه ، مع التزامه تـــرجمة كل من ورد بغداد ، ومع أن الربيع كان مشهورا ، ثم إنه من خلال التأمل لأسانيد هـــذه الحكاية تبين أن في أحد أسانيدها أبا عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي ، قال عنه محمـــد يوســـف القطان النيسابوري : كان أبو عبد الرحمن غير ثقة ، وكان يضع للصوفية الأحـــاديث [٢] . وقـــال الذهبي : ماهو بالقوي في الحديث ، وقال أيضا : وفي الجملة ففي تصـــانيفه أحاديث وحكايات موضوعة ، وفي حقائق تفسيره أشياء لا تسوغ أصلا [٣] . أما الأســـانيد الأخـــرى ففيها انقطاع ، وبعض رواتها لا يعرف ، وبذلك نصل إلى أن الحكاية المنسوبة إلى الإمام الشافعي باطلة وغير صحيحة .

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٢٧٠- ٢٧١ . ومناقب الإمام أحمد ص ٥٥١- ٥٥٣ .

(٢) انظر : تاريخ بغداد ٢/٢٤٨ .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء ١٧/٢٥٠- ٢٥٢ .

٤ – الفراسة والنظر في النجوم

قال الربيع بن سليمان : وكان – أي الشافعي – ذا معرفة بالفراسة [١] حيث قال رحمه الله : " خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة ، حتى كتبتها جميعا " [٢] .

وقال ابن حجر العسقلاني : أخرج الحاكم من طريق حرملة قال : كان الشافعي ينظر في كتب النجوم ، وكان له صديق ، فذكر القصة ، وفيها : فقال : تلد إلى سبعة وعشرين يوما ، وقال : في فخذه الأيسر خال أسود ، ويعيش أربعة وعشرين يوما ، ثم يموت فجأة ، وقال فيها : فأحرق الشافعي تلك الكتب ، وما عاد ينظر في شيء من ذلك [٣] .

وفي رواية أخرى : كان الشافعي – وهو حدث – ينظر في النجوم وما نظر في شيء إلا تفقه فيه وفهمه ، فجلس يوما – وامرأة رجل تطلق – فحسب ، فقال : تلد جارية عوراء ، على فرجها خال ، وتموت لكذا ، فولدت ، فكان كما قال ، فجعل على نفسه أن لا ينظر في النجوم أبدا ، ودفن تلك الكتب التي كانت عنده [٤] .

التعليق :

للإمام ابن القيم – رحمه الله – تعليق على هذه الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي – رحمه الله – فقال : " .. وأظن الذي غره في ذلك أبو عبد الله الحاكم فإنه صنف في مناقب الشافعي كتابا كبيرا وذكر علومه في أبوابه ، وقال الباب الرابع والعشرون في معرفة تسيير الكواكب من علم النجوم وذكر فيه حكايات عن الشافعي تدل على تصحيحه لأحكام النجوم ، وكان هذا الكتاب وقع للرازي فتصرف فيه وزاد ونقص وصنف مناقب الشافعي من هذا الكتاب ، والذي غر الحاكم من هذه الحكاية تساهله في إسنادها ، ونحن نبين حالها ليتبين أن نسبة ذلك إلى الشافعي كذب عليه ، وأن الصحيح عنه من ذلك ما كانت العرب تعرفه من علم المنازل والاهتداء بنجوم في الطرقات ، وهذا هو الثابت الصحيح عنه بأصح إسناد إليه .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ٦٥/١ .

(٢) الوافي بالوفيات ١٧٥/٢ .

(٣) توالي التأسيس ص ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه .

قال الحاكم حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا الربيع بن سليمان قال : قال الشافعي : قال الله ﷻ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [٢] ، كانت العلامات جبالا يعرفون مواضعها من الأرض ، وشمسا وقمرا ونجما مما يعرفون من الفلك ورياحا يعرفون صفاتها في الهواء تدل على قصد البيت الحرام " [٣] .

ثم قال ابن القيم – رحمه الله – : " وأما الحكايات التي ذكرت عنه في أحكام النجوم فثلاث حكايات :

إحداها : قال الحاكم قرئ على أبي يعلى حمزة بن محمد العلوي – وأكثر ظني أني حضرته – حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن العباس الأزدي في آخرين قالوا : حدثنا محمد بن أبي يعقوب الجوال الدينوري حدثنا عبد الله بن محمد البلوي حدثني خالي عمارة بن زيد قال : كنت صديقا لمحمد بن الحسن فدخلت معه يوما على هارون الرشيد فسأله ، ثم إني سمعت محمد بن الحسن وهو يقول : إن محمد بن إدريس يزعم أن للخلافة أهلا قال : فاستشاط هارون من قوله غضبا ، ثم قال عليّ به ، فلما مثل بين يديه أطرق ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال : أيها فقال الشافعي : ما أيها يا أمير المؤمنين ؟ أنت الداعي وأنا المدعو ، وأنت السائل وأنا المجيب ، فذكر حكاية طويلة سأله فيها عن العلوم ومعرفته بها إلى أن قال : كيف علمك بالنجوم ؟ قال : أعرف الفلك الدوائر والنجم السائر والقطب الثابت والمائي والناري ، وما كانت العرب تسميه الأنواء ، ومنازل النيران والشمس والقمر والاستقامة والرجوع والنحوس والسعود وهيآتها وطبائعها ، وما استدل به من بري وبحري، وأستدل في أوقات صلاتي وأعرف ما مضى من الأوقات في كل ممسي ومصبحي ، وظعني في أسفاري ..."

ثم ساق العلوم على هذا النحو في حكاية طويلة يعلم من له علم بالمنقولات أنها كذب مختلق وإفك مفترى على الشافعي ، والبلاء فيها من عند محمد بن عبد الله البلوي هذا فإنه كذاب وضاع ، وهو الذي وضع رحلة الشافعي ، وذكر فيها مناظرته لأبي يوسف

---

(١) سورة الأنعام ، الآية (٩٧) .

(٢) سورة النحل ، الآية (١٦) .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، بيروت (دار الكتب العلمية) ٢١٩/٢ .

بحضـــرة الرشـــيد و لم ير الشافعي أبا يوسف ولا اجتمع به قـــط ، وإنما دخـــل بغداد بعد موته .." [(١)] .

وأما الحكاية الثانية فقال الحاكم : أخبرنا أبو الوليد الفقيه قال حدثت عن الحسن بن سفيان عن حرملة قال : كان الشافعي يديم النظر في كتب النجوم وكان له صديق ، وعنده جاريـــة قـــد حبلت فقال : إنها تلد إلى سبعة وعشرين يوما ، ويكون في فخذ الولد الأيسر خال أسود ، ويعيش أربعة وعشرين يوما ثم يموت ، فجاءت به على النعت الذي وصف ، وانقضت مدته فمات ، فأحرق الشافعي بعد تلك الكتب ، وما عاود النظر في شيء منها "

التعـــليـــق :

وقال ابن القيم : " وهذا الإسناد رجاله ثقات لكن الشأن فيمن حدث أبا الوليد بهذه الحكايـــة عن الحسن بن سفيان ، أو فيمن حدث بها الحسن عن حرملة ، لو صحت لوجب أن تـــثنى الخناصـــر على هذا العلم ونشد به الأيدي لا أن تحرق كتبه ويهان غاية الإهانة ، ويجعل طعمة للنار ، وهذا لا يفعل إلا بكتب المحال والباطل " [(٢)] .

ثم إنـــه ليـــس في العالم طالع للولادة يقتضي هذا كلـــه ... والطالع عند المنجمين طالعـــان : طالع مسقط النطفة وهو الطالع الأصلي ، وهذا لا سبيل إلى العلم به إلا في أندر الـــنادر الـــذي لا يقتضـــيه الوجود ، والثاني طالع الولادة ، وهم معترفون أنه لا يدل على أحوال الولد وجزئيات أمره ، لأنه انتقال الولد من مكان إلى مكان ، وإنما أخذوه بدلا من الطـــالع الأصلي لما تعذر عليهم اعتباره ، وهذه الحكاية ليس فيها أخذ واحد من الطالعين ، لأن فيها الحكم على المولود قبل خروجه من غير اعتبار طالعه الأصلي .

والمـــنجم يقطـــع بأن الحكم على هذا الولد لا سبيل إليه وليس في صناعة النجوم ما يوجـــب الحكـــم عـــليه والحالة هذه ، وهذا يدل على أن هذه الحكاية كذب مختلق على الشافعي على هذا الوجه .

وكذلـــك الحكايـــة الثالـــثة وهي ما رواه الحاكم أيضا قال : أنبأني عبد الرحمن بن الحســـن القاضي أن زكريا بن يحي الساجي حدثهم أخبرني أحمد بن محمد بن بنت الشافعي قـــال : سمعت أبي يقول : كان الشافعي وهو حدث ينظر في النجوم ، وما نظر في شيء إلا

---

(١) المرجع السابق ٢٢٠/٢ .

(٢) المرجع نفسه ٢٢٠/٢ .

فاق فيه فجلس يوما وامرأة تلد فحسب ، فقال : تلد جارية عوراء على فرجها خال أسود تموت إلى كذا وكذا ، فولدت فكان كما قال : فجعل على نفسه ألا ينظر فيه أبدا .

وأمر هذه الحكاية كالتي قبلها ، فإن ابن بنت الشافعي لم يلق الشافعي ولا رآه ، والشأن فيمن حدثه بهذا عنه " [١] .

ثم وضح ابن القيم فيقول : " والذي عندي في هذا أن الناقل إن أحسن به الظن فإنه غلط على الشافعي ، والشافعي كان من أفرس الناس ، وكان قد قرأ كتب الفراسة ، وكانت له فيها اليد الطولى ، فحكم في هذه القضية وأمثالها بالفراسة فأصاب الحكم ، فظن الناقل أن الحكم كان يستند إلى قضايا النجوم وأحكامها ، وقد برأ الله من هو دون الشافعي من ذلك الهذيان فكيف بمثل الشافعي – رحمه الله – في عقله وعلمه ومعرفته حتى يروج عليه هذيان المنجمين ، الذي لا يروج إلا على جاهل ضعيف العقل ؟ ، وتتريه الشافعي عن هذا هو الذي ينبغي أن يكون من مناقبه .

فأما أن يذكر في مناقبه أنه كان منجما يرى القول بأحكام النجوم وتصحيحها فهذا فعل من يذم بما يظنه مدحا ، وإذا كان الشافعي شديد الإنكار على المتكلمين مزريا بهم ، وكان حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل فماذا رأيه في المنجمين وهو أجل وأعلم من أن يحكم على أهل الحق ومن قضاياهم في الصدق .. " [٢] .

ومع ذلك إن صحت الرواية فيؤخذ على أن الإمام الشافعي كان لديه خبر أو علم أو معرفة بالكواكب ومطالعها وأبراجها ؛ وهذا العلم لا يذم الإنسان بسببه ، وإنما المذموم هو التنجيم وإسناد الأفعال إلى النجوم من سعد ونحوسة وشقاوة .. وما إلى ذلك من الأعمال المنهية المناقضة للعقيدة الصحيحة .

---

(١) المرجع نفسه ٢٢١/٢ .

(٢) نفسه ٢٢١/٢ .

٥- القول المنسوب إليه في البدعـــة

احتج الأحباش [١] بقول مأثور عن الشافعي " أن البدعة على ضربين :

أحدهما : ما أحدث مما يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا فهذه البدعة الضلالة ، والـــثانية : مـــا أحــــدث من الخير ، لا خـــلاف فيه لواحـــد من هذا ، فهذه بدعة غير مذمومة " [٢] .

التعـــليـــق :

قال عبد الرحمن دمشقية معلقا على ذلك :

١- أنـــه لا ينـــبغي القـــول بأن الشافعي يرى استحسان البدع وهو القائل : " من استحسن فقد شرع " رد بذلك على من جعلوا الاستحسان أصلا في الشرع .

وهـــو القـــائل : " إنما الاستحسان تلذذ ، ولو جاز الاستحسان في الدين لجاز ذلك لأهـــل العقـــول من غير أهل الإيمان ، ولجاز أن يشرع في الدين في كل باب ، وأن يخرج الإنسان لنفسه شرعا جديدا " [٣] .

٢- فهـــذا الحـــافظ ابـــن حجر – وهو من أعرف الناس بالشافعي – يصرح بأن " البدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة فإن كل شيء أحدث على غير مثال ، يسمى بدعـــة سواء كان محمودا أو مذموما " [٤] . قال : " فيشمل لغة ما يحمد ويذم ، ويختص في عرف أهل الشرع بما يذم " [٥] . وهو قول ابن حجر الهيثمي أيضا نفسه [٦] .

٣- هب أن كلام الشافعي يصرح بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة فهل يجوز ضرب قول النبي ﷺ : ((كل بدعة ضلالة)) بقول غيره وتقديم قوله عليه ؟

---

(١) من الفرق الحديثة أسسها عبد الله الحبشي الهرري في لبنان ، له فتاوى شاذة ، وسعى في نشر مخلفات عقائد المعتزلة ، وجعل علم الكلام هو التوحيد والدفاع عن البدعة هو طريق أهل السنة ، وجعل الإستغاثة بالمخلوق شعار أهل التوحيد ، وسب العلماء ... انظر : موسوعة أهل السنة ١/٧ .

(٢) صريح البيان ص ٧٦ ، نقلا عن موسوعة أهل السنة ١/٣٢٤ .

(٣) الرسالة ، فصل إبطال الاستحسان ، وانظر : كتاب الأم ٧/٢٩٤- ٢٩٨ نقلا عن موسوعة أهل السنة .

(٤) فتح الباري ١٣/٢٥٢- ٢٥٤ .

(٥) نفســه ١٣/٢٧٨ .

(٦) فتاوى ابن حجر ص ٢٨٠ .

٤- أن مذهب الشافعي ينص على أنه : " إذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله ﷺ فاضـــربوا بقـــولي عرض الحائط " . فقد أخذنا بمذهب الشافعي في إيثار قول النبي ﷺ على قـــول الشافعي ، وإلا فما لنا نضرب بقول النبي ﷺ عرض الحائط ونميل إلى الشافعي دونه ، هل يرضى الشافعي نفسه ذلك منا " (١) .

وأضاف عبد الرحمن دمشقية قائلا :

صحيح أن البدعة تنقسم من حيث اللغة إلى نوعين بدعة حسنة ، وبدعة سيئة . غير أن هـــذا التقســيم لا يجوز من حيث الشرع ، ألا ترى أن الصلاة في اللغة معناها الدعاء ، والإيمـــان في الـــلغة معناه مجرد التصديق ، غير أن معناهما في الشرع يختلف تماما ، فالصلاة عـــبارة عـــن أقـــوال وأفعال مخصوصة تبتدأ بالتكبير وتختم بالتسليم ، وأما الإيمان فهو قول وعمل واعتقاد ، وليس مجرد اعتقاد فقط .

والمبـــتدعون والمخترعون في الدنيا كثيرون ، منهم من تكون بدعته حسنة كاختراع الســـيارات والطائرات ، مع العلم أن السيارة مقيسة على الدابة ، ولذلك يصح ذكر دعاء ركوب الدابة عند ركوب السيارة ، لأنها دابة اليوم حلت محل دابة الأمس .

ومنهم من تكون بدعته شرا كاختراع القنابل واستحداث وسائل الرذيلة .

وأما مشاركة الناس لله ﷻ ورسوله ﷺ في التشريع فإنه شر كله (٢) .

وذلك بأدلة من السنة والأثر ، فمن السنة :

١- مـــا رواه جابـــر بن عبد الله ﷺ قال : ((كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : بعـــث أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : أما بعد ، فإن خـــير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة)) (٣) .

---

(١) موسوعة أهل السنة ١/٣٢٤- ٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٢٥ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجمعة ، باب تخفيف الصلاة والجمعة ٢/٥٩٢ (٨٦٧) ، والنسائي في كتاب صلاة العيدين ، باب كيف الخطبة ٣/١٨٨ ، وأحمد في المسند ٣/٣١٠، ٣٣٨ ، ٣٧١ .

٢- وعـــن ابن مسعود مرفوعا وموقوفا أنه كان يقول : إنما هما اثنتان الكلام والهدي ، فأحســـن الكلام كلام الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة [١] .

٣- وعن العرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ، ثم أقبل علينا فوعظـــنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله كـــأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كـــان عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وســـنة الخـــلفاء الراشـــدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [٢] .

ومن الآثار :

١- مـــا ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « ما أتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة ، وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن » [٣] .

٢- وورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » [٤] .

٣- وقال حسان بن عطية : « ما ابتـــدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة » [٥] .

فكل هذه الأحاديث والآثار تدل على أن البدعة لم ترد في الشرع إلا مذمومة ، ومما يستأنس به في هذا المقام أن المبتدع لا يستعمل غالبا إلا في الذم [٦] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب اجتناب البدع والجدل ١/١١ (٣٧) وابن أبي عاصم في السنة (٢٥)

(٢) أخرجه الترمذي في العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤/٤٠٨ . وقال : " هذا حديث حسن صحيح " . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/٢٤١ (٢١٥٧) .

(٣) قال الهيثمي : " رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثوقون " مجمع الزوائد ١/١٨٨ .

(٤) قال الهيثمي : " رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح " مجمع الزوائد ١/١٨١ .

(٥) رواه الدارمي بإسناد صحيح ١/٤٥ .

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٦٧ .

ثم إن الإمـــام الشافعي قد حكم في أهل الكلام من أصحاب البدع فيقول : " رأيي ومذهـــبي في أصـــحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويجلسوا على الجمال ، ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم .. هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام" [١] .

٦ - القول المنسوب إليه في التصوف

ذكر العجلوني في " كشف الخفاء " أن الإمام الشافعي لما وقف على حديث " حُبِّبَ إلي مـــن دنيـــاكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة " قال : " وأنا حـــبب إلي من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشر الخلق بالتلطف ، والاقتداء بطريق أهل التصوف " [٢] .

التعــــليـــق :

أولا : إن الحديــــث " حـــبب إلي من دنياكم ثلاث .. " فيه إشكالات حيث ذكره كـــثيرون بـــدون ذكر " ثلاث " [٣] . ففي صحيح سنن النسائي في كتاب عشرة النساء ، بـــاب حب النساء ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ((حبب إلي من الدنيا ؛ النساء ، والطيب ، وجعل قرة عيني في الصلاة)) [٤] .

وعن أنس أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : ((حبب إلي النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)) [٥] .

ثانيـــا : قال ابن القيم : وأما ما اشتهر من زيادة ثلاث لم أقف عليها إلا في موضعين مـــن الإحياء [٦] ، وفي تفسير آل عمران من الكشاف ، وما رأيتها في شيء من طرق هذا الحديـــث بعـــد مزيد التفتيش ، قـــال : وبذلك صرح الزركشي ؛ بل قـــال : زيادتها محيلـــة للمعنى .

---

(١) حلية الأولياء ١٢٣/٩ .

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحـــاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلوني ، تصحيح وتعليق أحمد القلاش ، ط٣ بيروت (مؤسسة الرسالة ١٤٠٣هـــ) ٤٠٨/٢ .

(٣) انظر : المرجع نفســه ٤٠٥/٢ .

(٤) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٦١/٧ . وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي ٨٢٧/٣ (ح ٣٦٨٠) .

(٥) أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ٦٢/٧ . وأورده الألباني في صحيح سنن النسائي ٨٢٧/٣ (ح ٣٦٨١) .

(٦) إحياء علوم الدين ٢١٩/٣ .

" وقـــال ابن القيم أيضا وغيره : من رواه حبب إلي من دنياكم ثلاث فقد وهم ، بل هي عبادة محضة ، نعم يصح أن تضاف إليها لكونها ظرفا لوقوعها فيها [(١)] .

وقـــال شيخ الإسلام والحافظ ابن حجر في تاريخ الكشاف إن لفظ " ثلاث " لم يقع في شيء من طرقه ، وزيادته مفسدة للمعنى .. " [(٢)] .

ثالـــثا : وذكر القسطلاني في " المواهب اللدنية " : أنه ﷺ لما قال : " حبب إلي من دنيـــاكم النســـاء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة ، قال أبو بكر : وأنا يا رسول الله حـــبب إلي مـــن الدنيا : النظر إلى وجهك ، وجمع المال للإنفاق عليك ، والتوسل بقرابتك إليـــك ، وقال عمر : وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المـــنكر ، والقيـــام بأمر الله ، وقال عثمان : وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا : إشباع الجـــائع ، وإرواء الظمآن ، وكسوة العاري ، وقال علي بن أبي طالب : وأنا يا رسول الله حـــبب إلي من الدنيا : الصوم في الصيف ، وإكرام الضيف ، والضرب بين يديك بالسيف ، قال الطبري : خرجه الجندي ، كذا قال : والعهدة عليـــه " [(٣)] .

قال محقق الكتاب المذكور : إن هذا الحديث " حديث مما لا يصح " [(٤)] .

رابعا : إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي مستنبطة من الروايات السابقة ، حيث ذكر العجلوني بعد سرد تلك الروايات فيقول :

" وفي كـــلام بعضـــهم : أن أبا حنيفة لما وقف على ذلك قال : وأنا حبب إلي من دنيـــاكم ثـــلاث : ترك الترفع والتعالي ، وقلب من حبين خالي ، والتهجد بالعلم في طول الليالي . وأن مالكا لما وقف عليه أيضا قال : وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث : مجاورة تربة ســـيد المرسلين ، وإحياء علوم الدين ، والاقتداء بالخلفاء الراشدين . وأن الشافعي لما وقف عليه أيضا قال : وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشرة الخلق بالتلطف ،

---

(١) انظر : كشف الخفاء ٢/٢٠٦ ، والمواهب اللدنية بالمنح المحمديـــة ، لأحمـــد القسطلاني ، تحقيق صالح أحمد الشامي ، ط١ بيروت ، (المكتب الإسلامي ١٤١٢هـــ) ٢/٤٧٦- ٤٧٧ .

(٢) المواهب اللدنية ٢/٤٧٧ .

(٣) نفســـه ٢/٤٧٨- ٤٧٩ .

(٤) نفســـه .

والاقـــتداء بطريق أهل التصوف . وأن أحمد لما وقف عليه قال : وأنا حبب إلي من دنياكم ثلاث : عطاء من غير منـــة ، ونفس مطمئنـــة ، والاتباع بالسنـــة " [١] .

وبـــناء على ما سبق ذكره من أن الحديث " حبب إلي من دنياكم ثلاث " فيه وهم وإشـــكال ، وأن لفظ ثلاث ليس في شيء من طرق الحديث الصحيح ، وأن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي خالية من السند ، بل مستفادة من الحديث المذكور ..

أقول : إن الرواية المنسوبة إلى الإمام الشافعي لا تصح بالأمور التالية :

إذا نظـــرنا في النص فليس فيه سند يمكن الرجوع إليه ، ذلك أن الرواية مستنبطة من الحديث الذي لا يصح فيه .

وأما من حيث المتن والموضوع فإني أستبعد أن يصدر من الإمام الشافعي — رحمه الله — لعـــدم ورود النص في كتب الإمام الشافعي ومناقبه ، ولا في كتب تلامذته ، و لم يذكره كتّاب تراجمه من العلماء المشهورين .

أضـــف إلى ذلك أن الإمام الشافعي لـــه نقد للتصوف ، كما أخرج ذلك أبو نعيم بسنده إلى يونس بن عبد الأعلى [٢] — تلميذ الإمام الشافعي — قـــال : " سمعت الشافعي يقول : لو أن رجلا عاقلا تصوف لم يأت الظهر حتى يصير أحمق " [٣] .

وعـــن يونـــس بن عبد الأعلى أيضا أنه قال : ما لزم أحد الصوفية أربعين يوما فعاد عقله إليه أبدا ، وأنشد الشافعي :

ودعو الذين إذا أتوك تنسكوا   وإذا خلوا كانوا ذئاب حقاف [٤] .

وقـــد ذكر ابن القيم قول الإمام الشافعي : " صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمـــتين ، سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغله بالحق وإلا شغلتك بالباطل " [٥] .

---

[١] كشف الخفاء ٢/٤٠٨ .

[٢] هو : يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة ، من كبار الفقهاء ، أتت إليه رياسة العلم بمصر ، كان عالما بالأخـــبار والحديث ، وافر العقل ، صحب الشافعي ، وأخذ عنه ، وقال ابن حجر : إنه " ثقة " . انظر : الأعلام ٨/٢٦١ ، والتقريب ٢/٣٩٥ .

[٣] حلية الأولياء ٩/١٥١ ، وتلبيس إبليس ص ٤٤٧

[٤] تلبيس إبليس ص ٤٤٧ .

[٥] مدارج السالكين ٣/١٢٤- ١٢٥ .

وعلى ذلك ، إن كان الإمام الشافعي قد أثنى على الصوفية فإن ثناءه محدود على قدر كلماتهم النافعة ، أو بعض أعمالهم الموافقة للكتاب والسنة ، فالإمام الشافعي – رحمه الله – لم يأمـر بالإقـتداء بطريق أهل التصوف ، وإنما أثر عنه أقوال كثيرة تبين تمسكه بالآثار ، واعـتماده عليها ، حيث جعلها أسس اجتهاده ، بل لا يرى الحجة في غيرها إن ثبتت ، فما لأحـد مـن دون رسول الله ﷺ رأي أو اجتهاد أو حجة ، فإذا جاء الأثر وصح ووضحت دلالته وليس له ناسخ أو مخالف فهو الشرع لا شرع سواه .

والنصوص التي تدل على اتباعه للسنة ومخالفة البدعة كثيرة نذكر منها ما يلي :

قـال تلميذه الربيع بن سليمان : قال لي الشافعي : " وأعطيتك جملة تغنيك إن شاء الله تعـالى : لا تدع لرسول الله ﷺ حديثا إلا أن يأتي عنه خلافه ، فتعمل بما قدرت لك من الأحاديث إذا اختلفت " [١] .

وقـال المـزني : قال الشافعي : " إذا وجدتم سنة صحيحة فاتبعوها ، ولا تلتفتوا إلى قول أحـد " [٢] .

وقـد شهد لـه بنصرة الحديث واتباع السنة إمام المحدثين أحمد بن حنبل ، قال عبد المـلك بـن عـبد الحميد بن مهران : قال لي أحمد بن حنبل : " ما لك لا تنظر في كتب الشـافعي ؟! فمـا من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي " [٣] . وقال الإمام أحمد أيضا : " رحم الله الشافعي لقد كان يذب عن الآثار " [٤] .

وكان الإمام الشافعي يقول – على ما رواه الربيع - : " ما من أحد إلا وتذهب عنه سـنة لرسـول الله ﷺ وتعزب عنه ، فمهما قلت من قول ، أو أصلت من أصل ، فيه عن رسـول الله ﷺ خلاف ما قلت ، فالقول ما قال سول الله ﷺ وهو قولي " وجعل يردد هذا الكـلام [٥] . ويقول : " إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها ، ودعوا مـا قلتـه " [٦] . " وكل مسألة تكلمت فيها وصح الخبر فيها عن رسول الله ﷺ عند أهل

---

(١) توالي التأسيس ص ٦٢ .

(٢) المصدر نفسـه .

(٣) آداب الشافعي ومناقبه ص ٦١ ، وتوالي التأسيس ص ٥٧ .

(٤) توالي التأسيس ص ٥٧ .

(٥) معجم الأدباء ٣١١/١٧ .

(٦) توالي التأسيس ص ٦٣ .

الفقـــه بخـــلاف ما قلت ؛ فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي " [١] . ويقول أيضا : " إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط " [٢] .

وهـــذه النصـــوص كلها تدل دلالة واضحة على احتياط الإمام الشافعي لدين الله ، خشـــية أن يدخل فيه ما ليس منه ، وللناس ثقة في دينه وورعه واجتهاده ، فبرئ إلى العلماء أمام الله أن يعترف على قول قاله ، إن لم تدعمه الحجة من كتاب أو سنة صحيحة ، ويعلن أنـــه رجع عنه ، فقد روى البويطي عن الشافعي قوله : " ألفت هذه الكتب و لم آل فيها ، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [٣] فما وجـــدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنـــة فقـــد رجعت عنـــه " [٤] .

واشتد غضب الإمام الشافعي إن عرض حجته من السنة على أحد العلماء فطرحها ، والـــتمس لتأييد قوله رأي غير المعصوم ، ولو كان من كبار الأئمة المجتهدين ، ففي مناظرة لإســـحاق بن راهويه مع الشافعي ، سأل الشافعي بعض من عرفه : من هذا ؟ فقال : هذا إسحاق بن إبراهيم بن الحنظلي بن راهويه الخراساني ، فقال له الشافعي : " أنت الذي يزعم أهل خراسان أنك فقيههم " ؟ قال إسحاق : هكذا يزعمون ، قال الشافعي : " ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك ، فكنت آمر بعرك أذنيه ، أنا أقول لك : قال رسول الله ﷺ ، وأنت تقول : عطاء ، وطاووس ، ومنصور ، وإبراهيم ، والحسن ، وهؤلاء لا يرون ذلك ؟ هل لأحد مع رسول الله ﷺ حجـــة ؟! " [٥] .

فخلاصـــة القـــول : إذا كـــان هذا الموقف الصريح من الإمام الشافعي نحو الاتباع والإقـــتداء بسنة رسول الله ﷺ ، والتمسك بالآثار الصحيحة ، فإن القول المنسوب إليه بأنه أمر باقتداء طريق أهل التصوف غير صحيح لا يعتمد عليه ، وخاصة أنه – رحمه الله – أمر بالإعـــراض عـــن قولـــه إذا خالف الأحاديث الصحيحة ؛ فالإقتداء المفروض هو الإقتداء

---

(١) توالي التأسيس .

(٢) الوافي للوفيات ١٧٣/٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية (٨٢)

(٤) توالي التأسيس ص ٦٢ .

(٥) معجم الأدباء ٢٩٥/١٧ .

بالرسول ﷺ وهو القدوة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ (١) .

وهـــو يوصي هذه الوصية الجامعة : " أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عـــبدا حبشـــيا ، فإنـــه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشـــدين المهديـــين عضوا عليها بالنواجـــذ ، وإياكم ومـــحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعـــة " (٢) .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٢) سبق تخريجه ٣٥٧.

المبحث الرابع

موقف بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- أبو إبراهيم المزني (ت ٢٦٤هـ) .

هو الإمام العلامة ، فقيه الملة ، علم الزهاد ، إسماعيل بن يحي بن إسماعيل ابن عمرو مسلم المزني المصري [١] .

قال أبو عبد الرحمن السلمي : أخبرنا محمد بن عبد الله بن شاذان ، سمعت محمد بن علي الكتاني ، وسمعت عمرو بن عثمان المكي يقول : ما رأيت أحدا من المتعبدين في كثرة من لقيت منهم أشد اجتهادا من المزني ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت أحدا أشد تعظيما للعلم وأهله منه ، وكان من أشد الناس تضييقا على نفسه في الورع ، وأوسعه في ذلك على الناس ، وكان يقول : أنا خلق من أخلاق الشافعي [٢] .

و قد كان زاهدا ورعا ، متقللا من الدنيا ، مجاب الدعوة ، وكان إذا فاتته صلاة في جماعة صلاها خمسا وعشرين مرة ، يغسل الموتى تعبدا واحتسابا [٣] .

ووصفه أبو إسحاق الشيرازي بأنه : عالم مجتهد مناظر محجاج غواص على المعاني الدقيقة ، حيث صنف كتبا كثيرة . حتى قال عنه الإمام الشافعي بأن المزني ناصر مذهبه [٤] .

وقد أخذ عنه خلق من العلماء وبه انتشر مذهب الشافعي في الآفاق .

موقفه من الفكر الصوفي ودفاعه عن الشافعي

قال ابن الحاج في المدخل : وقد سئل الإمام أبو إبراهيم المزني - رحمه الله - وكان من كبار أصحاب الشافعي - رحمه الله - فقيل له : ما تقول في الرقص على الطار والشبابة ؟ فقال : هذا لا يجوز في الدين . فقالوا : أما جوزه الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ؟

فأنشد - رحمه الله - قائلا :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٩٢ .

(٢) نفسه ١٢/٤٩٤ .

(٣) انظر : طبقات الشافعية للسبكي ٢/٩٣ .

(٤) نفسه .

حاشا الإمام الشافعي النبيـــه أن يبتغي غير معاني نبيـــه
أو يترك السنة في نســـكه أو يبتدع في الدين ما ليس فيــه
أو يبتدع طارا وشُبابــة لناسك في دينه يقتديــه
الضرب بالطارات في ليلــة والرقص والتصفيق فعل السفيه
هذا ابتداع وضلال في الـهدى وليس في التنزيل ما يقتضيــه
ولا حـديث عن نبي الهـدى ولا صحابي ولا تابعيــه
بل جاهل يلعب في دينــه قد ضيع العمر بلهو وتيــه
وراح في اللهو على رسلــه وليس يغشى الموت إذ يعتريــه
إن ولي الله لا يرتــضي إلا بما الله لــه يرتضيــه
بل بصيام وقيام في الـدجى وآخر الليل لمستغفريــه
إياك تغتر بأفعــال مـنْ لا يعرف العلم ولا يبتغيــه
قد أكلوا الدنيا بدين لهـم ولبّسوا الأمر على جاهليــه
جهلٌ وطيش فعلهم كلــه وكل من دان به تزدريــه
شبه نساء جمعوا مأتمــا فقمنَ بالندب على ميتيــه
والضرب في الصدر كما قد ترى ليس لهم غير النسا من شبيــه
انكرْ عليهم إن كنت قادرا فهم رجال إبليس لا شك فيــه
ولا تخف في الله من لائم وفقك الله لما يرتضيــه .

ثم قـال ابن الحاج : وقد تقدم أن من ثبتت عدالته لا ينسب إليه إلا ما يليق بحاله ، وبطريقــتــه من الخصال الحميدة ، فمن ذكر عنه غير ما يناسبه كُذّب فيما ادعاه و أنكر عليــه [١] .

فمـن خـلال هـذه الأبيات اتضح موقف المزني من الفكر الصوفي ، وتبين أنه من المدافعين عن الإمام الشافعي من أن ينسب إليه جواز السماع الصوفي ، وأيد ذلك ما قلنا – سابقا – بأن القول المنسوب إلى الإمام الشافعي في التصوف غير صحيح .

---

(١) المدخل لابن الحاج ٣/٩٧- ٩٨ .

٢- محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) .

هـو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير ، الإمام المجتـهد ، عالم العصر ، أبو جعـفر الطـبري [١] .

وهو من كبار أئمة أهل السنة والجماعة المتبعين منهج وعقيدة السلف الصالح .

لقـد عـاش الإمـام الطبري – رحمه الله – أعزب و لم يتزوج ، لأنه شغل بالعلم ، وشغف بالمعرفة منذ الصغر إلى نهاية العمر الذي وصل إلى ست وثمانين سنة .

ولا شـك أن العـزوبة وتـرك الزواج ليس من الشرع ، وإذا كان متعمدا – وهو يسـتطيع على الزواج – يأثم صاحبه ، لأن رسول الله ﷺ قال : " .. وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " [٢] .

فالإسـلام نهى عن الترهب والرهبانية ، وهي ترك الزواج وعدم الانتفاع بما أحل الله ﷻ في هـذه الحياة بحجة الانقطاع إلى العبادة والتركيز على أمور الآخرة ، لأن الرسول ﷺ قد دعا إلى الزواج ، ورغب فيه فقال : " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء " [٣]. وقال ﷺ : "تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانيـة النصارى " [٤]. وقـال أيضا : " من كان موسرا فلم ينكح فليس منا " [٥] .

لم تذكر لنا المصادر التاريخية سبب عزوف الإمام الطبري عن الزواج ، ولكن الشيء الـثابت أن الطبري – رحمه الله – كان متفرغا لطلب العلم ، منكبا على تحصيله ، وقضى معظم شبابه في السفر والترحال والانتقال من بلد إلى بلد و لم يستقر في بلده .

وأغلب الظن أن الانشغال في طلب العلم والتفرغ لـه كان هو السبب الأساسي في عـدم إقباله على الزواج ، فالعلم يشغل صاحبه ويمنحه متعة نادرة ، حيث يصاحب الكتب

---

(١) انظر : تاريخ بغـداد ١٦٢/٢ ، ومعجـم الأدباء ٤٠/١٨ ، وطبقات الشيرازي ص ٩٣ ، وتهذيب الأسماء واللغات ٧٨/١- ٧٩ ، وسير أعلام ٢٦٧/١٤ .

(٢) سبق تخريجـه في ص ٢٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٦٧٣/٢(ح١٨٠٦) .

(٤) أخرجه البيهقي في سننه ٧٨/٧ .

(٥) أخرجه الدارمي في سننه ١٣٣/٢ .

والمجلدات والمخطوطات ، ويشغل وقته بالمطالعة والتصنيف حتى يكثر إنتاجه ، ويغزر علمه ويعم نفعه ، وهذا ما حصل مع كثير من علمائنا الأعلام كالطبري والنووي وغيرهما .

لذلك وصف مسلمة بن قاسم أبا جعفر الطبري فقال : " كان حصورا لا يعرف النساء ، شغله طلب العلم ، وهو ابنة عشرة سنين ، ولم يزل طالبا للعلم ، مولعا به إلى أن مات " [(١)] .

زهده وورعه وموقفه من الفقر والتوكل

وأما عن ورعه وزهده فقد كان الطبري – رحمه الله – على جانب كبير من الورع، والحذر من الوقوع في الحرام ، والبعد عن مواطن الشبه ، واجتناب محارم الله والخوف من الله ﷻ ، والاقتصاد في المعيشة على ما يرده من ريع أرضه وبستانه ، الذي خلفه له أبوه [(٢)] .

وقد وصفه أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري فيقول في وصف أبي جعفر : " كان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال ، وصدق النية وحقائق الأعمال ما دل عليه كتابه في " آداب النفوس " وقال : " وكان عازفا عن الدنيا ، تاركا لها ولأهلها ، يرفع نفسه عن التماسها " [(٣)] .

" وكان شديد التوقي والحذر والنزاهة والورع ، يدل على ذلك ما أودعه كتابه المذكور ، المنبه على دينه وفضله " [(٤)] .

وقال ابن كثير : " وكان من العبادة والزهادة والورع ، والقيام في الحق ، ولا تأخذه في ذلك لومة لائم ، وكان من كبار الصالحين " [(٥)] . ولما عاش في زمن الفتن وانتشار أهل الأهواء والبدع لم يبال بهم فصدع مبينا للحق ، مقتصدا للرد عليهم ومناظرتهم .

كما قلنا : إن الإمام الطبري كان على جانب كبير من سمو الأخلاق ، والتزام الفضائل ، وحسن العشرة والمعاملة ، ورفعة السلوك ، وكان على غاية المعرفة والتطبيق لمحاسن الأخلاق والكرم والعفة والزهد والتواضع والورع ...

---

(١) لسان الميزان ١٠٢/٥ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ١٢٥/٣ .

(٣) معجم الأدباء ٦٠/١٨- ٦١ .

(٤) نفسه ٨٦/١٨ .

(٥) البداية والنهاية ١٤٦/١١ .

وقـد شـارك - رحمـه الله - في هـذا العلم لبيان فضائله ، والترغيب بمحاسنه ، والـتحذير من مساوئه ، وبيان الصلة بينه وبين الدين والإيمان ، حيث صنف في ذلك عدة كتب منها :

الموجـز في الأصـول ، ابتدأ في هذا الكتاب برسالة الأخلاق ، لكنه لم يتمه ، كما ذكره المترجمون لـه [١] .

كتاب آداب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة ، وهو كتاب في التهذيب والتدقيق ، وتربية النفس ، ومات ولم يتمه ، وربما سماه بآداب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة .

ووصـف ياقوت الحموي ذلك فقال : " ومن جياد كتبه : كتابه المسمى بكتاب آداب الـنفوس الجيـدة ، والأخلاق النفيسة ، وربما سماه بأدب النفس الشريفة والأخلاق الحميدة " .

وربمـا زاد في ترجمـته المشـتملة على علوم الدين ، والفضل والورع ، والإخلاص والشـكر ، والكـلام في الرياء ، والكبر والتواضع ، والخشوع والصبر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدأ فيه في الوسوسة وأعمال القلوب .

ثم ذكـر شيئا كثيرا من الدعاء وفضل القرآن ، وأوقات الإجابة ودلائلها ، وما روى مـن السنن وأقوال الصحابة والتابعين في ذلك .. وخرج منه نحو خمسمائة ورقة ، وكان قد عمل أربعة أجزاء .. وكان يقول : إن خرج هذا الكتاب كان فيه جمال ، لأنه كان أراد أن يخـرج بعـد الكـلام في الحقوق اللازمة للإنسان ، إلى ما يفيدنا منـه من أهوال القيامة وشروطها ، وأهوال الآخرة وما ورد فيها ، وذكر الجنة والنار [٢] .

ووصـفه ابـن عساكر فقال : " عمله على ما ينوب الإنسان من العرائض في جميع أجـزاء جسـده ، فـبـدأ بما ينوب القلب واللسان والبصر والسمع ، على أن يأتي بجميع الأعضـاء ، ومـا روي عن رسول الله ﷺ في ذلك وعن الصحابة والتابعين ، ويذكر كلام المتصوفة وما حكى من أفعالهم ، وإيضاح الصواب في ذلك " [٣] .

---

(١) المرجع السابق ١٨/٨١ .

(٢) نفسـه ١٨/٧٦- ٧٧ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١٨/٣٥٢ .

وتوضيحا لذلك فقد ذكر ابن الجوزي في معرض حديثه عن الفقر، ورده على الصوفية، الذين يكرهون أن يخلف الفقير شيئا موقف الإمام ابن جرير الطبري من الفكر الصوفي، لما أورد قول رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس »[١]، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حث رسول الله ﷺ على الصدقة، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: « وما أبقيت لأهلك »؟ فقلت: مثله، فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير الطبري: " وفي هذا الحديث دليل على بطلان ما يقوله جهلة المتصوفة أن ليس للإنسان ادخار شيء في يومه لغده، وإن فاعل ذلك قد أساء الظن بربه، ولم يتوكل عليه حق توكله ".

وقال ابن جرير أيضا: وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « اتخذوا الغنم فإنها بركة ». فيه دلالة على فساد قول من زعم من المتصوفة أنه لا يصح لعبد التوكل على ربه إلا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين ولا عرض ويمسي كذلك، ألا ترى كيف ادخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة؟[٢].

فواضح من كلام الإمام الطبري أن له موقفا من المتصوفة المتواكلة، الذين لا يتوكلون على ربهم، ولا يأخذون بالأسباب.

فالتوكل عند الإمام الطبري هو الثقة بالله تعالى في كل ما يأتي الإنسان من أموره، وما يدع، أو يحاول أو يزاول، والرضا بقضائه في كل ذلك، دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، مع الاستسلام لحكمه تعالى في هؤلاء الخلق، سواء وافق ذلك منهم هدي أو خالفه[٣].

وبهذا المعنى من التوكل يكفي الله المؤمنين أعداءهم، ولا يستتند لهم من ناوأهم[٤].

ثم رد الإمام الطبري على معطلي الأسباب فيقول:

" لا يستحق التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من شيء البتة، حتى السبع الضاري والعدو العادي، ولا من لم يسمع في طلب رزق أو مداواة ألم! والحق أن من وثق بالله

---

(١) سبق تخريجه في ص ١٨.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٢٥- ٢٢٦.

(٣) انظر: جامع البيان ٣٤٦/٧.

(٤) نفسه ١٥/١٤.

وأيقـــن أن قضاءه عليه ماض لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب ، اتباعا لسنته تعالى وسنة رســـوله ﷺ ، فقد ظاهر ﷺ في الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر ، وأقعد الرماة عـــلى فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هـــو ، وتعاطي أسباب الأكل والشرب ، وادخر لأهله قوتهم ، ولم ينتظر أن يترل عليه من الســـماء ، وهـــو كان أحق الخلق أن يحصل لـــه ذلك ، وقال للذي سأله : أعقل ناقتي أو أدعها ؟ قال : «اعقلها وتوكل» ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل "[1] .

لقـــد كان الإمام الطبري – إذن – كغيره من علماء السلف يستعين بالله ويتوكل عليه ، ويحث على الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله العلي القدير .

وهذا المنهج هو ما ذهب إليه أهل الحق من سلف هذه الأمة ، وهو طريق يتمشى مع طبيعة هذا الدين الحنيف .

---

(١) نقله ابن حجر في الفتح ٢١٢/١٠ .

الفصل الرابع

الإمام أحـمد بن حنبل والتصوف

وتحته ستة مباحث :

المبحث الأول : عصر الإمام أحمد بن حنبل وحياته

المبحث الثاني : الإمام أحمد وموضوعات التصوف

المبحث الثالث : موقف الإمام أحمد من أعلام التصوف

المبحث الرابع : بطلان ما نسب إليه في التصوف

المبحث الخامس : موقف بعض تلامذته من التصوف

المبحث الأول

عصر الإمام أحمد بن حنبل وحياته

أولا : عصره .

عـــاش الإمام أحمد ما بين عام أربع وستين ومائة إلى عام إحدى وأربعين ومائتين ، حيـــث عاصـــر من خلفاء بني العباس المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثـــق والمـــتوكل ، الذين امتازت فترة ولايتهم بالقوة والثبات والامتداد في الآفاق ، مع وجود الاختلاف في العناصر والبيئات والعقائد والآراء والاتجاهات .

وقـــد اتسعت – كذلك – في هذا العهد دوائر الثقافة والعلم والحضارة ، حيث نقل إلى العربية من اليونانية والسريانية كثير من الكتب في الفلسفة ومختلف العلوم ، فأقبل عليها فـــئات من الناس حينما رأوا فيها شيئا لم يعرفوه من قبل ، كما دخل العنصر الفارسي مع الحكـــم العباسي ، وحمل معه أفكارا وعقائد في بعضها الزندقة والإلحاد ، وفي بعضها الآخر انحراف ظاهره الإيمان وباطنه الكفر والمكيدة للإسلام والمسلمين .

ووجـــدت في بعض الفترات المساندة السياسية كما حصل في عصر المأمون إذ قويت شوكة المعتزلة ، وحاولوا إرغام الناس على القول بخلق القرآن ، وأخذ المأمون ابن أبي دؤاد وأســـند إليـــه مهـــام القضاء ، فباشر ابن أبي دؤاد العمل ، وأحسن العلاقة بالمأمون ، حتى اســـتطاع أن يعـــلن عقيدته على الملأ ، ويقنع الخليفة على حمل الناس عليها ، ودعوة كبار الفقهاء والمحدثين للإقرار بعقيدة المعتزلة وهي أن " القرآن كلام الله ولكنه مخلوق " .

وحيـــنما توفي المأمون تولى المعتصم ، وعمل بوصية أخيه في الاحتفاظ بابن أبي دؤاد والاستمرار بالمحنة ، ثم جاء ابنه الواثق وورث المحنة ، فطبع على غرار أبيه المعتصم ، ثم جاء المـــتوكل فأزال المحنة ، وأعاد للمحدثين حريتهم وقدرهم ، ورجع بسيرته إلى عهد الرشيد ، وانقضت المحنة التي استمرت نحوا من خمس عشرة سنة .

ومـــن المعروف أن الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – كان لـــه موقف مشرف في الذب عن عقيدة السلف الصالح أيام محنة خلق القرآن ، فقد كان ثابتا في موقفه ، لم يردعه رادع الـــناس حتى وإن أدى به إلى السجن ، فالسجن أحب إليه مما يدعون إليه من الإقرار بخلق القرآن .

قال علي بن المديني : إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث : أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال إسحاق بن راهويه : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها له لذهب الإسلام [١] .

وقال أبو حاتم الرازي : قلت لأحمد بن حنبل : كيف تخلصت من سيف المعتصم وسوط الواثق ؟ فقال لي : يا أبا زرعة لو جعل الصدق على جرح لبرأ .

وقال ابن حبان في الثقات : أغاث الله بأحمد أمة محمد ﷺ ، وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله ، حتى ضرب بالسياط للقتل فعصمه الله تعالى عن الكفر ، وجعله علما يقتدى به ، وملجأ يلجأ إليه .

كما بدأ في عصر الإمام أحمد ظهور التصوف والمتصوفين ، الذي كان يعرف من قبل بالزهد ، إلا أن الزهد كان أقرب إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، حيث كان خاليا من التكلف وتعذيب النفس ومنعها مما تميل إليه ولو كان مباحا حلالا ، وصار للتصوف اتجاه خاص وأصول وقواعد [٢] . ثم انقلب مع مرور الزمن إلى فلسفة روحية عميقة لا يفهمها إلا خواص الخواص ..

ويمكن أن يقال : إن هذا العصر كان مجمعا لجميع الأجناس ، ومجمعا لمختلف الملل والنحل والأهواء ، وكان الصراع الفكري بين هؤلاء حادا ومستمرا ، فكل شديد التعصب لفئته أو لرأيه ..

أما السواد الأعظم من الناس فهم أهل السنة والجماعة ، لهم من السيرة والخلق الحسن مالا يوازيه سيرة أحد غيرهم [٣] ، ولهم جهود في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، وإزالة الشوائب التي حاول المبتدعة إلصاقها بها .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ١٩٦/١١ .

(٢) انظر : أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، لعبد الغني الدقر ، ط ٣ دمشق (دار القلم ١٤١٣هـ) ص١٤

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٥ .

ثانيا : حياتـــه .

هــو أحمد بن محمد بن حنبل ، بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان ، بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان ، بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الشيباني [١] ، وكنيته أبو عبد الله .

ولــد في شهر ربيع الأول من أربع وستين ومائة ببغداد ، وقيل : بمرو ومنها حمل إلى بغداد ، والأول هو الصحيح ، فقد وفدت أمه إلى بغداد وهي حامل به ، ونشأ يتيما .

وكـــان مقام أسرته بالبصرة وما حولها ، ووالده من أجناد مرو ، توفي وهو شاب في الـــثلاثين مـــن عمـــره ، وجده حنبل تقلد ولاية سرخس في العصر الأموي ، ثم أصبح من المناصـــرين للدعوة العباسية عند انطلاقها ، ووالدته من بني شيبان أيضا ، وقد تولت تربيته فأحســـنت [٢] ، وكان لـــه - رحمه الله - ولدان عالمان هما : صالح وعبد الله ، وله أيضا من الأولاد غيرهما .

بـــدأ الإمـــام أحمد مسيرته العلمية في سن مبكر إذ يقول : اختلفت إلى الكتاب ، ثم اختـــلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة [٣] ، وطلبت الـــحديث وأنا ابن ست عشـــرة سنة [٤] .

واتضح من سيرته العلمية اهتمامه البالغ بالحديث حيث كان له الباع الطويل في هذا الشـــأن ، وقـــد رحـــــل في تحصيلـــه إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام وطـــرطوس [٥] . حـــتى ساد أهل عصره ، ونصر الله به دينه ، وصار أحد الأعلام من أئمة الإســـلام ، وكـــان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر ، وكان الإمام الشافعي يجله ويثني عليه ثناء حسنا .

---

(١) انظر : تـــاريخ بغداد ٤/٤١٤ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ، ط٢ بيروت ص١٦ ، والبداية والنهاية ١٠/٣٥ وسير أعلام النبلاء ١١/١٧٨ .

(٢) انظر : المصادر السابقة .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٥ .

(٤) مناقب الإمام أحمد ص ٤٦ .

(٥) تاريخ بغداد ٤/٤١٢ .

قال الإمام الشافعي : أحمد إمام في ثمان خصال : إمام في الحديث ، إمام في الفقه ، إمام في اللغة ، إمام في القرآن ، إمام في الفقر ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، وإمام في السنة [١] .

وقال أيضا : خرجت من بغداد وما خلفت بها أحدا أتقى وأورع ولا أفقه من أحمد ابن حنبل [٢] ، وقال حرملة : سمعت الشافعي يقول عند قدومه إلى مصر من العراق : ما خلفت بالعراق أحدا يشبه أحمد بن حنبل [٣] .

وقال أبو زرعة لعبد الله بن أحمد : أبوك يحفظ ألف ألف حديث [٤] .

وقد تلقى الإمام أحمد العلم على جملة كبيرة من المشايخ وهم كثر ، ومن أبرزهم : هشيم بن بشير ، وسفيان بن عيينة ، وجرير بن عبد الحميد ، ويحي بن سعيد القطان ، ووكيع بن الجراح ، وأبو معاوية الضرير ، وعبد الرحمن بن مهدي ، والشافعي ، وعبد الرزاق بن همام ، وعبد الله بن نمير ، وجماعة كثيرون [٥] .

قال الذهبي : فعدة شيوخه الذين روى عنهم في المسند مائتان وثمانون ونيف .

وأما الرواة عن الإمام أحمد فكثيرون أيضا ، فمنهم من روى عنه الحديث فقط ، ومنهم من اهتم بنقل مسائله وتدوينها ، ومنهم من جمع بين الأمرين : ومن أبرز من حدث عنه : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابناه صالح وعبد الله ، وأبو بكر أحمد الأثرم ، وأبو بكر أحمد المروزي ، وأبو زرعة الرازي وغيرهم كثيرون [٦] .

وفي يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين توفي أبو عبد الله أحد الأعلام الكبار في القرن الثالث الهجري ، وله من العمر سبعة وسبعون سنة وأيام رحمه الله تعالى .

---

(١) طبقات الحنابلة ١/٥ ، والمنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد ١/٧٣ .

(٢) تاريخ بغداد ٤/٤١٩ .

(٣) المنهج الأحمد ١/٧٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٧ .

(٥) مناقب الإمام أحمد ص٥٨- ٦١ ، وتاريخ بغداد ٤/٤١٣ ، وسير أعلام النبلاء ١١/١٨٠ .

(٦) انظر : المصادر السابقة .

المبحث الثاني
الإمام أحمد وموضوعات التصوف

١- معرفة الله تعالى

إن ما عثر عن الإمام أحمد في حديثه عن الفطرة يدل على أنه مقر بفطرية المعرفة كبقية الأئمة ، وذلك من خلال إقراره بالفطرة ، وأن كل مولود مفطور على معرفة الله والإسلام له .

قال بذلك أبو بكر الخلال : " أخبرني عبد الملك بن عبد الحميد قال : قال – أي الإمام أحمد – والذي نقول : كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها ، قلت : فما الفطرة الأولى هي الدين ؟ قال : نعم "[(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية موضحا كلام الإمام أحمد : " أحمد ..قال : الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها وهي الدين ، وقد قال في غير موضع : إن الكافر (الطفل) إذا مات أبواه أو أحدهما حكم بإسلامه ، واستدل بهذا الحديث بأنه يولد على فطرة الإسلام "[(٢)] .

وقال أيضا : " وكلام أحمد في أجوبة أخرى له يدل على أن الفطرة عنده الإسلام "[(٣)]

فالإمام أحمد بن حنبل – إذن – موافق لما كان عليه بقية الأئمة من أن معرفة الله ﷻ فطرية مودعة في فطر الخلق ، فكل مولود من بني آدم يولد على هذه المعرفة الفطرية ، التي تدعو إلى التعلق بالله وحده ، هذا مالم توجد مؤثرات خارجية صارفة .

وهذا خلاف ما عليه بعض الصوفية من أن حصول المعرفة بالله تعالى عسير ومجهد ، كما يقول البسطامي حينما سئل عن السبيل إلى المعرفة ؟ فقال : " ببطن جائع وبدن عار " وقال : " إنما نالوا المعرفة بتضييع مالهم والوقوف مع ماله "[(٤)] . وقال أبو سعيد الخراز : " المعرفة تأتي من عين الجود وبذل المجهود "[(٥)] .

---

(١) كتاب السنة للخلال ٣/٥٣٤- ٥٣٥ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٦١ .

(٣) نفسه ٨/٣٨٩ .

(٤) انظر : الرسالة القشيرية ص ٣١٤- ٣١٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

٢- الزهـــــد

الزهد – كما مر بنا – هو عبارة عن انصراف الرغبة من الشيء إلى ما هو خير منه، أو الإعـراض بالقـلب عن الدنيا طلبا لراحة الآخرة ، وهو رأس كل طاعة ، فيه فراغ من مشاغل الدنيا والاستعزاز بالله وحده ﷻ .

ولهذا قال الإمام أحمد – رحمه الله – إن الزهد في الدنيا قصر الأمل ، وإنه عدم فرحه بإقـبالها ، ولا حـزنه على إدبارها ، فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهدا ؟ فقال : نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت [١] . وقد أشار إلى مثل هذا سيد الطائفة الجنيد حينما قال : بأن الزهد في قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [٢] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ، ولا يأسف منها على مفقود " [٣] .

والزهد في الدنيا الذي أشار إليه الإمام أحمد له شواهد من الكتاب والسنة .

فمـن الكتاب مثل قولـه تعـالى : ﴿ قُـلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيـلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَـى ﴾ [٤] وقولـه ﷻ : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ ﴾ [٥] وقوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [٦] وقوله : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًـا مِنهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيـهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [٧] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْـيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٨] .

ومن السنة النبوية مثل قوله ﷺ : ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)) [٩] . وقولـه ﷺ : ((ازهـد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس)) [١٠] . وقول

---

[١] مدارج السالكين ١٣/٢ .

[٢] سورة الحديد ، الآية (٢٣) .

[٣] مدارج السالكين ١٢/٢ .

[٤] سورة النساء ، الآية (٧٧) .

[٥] سورة النحل ، الآية (٩٦) .

[٦] سورة الأعلى ، الآية (١٦) .

[٧] سورة طه ، الآية (١٣١) .

[٨] سورة الحديد ، (٢٠) .

[٩] أخرجه مسلم ، في الزهد والرقائق ٢٢٧٢/٤ (ح ٢٩٥٦) .

[١٠] سبق تخريجه في ص ٧١ .

النبي ﷺ : « إن هذا المال حلوة خضرة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكالذي يأكل ولا يشبع » [١] .

وقال ابن القيم : " والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها ، والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها ، فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ، ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار " [٢] .

وقد قسم الإمام أحمد الزهد إلى ثلاثة أوجه ، فقال : " الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام ، وهو زهد العوام .

والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله ، وهو زهد العارفين " [٣] .

وقد كان للزهد عند الإمام أحمد – رحمه الله – مكانة عظيمة حيث صنف كتابا في الزهد الذي كتبه على نمط رواية الأحاديث ، وهو كتاب يعطي صورة صادقة لحياة الإمام أحمد وزهده وتقشفه وورعه .

فقد تكلم فيه عن زهد رسول الله ﷺ ، ثم أتبع ذلك بكلام لطيف وأخبار صحاح عن زهد أنبياء الله ورسله كزهد يونس وسليمان وأيوب وآدم ونوح وعيسى وموسى وداود وإبراهيم ويوسف وأيوب ..عليهم الصلاة والسلام .

ثم أتبع ذلك بسرد جميل لزهد الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وزهد كبار الصحابة الكرام كأبي الدرداء ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله وأبي ذر ، وعمران بن الحصين ، وسلمان الفارسي ، وأبي هريرة ، وابن مسعود ، والسيدة عائشة ، وحذيفة بن اليمان ، ومعاذ بن جبل ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وسعيد بن عامر ، وعمير بن حبيب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم رضي الله عنهم .

---

(١) أخرجه مسلم ، في الزكاة باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٧١٧/٤ (ح١٠٣٥) .

(٢) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٣) المرجع نفسه ١٤/٢ .

ثم أتبع ذلك بأخبار زهد كبار التابعين ومن تبعهم بإحسان كالأحنف بن قيس ، ومسلم بن يسار ، ومحمد بن سيرين ، وأويس القرني ، وغيرهم ممن تسعد النفوس بذكرهم وقراءة سيرهم [١] .

ومن هنا نقول : كان الإمام أحمد في زهده لا يخرج عن دائرة الزهاد السابقين ، كما حرص كل الحرص على الإقتداء في سلوكه الشخصي بصفة خاصة بالحسن وابن سيرين وإبراهيم بن أدهم [٢] كما روى ذلك الخلال فقال : " ثنا أبو بكر المروزي قال حدثني أبو محمد النسائي جعفر بن محمد قال : قال لي أبو عبد الله يوم عيد : ادخل ، فدخلت فإذا مائدة وقصعة على الخوان وعليها عراق وقدر إلى جانبه ، فقال لي : كل ، فلما رأى ما بي قال : إن الحسن كان يقول : والله لتأكلن ، وكان ابن سيرين يقول : إنما وضع الطعام ليؤكل ، وكان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها على أصحابه ، وكانت الدنيا أهون عليه من ذاك " [٣] .

كذلك أراد – رحمه الله – سواء في آرائه أو سلوكه أن يعارض المظاهر التي اتخذها الصوفية فلم يكن " لثوبه رقة تنكر ، ولا غلظ ينكر " [٤] أي أنه توسط في ملبسه ، فيصفه من رآه بقوله : " فإذا رأيته تعلم أنه لا يظهر النسك ، ورأيت عليه نعلا لا يشبه نعل القراء " .

وقد علق ابن الجوزي على ذلك مشيرا إلى أنه – رحمه الله – أراد ترك التزي بزي الفقراء كي يزيل عن نفسه ما يشتهر به [٥] .

وبالرغم من وجود أعلام التصوف في عهده فقد آثر الإمام أحمد أن يضع لكتابه في المضمون الوجداني اسم " الزهد " لا " التصوف " [٦] .

وهذا ما جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يثني على هذا الكتاب قائلا : " وأجود ما صنف فيه (الزهد) كتاب الزهد للإمام أحمد " .

---

(١) انظر : كتاب الزهد للإمام أحمد .

(٢) مناقب الإمام أحمد ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٥٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٨٢ .

(٦) ابن تيمية والتصوف ص ١٧٤ .

وكـــان من الأسباب التي دفعت الإمام الشافعي إلى القول بإمامته هو الزهد ، حيث عاش – رحمه الله – لا يأكل ولا يطعم إلا من كسب يده ، وكان أساس زهده ترك الحرام وطلب الحلال ، والبعد عن حمى أية شبهة يمكن أن تنال من نزاهة النفوس ، وكان يرى أن الــزهد الصــادق هــو الــذي يرقق النفوس ويلين القلوب ، ويزيل عنها غشاوات الغرور والعجب .

وقــد شرح العليمي شهادة الإمام الشافعي للإمام أحمد في الزهد فيقول : " فحاله في ذلــك أشهر وأظهر ، أتته الدنيا فأباها ، والرياسة فنفاها ، عرضت عليه الأموال وفوضت إليه أحــوال وهو يرد ذلــك بتعفف وتعلل وتقلل ، ويقول : قليل الدنيا يجزئ ، وكثيرها لا يجــزئ ، ويقــول : أنا أفرح إذا لم يكن عندي شيء ، ويقول : إنما طعام دون طعام ، ولباس دون لباس ، وأيام قلائل .

وعــن صــالح بن أحمد قال : ربما رأيت أبي يأخذ الكسرة فينفض الغبار عنها ، ثم يصــيرها في قصعة ويصب عليها ماء حتى تبتل ثم يأكلها بالملح ، وما رأيته قط اشترى رمانا ولا سفرجلا ولا شيئا من الفاكهة إلا أن يشتري بطيخة فيأكلها بخبز ، أو عنبا أو تمرا ، فأما غير ذلك فما رأيته قط اشتراه " [١] .

وقال لي : كانت والدتك في الظلام تغزل غزلا دقيقا ، فتبيع الأستار بدرهمين أقل أو أكــثر ، فكان ذلك قوتنا ، وكنا إذا اشترينا الشيء نستره عنه كيلا يراه فيوبخنا ، وكان ربما خــبز له ، فيجعل فخارة عدسا وشحما ، وتمرات شهريز ، فيجئ الصبيان فيصوت بعضهم فيدفعه إليهم ، فيضحكون ولا يأكلون ، وكان يأتدم بالخل كثيرا [٢] .

وعــن موسى بن حماد البربري قال : حمل إلى الحسن بن عبد العزيز ميراثه من مصر مائة ألف دينار ، فحمل إلى أحمد بن حنبل ثلاثة أكياس ، في كل كيس ألف دينار ، وقال: يا أبا عبد الله هذه ميراث حلال فخذها فاستعن بها على عائلتك ؟ قال : لا حاجة لي فيها ، أنا في كفاية ، فردها و لم يقبل منه شيئا [٣] .

---

(١) المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد ٧٦/١ . وانظر : سير أعلام النبلاء ٢٠٨/١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٩/١١ .

(٣) حلية الأولياء ١٨٧/٩ .

وقـــال إسحاق بن هانئ : بكرت يوما لأعارض أحمد بالزهد ، فبسطت لـــه حصيرا ومخـــدة فنظر إلى الحصير والمخدة فقال : ما هذا ؟ قلت لتجلس عليه ، قال : ارفعه ، الزهد لا يحسن إلا بالزهد ، فرفعته وجلس على التراب .

وقـــال أبو عمير ، عيسى بن محمد بن عيسى النحاس الفلسطيني – وذكر عنده أحمد ابـــن حنـــبل – فقـــال رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه ، وبالصـــالحين ما كان ألحقه ، عرضت لـــه الدنيا فأباها ، والبدع فنفاها ، وخصه الله تعالى بنصـــرة ديـــنه ، والقيام بحفظ سنته ، ورضيه لإقامة حجته ، ونصر كلامه حين عجز عنه الناس " [١] .

وقـــال صالح بن أحمد بن حنبل : وقال لي يوما يعني – أباه – أنا إذا لم يكن عندي قطعة – أي من النقد – أفرح [٢] .

وقـــال أبـــو بكر المروذي : " سمعت أحمد بن حنبل يقول : ما أعدل بالفقر شيئا ، أتـــدري الصـــبر على الفقر أي شيء هو ؟ قد رأيت قوما صالحين ، لقد رأيت عبد الله بن إدريـــس وعـــليه جبة لبود ، وقد أتى عليه السنون والدهور ، ولقد رأيت أبا داود الجعفي وعـــليه جبـــة مخرقة وقد خرج القطن منها ، يصلي بين المغرب والعشاء وهو يترجح من الجوع ، ورأيت أيوب النجار بمكة وقد خرج مما كان فيه ومعه رشاء يستقي به بمكة ، وقد خـــرج من كل ما يملكه وكان من العابدين ، وكان في دنيا فتركها في يدي يحي القطان ، وقـــد رأيـــت ابـــن بجالة العابد وكنت أسمع صوت خفه في الطواف بالليل ، ولقد كان في المســـجد رجل يقال لـــه العرفي يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي ، قال فاشتهيت النظر إليـــه فإذا هو شاب مصفر ، ولقد رأيت حسينا الجعفي ، وكان يشبه بالراهب ، ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي ، وسعيد بن عامر بالبصرة " [٣] .

ومـــن عظيم زهده وورعه إعراضه الشديد عن تولي القضاء – مع مسيس حاجته – فقد روى البيهقي من طريق المزني عن الشافعي أنه قال للرشيد : إن اليمن يحتاج إلى قاض ، فقال له : اختر رجلا نوله إياها ، فقال الشافعي لأحمد بن حنبل وهو يتردد إليه في جملة من

---

(١) المنهج الأحمد ٧٧/١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠٩/١١ .

(٣) مناقب الإمام أحمد ص ٥٦ .

يأخذ عنه ، ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعا شديدا ، وقال للشافعي : إني إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا ، فتأمرني أن ألي القضاء ، ولولا العلم لم أكلمك بعد اليوم ، فاستحى الشافعي منه [١] .

هكذا نرى الزهد والعفة عند الإمام أحمد ، فقد قطع الطمع عما في أيدي الناس من حكام ومحكومين ، ولو كان في شدة الحاجة والفقر ففضل أن يعيش ويأكل من كسب يده ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن زهده ليس زهدا سلبيا بل كان إيجابيا ، يقول أحمد ابن سنان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه عند خروجه من اليمن ، وعرض عليه عبد الرزاق دراهم صالحة فلم يقبلها منه [٢] ، فقد رهن نعله ليأكل ، وأكرى نفسه ، وأبى أن يأخذ حتى من شيخه عبد الرزاق ، وقهرت عفته كل طمع حتى عند أمس الحاجة .

وروى أبو نعيم بسنده إلى الحسين بن محمد التستري يقول : " كان غلام من الصيارفة يختلف إلى أحمد بن حنبل ، فناوله يوما درهمين فقال : اشتر بهما كاغدا ، فخرج الغلام واشترى له ، وجعل في جوف الكاغد خمسمائة دينار وشده وأوصله إلى بيت أحمد ، فسأل وقال : حمل إلينا من البياض فقالوا : بلى ، فوضع بين يديه فلما فتحه تناثرت الدنانير ، فردها في مكانها ، وسأل عن الغلام حتى دل عليه ، فوضعه بين يديه فتبعه الفتى وهو يقول : الكاغد اشتريته بدرهمك ، خذه فأبى أن يأخذ الكاغد أيضا " [٣] .

وروى أيضا بسنده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال : دخلت على أبي في أيام الواثق- والله أعلم في أي حالة نحن – وقد خرج لصلاة العصر ، وقد كان له لبد يجلس عليه ، وقد أتت عليه سنون كثيرة حتى لقد بلي ، فإذا تحته كتاب كاغد ، وإذا فيه : بلغني يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم على يدي فلان لتقضي بها دينك ، وتوسع بها على عيالك ، وما هي من صدقة ولا زكاة ، وإنما شيء ورثته من أبي [٤] .

---

(١) البداية والنهاية ٣٢٨/١٠ .

(٢) انظر : حلية الأولياء ١٨٦/٩ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٨٧/٩- ١٨٨ .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٨٩/٩ .

فقـــرأت الكتاب ووضعته ، فلما دخل قلت : يا أبي ما هذا الكتاب ؟ فاحمر وجهه وقـــال : رفعته منك ، ثم قال : تذهب بجوابه ، فكتب إلى الرجل : وصل كتابك إلي ونحن في عافيـــة ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله ، فذهبت بالكـــتاب إلى الـــرجل الذي كان أوصل كتاب الرجل فقال : ويحك لو أن أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به مثلا في الدجلة كان مأجورا ، لأن هذا رجل لا يعرف لـــه معروف ، فـــلما كـــان بعد حين ورد كتاب الرجل بمثل ذلك ، فرد عليه الجواب بمثل ما رد ، فلما مضـــت سنة أو أقل أو أكثر ذكرناها فقال : لو كنا قبلناها كانت قد ذهبت " [1] فقد رق للإمـــام أحمد قلب من لا يعرف المعروف ، ومع ذلك لم ير لنفسه مبررا أن يأخذ مالا لا يد له في كسبه وتحصيله ! .

هـــذا غيض من فيض فيما روي عن زهد الإمام أحمد وتعففه رحمه الله ، ولكن مع ذلـــك لا بد أن نوقن بأن الإمام أحمد لم يكن مبالغا في الزهد ومفهومه – كما يظن بعض المتصـــوفة – بأنـــه ترك الدنيا وما عليها بالكلية ؛ فهذا هو الرهبانية التي ذمها القرآن الكريم حيـــث قـــال الله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنهُم فَاسِقُونَ ﴾ [2] .

إنمـــا كان موقفه من الدنيا أن لا يتركها كلية ، فيأخذ منها قدر الزاد ، فقد كان – رحمه الله – يمنع من المبالغة في الزهد الموصل إلى تحريم ما أحل الله ، والامتناع عما أباحه الله لعباده ، قال أبو يعلى في طبقات الحنابلة مبينا موقف الإمام أحمد من الزهد : " وكان الإمام أحمـــد – رحمـــه الله – يمنع من التزهيد المفضي إلى تحريم ما أحل الله ، والامتناع من المباح الـــذي رفع الله فيه الحرج ، ويقول : قـــال النبي ﷺ : ((المحرم ما أحـــل الله كالمحـــل ما حـــرم الله)) [3] إلا أن يكون رجلا يخاف على نفسه الفتنة ، أو يدعوه إلى الشهوة فليسرها بذلك ، ويأخذ بالعزائم من غير أن يحرم ذلك فيجوز وقد قال النبي ﷺ : ((من ترك شيئا لله

---

(١) حلية الأولياء ٩/١٨٩– ١٩٠ ، ومناقب الإمام أحمد ص ٢٣٣ .

(٢) سورة الحديد ، الآية (٢٧) .

(٣) لم أقف عليه .

عـوض الله مـا هو خير منه » [١] ، ولم يزل العلماء يؤدبون نفوسهم بالمنع من الشهوات المباحات لا على وجه التحريم " [٢] .

ولعل هذا المفهوم من الأمور التي دفعته إلى الزهد والتعفف من قبول العطايا والأموال مـن الأمـراء والعلماء والعامة من شيوخه وإخوانه ، وكلهم كان لهم منه جواب واحد أنه بخير ، وأنه في كفاية وفي غنى وسعة .

فالإمـام أحمـد لا يريد أن يجلس وينتظر مما في أيدي الناس بل يسعى ويعمل لنفسه وعياله ، لا كما يفعله بعض المتصوفة الذين يكونون عالة على الناس وضررا على المجتمع .

قال أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبي – رحمه الله – يقول: الاسـتغناء عـن الناس بطلب – يعني العمـل – أعجب إلينا من الجلوس والانتظار مما في أيدي الناس .

وأخبرني محمد بن علي ثنا صالح أنه سأل أباه – رحمه الله – عن التوكـل فقـال : " الـتوكل حسن ، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي أن يعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قـال : وسـئل أبي – رحمه الله – وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، ويقولون : نحن متوكلون فقال : هؤلاء مبتدعـة [٣] .

نفهـم من النصوص السابقة أن الإمام أحمد – رحمه الله – كان على منهج السلف الصالح في شأن الزهد ، وأنه يخالف ما ذهب إليه بعض الصوفية المتقدمين في مفهوم الزهد ، حيث اتجه بعضهم اتجاها يكون الفقر مطلبا أساسيا فيه مع تجويع البطن وتعرية الجسد . كما يقول أبو يزيد البسطامي : " نلت هذه المعرفة ببطن جائع وجسد عار " [٤] ، أو كما يقول

---

(١) ذكره السيوطي في " الـدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة " (١٥٧) والعجلوني في كشف الخفا ٣١٢/٢ ، وقـال السـيوطي في الدرر : رواه أحمد عن بعض أصحابه مرفوعا بلفظ : " إنك لا تدع شيئا اتقاء الله إلا أعطاه خيرا منه.." .

(٢) طبقات الحنابلة ٢٣٩/٢ .

(٣) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، للدكتور عبد الإله الأحمدي ٢٣٨/٢ .

(٤) انظر : قوت القلوب ١٦٨/٢ ، وطبقات الصوفية ص ٧٤ .

أحدهـــم : " أحـــب للمبتدئ أن لا يشغل قلبه بالتكسب وإلا تغير حاله " [١] . ونقلوا عن سيد الطائفة قوله : " الزهد هو تخلي الأيدي عن الأملاك " [٢] .

وهـــذه الظاهـــرة ليست بغريبة على بعض الصوفية المتقدمين حيث سجل لنا التاريخ كثيرا من حكاياهم وكانوا من ذوي الأموال فتخلوا عنها ، ثم أخذوا في السياحة [٣] .

" ويقـــول ســـهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى ، وجـــائع يظهر الشبع ، ومحزون يظهر الفرح ، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر له المحبة ، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر ضعفا [٤] .

ويقول بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر .

ويقول ذوالنون المصري : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر " [٥] .

ولا شـــك أن اعتبار الفقر أساسا يبني عليه المرء دينه مخالف لتعاليم الرسول ﷺ الذي كان يقول : ((اللهم إني أعوذ بك من الفقر)) [٦] .

هـــذا إذا لم يكن الهدف من الفقر عندهم الافتقار ، وإنما اللجوء إلى الله ﷻ ، وعدم التســـخط على القدر في حالة العدم ، فهذا لا يتنافى مع الدين ، وخاصة أن رسول الله ﷺ قال : ((اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين)) [٧] .

---

(١) قوت القلوب ١٦٧/١ .

(٢) اللمع للطوسي ص ٧٢ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٢٢١/٧ ، وسير أعلام النبلاء ٢٣١/١٥ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٢٧٤ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) سبق تخريجه في ص ٣١٤ .

(٧) أخرجه البيهقي في كتاب قسم الصدقات ، باب ما يستدل به على أن الفقير أمس حاجة من المسكين ١٢/٧ وأوره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ح ٣٠٨) .

٣- العلـــم

روى الإمـــام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر قال : ((كان النبي ﷺ يتعوذ من عـــلم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع)) [١] والعلم لا بد أن يكون مقرونا بالعمل .

وقـــال الإمام أحمد بن حنبل : " الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب ، لأن الطعـــام والشـــراب يحتاج إليـــه في اليوم مرة أو مرتين ، والعلم يحتاج إليـــه في كـــل وقت " [٢] .

إذا كان من الصوفية من ذم العلماء ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة ، وأن منهم من تشـــاغل بالعـــلم وكتابته ، ونهى عن طلب العلم الظاهر – كما يقولون – فإن الإمام أحمد رأى غير ذلك حيث كان مهتما بالعلم ، وقام بتعلمه وتعليمه .

قـــال ابـــن الجـــوزي مبينا موقف الإمام أحمد من العلم وطلبه ونشره والعمل به ، ومستشهدا بحديث رسول الله ﷺ وبأعمال أصحابه الكرام :

" واعـــلم أن الصـــحابة ضبطت ألفاظ رسول الله ﷺ وحركاته وأفعاله ، واجتمعت الشريعة من رواية هذا ورواية هذا .

وقد قال الرسول ﷺ : ((بلغوا عني ولو آية)) [٣] . وقال : ((نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاهـــا فأداهـــا كمـــا سمعها ..)) [٤] . وتأدية الحديث كما يسمع لا يكاد يحصل إلا من الكـــتابة لأن الحفظ خوان ، وقد كان أحمد بن حنبل ﷺ يحدث فيقال لـــه : أمله علينا ؟ فيقول : لا بل من الكتاب .

وقـــال علي بن المديني : أمرني سيدي أحمد بن حنبل أن لا أحدث إلا من الكتاب ، فـــإذا كـــانت الصـــحابة قد روت السنة وتلقها التابعون ، وسافر المحدثون ، وقطعوا شرق الأرض وغـــربها لتحصيل كلمة من ههنا وكلمة من هنا ، وصححوا ما صح ، وزيفوا ما لم

---

[١] أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٦٧/٢، ١٩٨، ٣٤٠ ، ٣٦٥، ٤٥١، ٢٨٣/٣ .

[٢] مفتاح دار السعادة ٨١/١ .

[٣] أخرجه البخاري في الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ١٢٧٥/٣(ح٣٢٧٤) .

[٤] أخرجه الإمام أحمد في المسند٤٣٧/١ .

يصـــح ، وجرحوا الرواة وعدلوا وهذبوا السنن وصنفوا ، ثم من يغسل ذلك فيضيع التعب ، ولا يعرف حكم الله في حادثة ، فما عوندت الشريعة بمثل هذا [١] .

فهـــل لشريعة من الشرائع قبلنا إسناد إلى نبيهم ، وإنما هذه خصيصة لهذه الأمة ، وقد روينـــا عن الإمام أحمد بن حنبل مع كونه طاف الشرق والغرب في طلب الحديث ! إنه قال لابـــنه : ما كتبت عن فلان ؟ فذكر له أن النبي ﷺ كان يخرج يوم العيد من طريق ويرجع من أخرى ، فقال الإمام أحمد بن حنبل : إن لله سنة من سنن رسول الله ﷺ لم تبلغني وهذا قولـــه مـــع إكثاره وجمعه فكيف بمن لم يكتب ؟ وإذا كتب غسل أفترى إذا غسلت الكتب ودفـــنت على ما يعتمد في الفتاوى والحوادث على فلان الزاهد ، أو فلان الصوفي ، أو على الخواطر فيما يقع لها نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى [٢] .

كما ذكر ابن الجوزي حادثة تبين إنكار بعض الصوفية على الاشتغال بالعلم فقال : بـــلغني عـــن أبي سعيد الكندي قال : كنت أنزل رباط الصوفية ، وأطلب الحديث في خفية بحيث لا يعلمون فسقطت الدواة يوما من كمي فقال لي بعض الصوفية : استر عورتك .

وذكـــر أن الحســـين بـــن أحمد الصفار : كان بيده محبرة فقال لـــه الشبلي : غيب سوادك عني يكفيني سواد قلبي .

ثم عقـــب ابن الجوزي فقال : من أكبر المعاندة لله ﷻ الصد عن سبيل الله ، وأوضح ســـبيل الله العلم لأنه دليل على الله وبيان لأحكام الله وشرعه ، وإيضاح لما يحبه ويكرهه ، فالمنع منه معاداة لله ولشرعه ..

ثم روى بســـنده إلى أبي عـــبد الله بـــن خفيف الذي يقول : " اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغـــرنكم كـــلام الصـــوفية فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي والكاغد في حزة ســـراويلي ، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم فإذا علموا بي خاصموني ، وقالوا لا تفلح ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول : هـــذه سرج الإسلام ، وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه فقال له رجل ؟ إلى متى يا أبا عبد الله ؟ فقال : المحبرة إلى المقبرة ، وقال في قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي منصورين

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٩٧ .

(٢) نفســـه ص ٣٩٨ .

لا يضـــرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة)) ، فقال أحمد بن حنبل : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟ "[١] .

٤- التوبـــة

قال أبو محمد[٢] رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي – رحمه الله – :

" يقول أحمد بن حنبل – رحمه الله – : إن التوبة واجبة من الذنوب ، وإنها تمحو ما ســلف إذا قارنهـــا الإخلاص ، وهو الندم على ما فات ، وترك المطال ، والعزم على عدم العـــودة ، وإن البارئ لا يجب عليه قبولها لأنه لا يجب عليه شيء ، وإنما يتفضل على عبده بذلـــك إحســـانا مـــنه ، ويتلو ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ ﴾[٣] ويأمـــر بالتوبة في كل حال ، ويدعو إليها النساء والرجال من المكلفين ويقول : هي واجبة على الأعيان ، ويتلو : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَـــلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٤] وقد توعـــد الله تعالى على تأخيرها ، وعظم الجرم على من تركها ، فقـــــال : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَـــةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾[٥] .

ويحث الأمة على وجوب المبادرة بالتوبة ، ويروي عن النبي ﷺ أنه قال : ((إنه ليغان على قلبي لأتوب إلى الله في اليوم سبعين مرة))[٦] "[٧] .

ثم يقـــول الإمـــام أحمد : " من ترك التوبة وجبت عليه التوبة ، لأنه ترك واجبا فهو كـــراكب الذنب ، وكان يذهب إلى أن قبولها ليس بواجب على البارئ ، وإنما هو تفضل منه، وترغيب لعباده و لأن الواجب ما ألزمه ملزم ، وليس له سبحانه ملزم .

وكـــان يجوز التوبة من بعض الذنوب ، حذرا من تنفير المكلف الذي لا يستطيع ترك جميـــع ما تعود قال الله في قطاع الطريق ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا

---

(١) تلبيس إبليس ص ٤٠٠ .

(٢) قال عنه الذهبي : الشيخ الإمام ، المعمر ، الواعظ رئيس الحنابلة (ت ٤٨٨هـ) انظر : سير أعلام ٦٠٩/١٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية (٧٠) .

(٤) سورة النور ، الآية (٣١) .

(٥) سورة النساء ، الآية (١٨) .

(٦) أخرجه مسلم في الذكر ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٥/٤ (ح٢٧٠٢) .

(٧) طبقات الحنابلة ٢٢٧/٢- ٢٢٨ .

أَنَّ اللهَ غَفُــورٌ رَحِيمٌ ﴾ [١] ولم يشترط في ذلك توبتهم من جميع ذنوبهم ، وكان يجوز توبة من تاب ونقض ، ويقول : من تاب ونقض فهو مؤاخذ بما يأتي إلا أن يعفو الله عنه .

والتوبة عنده : الندم على ما مضى ، والعزم على ترك فعل مثله ، فإن كان عجز عن المــثل كفاه الندم على ما مضى ، فقال النبي ﷺ : ((الندم توبة)) [٢] ويجب عليه تجديد الندم عند تجدد ذكر ما اجترم ، لأن الأنس بذكر الذنب وتسهيل العبارة به دليل على عدم التألم، وذلك إصرار فلذلك وجب تجديد الندم " [٣] .

وقـــال ابن مفلح : في سرد التوبة من البدعة المفسقة والمكفرة أن من تاب من بدعة مفســقة أو مفكرة صح إن اعترف بها وإلا فلا ، فالتوبة من البدعة لا بد من الاعتراف بها والــرجوع عــنها كما " قال أحمد في رواية المروذي في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد ليست له توبة ، إنما التوبة لمن اعترف ، فأما من جحد فلا توبة له " .

وقـــال في روايـــة المروذي : وإذا تاب المبتدع يؤجل سنة حتى تصح توبته ، واحتج بحديث إبراهيم التيمي أن القوم تاركوه في صبيغ بعد سنة ، فقال : جالســـوه وكونوا على حـــذر " [٤] .

وقـــال القاضـــي أبو الحسين بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : فظاهر هذه الألفاظ قـــبول توبته منها بعد الاعتراف والمجانبة لمن كان يقارفه ومضي سنة ، ثم ذكر رواية ثانية : أنها لا تقبل ، واختارها ابن شاقلا ، واحتج لا ختياره بقوله ﷺ : ((من سن سنة سيئة كان عـــليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)) [٥] ، وروى أبو حفص العكبري بإسناده عن أنس مرفوعا : ((إن الله ﷻ احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة)) [٦] " [٧] .

---

[١] سورة المائدة ، الآية (٣٤) .

[٢] أخرجه أحمد في المسند ٣٧٦/١ ، ٤٢٣ ، ٤٣٣ ، وابن ماجة (٤٢٥٣) ، وصححه ابن حبان برقم (٦١٢) ، وقـــال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٧٠ هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات .

[٣] طبقات الحنابلة ٢٢٨/٢ .

[٤] الآداب الشرعية ١٣٧/١ .

[٥] أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ٧٠٥/٢ (ح١٠١٧) ، وابن حبان (٣٣٠٨) .

[٦] أخرجه أبو الشيخ في تاريخ أصبهـــان (٧٥٣) ، والبيهقي في شعـــب الإيمان (٩٤٥٧) من طريق هارون بن موســـى الفروي ، عن أبي ضمرة أنس ين عياض ، عن حميد ، عن أنس . وأنس بن عياض ذكروا في ترجمته أنه كان أحمق يدفع كتبه إلى الناس ، وليس له رواية عن حميد أصلا غير هذا الحديث .

[٧] الآداب الشرعية ١٣٨/١ .

ولكـــن عقـــب شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : " وهذا القول الجامع للمغفرة لكل ذنـــب للتائب منه كما دل عليه القرآن والحديث هو الصواب عند جماهير أهل العلم ، وإن كـــان من الناس من استثنى بعض الذنوب كقول بعضهم إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنا للحديث الإسرائيلي الذي فيه : " فكيف من أضللت ؟ " وهذا غلط ؛ فإن الله قد بين في كتابه وسنة رسوله ﷺ أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع " [١] .

وقـــد روى الترمذي وحسنه عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لـــك على ما كان منك ولا أبالي ، يـــا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني ولا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)) [٢] .

فتعـــليق الغفران على الاستغفار دل على اعتباره ، والمراد أنه استغفر من ذنوبه توبة ، وإلا فالاستغفار بلا توبة لا يوجب الغفران ، وقد سماه ذوالنون المصري بتوبة الكذابين [٣] .

وقـــبول الـــتوبة مفـــتوح إلى طلوع الشمس من مغربها ، وقد روى الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ : ((إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها)) [٤] .

كما أخرج الإمام أحمد أيضا عن صفوان بن عسال مرفوعا : ((باب من قبل المغرب مســـيرة عرضه أربعون أو سبعون سنة ، خلق الله ﷻ يوم خلق السماوات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)) [٥] .

وأخـــرج الإمـــام مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ مرفوعا : ((من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)) [٦] .

---

[١] المرجع السابق .

[٢] أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، بـــاب فضل التوبة والاستغفار ٥٠٩/٥ . وأورده الألباني في صحيح سنن الترمذي ١٧٦/٣ (٢٨٠٥) .

[٣] الآداب الشرعية ١١٥/١ .

[٤] أخرجه مسلم في كتاب التوبة ٢١١٣/٤ (٢٧٥٩) .

[٥] أخرجه أحمد في المسند ٢٤٠/٤ ، والترمذي (٣٥٣٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

[٦] أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ٢٠٧٦/٤ (٢٧٠٣) .

٥- التوكل على الله تعالى

قـال عـبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبي عن قوم يقولون : نتكل على الله ولا نكتسب ؟ قال أبي : ينبغي للناس كلهم أن يتوكلوا على الله ولكن يعودون على أنفسهم بالكسب ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [1] فهذا قد علم أنهم يكتسبون ويعملون ، وقال النبي ﷺ : " من عال ابنتين أو ثلاثة فله الجنة " [2] يعني من قال بخلاف هذا ، فهذا قول إنسان أحمق " [3] .

قـال أبو بكر الخلال : أخبرني إبراهيم بن الخليل أن أحمد بن نصر أبا حامد حدثهم أن أبا عـبد الله قـد سأله رجل : أيخرج إلى مكة متوكلا لا يحمل معه شيئا ؟ فقال : لا يعجبني فمن أين يأكل ؟ قال : يتوكل فيعطيه الناس ، قال : فإذا لم يعطوه ، أليس يستشرف لهم حتى يعطوه ؟ لا يعجبني هذا ، لم يبلغني أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين فعل هذا ، ولكن يعمل ويطلب ويتحرى .. [4] .

وقال أبو بكر الخلال أيضا : أخبرنا عبد الله بن أحمد قال : سمعت أبي - رحمه الله - يقول : الاستغناء عن الناس بطلب - يعني العمل - أعجب إلينا من الجلوس والانتظار ما في أيدي الناس .

وأخبرني محمد بن علي ثنا صالح أنه سأل أباه - رحمه الله - عن التوكل فقال : " التوكل حسن ، ولكن ينبغي للرجل أن لا يكون عيالا على الناس ، ينبغي أن يعمل حتى يغني نفسه وعياله ولا يترك العمل .

قال : وسئل أبي - رحمه الله - وأنا شاهد عن قوم لا يعملون ، ويقولون : نحن متوكلون ، فقال : هؤلاء مبتدعة " [5] .

وقال أبو بكر المروذي : قلت لأبي عبد الله هؤلاء المتوكلة يقولون : نقعد وأرزاقنا على الله ﷻ ، فقال : هذا قول رديء ، أليس قد قال الله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن

---

(١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٤٢ .

(٣) مسائل عبد الله بن أحمد ص ٤٤٨ .

(٤) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ٢/٢٣٢ .

(٥) نفسه ٢/٢٣٨ .

يَــوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ (١) . ثم قال : إذا قال لا أعمل وجيء إليه بشيء قد عمل واكتسب لأي شيء يقبله من غيره .

وقال الخلال أخبرنا المروذي قال : سألت أبا عبد الله عن رجل جلس في بيته وقال : أجــلس وأصــبر وأقعد في البيت ولا أطلع على ذلك أحدا فقال : لو خرج فاحترف كان أحب إلي ، فإذا جلس خفت أن يخرجه جلوسه إلى غير هذا ، قلت : إلى أي شيء يخرجه ؟ قال : يخرجه إلى أن يكون يتوقع أن يرسل إليه (٢) .

وقال أيضا : حدثنا أبو بكر المروذي قال : سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله أحمد بن حنبل إني في كفاية ، قال : الزم السوق تصل به الرحم وتعود به على عيالك ، وقال لرجل آخــر : اعمل وتصدق بالفضل على قرابتك ، وقال أحمد بن حنبل قد أمرهم ، يعني أولاده أن يختلفوا إلى السوق وأن يتعرضوا للتجارة " (٣) .

مــن خــلال النصوص السابقة نرى أن الإمام أحمد كان على مذهب أهل الحق من سـلف هــذه الأمــة ، حيــث فهم معنى التوكل بمفهومه الصحيح الإيجابي ، وهو الأخذ بالأســباب ، ثم الاعتماد على الله ﷻ ، وهذا يتمشى مع طبيعة هذا الدين الحنيف ، الذي جاء لعمارة الأرض وإصلاحها على أساس الفهم الصحيح لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ.

فكــان الإمــام أحمــد يخالف ما عليه بعض الصوفية في مفهوم التوكل ، حيث فهم بعضهم بأن التوكل هو خلع الأسباب وقطعها كما أشار إلى ذلك ذوالنون المصري (٤) . أو أن يكــون العــبد بين يدي الله ﷻ كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف يشاء ، لا يكون لـــه حــركة ولا تدبير (٥) ، حتى أدى بهم هذا المفهوم الخاطئ إلى ترك العمل والتكسب وترك الاحتراز ، وعدم حمل الزاد ...الخ .

وقال ابن الجوزي منتقدا هذا المفهوم ومستدلا بقول الإمام أحمد فيقول : " وقد لُبِّس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ ، قــال رجل للإمام أحمد ﷺ أريد أن أخرج إلى مكة من غير زاد ، فقال له أحمد : فاخرج

---

(١) سورة الجمعة ، الآية (٩) .

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٤٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٣٤٨ .

(٤) انظر : الغنية للجيلاني ٦٠٨/٢ ، ومدارج السالكين ١١٦/٢ .

(٥) انظر : الرسالة القشيرية ص ١٦٣ ، ومدارج السالكين ١٢١/٢- ١٢٢ .

أ

في غير قافلة ، قال : لا إلا معهم ، قال : فعلى جراب الناس توكلت ؟ فنسأل الله أن يوفقنا "[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وزعم طائفة أن من تمام التوكل أن لا يحمل الزاد ، وقد رد الأكابر هذا القول ، كما رد الحارث المحاسبي في " كتاب التوكل " وحكاه عن شقيق البلخي ، وبالغ في الرد على من قال بذلك ، ولكن من الحجج عليهم ما تبين به غلطهم وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل ، عاصون لله بما يتركون من طاعته .

وقد حكى لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لا يمد يده حتى يوضع في فيه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام فأنكر ذلك أشد الإنكار ، ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره ، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسبابا ينالون بها معرفته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة ، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ، وأن المطالب لا يتوقف على الأسباب التي جعل الله أسبابا لها فهو غالط ، فالله ﷻ وإن كان قد ضمن العبد رزقه ، وهو لا بد أن يرزقه ما عُمّر ، فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب يحصل من فعل العبد وغير فعله "[٢] .

وأضاف شيخ الإسلام قائلا : " وأما قول القائل : إن الأنبياء والأولياء لم يطلبوا رزقا فليس الأمر كذلك ؛ بل عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابا يحصل بها الرزق ، كما قال نبينا محمد ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد في المسند عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ((بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم))[٣] "[٤] .

ولهذا قال الإمام أحمد لرجل جلس في بيته أو في مسجده ، لا يعمل شيئا حتى يأتيه رزقه بأن هذا رجل جهل العلم ، واستدل بالحديث السابق ، والحديث الذي ذكر الطير

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٧٨- ١٧٩ .

(٢) قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ، لشيخ الإسلام بن تيمية ، تحقيق علي بن عبد العزيز الشبل ، ط١ الرياض (دار الصميعي ١٤١٦هـ) ص ١٥٥- ١٥٦ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/٥٠ .

(٤) قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل ص ١٦٥ .

تغـدو ، والـذي رواه أحمد في مسنده أيضا عن ابن عمر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : ((لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا)) [١] ، فذكر أن الطير تغدو في طلب الرزق .

ثم قـال : قـال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ ﴾ [٢] وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [٣] وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ، ويعملون في نخيلهم ولنا القدوة بهم [٤] .

٦- الورع

قـال أبـو بكـر المروذي : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ﷺ - وذكر أخلاق الورعـين - فقال : أسأل الله أن لا يمقتنا ، أين نحن من هؤلاء ؟ وحينما سئل : هل للورع حد يعرف ؟ فتبسم وقال : ما أعرفه [٥] . وهذا دليل على عظيم منزلة الورع عنده .

فقـد كـان - رحمه الله - لا يريد تعريف الورع بحده - تورعا منه - وإنما عرفه بأصـحابه ، اتضـح ذلك من خلال كتابه الورع ، الذي تحدث فيه عن عدد من الأعلام الورعين [٦] .

وقال المروذي : " سألت أبا عبد الله عن الرجل يكون معه ثلاثة دراهم ، منها درهم حـرام لا يعرفه ؟ قال : لا يأكل منه شيئا حتى يعرفه ، واحتج أبو عبد الله بحديث عدي بن حاتم أنه سأل النبي ﷺ فقال : إني أرسل كلبي فأجد معه كلبا آخر ، فقال : ((لا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك عليك)) [٧] ، قلت لـه : فإن كانت دراهم كثيرة ؟ فقال : إذا كـانت دراهم كثيرة فهو أعجب إلي ، إذا كانت ثلاثين أو نحوها وفيها درهم حرام أخرج الدرهم " [٨] .

---

(١) سبق تخريجه في ص ٣١٣ .

(٢) سورة المزمل ، الآية (٢٠) .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٩٨) .

(٤) تلبيس إبليس ص ٣٤٧ .

(٥) كتاب الورع للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق دكتور مصطفى محمد حسين الذهبي ، ط١ (مكتبة نزار مصطفى البار ١٤١٨هـ) ص ٢١ .

(٦) المصدر نفسه ص ٢١- ٣١ .

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٢٥٧/٤ .

(٨) كتاب الورع ص ٤٧ .

وذكـــر لأبي عبد الله عن بعض الناس أنه قال : إذا كان الشيء المستهلك مثل الدهن والزيت ، والذي لا يوصل إليه بعينه أعطي العوض ؟ قال : نعم هكذا هو ، وسمعت سفيان ابن عيينة يقول : لا يصيب العبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال ، وحتى يدع الإثم وما تشابه منه " [١] .

وسئل الإمام أحمد من أمر الورع فاحتج بحديث أبي بكر الصديق ﷺ في القيء . عن قيـــس قـــال : كان لأبي بكر ﷺ غلام ، فكان إذا جاء بغلته لم يأكل حتى يسأله ، قال : فنســـي ليلة فأكل و لم يسأله ، ثم سأله فأخبره أنه من شيء يكرهه ، فأدخل يده في فيه فتقيأ حتى لم يترك شيئا [٢] .

وأبو عبد الله مناولة : عن محمد بن سيرين قال : لم أر أحدا استقاء من طعام غير أبي بكـــر ، فإنه أتي له بطعام فأكل ، ثم قيل له : جاء به ابن النعيمان قال : فأطعمتموني كهانة ابن النعيمان ، ثم استقاء .. [٣] .

قال أبو بكر المروذي مبينا أيضا موقف الإمام أحمد من الورع : قلت لأبي عبد الله : بعـــت ثوبا من رجل ، أعني أكره كلامه ومبايعته ، فقال : دعني حتى أنظر فيها ، فلما كان بعد سألته فقال : توق أن تبيعه ، قلت : فإن بعته وأنا لا أعلم ؟ قال : إن قدرت أن تسترد البيع فافعل ، قلت : فإن لم يمكني ، أ أتصدق بالثمن ؟ قال : أكره أن أحمل الناس على هذا فـــتذهب أموالهـــم ، قلت : فكيف أصنع ؟ قال : ما أدري ، أكره أن أتكلم فيها بشيء ، ولكن أقل ما هاهنا أن يتصدق بالربح ويتوقى مبايعتهم [٤] .

وجـــاءت أخت بشر الحافي – ذات يوم – إلى أحمد بن حنبل فقالت : إنا نغزل على ســـطوحنا فـــتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا أ فيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله تعالى ؟ فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها [٥] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) حلية الأولياء ٦٥/١ .

(٣) كتاب الورع ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥ .

(٥) الرسالة القشيرية ص ١١١ .

ورهـــن الإمام أحمد سطلا لـــه عند بقال بمكة المكرمة حرسها الله تعالى ، فلما أراد فكاكـــه أخرج البقال سطلين وقال : خذ أيهما لك ؟ فقال أحمد : أشكل علي سطلي فهو لـــك والدراهـــم لك ، فقال البقال : سطلك هذا وأنا أردت أن أجربك ، فقال : لا آخذ ومضى ، وترك السطل عنده تورعا [١] .

هذا الموقف من الإمام أحمد – رحمه الله – هو أيضا موقف بعض الصوفية المتقدمين، فهذا إبراهيم بن أدهم قال في الورع : بأنه ترك كل شبهة [٢] .

وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج من كل شبهة ، ومحاسبة النفس في كل طرفة .

والحـــق أن الإمـــام أحمـــد – رحمه الله – كان من أورع الناس كما قال عنه الإمام الشافعي [٣] ، ويتجلى ذلك من خلال مواقفه وعباراته في كتابه الورع ، الذي تضمن لكثير من أخباره وتوجيهاته نحو الورع .

قـــال أبو بكر المروذي : " سمعت أبا عبد الله يقول : سمعت أبا ثعلبة الخشني يقول : قـــلت : يـــا رسول الله أخبرني ما يحل لي وما يحرم علي ؟ قال : فصعّد النبي ﷺ البصر فيّ وصـــوب ، فقـــال النبي ﷺ : ((البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس و لم يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون)) [٤] " [٥] .

لقـــد أخذ الإمام أحمد بالورع أخذ أصدق الناس زهدا ، فكان – رحمه الله – يدع الشـــبهة مخافة الوقوع في الحرام ، ولقد عاش فقيرا كثير العيال ، و لم يكن لـــه غلة إلا ملك ورثه من أبيه يؤجره في كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ، ويقنع بذلك – رحمه الله – صابرا محتسبا ، وربما اضطر فنسخ بالأجرة [٦] .

أمـــا مـــن حيث ورعه في الفقه فقد كان ذلك مضرب المثل ، فإنه إذا صحت لديه روايات متعددة عن الصحابة لم يحاول أن يرجح بينها ، بل أثبتها كلها ورويت عنه جميعها

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١١٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٠ .

(٣) انظر : تاريخ بغداد ٤١٩/٤ .

(٤) أخرجه أحمـــد في المسند٢٢٨/٤ ، قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني وفي الصحيح طرف من أوله ورجاله ثقات ١٧٥/١- ١٧٦ .

(٥) كتاب الورع ص ٤٥ .

(٦) أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ص ٢١١ .

من غير ترجيح ، وليس ذلك منه عجزا عن الترجيح ، وإنما كان يتورع أن يلتزم بقول أحد منهم أو عمله ، ويكون الحق والصواب مع آخر .

وكذلك كان ورعه في فتاواه ، فإن كان هناك من يجيب المستفتي فبها ونعمت ، ويكفي الحرج وإلا شدد في الاحتياط لدينه ، ورد الفتوى إلى ما قال الله ورسوله ، فإن لم يجد ردها إلى الصحابة رضي الله عنهم ، أو ردها إلى التابعين [١] .

٧- الخوف والرجاء

لقد كان حال السلف الصالح يخافون ربهم ويطمعون في رحمته ورضاه قال تعالى واصفا حالهم : ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ [٢] . ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [٣] .

قال الإمام أحمد منتقدا الإنسان المقصر والمتواني في هذه الحياة ، ومبينا موقفه من الخوف والرجاء : " سبحانك ما أغفل هذا الخلق عما أمامهم ؛ الخائف مقصر ، والراجي متوان [٤] .

وبين المروذي حاله من الخوف والرجاء فقال : " سمعت الإمام أحمد يقول : الخوف منعني عن أكل الطعام فما أشتهيه ، فإذا ذكرت الموت هان علي كل شيء " .

وقال إبراهيم الحربي : سمعت أحمد يقول : إن أحببت أن يدوم الله لك على ما تحب فدم له على ما يحب ، والخير فيمن لا يرى لنفسه خيرا " [٥] .

وقال صالح بن أحمد : كان أبي إذا دعا له رجل يقول : الأعمال بخواتيمها ، وكنت أسمعه كثيرا يقول : اللهم سلم سلم " [٦] .

وقال أبو بكر المروذي : " دخلت على أحمد يوما فقلت : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف أصبح من ربه يطالبه بأداء الفرض ونبيه يطالبه بأداء السنة ، والملكان يطالبانه

---

(١) نفسه ص ٢١٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٥٧) .

(٣) سورة السجدة ، الآية (١٦) .

(٤) الآداب الشرعية ٣١/٢ .

(٥) المرجع نفسه .

(٦) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٣ .

بتصحيح العمل ، ونفسه تطالبه بهواها ، وإبليس يطلبه بالفحشاء ، وملك الموت يطالبه بقبض روحه ، وعياله يطالبونه بالنفقة " [١] .

ومع ذلك كان الإمام أحمد يقول : يجب أن يكون الخوف والرجاء من الله متوازيين في قلب المؤمن فلا يطغى الخوف على الرجاء ، أو الرجاء على الخوف ، كما بين ذلك إسحاق بن إبراهيم بن هانئ فيقول : قال لي أبو عبد الله : ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه واحدا [٢] . وقال غيره عنه : فأيهما رجح صاحبه هلك .

وهذا الكلام موافق لما يقوله أبو علي الروذباري الصوفي : " الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه ، وإذا نقص واحد منهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا جميعا صار الطائر في حد الموت " [٣] .

ولكن في حال المرض ينبغي أن يكون رجاء المريض أكثر ، وقد قال الإمام أحمد لرجل : لوصححت ما خفت أحدا وقد قيل :

فما في الأرض أشجع من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب .

٨- الجوع وترك الشهوة

الجوع كان من صفات المتصوفة ، وهو أحد أركان المجاهدة عندهم ، لذلك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل ليجدوا ينابيع الحكمة فيه ، -حسب زعمهم- وكثرت الحكايات عنهم في ذلك .

قيل : إن سهل بن عبد الله كان لا يأكل الطعام إلا خمسة عشر يوما .

وقال يحي بن معاذ : لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره [٤] ، وقال أيضا : بأن الجوع نور والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب الذي يتولد منه الاحتراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه [٥] .

والجوع الذي لدى المتصوفة لا يعجب به الإمام أحمد - رحمه الله - فقد قال ابن أبي يعلى في ترجمة عقبة بن مكرم قال : - أي عقبة - سألت أبا عبد الله فقلت : هؤلاء

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٨٤ .

(٢) مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية إسحاق بن إبراهيم هاني ، ت زهير الشاوش ، المكتب الإسلامي ١٧٨/٢

(٣) الآداب الشرعية ٣٢/٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٤١ .

(٥) نفسه ص ١٤٢ .

الذيـــن يأكـــلون قليلا ويقللون مطعمهم فقـــال : ما يعجبني سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول : فعل قوم هكذا فقطعهم عن الفرض [١] .

وقـــال أبـــو بكر المروزي : " قلت لأبي عبد الله ، أحمد بن حنبل ﷺ : إن أصحاب التقـــلل يقولون : ليس شيء أفضل من القلة والجوع ، وإذا عود الرجل نفسه ألا يأكل إلا في يومـــين أو ثلاثـــة أجر لـــه ، وهو بمنزلة من تعود صيام الدهر ؟ قال : إنما يجوز هذا لمن كان وحده ، فأما من كان معيلا فكيف يقوي ؟ " [٢] .

وقال ابن الجوزي : " وقد قال أحمد بن حنبل : أكره التقلل من الطعام ، فإن أقواما فعلوه فعجزوا عن الفرائض " ثم علق ابن الجوزي على ذلك فيقول : " وهذا صحيح ، فإن المتقـــلل لا يـــزال يتقـــلل إلى أن يعجز عن النوافل ثم الفرائض ، ثم يعجز عن مباشرة أهله وإعفافهم ، وعن بذل القوى في الكسب لهم ، وعن فعل خير قد كان يفعله ، ولا يهولنك ما تسمعه من الأحاديث ، التي تحث على الجوع ، فإن المراد بها إما الحث على الصوم ، وإما النهي عن مقاومة الشبع ، فأما تنقيص المطعم على الدوام فمؤثر في القوى فلا يجوز " [٣] .

لقد كان موقف الإمام أحمد موقفا صحيحا ، لأنه يوافق طبيعة البشر في هذه الدنيا ، ذلـــك أن ترك ما أحل الله ﷻ من طعام وشراب ونساء ليس مفتاحا للآخرة ولا طريقا إلى الفـــوز بها ، بل مفتاح ذلك هو الإخلاص في تحقيق العبودية لله وحده على هدي وبصيرة ، وطاعته فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، والتقرب إليه بالنوافل وبما يحبه ويرضاه .

فترك ما أحله الله تعالى من الطيبات ليس فيه جنس عبادة أو تقرب إليه تعالى بل هو مـــنهي عنه قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِـــبُّ الْمُعْـــتَدِينَ ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٥] .

---

(١) طبقات الحنابلة ٢٤٦/١- ٢٤٧ ، وتلبيس إبليس ص ٢٦٦ .

(٢) كتاب الورع ص ٧٩ .

(٣) صيد الخاطر ص ٣٨ .

(٤) سورة المائدة ، (٨٧) .

(٥) سورة الأعراف ، الآيتان (٣١- ٣٢) .

ويقـــول ابن الجوزي في معرض حديثه عن مسلك بعض الزهاد : ومن تلبيسه عليهم أنـــه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات ، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم ، ويعذب نفسه ، وما هذه طريقة الرسول ﷺ ولا طـــريقة أصـــحابه وأتباعهم ، وإنما يجوعون إذا لم يجدوا شيئا فإذا وجدوا أكلوا ، وقد كان رسول الله ﷺ يأكل اللحم ويحبه ، ويأكل الدجاج ويحب الحلوى .. [١] .

ويقـــول ابـــن الجوزي في موضع آخر : " ونحن لا نأمر بالشبع إنما ننهى عن جوع يضعف القوة ويؤذي البدن ، وإذا ضعف البدن قلت العبادة " [٢] .

ومن المعروف أن الله ﷻ خلقنا في هذه الدنيا لعبادته وحده .

٩- النفور من الزواج

إن الـــنفور من الزواج مظهر من مظاهر التصوف ، وقد كان للإمام أحمد موقف من هذا الأمر ، كما قال المروذي : " سمعت أبا عبد الله يقول : ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء النبي ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع ، ثم قال : لو كان بشر بن الحارث تزوج لكـــان قد تم أمره كله ، لو ترك الناس النكاح لم يغزوا و لم يحجوا ، ولم يكن كذا و لم يكن كـــذا ، فقال : كان النبي يصبح وما عندهم شيء ، ويمسي وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ويحث عليه " [٣] .

وقـــال المروذي أيضا : سمعت أبا عبد الله يقول : نهى النبي ﷺ عن التبتل فمن رغب عـــن فعل النبي ﷺ فهو على غير الحق ، ومن رغب عن فعل أصحاب النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار فليس هو من الدين في شيء ، قال النبي ﷺ : ((إني مكاثر بكم الأمم)) ويعقوب في حـــزنه قد تزوج وولد له ، والنبي ﷺ قال : ((حبب إلي النساء)) وأصحاب الرسول ﷺ تزوجوا . قلت : إنهم يقولون : قد ضاق عليهم الكسب من وجهه ، فقال : إن النبي ﷺ قد زوج عـــلى خاتم لمن ليس عنده شيء قلت : وعلى سورة ، قال : ينبغي أن يتزوج الرجل ، فإن كان عنده أنفق عليها ، وإن لم يكن عنده صبر ، قلت : أنتم تقولون لي : إن لم أجد ما أنفـــق أطلق وقع لي عمل ، وكان مهرها ألف درهم وليس عندي شيء فضحك ثم قال :

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٣) كتاب الورع لأبي بكر أحـــمد بن محمد المروزي ، ت سمير بن أمين الزميري ط١ ، الرياض (دار الصميعي ١٤١٨هـــ) ص ١٢٥ .

تــزوج على خمسة دراهم ، ابن المسيب زوج ابنته على درهمين ، قلت : لا يرضى أهل بيتي أن أتــزوج عــلى خمسة دراهم ، قال : ها جئتني بأمر الدنيا فهذا شيء آخر ، قلت : إن إبراهــيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال : لروعة صاحب عيال ، فما قدرت أن أتم الحديث ، حــتى صــاح بي وقــال : وقعنا في بنيات (١) الطريق ، انظر عافاك الله ما كان عليه محمد وأصحابه " (٢) .

وذكــر ابن الجوزي ذلك ثم قال : واعلم وفقك الله : أنه لو رفض الأسباب شخص يدعــي التزهد وقال : لا آكل ولا أشرب ولا أقوم من الشمس في الحر ، ولا أستدفئ من البرد كان عاصيا بالإجماع .

وكذلــك لو قال وله عائلة : لا أكتسب ورزقهم على الله تعالى ، فأصابهم أذى كان آثما ، كما قال ﷺ : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت » (٣) .

وقال يوسف عبد الهادي : " لما ذكر قوله (إبراهيم بن أدهم) لأحمد في النكاح قال : وقعت في بنيات الطريق ، ونقل أبو محمد الشعراني عن أحمد : كان إبراهيم بن أدهم يبيع ثيابه وينفقها على أصحابه ، وكانت الدنيا أهون عليه من ذلك العدد " (٤) .

ولعــل إنكــار الإمام أحمد لإبراهيم بن أدهم بسبب ما أثر من أقواله بأنه ينفر عن الزواج ، وذلك حينما قيل له : لو تزوجت ؟ قال : لو أمكنني أن أطلق نفسي لفعلت (٥) .

وقــال أيضا : " إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل قد ركب السفينة فإذا ولــد لــه ولد قد غرق " (٦) .

ونجــد مــن الصوفية في القرن الثالث الهجري قد سلكوا هذا المسلك ، حينما نفروا الناس عن الزواج بحجة الزهد في الدنيا ، ولعل ذلك راجع إلى سوء فهمهم للزهد .

---

(١) بنيات الطريق : بنيات تصغير بنات ، التي تختلف وتفترق ، فتأخــذ في كل ناحية ، انظر لسان العرب ١٠/ ٢٢٠ ، وأراد به الإمام أحمد الإنكار على عدم تزوج إبراهيم بن أدهم .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥- ١٢٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة ، باب في صلة الرحم (ح١٦٩٢) والإمام أحمد في المسند ١٦٠/٢، ١٩٣ ، انظر صيد الخاطر ص ٦٥ .

(٤) كتاب بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم ، ليوسف عبد الهادي ، تحقيق وتعليق الدكتور وصي الله بن محمد عباس ، ط١ الرياض (دار الراية ١٤٠٩هــ) ص ٨١- ٨٢ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٩٧/٧ ، والبداية والنهاية ١٣٨/١٠ .

(٦) اللمع للطوسي ص ١٦٥ .

وهذا بشر بن الحارث لما قيل له : إن الناس يتكلمون فيك فقال : ما يقولون ؟ قيل : يقولون إنه تارك للسنة – يعني النكاح – فقال : قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة ، وكان يقول : لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر " (١) .

ولهذا ، لما قيل للإمام أحمد أن بشر بن الحارث قد مات ، قال : مات رحمه الله ، وما لـه نظير في هذه الأمة إلا عامر بن قيس فإن عامرا مات و لم يترك شيئا ، وهذا قد مات و لم يترك شيئا ، ثم قال : لو تزوج كان قد تم أمره (٢) .

وقـال أبو سليمان الداراني : " ما رأيت أحدا من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته " وقـال أيضـا : " ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا من طلب معاشا ، أو تزوج امرأة ، أوكتب الحديث " (٣) .

أما سهل بن عبد الله التستري فيقول : " إياكم والاستمتاع بالنساء والميل إليهن فإن النسـاء مبعدات من الحكمة ، قريبات من الشيطان وهي مصايده وحظه من بني آدم ، فمن عطـف إليهن بكلية فقد عطف على حظ الشيطان ، ومن حاد عنهن يئس منه ، وما مال الشـيطان إلى أحد كميله إلى من استرق بالنساء ، وأن الشر معهن حيث كن ، فإذا رأيتم في وقتكم من قدركن إليهن فأيأسوا منه " (٤) .

فمـن خـلال النصوص السابقة نرى أن فيها تنفيرا عن الزواج ، وأنه من مخالفات الـزهد في هـذه الحياة ، أو من الموانع عن الوصول إلى ولاية الله حسب زعمهم ، إلا أن الإمام أحمد – رحمه الله – كان له موقف صحيح من أمر النكاح حيث شجع وحث الناس على الزواج متبعا ذلك سنة رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ، وبين بأن التبتل وترك الزواج ليس من أمر الإسلام في شيء .

ولا شـك أن هـذا الموقـف موافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، حيث أمر الله ﷻ بالـنكاح فقال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ

---

(١) عوارف المعارف ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ بغداد ٧٣/٧ .

(٣) عوارف المعارف ص ١٠٤ .

(٤) غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ٢٠٩/٢ .

أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا . وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (١) .

وبما أن النكاح من الأشياء التي أحلها الله ﷻ فهو من الطيبات ، وقد نهى الله ﷻ عن تحريم الطيبات في كتابه العزيز فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

ولقد حث الرسول ﷺ على الزواج في أحاديث كثيرة ، كما ورد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : ((النكاح سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني ، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة ، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء)) (٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : ((ثلاثة حق على الله إعانتهم المجاهد في سبيل الله والناكح يريد أن يستعفف والمكاتب يريد الأداء)) (٤) .

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((لم أومر بالرهبانية)) (٥) .

وهذه الأحاديث وغيرها تبين بأن النكاح من الأمور التي أمر بها الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ ، ورغب فيه الرسول ﷺ لأهميته وشرعيته ، ولهذا فكل من يدعو الناس إلى البعد عن الزواج والتنفير عنه يعتبر محادا لله ولرسوله ، وهذا ما حصل لبعض المتصوفة قد وقع في هذا المحظور فأصبح يدعو الناس إلى الهروب عن الزواج والبعد عنه مخالفين بذلك قول الله ﷻ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا ﴾ (٧) .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان (٣- ٤) .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٨٧) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في أبواب النكاح ٣٤٠/١ ، وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (ح١٤٩٦) .

(٤) أخرجه النسائي في النكاح ، باب معونة الله الناكح الذي يريد العفاف ٦١/٦

(٥) أخرجه الإمام أحمد ٢٢٦/٦ ، والدارمي في النكاح ، باب النهي عن التبتل ١٣٢/٢ ، وابن حبان عن عائشة بلفظ : ((إن الرهبانية لم تكتب علينا)) ، الإحسان ١٠٦/١ .

(٦) سورة الحشر ، الآية (٧) .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

ومعارضـــين أيضا قول نبي الرحمة ﷺ : ((فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا)) [١] .

وتـــأكيدا على موقف الإمام أحمد من موضوع ترك النكاح فقد روى – رحمه الله – في مسنده قائلا ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة عن حصين عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو أنه تـــزوج امرأة من قريش فكان لا يأتيها ، كان يشغله الصوم والصلاة ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فذكـــر الحديث وفيه : ((إن لكل عمل شرة ولكل شرة فترة ، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح ، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك)) [٢] .

وروى الإمـــام أحمد أيضا : ثنا يحي بن سعيد ثنا جرير عن منصور عن مجاهد قال : دخلت أنا ويحي بن جعدة على رجل من الأنصار عن أصحاب رسول الله ﷺ قال : ذكروا عـــند رســـول الله ﷺ مولاة لبني عبد المطلب فقالوا : إنها تقوم الليل وتصوم النهار ، فقال رسول ﷺ : ((لكني أنام وأصلي وأصوم وأفطر ، فمن اقتدى بي فهو مني ، ومن رغب عن سنتي فليس مني ، إن لكل عمل شرة ثم فترة ، فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل ، ومن كانت فترته إلى سنة فقد اهتدى)) [٣] . فهذان الحديثان ثابتان عن رسول الله ﷺ .

وثـــبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) [٤] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ١/ ٠،وأورده الألباني في صحيح ابن ماجه ١/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢/ ١٨٨ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند٥/ ٤٠٩ .

(٤) سبق تخريجه ٢٩٠ .

١٠- الخلوة والعزلة

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : كان أبي أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد إلا في مسجد ، أو حضور جنازة ، أو عيادة مريض ، وكان يكره المشي في الأسواق [١] .

وكان الإمام أحمد يقول : أشتهي مالا يكون ، أشتهي مكانا لا يكون فيه أحد من الناس ، وكان يقول : رأيت الخلوة أروح لقلبي [٢] .

وقال أبو بكر المروذي : ذكرت لأبي عبد الله عبد الوهاب على أن يلتقيا فقال : أليس قد كره بعضهم اللقاء ؟ وقال : يتزين لي وأتزين له ، كفى بالعزلة علما ، الفقيه الذي يخاف الله ، وكان يرحمه الله يمنع من الدخول على الأمراء ويقول : الخلوة أنفع [٣] .

وقد تحدث بعض الأعلام الصوفية في القرن الثالث الهجري عن ظاهرة الخلوة والعزلة

فقال سهل بن عبد الله التستري : " لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله " [٤] .

وقال ذوالنون المصري : " لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة ، من أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص " [٥] .

أما أبو القاسم الجنيد فيقول : من أراد أن يسلم له دينه ، ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة .." [٦] .

ومن خلال النصوص السابقة نرى أن الإمام أحمد وبعض الأعلام الصوفية المتقدمين يتحدثون عن الخلوة والعزلة ، بل ويفعلون ذلك لا عن قصد الوحدة والانفراد والعزلة عن مخالطة الخلق ، ولا عن خلوة محدودة بالزمن كالخلوة الأربعينية ، - كما يفعلها بعض الصوفية- وإنما كانوا يؤثرون الوحدة والعزلة عن الناس اشتغالا بالعلم والتعبد ، وتفريغا للقلب ليشتغل بما هو أسمى من القيل والقال ، ولم تكن العزلة تقطعهم عن جمعة ولا جماعة

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨٠ .

(٣) نفسه ص ٢٨١ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٠٣ .

(٥) نفسه ص ١٠٣

(٦) نفسه ص ١٠٤ .

ولا عيـــادة مريض ولا شهود جنازة ولا قيام بحق ، وإنما هي عزلة عن الشر وأهله ومخالطة المتعطلين .

ولكن قد لبس إبليس على جماعة من المتصوفة ، فمنهم من اعتزل في جبل كالرهبان يـــبيت وحـــده ، ويصـــبح وحده ففاتته الجمعة وصلاة الجماعة ومخالطة أهل العلم ، وفاته الســـعي إلى المساجد والكسب الحلال ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو مخالف لتعاليم ديننا الحنيف .

وقد بوب الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين) بابا في فضل الخلطة فقال : " باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعتهم ومشاهد الخير ومجالس الذكر معهم وعيادة مريضهم ، وحضور جنائزهم ، ومواساة محتاجهم ، وإرشاد جاهلهم وغير ذلك من مصـــالحهم لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى " (١) .

ثم قال موضحا : " واعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار ، الـــذي كـــان عـــليه رسول الله ﷺ ، وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وكذلك الخـــلفاء الراشـــدون ومـــن بعدهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم ، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم ، وبه قال الشافعي وأحمد وأكثر الفقهاء رضي الله عنهم أجمعين ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (٢) والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة " (٣) .

أمـــا من السنة فيشهد لـــه حديث ابن عمر الصحيح : ((المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل أجرا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)) (٤) .

---

(١) رياض الصالحين للنووي ط ١٣ طبعة دار المأمون للتراث ص ٢٢٦ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٢) .

(٣) رياض الصالحين ص ٢٢٦ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الفتن ، بـــاب الصبر على البلاء ٣٨٨/٢ ، وأحمد في المسند٤٣/٢، ٣٦٥/٥ . وأورده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣٧٣/٢ (٣٢٥٧) .

١١- السياحـــة

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ :

" سئل (أي الإمام أحمد) عن الرجل يسيح يتعبد أحب إليك أو المقام في الأمصار ؟ قال : قال : مالسياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين " [١] .

أراد الإمام أحمد من هذه السياحة ، هي الظاهرة التي اتخذها بعض المتصوفة دينا وطريقا إلى ولاية الله .

ولا شك أن هذا الأمر لم يؤثر عن رسول الله ﷺ ، ولا عن صحابته الكرام ، ومن تبعهم بإحسان لأنهم كانوا على المسلك الصحيح ، مستمدين عقيدتهم من النبع الصافي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وليس في ترك الأهل والأولاد والأوطان ، والهيام في كل مكان نوع عبادة أو تقرب إلى الله تعالى ، إلا أن يكون سفر الإنسان وخروجه لغرض مشروع كطلب العلم النافع ، والدعوة إلى الله على هدى وبصيرة ، أو الرحلة إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج والعمرة ، فهذا أمر مطلوب ومشروع ، أو تكون السياحة والسير في الأرض للاعتبار بسنة الله في الأمم أو غير ذلك من الفوائد العلمية والعملية فهي مما أرشد الله ﷻ إليه في كتابه العزيز كما قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللهِ مِن وَاقٍ ﴾ [٣] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٤] .

وقد وافق شيخ الإسلام ابن تيمية على موقف الإمام أحمد من السياحة التي يعنيها بعض النساك حينما قال في فتاواه : " فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله ، ولا هو من دين الأنبياء ، بل قد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِن قَبْلِكَ

---

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانئ ١٧٦/١ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (١٣٧) .

(٣) سورة غافر ، الآية (٢١) .

(٤) سورة العنكبوت ، الآية (٢٠) .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [١] والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجبا تارة ومستحبا أخرى ، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين ؟

وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع ، كما يعانيه بعض النساك أمر منهي عنه ، قال الإمام أحمد : ليست السياحة من الإسلام في شيء ، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين .

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ [٢] ومن قوله تعالى : ﴿ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [٣] فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة " [٤] .

قال ابن كثير : بيان أن المراد بالسياحة الصيام ، واستدل بقول عبد الله بن مسعود وعائشة بأن سياحة هذه الأمة الصيام ..

ثم قال : وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، وهو ما روي أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة : أن رجلا قال : يارسول ائذن لي في السياحة ، فقال النبي ﷺ : سياحة أمتي الجهاد ، وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة ، أخبرني عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : " أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله ، والتكبير على كل شرف " وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون " .

ثم قال ابن كثير : وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين " [٥] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية (٣٨) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١١٢) .

(٣) سورة التحريم ، الآية (٥) .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٦٤٢- ٦٤٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٤٥٩ .

١٢- التغبير والاجتماع لسماع القصائد والمدائح

قـال أبـو بكر الخلال : حدثنا صالح بن علي الحلبي من آل ميمون بن مهران قال : سمعت أحمد بن حنبل وجعل الناس يسألونه عن التغبير حتى أتى مترلـه .

وأخـبرني محمـد بن علي أن أبا بكر الأثرم حدثهم قال : سمعت أبا عبد الله يقول : التغبير هو بدعة محدثـة .

وأخـبرني يوسف بن موسى أنه سأل أبا عبد الله عن التغبير فقال : لا تسمعه ، قيل لـه هو بدعة ؟ قال : حسبك !

وأخبرني محمد بن أبي هارون ومحمد بن جعفر أن أبا الحارث حدثهم قال : سألت أبا عبد الله : ما ترى في التغبير أنه يرقق القلب ؟ فقال : بدعة [١] .

وقـال أبو بكر الخلال أيضا : أخبرنا إسماعيل بن إسحاق الثقفي أن أبا عبد الله سئل عن سماع القصائد فقال أكرهه .

وأخبرني محمد بن موسى قال : سمعت عبدان الحذاء قال : سمعت عبد الرحمن المطبب قال : سألت أحمد بن حنبل قلت : ما تقول في أهل القصائد ؟ قال : بدعة لا يجالسون [٢]

ومـن النصوص السابقة نفهم أن الإمام أحمد كان موقفه من الغناء موقفا صحيحا لما دل عـليه الكـتاب والسـنة – كما سبق – ذلك أن التغبير أو الاجتماع لسماع القصائد والمدائـح كما يفعله بعض المتصوفة كان أمرا محدثا ، ولذلك كرهه الإمام أحمد ، وكره أن يجالس من مارس ذلك ،لأنه لا يزيد إيمان الإنسان في شيء ؛ بل ينبت النفاق في القلب [٣].

ولـذا حكم يزيد بن هارون [٤] على صاحب التغبير بأنه فاسق ، حينما قال : " ما يغبر إلا فاسق ، ومتى كان التغبير ؟ " .

وقال عبد الله بن داود [١] : " أرى أن يضرب صاحب التغبير " [٢] .

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحـمد ٢/٢٧٤- ٢٧٥ ، وانظر أيضا : ذم ما عليه مدعو التصوف لابن قدامة المقدسي ، تحقيق زهير الشاوش ط٣ ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٤هـ ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٧٦ .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨٠ .

(٤) يزيد بن هارون بن زاذي ، الإمام القدوة شيخ الإسلام الحافظ ، وقد روى عنه الإمام أحمد (ت ٢٠٦هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ٩/٣٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٤/٣٣٧ .

ثم قال ابن قدامة : " والتغبير اسم لهذا السماع ، وقد كرهه الأئمة كما ترى ، و لم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشابات فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه دينا ؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [٣] قيل : المكاء التصفير ، والتصدية التصفيق .

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [٤] ومن المعلوم أن الطريق إلى الله ﷻ إنما تعلم من جهة الله تعالى بواسطة رسوله ﷺ ، فإن الله ﷻ رضيه هاديا ومبينا وبشيرا ونذيرا ، وأمر باتباعه ، وقرن طاعته بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، وجعل اتباعه دليلا على محبته فقال ﷻ : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا ﴾ [٦] ثم قال ﷻ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٧]

وأضاف ابن قدامة قائلا : " ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ كان شفيقا على أمته ، حريصا على هداهم رحيما بهم ، فما ترك طريقا تهدي إلى الصواب إلا وشرعها لأمته ، ودلهم عليها بفعله وقوله ، وكان أصحابه – رضوان الله عليهم – من الحرص على الخير والطاعة ، والمسارعة إلى رضوان الله بحيث لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا سابقوا إليها .

فما نقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من صحابته أنه سلك هذه الطريقة الرديئة ، ولا سهر ليلة في سماع يتقرب به إلى الله ﷻ ، ولا قال : من رقص فله من الأجر كذا ، ولا

---

(١) عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع الإمام الحافظ القدوة ، أبو عبد الرحمن (ت ٢١٣هـ) ، انظر : سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٩ ، وطبقات ابن سعد ٢٩٥/٧ .

(٢) ذم ما عليه مدعو التصوف ص ٧ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية (٣٥) .

(٤) سورة الأنعام ، الآية (٧٠) .

(٥) سورة النساء ، الآية (٨٠) .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

(٧) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

قــال : الغـناء لا ينبت النفاق في القلب ، ولا استمع الشبابة فأصغى إليها وحسنها ، أو جعل في استماعها وفعلها أجرا ، وهذا أمر لا يمكن مكابرته .. " [١] .

والحق أن نقول : إن من سلك هذه الطريق فقد اتبع الهوى ، وهذا الذي ذمه الأئمة مـن سـلف هذه الأمة وذمه العارفون بالله وبأمره من مشايخ الطريق ، ومجرد طيب القلب ليـس دليلا على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه ، بل قد طيب بما لا يحبه الله ولا يرضاه ؛ بل بما يكرهه ويسخطه ، لا سيما القلوب التي أشربت حب الأصوات الملحنة فإنها تطيب بما ينبت النفاق ، وإطلاق القول بأن الصوفي مع قلبه هو من جنس ما ذم به هؤلاء حتى جعلوا من أهل البدع ، لأنهم أحدثوا في طريق الله أشياء لم يشرعها الله ورسوله ﷺ .

وقــد ذكـر الخلال بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي ، وذكر هؤلاء فقال : " لا تجالسـوهم ولا أصحاب الكلام ، وعليكم بأصحاب القماطر فإنهم بمنزلة المعادن والغواصين ، هـذا يخرج درة ، وهذا يخرج قطعة ذهب ، وكان الشافعي سيئ الظن بالطائفتين شديد الطعن فيهم طائفة المتكلمين وأهل البدع من الصوفية ، وكلامه فيهما مشهور حتى قال : لو تصوف في أول النهار لم يأت نصف النهار إلا وهو أحمق .

وأمـا أئمة الصوفية أهل العلم والاتباع والتعبد بالكتاب والسنة فهم من ورثة الأنبياء وأئمـة المـتقين ، وكلماتهم دواء للقلوب ، وهم حجة على هؤلاء ، وكلامهم في الوصية باتـباع الكـتاب والسـنة كثير ، مثل قول شيخهم أبي القاسم الجنيد : من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث فلا يقتدى به في هذا الشأن . وقوله : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ . وقول أحمد بن أبي الحواري : كل من عمل عملا بلا اتباع سنة فباطل عملـه . ومثل هذا كثير [٢] .

---

(١) ذم ما عليه مدعو التصوف ص ٩- ١٠ .

(٢) انظر : الكلام على مسألة السماع ص ٤٤٦ .

المبحث الثالث

موقف الإمام أحمد من أعلام التصوف

لقـــد عاصـــر الإمام أحمد – رحمه الله– جماعة من الزهاد ، وفئة من أعلام الصوفية المتقدمين ، الذين ظهرت فيهم بعض الأفكار الصوفية .

وقد ارتضى الإمام أحمد لكثير منهم على زهدهم ، وامتدح مسالك بعضهم ، وأثنى عـــليهم على مواعظهم وأقوالهم ، وألقى بالفتيا في الزهد والورع والعلم إليهم ، ومنع الناس عن الخوض فيهم ؛ إلا ما كان يحدث منهم في بعض المخالفات والمبالغات والانحرافات ، أو الـــتحدث عن الوساوس والخطرات ..فلم يقبل به الإمام أحمد لأن ذلك محدث أحدثه أهل الوجد والعشق والخلوات ، وما تكلم فيها الصحابة والتابعون لهم بإحسان .

١– معروف الكرخي (ت ٢٠٠هـ)

كـــان معـــروف الكرخي شيخا من شيوخ بغداد ، واشتهر " بالزهد والعزوف عن الدنيـــا يغشـــاه الصـــالحون ، ويتبرك بلقائه العارفون ، وكان يوصف بأنه مجاب الدعوة ، ويحكـــى عـــنه كـــرامات "[١] حتى قـــال عنه إبراهيم الحربي : " قـــبر معروف الترياق المجرب..[٢] "[٣] .

---

(١) انظر : تاريخ بغداد ١٩٩/١٣ ، وطبقات الحنابلة ٥٧/١ .

(٢) قال محقق سير أعلام النبلاء : " هذا الكلام لا يسلم لقائلـــه ، إذ كيف يكون قبر أحد من الأموات الصالحين ترياقا ودواء للأحياء ، وليس ثمة نص من كتاب الله يدل على خصوصية الدعاء عند قبر ما من القبور ، و لم يأمر به النبي ﷺ ، ولا سنه لأمته ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا استحسنه أحد من أئمة المسلمين الذين يقتدون بقولهم ، بل ثبت النهي عن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها .. انظر : سير أعلام ٣٤٣/٩ .

وأخـــرج الإمام أحمد في مسنده من طريق عبد الله بن نافع ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، ولا تجعلوا قبري عيدا ، وصلوا علي ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» ٣٦٧/٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٣٤٣/٩ ، وصفة الصفوة ٣٣٤/٢ .

وجـــرى ذكر معروف الكرخي يوما في مجلس الإمام أحمد بن حنبل فقال واحد من الجماعـــة : هو قصير العلم ، فقال الإمام أحمد : أمسك عافاك الله ! وهل يراد من العلم إلا لما وصل إليه معروف ؟! [١] .

وهذه العبارة التي وردت على لسان الإمام أحمد في أكثر من مصدر " وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف ؟ " قد بينها الدكتور مصطفى حلمي قائلا :

" هنا يحتمل أحد أمرين :

الأول : وهـــو أن الإعجاب كان متبادلا بصفة حقيقية بين الشخصين ، فإن القاضي أبا يعلى يذكر أن معروفا وصف الإمام أحمد بعد أن رآه بأنه " فتى عليه آثار النسك " [٢] .

أمـــا الاحـــتمال الـــثاني : فإنه مما يلفت نظر الباحث ـــ الدكتور حلمي ـــ كثرة الـــروايات التي تعبر عن المودة المتبادلة بينهما ، والتي قد تعني رغبة كلا الجانبين ـــ الصوفية من ناحية والفقهاء من ناحية أخرى ـــ إلى تضييق شقة الخلاف بينهما " [٣] .

ثم أضاف قائلا : " ولكن الاتجاه السلفي الأخير ـــ وممن يعبر عنه الشيخ محمد حامد الفقـــي ـــ ينقد بشدة بعض النصوص الواردة عن معروف الكرخي إما لأنها تتضمن أقوالا تخـــالف الأحاديث ، أو تحتوي على أحد مظاهر الشرك كوصف قبر معروف بأنه " الترياق المجرب " [٤] .

غـــير أن معروفا ـــ من خلال الدراسة ـــ كان زاهدا من زهاد بغداد مما جعل الإمام أحمـــد معجبا به ، وبالإضافة إلى ذلك أن معروفا كان حريصا على التمسك بعقيدة التوحيد الخـــالص مـــنذ طفولته ، وذلك لرفضه عقيدة التثليث حينما حاول مؤدبه أن يلقنه إياها ، فقـــال: " بـــل هو الله أحد " ، وكان ملتزما بما عليه الكتاب والسنة حينما كان يحث على العمل والأخذ بالأسباب ، الذي يحرص على امتثاله زهاد السلف الصالح ، وقد كان يقول : " طـــلب الجـــنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق " [٥] .

---

(١) تاريخ بغداد ٢٠٢/١٣ ، وطبقات الأولياء ص ٢١٧ ، وطبقات الحنابلة ٣٨٢/١ ، وسير أعلام ٣٤٠/٩ .

(٢) طبقات الحنابلة ٣٨١/١ .

(٣) ابن تيمية والتصوف ص ١٧٧ .

(٤) نفسه ص ٣٧٨ .

(٥) طبقات الصوفية ص ٨٩ .

ولا شـــك أن هذا الموقف موافق لما ذهب إليه الإمام أحمد لأنه يأمر بالتوكل على الله ، ويحث على العمل والسعي في طلب الرزق الحلال ، وينكر من يخالف ذلك .

أمـــا ظاهـــرة مـــن ظواهر الشرك التي نقلت عنه فقد حدثت بعد وفاته فليست من معتقداته وتوجيهاته ، فلا وجه لنقد الشيخ محمد حامد الفقي ـــ رحمه الله ـــ للمعروف .

٢- بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧هـــ)

كـــان بشـــر الحافي أحد الأعلام الصوفية المتقدمين ، وفاق أهـــل عصره في الورع والزهد ، وكان له علاقة طيبة مع إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ، وقد سئل الإمام أحمد عن مسألة في الورع فقال : أستغفر الله لا يحل لي أن أتكلم في الورع وأنا آكل من غلة بغداد لو كان بشر بن الحارث صلح أن يجيبك عنه ، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد يصلح أن يتكلم في الورع [١] .

وجـــاءت – ذات يـــوم – أخت بشر الحافي إلى الإمام أحمد فقالت : إنا نغزل على ســـطوحنا فـــتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا أفيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله تعالى ؟ فقالت : أخت بشر الحافي ، فبكى أحمد وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها .

وهـــذا دليل على ثناء الإمام أحمد على بشر الحافي وتقديره منه على علمه وورعه ، كما أن الإمام أحمد قد قام بزيارته حينما مرض [٢] .

ونـــرى في المقابل أن بشر الحافي قد أثنى أيضا على الإمام أحمد وقدر مكانته ، ذلك مـــن خلال العبارات التي وردت على لسان بشر ، عندما طلب منه أصحابه أن يعلن تمسكه بعقيـــدة الإمـــام أحمد التي امتحن فيها ـــ وهي مسألة خلق القرآن ـــ فأجاب مقدرا مكانة الإمام أحمد " أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء ؟ " . ثم دعا له فقال : " حفظ الله أحمد من بين يديه ومن خلفه " [٣] .

---

(١) صفة الصفوة ١٨٧/٢- ١٨٨ .

(٢) انظر : الآداب الشرعية ٢٣٨/٢- ٢٣٩ .

(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص٣١٠ .

ويذكر لنا أبو نعيم الأصفهاني أن بشر الحارث قال : أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبا أحمر وآل عليه ، فبلغ ذلك أحمد فقال : الحمد لله الذي أرضى بشر بما صنعناه " [١] .

فمن النصوص السابقة نرى أن الحب المتبادل بين الإمام أحمد بن حنبل وبشر الحافي كان مبنيا على أسس متينة ، بسبب الاتفاق في بعض الآراء والاتجاهات المتمثلة في قضية الزهد والورع وغيرهما ، وذلك في تحري الأكل من المصدر الحلال ، والتورع الشديد من الشبهات ، ووقوفهما في وجه تيار الترف والبذخ في عصرهما ، واتخاذهما من الزهد والورع أداة للمعارضة والنقد والتصحيح .

فقد كان موقف الإمام أحمد ـــ إذن ـــ من بشر الحافي موقف الحب والتقدير ، إلا أن الإمام أحمد قد لا يتفق معه في بعض الأمور مثل مسألة ترك الزواج ـــ لأنه مظهر من مظاهر التصوف ـــ وتمنى الإمام أحمد أن لو كان بشر الحافي قد تزوج قبل موته .

ولهذا لما قيل للإمام أحمد مات بشر بن الحارث قال : مات رحمه الله وماله نظير في هذه الأمة إلا عامر بن عبد قيس فإن عامرا مات ولم يترك شيئا ، وهذا قد مات ولم يترك شيئا ، ثم قال : لو تزوج كان قد تم أمره [٢] .

ومن المعروف أن الإمام أحمد ـــ كما سبق ـــ كان يشجع ويحث الناس على الزواج اتباعا لسنة رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم ، وينكر العزوبية لأنها ليست من أمر الإسلام في شيء .

وقد تنبه بشر الحافي ـــ في الواقع ـــ لمسألة الزواج حيث أورد نصا يجعل الإمام أحمد أفضل منه بسبب أمور ثلاثة فيقول : " فضل علي بثلاث : يطلب الحل لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسي ، واتساعه للنكاح وضيقي منه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسي " [٣] .

ولما قيل له : لم لا تتزوج ؟ وتخرج عن مخالفة السنة فقال : إني مشغول بالفرض عن السنة ، ولما زاد العتاب نحوه ، عثر في الكتاب على آية يتخذ منها سندا في ترك الزواج

---

(١) حلية الأولياء ٣٧٩/٨ .

(٢) تاريخ بغداد ٧٣/٧ .

(٣) قوت القلوب ٢٤١/٢ .

وهـــي : ﴿ وَلَهُـــنَّ مِـــثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [١] أي أنه خشي ألا يتمكن من أداء الحقـــوق الـــزوجية عـــليه فانصرف عن الزواج لهذا السبب ، ولكنه لم يكن مقلدا لرهبان النصارى ، ولم يكن امتناعه عن الزواج خروجا عن مبادئ الإسلام أو رفضا لتعاليمه ، وإنما كان يشعر في قرارة نفسه إنه ليس في حاجة إلى الزواج .

ونقول هنا مثل ما قاله الإمام أحمد : " لو تزوج كان قد تم أمره " . لأن النكاح أمر مشروع فقد أمر الله ﷻ به ، وحث عليه ، وحذر من أن يكون الفقر عائقا من الإقدام على الزواج ، لأنه ﷻ تعهد بأن يغني الزوجين من فضله فقال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّـــالِحِينَ مِـــنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْـــتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَـــلَكَتْ أَيْمَـــانُكُمْ فَكَاتِـــبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْـــرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢] .

وفي الحديـــث الذي رواه علقمة قال رسول ﷺ : ((من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغـــض للبصـــر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليـــه بالصوم فإنه لـــه وجاء)) [٣] . وقـــال ﷺ : ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)) [٤] . وقال ﷺ أيضا : ((من كان موسرا فلم ينكح فليس منا)) [٥] .

٣- أحمد بن أبي الحواري (ت ٢٣٠هـ)

هو الزاهد من أهل دمشق ، أحد الأعلام ، أصله من الكوفة .

وقد قال : سألني أحمد بن حنبل : متى مولدك ؟ قلت : في سنة أربع وستين ومائة ، قال : هي مولدي [٦] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٢٢٨) .

(٢) سورة النور ، الآيتان (٣٢- ٣٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٦٧٣/٢(ح١٨٠٦) .

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٨/٧ .

(٥) أخرجه الدارمي في سننه ١٣٣/٢ .

(٦) سير أعلام النبلاء ٨٥/١٢ .

وقـد صحب الشيخ أبا سليمان الداراني ، وأخذ عن مروان بن محمد ، وأبي مسهر الغساني وطائفة ، ثم أقبل على العبادة والتأله [١] .

قال : " من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه " [٢] . وقال : " من عمل بلا اتباع سنة فعمله باطل . وقال : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب ، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه " . وما ابتلى الله العبد بشيء أشد من الغفلة والقسوة " [٣] .

وذكر أبو نعيم أنه طلب العلم ثلاثين سنة فلما بلغ الغاية حمل كتبه إلى البحر فغرقها وقـال : يا علم ، لم أفعل هذا لك تهاونا بك ، ولا استخفافا بحقك ، ولكن كنت أطلبك لأهتدي بك إلى ربي ، فلما اهتديت بك إلى ربي استغنيت عنك [٤] .

قـال ابن الملقن معلقا على ذلك : " فإن قلت : هذه إضاعة مال ، قلتُ : لعله كان فيهـا شيء لا يرى تعديه إلى الغير ، وقد روى نحو هذا عن سفيان الإمام ، أنه أوصى بدفن كتـبه ، وكـان ندم على أشياء كتبها عن الضعفاء ، وقال : حملني عليها شهوة الحديث ، فكأنـه لما عسر عليه التمييز بين الصحيح وغيره أوصى أن تدفن كلها ، أو أن هذا من باب إلقاء أهل السفينة الأموال رجاء النجاة .. " [٥] .

وقال أحمد بن أبي الحواري : قال لي أحمد بن حنبل : يا أحمد ! حدثنا بحكاية سمعتها مـن أستاذك أبي سليمان الداراني ، فقال أحمد : سبحان الله بلا عجب ، فقال أحمـد بن حنـبـل : سبحان الله وطولها بلا عجب ! فقال أحمد بن أبي الحواري : سمعت أبا سليمان يقـول : إذا عقـدت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت ، وعادت إلى ذلك العبد بطـرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما ، فقام أحمد بن حنبل ثلاثا وقعد ثلاثا ، وقال : ما سمعت في الإسلام بحكاية أعجب من هذه إلي ...

ثم قال أحمد بن حنبل لأحمد بن أبي الحواري : صدقت يا أحمد وصدق شيخك [٦] .

---

(١) المرجع ١٢/٨٦ .

(٢) طبقات الصوفية ص١٠١ .

(٣) طبقات الأولياء ص ٥٥ .

(٤) حلية الأولياء ١٠/٤ .

(٥) طبقات الأولياء ص ٥٦ .

(٦) الآداب الشرعية ٢/٦٠ .

وقال أحمد بن القاسم : سمعت أبا عبد الله ورجل يسأله من أهل الشام رجل غريب، فذكـــر أن ابـــن أبي الحـــواري وقومـــا معه هناك يتكلمون بكلام قد وضعوه في كتاب ، ويـــتذاكرونه بينهم ، فقال : ما هو ؟ قال : يقولون : المحبة لله أفضل من الطاعة ، وموضع الحب درجة كذا ، فلم يدعه أبو عبد الله يستتم كلامه ، وقال : هذا ليس من كلام العلماء ، لا يلتفت إلى من قال هذا ، وأنكر ذلك وكرهه [١] .

قـــلت : إن إنكـــار الإمام أحمد بن حنبل على ابن أبي الحواري راجع إلى كلامه في الوســـاوس وخطرات الصوفية ، لأنها لم يتكلم فيها الصحابة والتابعون ، وأكد ذلك ما قاله المـــروذي : ســـئل أبو عبد الله عمن تكلم في الوساوس والخطرات ، فنهى عن مجالستهم ، وقال للسائل : احذرهم ، وقال : سمعت أبا عبد الله يقول : جاءني الأرمينيون بكتاب ذكر الوسواس والخطرات وغيره ، قلت : فأي شيء قلت لهم ؟ قال : قلت : هذا كله مكروه ، وقال في موضع آخر للمروذي : عليك بالعلم ، عليك بالفقه [٢] .

أما موقفه من الزهد فقد كان مشابها لموقف الإمام أحمد بن حنبل حينما قال : " إذا مرض قلبك بحب الدنيا وكثرة الذنوب فداوه بالزهد فيها ، وترك الذنوب " [٣] .

٤- حاتم الأصم (ت ٢٣٧هـ)

هـــو أبـــو عبد الرحمن ، حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الأصم ، الزاهد القدوة الـــرباني ، الواعظ الناطق بالحكمة ، له كلام جليل في الزهد والمواعظ والحكم ، كان يقال لـــه : لقمان هذه الأمة [٤] .

اجتمع بالإمام أحمد بن حنبل ببغداد .

" قيـــل لـــه : على ما بنيت أمرك في التوكل ؟ قال : على خصال أربع : علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي ، وعلمت أن عملي لا يعملـــه غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أن الموت يأتي بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أني لا أخلو من عين الله فأنا مستحي منـــه " [٥] .

---

(١) الآداب الشرعية ٨٢/٢ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) طبقات الصوفية ص ١٠٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٨٤/١١ .

(٥) حلية الأولياء ٧٧/٨ ، وتاريخ بغداد ٢٣٧/٨ ، وطبقات الأولياء ص ١٤٧ .

" وجـــاء رجـــل إلى حـــاتم الأصم ، فقال : يا أبا عبد الرحمن أي شيء رأس الزهد ووســـط الـــزهد وآخـــر الزهد ؟ فقال : رأس الزهد الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص ، " [١] .

وقيـــل : إن أحمد بن حنبل خرج إلى حاتم ورحب به ، وقال له : كيف التخلص من الناس ؟ قال : أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم ، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي أحدا حقـــك ، وتحتمل منهم المكروه ولا تحمل أحدا منهم مكروها ، فأطرق أحمد ينكت بأصبعه الأرض ثم رفع رأسه فقال : يا حاتم : إنها لشديدة ! فقال حاتم : وليتك تسلم وليتك تسلم وليتك تسلم [٢] .

لقد كانت إجابة الإمام أحمد لحاتم الأصم صحيحة إنها لشديدة ، لأن في القول نوعا من المبالغة في الدين وهي منهية في الإسلام .

ويبدو لي أن اجتماع الإمام أحمد مع حاتم الأصم كان الغرض منه التعلم والاستفسار عن أمور الزهد في هذه الحياة ، لأن حاتم كان أحد الزهاد المشهورين في عصره .

ونعـــرف ذلـــك من خلال أقواله ، وقد كان يقول : " الواثق من رزقه من لا يفرح بالغنى ، ولا يهتم بالفقر ، ولا يبالي أصبح في يسر أو عسر " [٣] . ويقول : " العباء علم من أعـــلام الـــزهد ، فلا ينبغي لصاحب العباء أن يلبس عباء بثلاثة دراهم ونصف ، وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم ، أما يستحي من الله أن تجاوز شهوة قلبه عباءه ؟! [٤] . ويقول أيضا : " تعهد نفسك في ثلاثة مواضع : إذا علمت فاذكر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك ، وإذا سكنت فاذكر علم الله فيك " [٥] .

وهذه النصوص تدل على زهده وورعه وخوفه من الله تعالى .

وفهـــم حـــاتم الأصـــم للزهد موافق لما فهمه الإمام أحمد بن حنبل حينما سئل عنه فأجاب بأنه " قصر الأمل " .

---

(١) حلية الأولياء ٧٩/٨ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١١ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٩٤ .

(٤) نفســـه ص ٩٧ .

(٥) نفســـه .

٥ – الحارث المحاسبي (٣٤٣هـ)

لقد كان الحارث المحاسبي أحد كبار الصوفية ، شديد الورع ، كثير العبادة ، متقشفا زاهدا ، إلى جانب فقهه وعلمه ، وتمكنه من الوعظ والإرشاد ، والترغيب والترهيب ..غير أن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل كان له موقف منه في بعض كلامه ومنهجه وسلوكه .

ولعل السبب في ذلك هو كلامه وبحثه في علم الكلام ، وإدخاله في كتبه ، أو عباراته- هو وأصحابه – في التقشف وشدة السلوك ، والمحاسبة الدقيقة ، التي لم يأت بها الشرع ، وأدلتنا على ذلك ما يلي :

قال الخطيب البغدادي : " وكان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره في الكلام وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه " (١) .

وقال أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال : " حذروا من الحارث أشد التحذير ، الحارث أصل البلية ، يعني في حوادث كلام جهم ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم إلى رأي جهم ما زال مأوى أصحاب الكلام حارث بمترلة الأسد المرابط انظر أي يوم يثب على الناس " (٢) .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي أثناء شرحه لحديث : « استفت قلبك وإن أفتاك المفتون » ، وإنما ذم أحمد الحارث المحاسبي وغيره من المتكلمين على الوساوس والخطرات من الصوفية ، حيث كان كلامهم في ذلك لا يستند إلى دليل شرعي ، بل إلى مجرد رأي وذوق كما كان ينكر الكلام في مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأي من غير دليل شرعي " (٣) .

وهذا السبب قد أشار إليه القاضي أبو يعلى أيضا فيقول : أنبأنا المبارك عن الحسن بن محمد الحافظ ، أخبرنا أبو عمر بن حيوية قال : حدثنا أبو محمد عبد الرحمن بن عبيد الله بن سعد الزهري حدثنا يعقوب إسحاق بن حية الأعمش قال : سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الوساوس والخطرات ؟ فقال : ما تكلم فيها الصحابة ولا التابعون " (٤) .

أما قول الإمام أحمد الذي لا يرى صحبة الحارث المحاسبي وأصحابه فقد ذكر ابن كثير بأن البيهقي قال : يحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان

---

(١) انظر : تاريخ بغداد ٢١٤/٨ .

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٠٧ .

(٣) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٢٢٣ .

(٤) طبقات الحنابلة ١١٣/١ ، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٣٢ .

زاهدا فإنه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك ، أو كره صحبتهم من أجـل لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزهد والورع قلت : - القائل ابن كثير - بـل إنمـا كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف ، وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع ، والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر [١] .

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا السبب في هجران إمام أهل السنة أحمد للزاهد الحـارث المحاسبي ، ذلك أن الإمام أحمد كان حريصا على التقيد بالسنة وأقوال الصحابة ، لأن مـنهجه يستند إلى هذا الأساس ، ويسعى إلى عدم التعمق والتشدد الذي قد يؤدي إلى الاختلاف .

ويظهـر لنا أن الذين حذروا من الحارث بسبب قوله ونشره علم الكلام ، وكذلك حذروا من يعلمون أنهم لا يستطيعون الثبات على مثل سلوكه وصحبته لشدة طريقته ، وإن كـان ابن الجوزي يفسر موقف ابن حنبل فيها بالتمسك بالسنة والنهي عن البدعة فيقول : " وقـد كـان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكـلم في جماعـة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة في الدين " [٢] .

ولكـن الحارث المحاسبي ـــ رغم ما قيل عنه بأن له انحرافا في التصوف ـــ كان بعيدا عن شطحات الأقوال والأحوال ، التي صدرت من بعض أعلام الصوفية .

قـال السـراج الطوسي : " وبلغني عن أبي حمزة إنه دخـل دار الحارث المحاسبي ، فصـاحت الشاة ماع ، فشهق أبو حمزة شهقة ، وقال : لبيك يا سيدي ، فغضب الحارث وعمد إلى سكين ، وقال : إن لم تتب من هذا الذي أنت فيه أذبحك " [٣] .

وبذلـك نقول : بأن الحارث المحاسبي لم يكن تصوفه كغيره في الغلو والانحراف ، بل كـان كثيرا ما يشير إلى وجوب الالتزام بالكتاب والسنة ، وأقوال الصحابة [٤] ، وقد ينكر عـلى بعض متصوفة عصره وعلى انحرافاتهم ، فذكر أنواعا من غرورهم بما عندهم ، وعدم مطابقـة أقوالهـم وقال بعد كلام طويل عنهم : " وإنما أطلت الوصف في هذه الفرقة لأنها

---

[١] مناقب الإمام أحمد ص ١٨٥ — ١٨٦ ، وانظر : والبداية والنهاية ٣٣٠/١٠ ، وطبقات الشافعية ٢٧٩/٢ .

[٢] مناقب الإمام أحمد ص ١٥٨ .

[٣] اللمع للطوسي ص ٤٩٥ ، وتلبيس إبليس ص ٢١٠ .

[٤] رسالة المسترشدين ص ٣٦ .

عظـــيمة غرتها ، قد غلب ذلـــك على كثير ممن يتعبـــد ويرى أنه من النساك العـــاملـــين لله ﷻ [(١)] .

كمـــا يـــرد على الذين يقعد بهم توكلهم إلى التواكل ، وترك الكسب والعمل مثل شقيق البلخي الذي زعم أن الحركة في الكسب معصية ، كما يرد على من زعم أن القعود وتـــرك العمـــل أفضل من الحركة .. ثم يعرض لأقوال العلماء في مسائل علمية كثر الجدال حولهـــا مـــثل الورع وحـــده ، والعزلـــة عن الناس و مجانبة الشبهة وجوائز السلطان وغير ذلك [(٢)] .

٦- سري السقطي (ت ٢٥٣ أو ٢٥٦هـ)

كـــان ســـري بن المغلس السقطي تلميذ معروف الكرخي ، وخال الجنيد وأستاذه ، وهـــو ممـــن نطـــق بعـــلوم الصوفية ، وعـــبر عن مواجيدهم ، ونشر مقاماتهم ، ووصف أحوالهم [(٣)] .

وقـــد تأثر بإمام أهل السنة أحمد بن حنبل في أمر الزهد والورع ، حيث كان يتحرى الحلال ، حتى اشتهر بخصائص ثلاثة كما أشار بذلك أبو نعيم في الحلية ؛ فقد أخرج بسنده إلى أبي علي الحسن البزار الذي يقول : " سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر ، فقال أبو عبد الله : أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء ؟ قلت : بلى ، قـــال : هو على سيره عندنا قبل أن يخرج ، وقد كان السري يعرف بطيب الغذاء ، وتصفية القـــوت ، وشـــدة الورع ، حتى انتشر ذلك عنه ، وبلغ ذلك أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال : الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء " [(٤)] .

وبدت نظرية الزهد عنده في الزهادة في الدنيا ، والعزلة والوحدة حيث كان يقول : " من أراد أن يسلم دينه ، ويستريح قلبه وبدنه ، ويقل غمه فليعتزل الناس ، لأن هذا زمان

---

(١) انظر : الرعاية لحقوق الله ص ٤٥٥ .

(٢) انظر : الكسب للمحاسبي ص ٦١- ٦٤ ، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح ص ١٦٣ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٤٨ ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ص١١ ، والرسالة القشيرية ص ٤١٧ .

(٤) حلية الأولياء ١٠/١٣٠ .

عزلة ووحدة " [١] . ولأن الدنيا كلها فضول " إلا خمس خصال : خبز يشبعه ، وماء يرويه ، وثوب يستره ، وبيت يسكنه ، وعلم يستعمله " [٢] .

وكان السقطي حريصا على اتباع السنة ، حيث كان يحرص على الجمعة والجماعة ، ويقول : " قليل في سنة خير من كثير مع بدعة " [٣] . وإلى جانب حرصه على اتباع السنة فهـو يتحرى طيب الغذاء فيقول : " أشتهي أن آكل أكلة ليس لله فيها علي تبعة ، ولا أحد علي فيها منة ، فما أجد إلى ذلك سبيلا " [٤] .

فهـو في هذه العبارة يتفق مع الإمام أحمد بن حنبل في مبدأ الحلال والورع ، ويعتبر ذلـك أساس الزهد وتزكية القلوب تمثلا بأهل الورع السابقين ، لأنهم فزعوا إلى التقلل إذا ضاقت عليهم الأمور .

وكان السقطي يذهب أيضا مثل ما ذهب إليه الإمام أحمد في التوكل على الله ﷻ ، وهذا ما جعل الزهاد يضعون السري السقطي في مصاف الإمام أحمد وبشر الحافي .

ومع هذا الإمام أحمد والسري السقطي ؛ وما رأينا من الإمام أحمد أنه يمدحه ويصفه بطيـب المطعـم فإننا نجد الإمام أحمد ينكر على بعض كلام السقطي ، لا لإسقاط محاسنه وإظهار عيوبه ، وإنما لبيان الصواب ، والدفاع عن العقيدة الصحيحة .

وبيان ذلك ما ذكره الإمام ابن الجوزي قائلا : " نحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط إلا تتريه الشريعة ، والغيرة عليها من الدخل ومـا علينـا من القائل والفاعل ، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم ، وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه قصدا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط ..." [٥] .

ثم قـال رحمـه الله : " وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يمدح الرجل ويبالغ ثم يذكر غـلطه في الشـيء بعد الشيء وقال : نعم الرجل فلان لولا أن خلة فيه ، وقال عن السري

---

(١) طبقات الصوفية ص ٥٠ .

(٢) حلية الأولياء ١٢٣/١٠ .

(٣) طبقات الصوفية ص ٥٢ ، وصفة الصفوة ٢١٢/٢ ، ٢١٦ .

(٤) حلية الأولياء ١٢٠/١٠ ، ووفيات الأعيان ٢٨٣/١ .

(٥) تلبيس إبليس ص ٢٠٩ .

السقطي : الشيخ المعروف بطيب المطعم ، ثم حكى له عنه أنه قال : إن الله ﷻ لما خلق الحروف سجدت الباء فقال : نفروا الناس عنه " [١] .

وذكر ابن حجر العسقلاني – بعد أن ترجم لسري السقطي – قائلا : " فقرأت في كتاب " الحروف " ليعقوب الحنبلي من تلامذة أبي يعلى الفراء أن أحمد بن حنبل بلغه أن السري قال : لما خلق الله الخلق سجدت الألف ، وقال : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال أحمد: هذا كفر " [٢] .

قلت : إن صح ما ذكره ابن الجوزي وابن حجر العسقلاني فلعل إنكار الإمام أحمد على منهج السقطي في تأويل القرآن ، حيث سلك المنهج الصوفي في فهم الحروف من كتاب الله ﷻ ، وقد نهج هذا المنهج غيره من الصوفية في القرن الثالث الهجري كسهل بن عبد الله التستري وأبي سعيد الخراز .

ودليلنا على ذلك ما ذكره السراج الطوسي فيقول : " إن جميع ما أدركته العلوم ، وألحقته الفهوم ما عبر عنه وما أشير إليه مستنبط من حرفين من أول كتاب الله وهو قول بسم الله ، والحمد لله ، لأن معناه بالله ولله ، والإشارة في ذلك أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركه فهم لهم ، فليست هي قائمة بذواتها إنما هي بالله ولله " [٣] .

ثم ذكر الطوسي : " أن سهل بن عبد الله قال : الألف أول الحروف وأعظم الحروف وهي الإشارة في الألف ، أي الله الذي ألف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء " [٤] . كما أشار إلى تفسير أبي سعيد الخراز حين يقول : " كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله ﷻ على قدر قربك وحضورك عنده ، فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ، فإذا سمعت بقوله : " آلم ذلك . فالألف علم يظهر في الفهم غير ما يظهر اللام ، وعلى قدر المحبة وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت والفهم " [٥] .

---

[١] نفسه .

[٢] لسان الميزان ٣/١٨ .

[٣] اللمع للطوسي ص ١٢٤ .

[٤] نفسه ص ١٢٥ .

[٥] نفسه .

٧- أبو حمزة البغدادي الصوفي (ت ٢٨٩هـ)

هو " شيخ الشيوخ ، أبو حمزة ، محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي ، جالس بشرا الحافي ، والإمام أحمد ، وصحب السري بن المغلس " [(١)] ، وكان أول من تكلم ببغداد في المحبة والشوق ، والقرب والأنس على رؤوس الناس [(٢)] .

قد جالسه الإمام أحمد حينما رأى تصوفه لم يصرفه عن تلقي العلم ، لكونه بصيرا بعلم القراءات ، كثير الرباط والغزو [(٣)] .

وكان إذا جرى في مسألة شيء من كلام القوم والإمام أحمد حاضر التفت الإمام أحمد إلى أبي حمزة الصوفي ، وقال : ما تقول في هذه المسألة يا صوفي ؟ [(٤)] غير أن الإمام أحمد لم يكن يهدف بسؤاله الاستفسار عما يجهله بقدر ما يورد تصحيح الرأي الذي يذهب إليه هذا الصوفي ، وهذا ما ذهب إليه القاضي أبو يعلى في تعليقه على الخبر فيقول : " أراد - والله أعلم - بسؤال إن أصاب أقره عليه ، وإن أخطأ بينه له [(٥)] .

وفي الحقيقة أن أبا حمزة قد تكلم بعبارة معبرة عن علمه ومتابعته للرسول ﷺ حينما قال : " من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله " [(٦)] .

ولكنه قد تكلم أيضا بكلام فيه انحراف وشطح له تأويل ، كما ذكر ذلك الإمام الذهبي فقال : ففي الحلية عن الواحد بن بكر ، حدثنا محمد بن عبد العزيز سمعت أبا عبد الله يقول الرملي يقول : تكلم أبو حمزة في جامع طرسوس فقبلوه ، فصاح غراب ، فزعق أبو حمزة : لبيك لبيك ، فنسبوه إلى الزندقة ، وقالوا : حلولي ، وشهدوا عليه ، وطرد ، وبيع فرسه - بالمناداة على باب الجامع - هذا فرس الزنديق [(٧)] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/١٦٥- ١٦٦ .

(٢) تاريخ بغداد ١/٤٠٧ ، والمنتظم لابن الجوزي ١٢/٢٢٦ .

(٣) كشف المحجوب ١/٣٦٥- ٣٦٦ . وسير أعلام ١٣/١٦٦ .

(٤) تاريخ بغداد ١/٤٠٧ ، وطبقات الصوفية ص ٢٩٧ ، وطبقات الأولياء ص ١٢٧ .

(٥) طبقات الحنابلة ١/٢٦٨ .

(٦) طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، والرسالة القشيرية ص ٣٩٥ .

(٧) حلية الأولياء ١٠/٣٢١ ، وتلبيس إبليس ص ٢١٠ .

وقـــال أبو علي الروذباري : " أطلق على أبي حمزة أنه حلولي وذلك أنه كان إذا سمع صوتا مثل هبوب الرياح وخرير الماء وصياح الطيور كان يصيح ويقول : لبيك لبيك فرموه بالحلول " [١] .

وقـــال أبو نصر السراج : " بلغني أنه دخل على الحارث المحاسبي ، فصاحت شاة : ماع فشهق ، وقال : لبيك لبيك يا سيدي ، فغضب الحارث ، وأخذ السكين ، وقال : إن لم تتب أذبحك " [٢] .

وبـــناء عـــلى ذلك فإن كان أبو حمزة الصوفي قد جالس الإمام أحمد وسمح به لكونه متعلما ؛ ولا يعني أن الإمام أحمد بن حنبل أقر بشطحه وانحرافاته .

فـــلو أن الإمـــام أحمد سمع ذلك منه لصححه ، لأنه معروف بحرصه على أن يكون الإنسان على معتقد السلف الصالح ، ولو سمع مثلما سمع الحارث المحاسبي لأنكر ذلك مثله .

إذن فالإمام أحمد لم يكن مقرا بالفكر الصوفي عند أبي حمزة ، بينما يقره بأنه صوفي ، وهو دليل أيضا على وجود التصوف في عصر الإمام أحمد – رحمه الله – .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢١٠ .

(٢) اللمع للطوسي ص ١٩٥ ، وسير أعلام ١٣/١٦٧ .

المبحث الرابع

بطلان الروايات المنسوبة إلى الإمام أحمد في التصوف

١- الأبـــدال

إن كلمة " الأبدال " مصطلح من مصطلحات الصوفية ، التي اخترعها بعضهم ليرتبوا بهــا طــبقاتهم ، وهذه الكلمة قد روى عنها الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، وروى عنها غيره كذلك ، وورد أن الإمام أحمد قد تكلم بهذا المصطلح ، ونسب إليه أنه من الأبدال .

لذا ، لا بد من الحديث – أولا – عن معنى الأبدال

فــإذا بحثنا في " القاموس المحيط " : نجد أن " الأبدال قوم بهم يقيم الله ﷻ الأرض ، وهــم سبعون : أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها ، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس " [١] .

وفي " المعجــم الوســيط " : " لقب يطلقونه على رجال الطبقة من مراتب السلوك عــندهم " [٢] . وفي " مختار الصحاح " : " الأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ، إذا مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر " [٣] .

وفي " الــتعريفات " قال الجرجاني : " البدلاء هم سبعة رجال ، من سافر من موضع وتــرك جسدا على صورته حيا بحياته ، ظاهرا بأعمال أصله بحيث لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البدل لا غير " [٤] .

وقــال ابن الأثير : " أبدال الشام هم الأولياء والعباد ، الواحد بدل كجمل ، أو بدل كحمل ، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد بدل بآخر " [٥] .

وقــال ابــن عــربي : " إن ثم رجالا سبعة يقال لهم الأبدال ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بدل إقليم ، وإليهم تنظر روحانيات السماوات والأرض " [٦] .

---

(١) القاموس المحيط ، مادة (بدل) .

(٢) المعجم الوسيط ، مادة (بدل) .

(٣) مختار الصحاح لمحمد الرازي ، مادة (بدل) .

(٤) التعريفات ص ٣٤ .

(٥) النهاية في غريب الحديث ، مادة (بدل) .

(٦) الفتوحات المكية ٣٧٦/٢ .

فهــذه بعض التعريفات للأبدال ، وأسوق بعض الأخبار والروايات التي تتحدث عن هذه الكلمة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد :

" حدثـــني أبي ثنا أبو المغيرة ثنا صفوان حدثني شريح – يعني ابن عبيد – قال : ذكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب ﷺ وهو بالعراق ، فقالوا : العنهم يا أمير المؤمنين ، قال: لا إني سمعـــت رسول الله ﷺ يقول : " الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلا ، كلما مـــات رجل أبدل الله مكانه رجلا يسقى بهم الغيث ، وينتصر بهم على الأعداء يصرف عن أهل الشام بهم العذاب " [١] .

هـــذا الحديث قال عنه أحمد شاكر : " إسناده ضعيف لا انقطاعه ، شريح بن عبيد الحضرمي الحمصي لم يدرك عليا بل لم يدرك إلا بعض متأخري الوفاة من الصحابة " [٢] .

وقال الألباني : " ضعيف " [٣] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد في حديث آخر :

" حدثني أبي ثنا عبد الوهاب بن عطاء أنا الحسن بن ذكوان عن عبد الواحد بن قيس عـــن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال : «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خـــليل الـــرحمن ﷺ ، كـــلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلا» قـــال أبي رحمــــه الله : فيه – يعني حديث عبد الوهاب – كلام غير هذا ، وهو منكر ، يعني حديث الحسن بن ذكوان " [٤] .

الحديث قد حكم عليه الإمام أحمد بأنه منكر وهو راويه .

وقال عنه الألباني : " ضعيف " [٥] .

وحديـــث ثـــالث لعبادة بلفظ : «الأبدال من أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض ، وبهم تمطرون وبهم تنصرون » رواه الطـــبراني ، وقـــال الهيثمي : " من طريق عمر ، والبزار

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/١١٢ .

(٢) التعليق على المسند ٢/١٧١ (ح ٨٩٦) .

(٣) ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٦) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/٣٢٢ .

(٥) ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٩) .

عن عنبسة الخواص وكلاهما لم أعرفه " [١] .

وقال الألباني : " ضعيف " [٢] .

وحديث رابع في الأبدال من حديث ابن مسعود بلفظ « لا يزال أربعون رجلا من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال : إنهم لم يدركوها بصلاة ولا صوم ولا صدقة ، قالوا : يا رسول الله فبم أدركوها ؟ قال : بالسخاء والنصيحة للمسلمين » .

قال الهيثمي : " رواه الطبراني من رواية ثابت بن عياش الأحدب عن رجاء الكلبي وكلاهما لم أعرفه " [٣] .

وقال الألباني : " ضعيف جدا " [٤] . فهذه بعض الأحاديث التي تتحدث عن الأبدال ، وهي أحاديث ضعيفة .

ثم وجدنا بعض الروايات التي تدل على أن الإمام أحمد استخدم كلمة " الأبدال " على بعض الصوفية ، الذي تقابل مع الإمام أحمد .

الرواية الأولى : ما رواها الخطيب البغدادي فقال : " أخبرنا عبد العزيز بن علي الوراق حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن الهمذاني حدثنا القاسم بن الحسن بن جرير حدثنا محمد بن أبي عتاب عن محمد بن المثنى قال : قلت لأحمد بن حنبل ما تقول : في هذا الرجل؟ فقلت له بشر ، فقال لي : سألتني عن رابع سبعة من الأبدال ، أو عامر بن عبد قيس ، ما مثله عندي إلا مثل رجل ركز رمحا في الأرض ، ثم قعد منه على السنان ، فهل ترك لأحد موضعا يقعد فيه ؟ " [٥] .

قلت : في السند رجل صوفي ، وهو علي بن عبد الله بن الحسن بن جهضم الهمذاني (ت ٤١٠هـ) قال الذهبي عنه : " شيخ الصوفية بالحرم لقد أتى بمصائب في كتاب " بهجة

---

[١] مجمع الزوائد ٦٣/١٠ .

[٢] ضعيف الجامع الصغير (ح ٢٢٦٧) .

[٣] مجمع الزوائد ٦٣/١٠ .

[٤] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (ح ١٤٧٨) .

[٥] تاريخ بغداد ٧٢/٧- ٧٣ .

الأسرار " يشهد القلب ببطلانها ، ثم قال الذهبي : ليس بثقة ؛ بل متهم يأتي بمصائب ، وقال ابن خيرون : قيل : إنه يكذب [١] .

فالرواية - إذن - في سندها ضعف وهو رجل صوفي متهم بالكذب .

الـرواية الثانية : ما ذكره ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد : " قال الخلال وثنا أبو بكر المروذي قال : قدم رجل من الزهاد فأدخلته على أبي عبد الله وعليه فروة خلق ، وعلى رأسه خريقة ، وهو حاف في برد شديد ، فسلم عليه فقال لـه : يا أبا عبد الله ! قد جئت مـن موضع بعيد ، وما أردت إلا السلام عليك ، وأريد عبادان ؛ وأريد إن أنا رجعت أمر بك وأسلم عليك ، فقال له أبو عبد الله : إن قدر ، فقام الرجل فسلم وأبو عبد الله قاعد ، قـال المـروذي : ما رأيت أحدا قط قام من عند أبي عبد الله حتى يقوم أبو عبد الله إلا هذا الـرجل ، فقال لي أبو عبد الله : ما ترى ما أشبهه بالأبدال ، أو قال إني لأذكر به الأبدال ، فأخـرج إليـه أبـو عبد الله أربعة أرغفـة مشطورة بكافخ ؛ وقـال : لو كان عنـدنا لواسيناك " [٢] .

هذه الرواية وإن كانت في سندها تلميذ للإمام أحمد بن حنبل لا تعني أن الأبدال عند الإمـام أحمـد هم المعترفون بالأبدال الأربعين أو السبعين .. عند المتصوفة ؛ وإنما يعني لفظ الأبدال بالزهاد كما هو واضح من الرواية المذكورة ، أو أن الإمام أحمد - رحمه الله - ذكر ذلك إما آثرا لها عن غيره أو ذاكرا كما يفعله في مسنده ، لم يقر الإمام أحمد بهذا المصطلح الذي اخترعه بعض الصوفية في تصنيف طبقاتهم وأوليائهم .

ومـن جمـلة القـول فقـد أورد الإمام ابن الجوزي أحاديث الأبدال في كتاب " الموضـوعات " وعلق عليها بعد سردها بأسانيدها فيقول : " ليس في هذه الأحاديث شيء يصح " [٣] .

ويقـول شـيخ الإسلام ابن تيمية : " وكذا كل حديث يروي عن النبي ﷺ في عدة الأولياء ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، مثل أربعة ، أو سبعة ، أو اثـني عشـر ، أو القطـب الواحد ، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ ، ولم ينطق

---

[١] سير أعلام النبلاء ١٧/٢٧٥- ٢٧٦ ، وانظر : ميزان الاعتدال ٣/١٤٣ ، ولسان الميزان ٤/٢٣٨ .

[٢] مناقب الإمام أحمد ص ١٤٧ .

[٣] كتاب الموضوعات ٣/١٥٢ .

السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ " الأبدال " . وروى فيـــه أنهم أربعون رجلا وأنهم بالشـــــام ، وهـــــو في " المسنـــد " من حـــديث علي ، وهو حـــديث منقـــطع ليس بثابت " [١] .

ويقـــول أيضـــا : إن الأبدال الأربعين رجلا كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجـــلا ، بأن هذه الأسماء لا توجد في كلام السلف ، كما هي على هذا الترتيب ، ولا هي مـــأثورة عـــلى هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولا تاما ؛ وإنما توجد عـــلى هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ ، وقد قـــالها إما آثرا لها عن غـــيره أو ذاكـــرا .

" وهـــذا الجـــنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصـــار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل ما يوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل ، وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحـــق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي ﷺ عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة " [٢] .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٣- ١٤ . ومجموعة الرسائل والمسائل ٥٧/١ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤٣٤/١١ .

٢- القول بعلم الحقائق

قال ابن الجوزي : " وقد كان الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل لشدة تمسكه بالسنة ، ونهيه عن البدعة ، يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنة ، وكلامه ذلك محمول على النصيحة للدين .

ثم قال : " أخبرنا أبو منصور القزاز ، أنا أحمد بن علي بن ثابت ، قال : أخبرني محمد بن أحمد بن يعقوب ، قال : أنا محمد بن نعيم الضبي ، قال : سمعت أبا بكر أحمد بن إسحاق الصبغي يقول : سمعت إسماعيل بن إسحاق السراج يقول : قال لي أحمد بن حنبل يوما : بلغني أن الحارث هذا - يعني المحاسبي - يكثر الكون عندك فلو أحضرته منزلك وأجلستني من حيث لا يراني فأسمع كلامه ؟ فقلت : السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله ! وسرني هذا الابتداء من أبي عبد الله ، فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، فقلت : وتسأل أصحابك أن يحضروا معك ، فقال : يا إسماعيل فيهم كثرة فلا تزدهم على الكسب والتمر وأكثر منهما مهما استطعت ، ففعلت ما أمرني به ، وانصرفت إلى أبي عبد الله وأخبرته ، فحضر بعد المغرب وصعد غرفة في الدار ، واجتهد في ورده إلى أن فرغ .

وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا ، ثم قاموا لصلاة العتمة ولم يصلوا بعدها ، وقعدوا بين الحارث وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل ، وابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة فأخذ في الكلام وأصحابه يستمعون كأن على رؤوسهم الطير ، فمنهم من يبكي ، ومنهم من يحنّ ، ومنهم من يزعق ، وهو في كلامه ، فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبي عبد الله ، فوجدته قد بكى حتى غشي عليه ، فانصرفت إليهم ، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا فقاموا وتفرقوا ، فصعدت إلى أبي عبد الله وهو متغير الحال ، فقلت : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل ، وعلى ما وصفت من أحوالهم فلا أرى لك صحبتهم ، ثم قام وخرج " [١] .

التعليق :

إذا نظرنا في النص من حيث السند ففيه محمد بن نعيم الضبي فهو مجهول الحال ، غير أن الإمام الذهبي أورد هذه الحكاية في الميزان ، من طريق الحاكم ثم قال : إسماعيل وثقه

---

(١) مناقب الإمام أحمد ص ١٨٥- ١٨٦ .

الـدار قطني ، وهذه حكاية صحيحة السند ، منكرة لا تقع على قلبي ، أستبعد وقوع هذا من مثل أحمد .

وأما المحاسبي فهو صدوق في نفسه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه [١] .

وأمـا من حيث المتن والموضوع فأقول : أستبعد أيضا حدوث ذلك من الإمام أحمد حـتى وإن دل ذلك على إنكاره للأعمال التي صدرت من المحاسبي وأصحابه ، وأتساءل لم اختـبأ الإمام أحمد منهم ؟ وما الذي يمنعه أن يخرج إليهم فيكلمهم أو ينصحهم ؟ وهو إمام جـليل لـه موقفه المشهور في الذب عن السنة والدفاع عنها ، وإلقاء النصح والتوجيه ، والـذي لا يخـاف في الله لومة لائم ! ولم لم يخرج لصلاة العشاء مع الجماعة ؟ ! وما معنى عـلم الحقـائق في النص ، الذي جاء ذكره في كلام الإمام أحمد ، وهل كان الإمام يقسم العلوم إلى الحقائق والمجازات ، والظاهر والباطن ؟

كـلا إنها مـن بدع التصوف التي لم يتكلم عنها أهل الحق من سلف هذه الأمة ، فالحكاية المنسوبة إلى الإمام أحمد لا أظنها صحيحة وواقعة منه — رحمه الله — .

---

(١) ميزان الاعتدال ١/٤٣٠ .

٣- القراءة عند القبور وإهداء الثواب

لقد عزا الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي إلى الإمام أحمد بن حنبل بأنه قال : إذا ذهبتم إلى المقبرة فاقرأوا سورة الفاتحة ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين ، وأهدوا ثوابها للمقبورين فإن الثواب يصل إليهم [١] .

وهذا القول المنسوب إلى الإمام أحمد له شواهد من رواية أبي بكر الخلال حينما قال :

" أخبرني الحسن بن أحمد الوراق قال : حدثني علي بن موسى الحداد وكان صدوقا ، وكان ابن حماد المقرئ يرشد إليه ، فأخبرني قال : كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهري في جنازة ، فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر ، فقال له أحمد : يا هذا ! إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد بن حنبل : يا أبا عبد الله ! ما تقول في مبشر الحلبي ؟ قال : ثقة ، قال : كتبت عنه شيئا ؟ قلت : نعم قال : فأخبرني ، قلت : فأخبرني مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال : سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال أحمد : ارجع فقل للرجل يقرأ [٢] " [٣] .

" وأخبرنا أبو بكر بن صدقة قال : سمعت عثمان بن أحمد بن إبراهيم الموصلي قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل في جنازة ، ومعه محمد بن قدامة الجوهري قال : فلما قبر الميت جعل إنسان يقرأ عنده فقال أبو عبد الله لرجل : تمر إلى ذلك الرجل يقرأ فقل له : لا تفعل ، فلما مضى قال له محمد بن قدامة : مبشر الحلبي كيف هو ؟ فذكر القصة بعينها .

---

(١) فضائل صدقات ص١١٥ ، نقلا عن جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية ، للدكتور أبي أسامة سيد طالب الرحمن ، ط١ إسلام أباد (دار البيان للنشر والتوزيع) ص ٢٢٨ .

(٢) قال الدكتور الأحمدي : قال ابن أبي يعلى في ترجمة محمد بن قدامة الجوهري ، نقل عن الإمام أشياء منها : القراءة على القبور ، واحتج بحديث بن عمر . طبقات الحنابلة ٢٩٩/١ ، وحديث ابن عمر أخرجه الخلال بسنده إلى بن عمر قال : سمعت النبي ﷺ يقول : " إذا مات أحدكم فلا تجلسوا وأسرعوا به إلى قبره ، ويقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة ، وعند رجليه بخاتمتها في قبره " ، الأمر بالمعروف ص ١٢٢ ، وعزاه الهيثمي للطبراني في الكبير وقال : فيه يحي بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف إ هـ . مجمع الزوائد ٤٤/٣ .

(٣) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة ١٧٠/٢ .

وقال ابن أبي يعلى في ترجمة : محمد بن أحمد المروروزي ذكره أبو بكر الخلال فقال : روى عن أبي عبد الله مسائل لم تقع إلى غيره ، ثقة من أهل الروذ ، سمعت عنه من بطل ثقة من أهل أصبهان وذكره بجميل ، حدثني الحسن بن مهران بن الوليد الأصبهاني قال : سمعت محمد بن أحمد المروروزي يقول : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرأوا آية الكرسي ثلاث مرات ، وقل هو الله أحد ، ثم قولوا : اللهم فضله لأهل المقابر " (١) .

ولكن هناك نصوص أخرى تبين موقف الإمام أحمد الرافض من هذه المسألة .

قال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ :

سألت أبا عبد الله عن القراءة على القبر ؟ فقال : القراءة على القبر بدعة (٢) .

وقال أبو داود : سمعت أحمد سئل عن القراءة عند القبر ؟ فقال لا (٣) .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل :

سمعت أبي سئل عن رجل يقرأ عند القبر على الميت قال : أرجو ألا يكون به بأس .

وسألت أبي عن الرجل يحمل معه المصحف إلى القبر يقرأ عليه ؟ قال : هذه بدعة ، قلت لأبي : وإن كان يحفظ القرآن يقرأ ؟ قال : لا ، يجيء ويسلم ، ويدعو وينصرف " (٤) .

التعليق :

قال الدكتور عبد الإله الأحمدي : " الكلام في هذه المسألة على شقين : القراءة عند القبر وقت الدفن فقط ، والقراءة بصفة عامة .

وقبل الكلام عن كلا الشقين أقول : إنه لم يؤثر عن النبي ﷺ هذا الأمر لا بفعله هو عليه الصلاة والسلام ولا بإقراره لغيره ، بل إن مجموع الأحاديث التي جاءت عن النبي ﷺ فيما يتعلق بالقبور وزيارتها يؤخذ منها أن الفعل محدث ، فالنبي ﷺ كان يزور القبور ، وكان يحضر الدفن غالبا ، ولو كان هذا أمرا حسنا لما سكت عنه ﷺ ولبينه للناس ، بل

---

(١) قال محقق الكتاب : ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ص ٢٢٠ من مر بالمقابر فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إحدى عشرة مرة ، ثم وهب للأموات أعطى من الأجر بعدد الأموات ، المسائل والرسائل ١٧٢/٢ .

(٢) مسائل ابن هانئ ١٩٠/١ .

(٣) مسائل أبي داود ص ٥٨١ .

(٤) مسائل عبد الله ص ١٤٥ .

المـأثور عنه عليه الصلاة والسلام أنه إذا زار المقابر قال : ((السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتـاكم ما توعـدون غـدا مؤجلون ، و إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد)) [(١)] .

وعن بريدة قال : كان رسول الله يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول : ((السـلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين و إنا إن شاء الله للاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية)) [(٢)] هذا هو الهدي النبوي " .

ثم أضـاف قـائلا : " أعود إلى الخلاف في المسألة وأقول : إن شارح الطحاوية قد لخصه إذ يقول : " اختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال : هل تكره ، أم لا بـأس بها وقت الدفن ، وتكره بعد ؟ فمن قال بكراهتها كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية قالوا : لأنه محدث لم ترد به السنة ، والقراءة تشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهي عـنها فكذلك القراءة . ومن قال : لا بأس بها كمحمد الحسن وأحمد في رواية استدلوا بما نقـل عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة الـبقرة وخواتمتها ، ونقل أيضا من بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة . ومن قال : لا بأس بها وقت الدفن فقط ، وهو رواية عن أحمد ، أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين ، وأمـا بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة و لم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا .. " [(٣)] .

وقال ابن تيمية فيها ثلاث روايات عن أحمد ..

والثانية : أن ذلك مكروه ، وهذه الرواية هي التي رواها أكثر أصحابه عنه ، وعليها قدمـاء أصـحابه الذيـن صحبوه كعبد الوهاب الوراق وأبي بكر المروذي ونحوهما ، وهي مذهـب جمهـور السـلف كأبي حنيفة ومالك وهشيم بن بشير وغيرهم ، ولا يحفظ عن الشافعي نفسه في هذه المسألة كلام لأن ذلك عنده بدعة .

وقال مالك : ما علمت أحدا يفعل ذلك [(٤)] .

---

(١) أخرجه مسلم ، في الجنائز ، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ٦٦٩/٢(ح٩٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم ، في الجنائز أيضا ، والباب نفسه ٦٧١/٢(ح٩٧٥) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٨ .

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ، ٢٦٣/٢- ٢٦٤ .

قال أبو يعلى الفراء : قال أبو بكر – يعني الخلال – نقل أبو بكر المروذي وأبو داود ومهنا وحنبل وأبو طالب وابن بدينا وإسحاق بن إبراهيم وغيرهم : أن القراءة لا يجوز عند القبر ، وبعضهم يروي أنها بدعة ، وعلى هذا كان مذهبه ، ورجع أبو عبد الله رجوعا أبان عن نفسه فقال : يقرأ ، وقال أبو حفص بن مسلم العكبري : وقد روى عن أبي عبد الله بضع عشرة نفسا كلهم يقول : بدعة ومحدث فأكرهه وبهذه الرواية أقول " [١] .

قال الدكتور الأحمدي مرجحا : " وهذا القول الأخير هو الذي يتلاءم مع ما عرف عن الإمام أحمد من كراهة كل محدث .

وأما ما جاء في رواية المروروذي عن أحمد : إذا دخلتم المقابر ... فعلى تقدير ثبوت هذه الرواية عن الإمام أحمد فإن هذا لم يرد عن النبي ﷺ وقد تقدم ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام عند زيارة المقابر " [٢] .

قلت : وأما إهداء الثواب للمقبورين فلا أصل له أيضا ، ولم يحفظ عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه – رضوان الله عليهم – أنهم يفعلون ذلك ، إلا ما كان من أدعية الأحياء وصدقاتهم فإنها تنفع الموتى ، وتصل إليهم بإجماع المسلمين .

قال شارح الطحاوية : " وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة ، وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففي سنن أبي داود ، [٣] من حديث عثمان بن عفان ﷺ ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال : ((استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل)) ، وكذا الدعاء لهم عند قبورهم .. " [٤] .

وأما وصول الصدقة ففي " الصحيحين " عن عائشة رضي الله عنهما : أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن أمي افتلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : ((نعم)) [٥] . وفي " صحيح البخاري عن

---

(١) طبقات الحنابلة ٢١٢/١ .

(٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١٧٤/٢ – ١٧٥ .

(٣) أخرجه أبو داود ٥٥٠/٣ (٣٢٢١) وسنده حسن ، وصححه الحاكم ٣٧٠/١ ووافقه الذهبي .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الوصايا ، باب ما يستحب لمن يتوفى فجأة أن يتصدقوا عنه ١٠١٥/٣ (ح٢٦٠٩) ، ومسلم في الزكاة ، باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه٦٩٦/٢ (ح ١٠٠٤) .

عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها ، فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال : ((نعم)) ، قال : فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها [١] . وأمثال ذلك كثيرة في السنة " [٢] .

وثبت عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) [٣] .

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ، باب إذا قال : أرضي أو بستاني صدقة عن أمي فهو جائز وإن لم يبين ذلك ٣/١٠١٢(ح٢٦٠٥) .

(٢) شرح الطحاوية ص ٤٥٣ .

(٣) أخرجه مسلم ، في الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/١٢٥٥ (ح ١٦٣١) والإمام أحمد في المسند ٢/٣٧٢ .

المبحث الخامس

موقفه بعض تلامذته من الفكر الصوفي

١- أبو زرعة الرازي (ت ٢٦٤هـ) .

هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، قد سمع من الإمام أحمد بن حنبل ، وجالسه وذاكره ، وكان إماما ربانيا ، حافظا متقنا مكثرا [١] .

زهده ومنهجه

لقد أخبرنا أبو زرعة الرازي ووصف لنا زهد النبي ﷺ فقال : " ترك النبي ﷺ الدنيا وهو واجد لها ، وقد ذمها ، وعرضت عليه مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ثم الجنة ، فأبى ذلك ﷺ وقال ﷺ : ((والذي نفسي بيده ، لو شئت لسارت معي جبال الدنيا ذهبا وفضة)) [٢] " [٣] .

وهذا العالم الجليل أبو زرعة الرازي أحد الأئمة الذين وصفوا بالزهد والعبادة .

يقول الحافظ بن كثير عنه : " كان فقيها ، ورعا ، زاهدا ، عابدا ، متواضعا خاشعا ، أثنى عليه أهل زمانه بالحفظ والديانة ، وشهدوا له بالتقدم على أقرانه " [٤] .

ولعل بلوغه إلى هذه الدرجة من الزهد راجع إلى صحبته لكثير من كبار الزهاد في زمانه ، كبشر بن الحارث الحافي ، وأحمد بن حنبل ، وروايته كذلك عن أحمد بن أبي الحواري ، والربيع بن ثعلبة العابد ، وسريح بن يونس ، وسلمة بن عقار البغدادي الذي روى عن معروف الكرخي وفضيل بن عياض وغيرهما [٥] ، وكان يحرص على تتبع أخبارهم وأحوالهم وحفظ أقوالهم .

لقد كان منهجه في الزهد معتدلا ، تبين ذلك من خلال قوله الذي سمعه ابن أبي حاتم بأن أبا زرعة يقول : " لو كان لي صحة بدن على ما أريد كنت أتصدق بمالي كله ، وأخرج إلى طرسوس أو إلى ثغر من الثغور ، وآكل من المباحات وألزمها ، ثم قال : إني لألبس الثياب لكي إذا نظر إلي الناس لا يقولون قد ترك أبو زرعة الدنيا ولبس الثياب

---

(١) انظر : طبقات الحنابلة ١٩٩/١ ، وسير أعلام ٦٧/١٣ .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد رقم (٧٦) وهو في طبقات ابن سعد٣٨٨/١ .

(٣) طبقات الحنابلة ٢٠٢/١- ٢٠٣ ، والمنهج الأحمد ١٥٠/١ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ٣٧/١١ .

(٥) الجرح والتعديل٣٢٨/١ .

الدون ، وإني لآكل ما يقدم إلي من الطيبات ، والحلواء لكي لا يقول الناس أن أبا زرعة لا يأكل الطيبات لزهده ، وإني لآكل الشيء الطيب ، وما مجراه عندي ومجرى غيره من الأدم إلا واحد ، و ألبس الثياب الجياد ، ودونه من الثياب عندي واحد ، لأن جميعا يعملان عملا واحدا ، ومن أحب أن يسلم من لبسه الثياب يلبسه لستر عورته فإنه إذا نوى هذا لم ينو غيره سلم " [١] .

ومنهجه هذا يدل على تأثره بسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل ، حيث قال سفيان حينما سئل عن الزهد : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء [٢] ، ولما سئل أحمد بن حنبل : عن الرجل يكون معه ألف دينار ، هل يكون زاهدا ؟ فقال : نعم على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت [٣] .

وقد كان – رحمه الله – يستمع لنصيحة الزهاد الصالحين .

موقفه من الحارث المحاسبي

جاء بعد الإمام أحمد بن حنبل الإمام أبو زرعة فقال أيضا : عن كتب الحارث المحاسبي حينما سأله سائل عنها ؟ إياك وهذه الكتب ! هذه كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب ، قيل له : في هذه الكتب عبرة ، قال : من لم يكن له في كتاب الله ﷻ عبرة فليس في هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن مالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء ؟ هؤلاء (يعني بعض الصوفية) قوم خالفوا أهل العلم يأتوننا مرة بالحارث المحاسبي ، ومرة بعبد الرحيم الدبيلي ، ومرة بحاتم الأصم ، ومرة بشقيق ، ثم قال : ما أسرع الناس إلى البدع ! [٤] .

وذكر ابن كثير أن أبا زرعة لما وقف على كتاب الحارث المحاسبي المسمى بالرعاية ، قال : هذا بدعة ، ثم قال للرجل الذي جاء بالكتاب : عليك بما كان عليه مالك والثوري والأوزاعي والليث ، ودع عنك هذا فإنه بدعة [٥] .

---

(١) انظر : تقدمة الجرح والتعديل ص ٣٤٨ .

(٢) مدارج السالكين ١٢/٢ .

(٣) نفسه ١٣/٢ .

(٤) تلبيس إبليس ص ٢٠٦ .

(٥) انظر : البداية والنهاية ٣٣٠/١٠ .

ومن هذا يتبين لنا أن أبا زرعة الرازي قد وقف على كتاب " الرعاية " للمحاسبي ، واطلع على ما فيه ، ومن ثم ذم فكرة ومنهج المحاسبي ، ولا شك أن تحذير الإمام أبي زرعة وتنفيره من كتب المحاسبي كان على علم به ، لذا حذر السائل حينما سأله عن الحارث المحاسبي وكتبه ، وصدق في جوابه لأن علم الأثر هو الصحيح ، وهو الذي يرضي الله ﷻ ، وبه أوصى الرسول الكريم ﷺ ، وكذا الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وبوصيتهم التزم الأئمة الزهاد ، الذين سلكوا طريق الاستقامة ، وأقوالهم مبثوثة معلومة في كتب التاريخ والسير ...

إذن كان السبب وراء التنفير والتحذير من الحارث المحاسبي هو قوله ونشره علم الكلام ، وحديثه عن الوساوس والخطرات التي لم يتحدث عنها من سبقوه من أئمة السلف ، أو كان تحذيرهم ممن يعلمون أنهم لا يستطيعون الثبات على مثل سلوكه وصحبته لشدة طريقته .. غير أن الحارث المحاسبي – رحمه الله – كان بعيدا عن شطحات الأقوال والأحوال ، كالتي حصلت للصوفية المتأخرين .

ولقد ضرب لنا أبو زرعة مثلا عظيما في المحبة للسنة النبوية ، والحرص على تبليغها أمام أقرانه وتلامذته حينما توقفوا في روايتهم لحديث التلقين ، كما يرويه أبو جعفر محمد بن علي ، وراّق أبي زرعة فيقول : " حضرنا أبا زرعة بماشهران ، وهو في السَّوق ، وعنده أبو حاتم ، وابن وارة ، والمنذر بن شاذان ، وغيرهم ، فذكروا حديث التلقين : « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله » ، واستحيوا من أبي زرعة أن يلقنوه ، فقالوا : تعالوا نذكر الحديث . فقال ابن وارة : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، عن صالح ، وجعل يقول : ابن أبي ، ولم يجاوزه . وقال أبو حاتم : حدثنا بندار ، حدثنا أبو عاصم ، عن عبد الحميد بن جعفر (عن صالح) ، ولم يجاوز ، والباقون سكتوا ، فقال أبو زرعة وهو في السوق : حدثنا بندر ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا عبد الحميد ، عن صالح بن أبي عريب ، عن كثير بن مُرَّة ، عن معاذ بن جبل ، قال : قال سول الله ﷺ : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وتوفي رحمه الله [١] .

---

[١] انظر : تاريخ بغداد ٣٢٥/١٠ ، وتقدمة الجرح ٣٤٥ ، وسير أعلام ٧٦/١٣ .

٢ - أحمد بن محمد بن هاني الأثرم (ت ٢٦١هـ) .

قـــد نقل عن الإمام أحمد مسائل كثيرة ، وتكلم عن الحارث المحاسبي فقال : " كنت عـــند خـــلف البزار يوم الجمعة ، فلما قمنا من المجلس صرت إلى قرن الصراة ، فأردت أن أغتســـل للجمعة ، فغرقت ، فلم أجد شيئا أتقرب به إلى الله جل ثناؤه أكثر عندي من أن قلت : اللهم إن تحييني لأتوبن من صحبة حارث – يعني المحاسبي " [١] .

وقـــال : " كـــان حارث المحاسبي في عرس لقوم ، فجاء يطلع على النساء من فوق الدرابـــزين ، ثم ذهب يخرجه – يعني رأسه – فلم يستطع ، فقيل له : لم فعلت هذا ؟ قال : أردت أن أعتبر بالحور العين " [٢] .

دفاعه عن السنة ومحاربته للبدع

قـــال في أثناء كتابه إلى الثغر : " أعاذنا الله وإياكم من كل موبقة ، وأنقذنا وإياكم مـــن كـــل مهلكة ، وسلمنا وإياكم من كل شبهة ، ومسكنا وإياكم بصالح ما مضى عليه أسلافنا وأئمتنا " [٣] .

وذكـــر نمـــاذج مـــن البدع التي رآها في حياة الإمام أحمد قال : رأيت قوما كانوا يلازمون البيت على أسباب من النسك وقلة من العلم ، فأكرمهم الناس ببعض ما ظهر لهم مـــن حـــبهم للخير ، فدخلهم العجب من قلة العلم ، فكان لا يزال أحدهم يتكلم بالأمر العجيـــب ، فيدفـــع الله ذلك بقول الشيخ ، جزاه الله أفضل ما جزى من تعلمنا منه ، ولا يكـــون من أحد منهم من ذلك شيء إلا كان سبب فضيحته .. فأنا حافظ من ذلك لأشياء كـــثيرة ، وإنما هذا من مكايد إبليس مع جنوده ، يقول لأحدهم : أنت أنت ومن مثلك ؟ فقل : قد قال غيرك ، ثم يلقي في قلبه الشيء ، وليس هناك سعة في علم ، فيزين عنده : أن يبتدئه ليشمت به ، وإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار " [٤] .

وأضـــاف قـــائلا : " وقد ظننت أن آخرين يلتمسون الشهرة ، ويحبون أن يذكروا ، وقد ذكر قبلهم قوم بألوان من البدع فافتضحوا ، ولأن يكون الرجل تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الشر .

---

(١) طبقات الحنابلة ٦٨/١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) طبقات الحنابلة ٦٩/١ .

واستشهد بالأحاديث والآثار المأثورة لتدعيم موقفه من البدع فقال : " وقد قال ابن مسعود : " اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، كل بدعة ضلالة " .

وقال : " أيها الناس إنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالأمر الأول " . " لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم " .

وقال ابن عمر : " كل بدعة ضلالة ، وإن رآها الناس حسنة " [١] .

وقال عمر بن عبد العزيز : " إياك وما أحدث المحدثون ، فإنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل عليها وعبرة منها ، فعليك بلزوم السنة ، فإنها لك بإذن الله عصمة .. " [٢] .

٣ – غلام خليل (ت ٢٧٥هـ) .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء :

" غلام خليل ، العالم ، الزاهد ، الواعظ ، شيخ بغداد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن غالب بن خالد بن مرداس ، الباهلي البصري .

سكن بغداد ، وكان له جلالة عجيبة ، وصولة مهيبة ، وأمر بالمعروف ، وأتباع كثير ، وصحة معتقد ؛ إلا أنه يروي الكذب الفاحش ، ويروي وضع الحديث ، نسأل الله العافية " ، ولكن ابن أبي حاتم قال : " سئل أبي عنه فقال : رجل صالح ، لم يكن عندي ممن يفتعل الحديث " [٣] .

يرى بروكلمان : أن غلام خليل هذا كان من الحنابلة الذين نهضوا بالمذهب الحنبلي ، وكان فقيها واعظا ببغداد وتصوف تصوفا حسنا ، فحارب أهل البدع والمعاصي ، وحمل على الخوارج والزنادقة [٤] .

ويوافق على ذلك الدكتور حسين القوتلي حيث يرى أن هذا العلم كان حنبليا محدثا فقيها ، مشهورا بالورع والتقوى ، وكان ينكر على الصوفية كلامهم في الحب الإلهي ، والاتصال بالله ﷻ ، وما إلى ذلك من المقالات التي انتشرت في القرن الثالث

---

[١] المصدر السابق ٦٩/١ .

[٢] المصدر نفسه ٧٠/١ .

[٣] سير أعلام النبلاء ٢٨٢/١٣- ٢٨٣ .

[٤] انظر : فهرس المخطوطات ، دار الكتب الظاهرية ، قسم الحديث ص ١٦٩ .

الهجـــري [١] . وإن كنا لم نعثر على خبر لقائـــه وسماعـــه من الإمام أحمد بن حنبل ، و لم نجد له ترجمة في طبقات الحنابلة .

وذكـــر ابـــن النديم : بأن غلام خليل لـــه من الكتب ، ككتاب الدعاء ، وكتاب الانقطاع إلى الله جل اسمه ، وكتاب الصلاة ، وكتاب المواعظ [٢] .

والمهـــم في هـــذا المقام هو الصراع الذي حدث بينه وبين الصوفية ، وهو من أشهر الحـــوادث في تـــلك المحنة المعروفة بمحنة غلام خليل ، وكان ذلك سنة ٢٦٢هـــ ، إذ جاء غـــلام خـــليل واتهم الصوفية بالزندقة ، وشغب عليهم العامة ، وسعى عند الخليفة ، فأمر بالقـــبض عـــلى عـــدد كبير من الصوفية ، بلغوا نيفا وسبعين ، وانتهت المحنة بقتل بعضهم وهروب البعض وتبرئة البعض الآخر [٣] .

قـــال أبو نعيم : " سمعت عمر البناء – البغدادي بمكة – يحكي : لما كانت محنة غلام خليل ونسب الصوفية إلى الزندقة أمر الخليفة (المعتمد) بالقبض عليهم ، فأخذ في جملة من أخـــذ أبـــو الحسين النوري في جماعة ، فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم ، فتقدم النوري مبتدرا إلى السياف ليضرب عنقه ، فقال له السياف : ما دعاك إلى الابتدار إلى القتل مـــن بـــين أصـــحابك ؟ فقال : آثرت حياتهم على حياتي هذه اللحظة ، فتوقف السياف والحاضـــرون عن قتله ، ورفع أمره إلى الخليفة ، فرد أمرهم إلى قاضي القضاة – وكان يلي القضـــاء يومـــئذ إسماعيل بن إسحاق – فقدم إليه النوري ، فسأله عن مسائل في العبادات والطهارة والصلاة ؟ فأجابه ، ثم قال له : وبعد هذا فلله عباد يسمعون بالله وينظرون بالله ، ويـــرددون بالله ، ويأكلون بالله ، ويلبسون بالله ، فلما سمع إسماعيل كلامه بكى بكاء طويلا ثم دخـــل عـــلى الخـــليفة ، فقـــال : إن كان هؤلاء زنادقة فليس في الأرض موحد ، فأمر بتخليـــتهم ، وســـأله السلطان يومئذ : من أين يأكلون ؟ فقال : لسنا نعرف الأسباب التي يســـتجلب بهـــا الأرزاق ، نحن قوم مدبرون ، وقال : من وصل إلى وده أنس بقربه ، ومن توصل بالوداد فقد اصطفاه من بين العباد " [٤] .

وبين الذهبي سبب هذا الصراع أيضا فيقول :

---

(١) العقل وفهم القرآن ص ٤٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٦٣ .

(٣) انظر : ظهر الإسلام ، لأحمد أمين ٣/٣١٣ .

(٤) حلية الأولياء ١٠/٢٦٨- ٢٦٩ .

" قال ابن الأعرابي : قدم من واسط غلام خليل ، فذكر لـــه هذه الشناعات – يعني خـــوض الصوفية – ودقائق الأحوال التي يذمها أهل الأثر ، وذُكر لـــه قولهم بالمحبة ، ويبلغه قول بعضهم : نحن نحب ربنا ويحبنا ، فأسقط عنا خوفه بغلبة حبه – فكان ينكر هذا الخطأ بخطـــأ أغلظ منه ، حتى جعل محبة الله بدعة ، وكان يقول : الخوف أولى بنا . قال : وليس كما توهم ، بل المحبة والخوف أصلان ، لا يخلو المؤمن منهما ، فلم يزل يقص بهم ، ويحذر منهم ، ويغري بهم السلطان والعامة .

ويقـــول : كان عندنا بالبصرة قوم يقولون بالحلول ، وقوم يقولون بالإباحة ، وقوم يقولون كذا ، فانتشر في الأفواه أن ببغداد قوما يقولون بالزندقة .

وكـــانت تميل إليه والدة الموفق ، وكذلك الدولة والعوام ، لزهده وتقشفه ، فأمرتِ المحتســـبَ أن يطيع غلام خليل ، فطلب القوم ، وبث الأعوان في طلبهم ، وكتبوا ، فكانوا نيفا وسبعين نفسا ، فاختفى عامتهم ، وبعضهم خلصتهم العامـــة ، وحبس منهم جماعـــة مدة " [١] .

قال الذهبي : قلت : وهرب النوري إلى الرقة ، وأقام بها مدة متخليا منعزلا ، ثم عاد إلى بغداد .

ولعل السبب الذي جعل غلام خليل يتهم أبا الحسين هو وصفه ﷻ بصفة لا يليق به كمـــا ذكـــر ذلك ابن الجوزي فيقول : " قال السراج : وبلغني أن أبا الحسين النوري شهد عليه غلام خليل أنه سمعه يقول : أنا أعشق الله ﷻ وهو يعشقني ، فقال النوري : سمعت الله يقـــول : ﴿ يُحِـــبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [٢] وليس العشق بأكثر من المحبة ، قال القاضي أبو يعلى : وقد ذهبت الحلولية إلى أن الله ﷻ يعشق .

ثم عقب ابن الجوزي فيقول : " وهذا جهل من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث الاسم فإن العشق عند أهل اللغة لا يكون إلا لما ينكح ، والثاني : أن صـــفات الله ﷻ مـــنقولة فهو يحب ولا يقال يعشق ، كما يقال يعلم ولا يقال يعرف ، والثالث : من أين له أن الله تعالى يحبه ؟ فهذه دعوى بلا دليل .. " [٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٨٤/١٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية (٥٤) .

(٣) تلبيس إبليس ص ٢١١ .

٤- أبو محمد البربهاري (ت ٣٢٨هـ) .

هو الحسن بن علي بن خلف ، أبو محمد البربهاري ، شيخ الطائفة في وقته ، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع ، والمباينة لهم باليد واللسان ... وكان أحد الأئمة العارفين .

صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد ، وصحب سهل التستري .

قال البربهاري : سمعت سهلا يقول : " إن الله خلق الدنيا ، وجعل فيها جهالا وعلماء ، وأفضل العلم ما عمل به ، والعلم كله حجة إلا ما عمل به ، والعمل به هباء إلا ما صح " (١) .

وقد صنف مصنفات منها : " شرح كتاب السنة " ذكر فيه تمسكه بعقيدة السلف الصالح ، وإنكاره على أهل البدع والانحرافات فقال :

" واحذر صغار المحدثات ، فإن صغار البدع تعود حتى تصير كبارا ، وكذلك كل بدعة أحدثت في هذه الأمة كان أولها صغيرا يُشبّه الحق ، فاغتر بذلك من دخل فيها ، ثم لم يستطع المخرج منها ، فعظمت وصارت دينا يدان به ، فخالف الصراط المستقيم ، فخرج من الإسلام ، فانظر - رحمك الله - كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصة ، فلا تعجلنّ ، ولا تدخلن في شيء منه حتى تسأل وتنظر هل تكلم فيه أحد من أصحاب رسول الله ﷺ ، أو أحد من العلماء ؟ فإن أصبت فيه أثرا عنهم فتمسك به ، ولا تجاوزه لشيء ، ولا تختر عليه شيئا فتسقط في النار " (٢) .

وأضاف قائلا : " واعلم أن الخروج عن الطريق وجهان :

أما أحدهما : فرجل قد زل عن الطريق ، وهو لا يريد إلا الخير ، فهو لا يقتدى بزلله ، فإنه هالك .

ورجل عاند الحق ، وخالف من كان قبله من المتقين ، فهو ضال مضل ، شيطان في هذه الأمة ، حقيق على من عرفه أن يحذر الناس منه ، ويبين لهم قصته ، لئلا يقع في بدعته أحد فيهلك " (٣) .

---

(١) طبقات الحنابلة ١٨/٢ .

(٢) نفسه ١٨/٢- ١٩ .

(٣) نفسه ١٩/٢ .

موقفه من الفكر الصوفي

قال أبو محمد البربهاري : " وكل علم ادعاه العباد من علم الباطن لم يوجد في الكتاب ولا في السنة فهو بدعة وضلالة ، لا ينبغي لأحد أن يعمل به ، ولا يدعو إليه " [١] .

في هذا النص ردّ على المتصوفة ، الذين يعتقدون بأن لهم علما خاصا وهو علم الباطن ، وهذا العلم – حسب زعمهم – لا يعلمه إلا الخاصة ، وأن من لم يكن له نصيب من هذا العلم يخاف عليه من سوء الخاتمة .

كما أن النص يرد أيضا على مصطلح الظاهر والباطن ، كما عند الباطنية والصوفية المنحرفة ، الذين يقولون : بأن هناك في الإسلام علمين : علم يخص أهل الظاهر ، وهي الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ بكل ما فيها من عقائد وعبادات وأخلاق ... وعلم يعبر عنه الصوفية بالعلم اللدني ، وقد اهتموا بهذا العلم لأنه هو علم الحقيقة ، بحيث لا يترل هذا العلم – حسب زعمهم – إلا على أولياء الله ؛ وهم من أصحابهم .

وبهذا المعتقد جانب المتصوفة المنحرفة المنهج الصحيح ، وابتعدوا عن الصراط السوي ، وتركوا العلم الذي جاء به الرسول ﷺ من عند الله ، وأصبحوا يبحثون عن الهداية والوصول إلى ولاية الله عن طريق علم الباطن المزعوم ، الذي ما أنزل الله في كتابه ، ولا دعا إليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم .

فقد عدَّ البربهاري علم الباطن الذي لا يستند إلى أدلة من الكتاب والسنة بدعة وضلالة ، فموقفه من هذا الأمر موقف سليم وموافق لما ذهب إليه أهل الحق من هذه الأمة ، الذين يجعلون الكتاب والسنة دليلهم في كل شأن من شؤونهم ، فالنصوص القرآنية والحديثية جعلتهم يسيرون على الطريق الصحيح . فمن هذه النصوص :

قوله ﷻ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [٢] .

---

[١] طبقات الحنابلة ٣٥/٢ .

[٢] سورة الأنعام ، الآية (١٥٣) .

وقولـــه ﷺ : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)) [١] ، وقوله ﷺ أيضا : ((.. ألا وإيـــاكم ومحدثـــات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعـــة ضلالـــة)) [٢] .

وبين البربهاري موقفه من الصوفية المنحرفة فقال :

" واعـــلم أنـــــه مـــا عبد الله بشيء مثل الخوف من الله ، وطريق الخوف والحذر والشـــفقات والحيـــاء من الله ، واحذر أن تجلس مع من يدعو إلى الشوق والمحبة ويخلو مع النساء وطريق المذهب ، فإن هؤلاء كلهم على ضلالـــة " [٣] .

وقـــال : " وإذا رأيت الرجل عابدا مجتهدا متقشفا ، محترفا بالعبادة صاحب هوى فلا تجـــلس معـــــه ، ولا تسمع كلامـــه ، ولا تمش معـــه ، فإني لا آمن أن تستحلي طريقه فتهلك معـــه " [٤] .

وقال أيضا : " ولا تقل : أترك المكاسب وآخذ ما أعطوني ، لم يقل هذا الصحابة ، ولا العلماء رضي الله عنهم إلى زماننا " .

هذا هو الموقف الصحيح من الزهد والتوكل والتعامل مع هذه الحياة لا بد من الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله ﷻ ، وهو موقف الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى .

---

(١) سبق تخريجه في ص ٢٩٠ .

(٢) سبق تخريجه في ص ٣٥٧ .

(٣) طبقات الحنابلة ٣٤/٢ .

(٤) نفســه ٣٨/٢ .

الخاتمة

أحمد الله حمدا كثيراً على ما منَّ به عليَّ من نعمة الإسلام ، كما أشكره جل وعلا على توفيقه أن أتممت هذه الرسالة ، وتوصلت من خلالها إلى أهم النتائج التالية :

١- إن مفهوم التصوف الذي صدر من بعض الأعلام في القرنين الثاني والثالث الهجريين أخذ جانبًا من جوانب حسن الخلق ، وتزكية النفوس ، والزهد والتقشف ، وحب العزلة والانقطاع للعبادة ، والبعد عن هذه الحياة الطاغية المطغية ، وإن كان في مفهومهم بعض المآخذ والانحرافات .

٢- إن رجال الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين كان منهم من يوافق ما يقولونه وما يمارسونه من أعمال القلوب مع ما في الكتاب والسنة ، حتى وإن كانوا على انحراف ومبالغة في بعض الأمور ، وخاصة ما يكون منهم من خطأ واضح ، وتشدد زائد ، وانحراف خطير يمس العقيدة الصحيحة ، كما حدث للحارث المحاسبي ، ولأبي يزيد البسطامي ، وابن منصور الحلاج .

٣- إن الهدف من التصوف في القرن الثالث الهجري هو الاتصال بالله ، كما أن الحب الإلهي أصبح معلما مبرزا وهدفا اتجه إليه أهل التصوف .

٤- إن زهد الإمام أبي حنيفة كان زهداً إيجابياً ، حيث كان – رحمه الله – لا يقعد عن الكسب والعمل ، أو يهجر المال والعيال ، فهو بجانب كونه زاهداً كان كريمًا واسع الكرم .

٥- إن كثيراً من الروايات والأعمال المنسوبة في التصوف إلى الإمام أبي حنيفة لا تصح، لأنها حكاية صوفية مختلقة ، يريدون منها تهويل الفكر الصوفي ، ولفت أنظار الناس أن أباحنيفة كان واحداً من أقطاب الصوفية وهو منهم بريء ، بل المعروف أن للإمام موقفاً في الدفاع عن العقيدة الصحيحة ، حتى جعل الاستماع إلى الغناء الصوفي من الذنوب والمعاصي .

٦- لقد أنكر الإمام مالك الاجتماع للذكر على صوت واحد ، لأنه إحدى المحدثات التي لم تكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن الصحابة الكرام ... كما أنكر – رحمه الله – وأتباعه سماع الغناء ، الذي يكون مصحوباً بالرقص والتواجد والقصائد الشركية ونحوها ، وتبين بذلك بطلان ما نسب إليه من إباحته للغناء .

٧- إن الروايات والأعمال المنسوبة في التصوف إلى الإمام مالك ليست بصحيحة ، كما أن التوسل المنسوب إليه باطل ؛ لأنه توسل غير مشروع ، ومناقض لعقيدة السلف الصالح .

٨- إن موقف الإمام الشافعي من مجاهدة النفس موقف محمود ، لا يعني ذلك أنه يهجر نعم الله تعالى ، فلا يتمتع بها ولا يسعد بالتلذذ بحلاوتها ، إذ لا رهبانية في الإسلام .

٩- لقد أنكر الإمام الشافعي التغبير لأنه سماع منهي عنه ، أحدثته الزنادقة ليصدوا به الناس عن السماع المشروع ، كما حرص – رحمه الله – وأتباعه على حماية التوحيد من كل شائبة .

١٠- إن ما نسب إلى الإمام الشافعي من الأعمال الصوفية كذب وافتراء ، فهو لم يأمر باقتداء طريق أهل التصوف ، وإنما أثر عنه أقوال كثيرة تبين تمسكه بالآثار ، وأمر بالإعراض عن قوله إذا خالف الأحاديث الصحيحة .

١١- إن الإمام أحمد كان على منهج السلف الصالح في شأن الزهد ، فقد كان موقفه من الدنيا أن لايتركها كلية ، فيمنع من الزهد الموصل إلى تحريم ما أحل الله والامتناع عما أباحه الله لعباده ، وبذلك يخالف ما ذهب إليه بعض الصوفية المتقدمين في مفهوم الزهد حينما اتجهوا اتجاها يكون الفقر مطلباً أساسياً فيه .

١٢- إن الإمام أحمد على منهج السلف في إدراك معنى التوكل ، حيث فهم بمفهومه الصحيح الإيجابي ، وهو الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله عزوجل ، وبذلك يخالف ما عليه الصوفية حينما فهموا بأن التوكل هو خلع الأسباب وقطعها ، وترك العمل والتكسب وعدم حمل الزاد .. إلخ .

١٣- لقد كره الإمام أحمد التغبير أو الاجتماع لسماع القصائد والمدائح كما يفعله المتصوفة ، وكره أن يجالس من مارس ذلك ، كما أنكر أشد الإنكار على ما حدث للصوفية من مخالفات لعقيدة السلف الصالح .

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة فاطر

سورة الصآفات

سورة الزمر

فهرس الأحاديث والآثار

١ - فهرس الأحاديث

الصفحة

٣ ـ فهرس الآثار

الصفحة

فهرس المصطلحات والكلمات الغريبة

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع

- أبحاث في التصوف دراسات عن الإمام الغزالي . د/ عبد الحليم محمود ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٣٩٤هـ .
- ابن تيمية والتصوف . د/ مصطفى حلمي ، الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، دار الدعوة، ١٩٨٢م .
- أبوحامد الغزالي والتصوف ، عبد الرحمن دمشقية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار طيبة، ١٤١٦هـ .
- أبوحنيفة . محمد أبوزهرة ، الطبعة الثانية ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٤هـ .
- أبوحنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء . وهبي سليمان غاوجي ، الطبعة الخامسة ، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٣هـ .
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان . للأمير علاء الدين بن بلبان ، تحقيق / كمال يوسف الحوت ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ .
- أحمد بن حنبل إمام أهل السنة . لعبد الغني الدقر ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، دار القلم ، ١٤١٣هـ .
- أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا . أحمد عبد الجواد الدومي ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٧٢م .
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . بيروت ، دارالمعرفة ، بهامشه المغني للعراقي .
- أخبار أبي حنيفة وأصحابه . لأبي عبد الله حسين بن علي الصيمري ، الهند ، حيدرآباد، مطبعة المعارف الشرقية ، ١٣٩٤هـ .
- أخبار الحلاج . باريس ، مطبعة العلم ، ١٩٣٦م .
- آداب الشافعي ومناقبه . لأبي حاتم الرازي ، سوريا ، مكتبة التراث الإسلامي .
- الآداب الشرعية . لابن مفلح المقدسي ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩هـ .
- آداب النفوس . للحارث المحاسبي . تحقيق / عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ١٤٠٨هـ .

❖ أديان الهند الكبرى . د/ أحمد شلبي ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٨١م .

❖ الاستقامة . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د / محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١١هـ .

❖ الإسلام والتصوف . مصطفى عبدالرزاق وماسينيون ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٣٩٩ هـ .

❖ اصطلاحات الصوفية . كمال الدين عبد الرزاق القاشاني ، تحقيق / محمد كمال إبراهيم جعفر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١م.

❖ أصول الدين عند الأئمة الأربعة واحدة . د/ ناصر بن عبد الله القفاري ، الطبعة الأولى، الرياض ، دار الوطن ١٤١٤هـ .

❖ أصول الدين . لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠١هـ .

❖ أضواء على التصوف . د / طلعت أحمد غنام ، القاهرة ، عالم الكتب ، بدون ذكر الطبع والتاريخ .

❖ الاعتصام . لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي ، تحقيق / عبد الرزاق المهدي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٧هـ .

❖ الأعلام . خير الدين الزركلي ، الطبعة التاسعة ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٠م .

❖ أعلام النساء . لعمر رضا كحالة ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٧٩هـ .

❖ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان . ابن القيم الجوزية ، تحقيق / الدكتور السيد الجميلي ، القاهرة ، دار الحديث ، بدون ذكر الطبع والتاريخ .

❖ اقتضاء الصراط المستقيم . شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د/ ناصر العقل ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .

❖ الإمام الأعظم أبو حنيفة المتكلم . عناية الله إبلاغ ، مصر ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٧١م .

❖ الأم . للإمام الشافعي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٣٩٣هـ .

❖ الإمام الجنيد والتصوف في القرن الثالث الهجري . زهير ظاظا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الخير ،١٤١٤هـ .

❖ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر . لعبد الغني الدقر ، الطبعة الثانية ، دمشق ، دارالقيم، ١٣٩٦هـ .

❖ الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول . عبد الحليم الجندي ، القاهرة ، دارالمعارف، ١٩٧٧م .

❖ الأنساب . لعبد الكريم السمعاني ، الطبعة الأولى ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية .

❖ الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل . عبد الكريم الجيلي ، مصر ، مطبعة الحلبي.

❖ الأئمة الأربعة ، لأحمد الشرباصي ، بيروت ، دار الجيل .

❖ إيقاظ الهمم في شرح الحكم . لابن عجيبة ، بيروت ، دار المعرفة ، وبهامشه الفتوحات الإلهية له .

❖ البحر المحيط . لمحمد بن يوسف المعروف بأبي حيان ، الرياض ، مكتبة النصر الحديثة.

❖ البداية والنهاية . أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، الطبعة الثانية ، بيروت ، مكتبة المعارف، ١٩٧٧م .

❖ براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة . د/ عبد العزيز أحمد بن محسن الحميدي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار ابن عفان ، ١٤٢٠هـ .

❖ بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز . لمجد الدين الفيروزأبادي ، تحقيق / محمد علي النجار ، القاهرة ،لجنة إحياء التراث الإسلامي ، ١٣٨٣هـ .

❖ البصائر للمتوسلين بالمقابر . للشيخ محمد طاهر ، طبعة الدوحة بقطر ، ١٤٠٣هـ .

❖ بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية. لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تصحيح وتكميل وتعليق / محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مطبعة الحكومة ١٣٩١هـ .

❖ تاريخ بغداد . أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

❖ التصوف في الإسلام : منابعه وأطواره . محمد الصادق عرجون ، مكتبة الكليات الأزهرية .

❖ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي . للدكتور حسن إبراهيم حسن، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤م .

❖ تاريخ التصوف في الإسلام . د/ قاسم غني ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .

❖ تاريخ التصوف الإسلامي منذ البداية حتى نهاية القرن الثاني الهجري . د/ عبد الرحمن بدوي ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٩٣م .

❖ تاريخ الطبري . لأبي جعفر الطبري ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف .

❖ تاريخ علماء الأندلس . لابن الفرضى ، الدار المصرية ، للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م.

❖ تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون عمر فروخ، بيروت، دار القلم ، ١٣٩٢هـ .

❖ تاريخ الفلسفة الإسلامية . د/ ماجد فخري ، بيروت ، الدارالمتحدة ، ١٩٨٤م .

❖ التاريخ الكبير . للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، بيروت ، دار الكتب العلمية.

❖ تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . للإمام السيوطي ، تعليق/ محمد عاشق إلهي ، بيروت ، دار الأرقم .

❖ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . لأبي الريحان البيروني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ .

❖ التجانية . لعلي بن محمد الدخيل الله ، الرياض ، دار طيبة .

❖ التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار . لابن رجب الحنبلي ، تحقيق / بشير محمد عون ، الطبعة الثالثة ، دمشق ، مكتبة دار البيان ، ١٤١٣هـ .

❖ تذكرة الحفاظ . للإمام شمس الدين الذهبي ، دار إحياء التراث العربي .

❖ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . للقاضي عياض ، تحقيق د/ أحمد بكير محمود ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

❖ تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف . ترتيب وتعليق الشيخ / محمد كنعان، بيروت ، دار القلم .

❖ التصوف الإسلامي : تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره . أحمد توفيق عياد ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠م .

❖ التصوف الإسلامي ومدارسه . د/ محمد جلال شرف ، الإسكندرية ، دار المطبوعات الجامعية .

❖ التصوف الإسلامي في الآداب والآخلاق . الدكتور / زكي مبارك ، بيروت ، دار الجيل .

❖ التصوف بين الحق والخلق . لمحمد فهر شفقة ، الطبعة الثالثة ، تونس ، الدارالسلفية ، ١٩٨٣م .

❖ التصوف الثورة الروحية في الإسلام . د/ أبو العلا عفيفي ، بيروت ، دار الشعب .

❖ التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث . د/ مصطفى حلمي ، الإسكندرية ، دار الدعوة .

❖ التصوف والمتصوفة في مواجهة الإسلام . لعبد الكريم الخطيب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٠م .

❖ التصوف : المنشأ والمصادر . إحسان إلهي ظهير ، الطبعة الأولى ، لاهور ، إدارة ترجمان السنة ١٤٠٦هـ .

❖ التصوف منشؤه ومصطلحاته . الدكتور / أسعد السحمراني ، الطبعة الأولى ، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر ، ١٤٠٧هـ .

❖ التعرف لمذهب أهل التصوف . لأبي بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي ن طبع مكتبة الكلية الأزهرية ، بدون تاريخ .

❖ تفسير الإمام الشافعي . للإمام الشافعي ، جمعه وحققه / مجدي بن منصور بن سيد الشوري ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ .

❖ تفسير القرآن العظيم . لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ .

❖ تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ، عرض وتحليل على ضوء الكتاب والسنة . لمحمد أحمد لوح ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الهجرة ، ١٤١٦هـ .

❖ تقريب التهذيب . لابن حجر العسقلاني ، تحقيق الشيخ / خليل مأمون شيحا ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٤١٧هـ .

❖ تلبيس إبليس . لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق الدكتور / السيد الجميلي، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٥هـ .

❖ تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب . لمحمد أمين كردي ، الطبعة الأولى ، سوريا ، دار القلم العربي ، ١٤١١هـ .

❖ تهذيب الأسرار . لعبد الله بن محمد النيسابوري المركوشي ، تحقيق / بسام محمد بارود، أبو ظبي ، المجمع الثقافي ، ١٩٩٩م .
❖ تهذيب الأسماء واللغات . للإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووي ، القاهرة ، إدار الطباعة المنيرية .
❖ توالي التأسيس . لابن حجر العسقلاني . طبعة القاهرة ١٣٠١هـ ، طبع مع كتاب الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية .
❖ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . للشيخ سليمان بن عبد الله ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
❖ التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول . مجاهد مصطفى بهجت ، الطبعة الأولى، العراق ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٢م .
❖ جامع البيان عن تأويل القرآن . لابن جرير الطبري ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
❖ جامع بيان العلم وفضله . لأبي عمر يوسف بن عبد البر ، بيروت ، دار الكتب العلمية.
❖ الجامع الصغير . للأمام جلال الدين السيوطي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
❖ جامع العلوم والحكم . لابن رجب الحنبلي ، بيروت ، دار المعرفة .
❖ الجامع لأحكام القرآن . للإمام أبي عبد الله القرطبي ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دارالكاتب العربي .
❖ الجرح والتعديل . للإمام الرازي ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
❖ جماعة التبليغ في شبه القارة الهندية . د/ أبو أسامة سيد طالب الرحمن ، الطبعة الأولى ، إسلام أباد ، دار البيان للنشر والتوزيع ، ١٤١٩هـ .
❖ جمهرة الأولياء وأعلام التصوف . لمحمد أبو الفيض المنوفي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٦٧م .
❖ الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية . د/ عبد الفتاح عبد الله بركة ، القاهرة ، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية .

❖ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . لأبي نعيم أحمد الأصفهاني ، دراسة وتحقيق / مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ.

❖ حياة الإمام أبي حنيفة ، للسيد عفيف ، القاهرة ، المطبعة السلفية .

❖ الحياة الروحية في الإسلام . د/ محمد مصطفى حلمي ، الهيئ المصرية للنشر، ١٩٧٠م.

❖ الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان . لابن حجر الهيثمي ، تعليق عاشق إلهي، بيروت ، دار العلم .

❖ دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين " الخوارج والشيعة " د/ أحمد جلي ، الطبعة الثانية ، الرياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٠٨هـ .

❖ دراسات في الأهواء الفرق والبدع وموقف الإسلام منها . د/ ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار أشبيليا ، ١٤١٨هـ .

❖ دراسات في التصوف الإسلامي ظلاله في الأدب العربي . محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية .

❖ دراسات في الفلسفة الإسلامية . د/ محمود قاسم ، الطبعة الخامسة ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٣م .

❖ درء تعارض العقل والنقل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د. / محمد رشاد سالم ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،١٤٠٠هـ .

❖ الديباج المذهب . لابن فرحون المالكي ، تحقيق / محمد الأحمدي أبو النور ، القاهرة دار التراث للطبع والنشر .

❖ الديانات والعقائد في مختلف العصور . لأحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، ١٤٠١هـ .

❖ ديوان الإمام الشافعي . جمعه وعلق عليه / محمد عفيف الزغبي ، الطبعة الثالثة ، جدة دار العلم للطباعة ، ١٣٩٢هـ .

❖ ديوان الإمام الشافعي . جمعه وشرحه نعيم زوزور ، تقديم د./ مفيد قميحة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ .

❖ ذم الكلام . لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الهروي ، تحقيق / عبد الرحمن بن عبد العزيز الشبل ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة ، مكتة العلوم والحكم ١٤١٦هـ .

❖ ذم ما عليه مدعو التصوف . لابن قدامة المقدسي ، تحقيق / زهير الشاوش ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، المكتب الإسلامي .

❖ ذم الملاهي . لابن أبي الدنيا ، نشر دار الإعتصام .

❖ الرد على المنطقيين . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة الثانية ، لاهور ، مطبعة معارف، ١٣٩٦هـ .

❖ الرسالة . للإمام الشافعي ، تحقيق / أحمد محمد شاكر ، بيروت ، المكتبة العلمية .

❖ الرعاية لحقوق الله . للحارث المحاسبي ، تحقيق / عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الرابعة، القاهرة ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٠هـ .

❖ الرسالة القيشرية . لأبي القاسم عبد الكريم القيشري ، تحقيق / معروف زريف ، وعلي عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الخير، ١٤١٦هـ .

❖ الرسالة اللدنية ، ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي . الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .

❖ رسالة المسترشدين . للحارث المحاسبي ، تحقيق / عبدالفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب ، مكتب المطبوعات الإسلامية .

❖ الرسائل الشمولية . د./ عبد العزيز بن عبدالله الحميدي ، دار الدعوة بالإسكندرية ، ودار العيون بمكة المكرمة .

❖ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني . محمود شكري الألوسي ، بيروت، دار إحياء التراث العربي .

❖ روضة التعريف بالحب الشريف . للسان الدين الخطيب ، تحقيق وتعليق / عبد القادر أحمد عطا ، طبع دار الفكر العربي .

❖ روضة الطالبين وعمدة السالكين . ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، الطبعة الأولى، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ .

❖ رؤية الله تعالى وتحقيق الكلام فيها . د./ أحمد بن ناصر الحمد ، الطبعة الأولى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ،١٤١١هـ .

❖ روضة الطالبين . لأبي زكريا يحيي بن شرف النووي ، بيروت ، الكتب الإسلامي .

❖ رياض الصالحين . للإمام النووي ، تحقيق / عبد العزيز رياح وأحمد يوسف الدقاق ، الطبعة الثالثة عشر ، دمشق ، دار المأمون للتراث ، ١٤١٢هـ .

❖ الزهد . للإمام أحمد بن حنبل ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤ هـ .
❖ الزهد . للإمام هناد بن السري ، تحقيق / محمد أبو الليث الخير آبادي ،قطر ، مطابع الدوحة الحديثة .
❖ الزهر النضر في نبأ الخضر . لابن حجر العسقلاني ، تعليق / سمير حسين حلبي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العليمة ، ١٤٠٨هـ .
❖ الزواجر عن اقتراف الكبائر . لمحمد بن علي بن حجر الهيثمي ، بيروت ، دار المعرفة ١٤٠٨هـ .
❖ السبق التربوي في فكر الإمام الشافعي . بدر محمد مالك وغيره ، الكويت ، مكتبة المنار الإسلامية ، ١٤٠٩هـ .
❖ سلسلة الأحاديث الصحيحة . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، والرياض، مكتبة المعارف .
❖ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي والرياض مكتبة المعارف ١٤٩٨هـ .
❖ سنن ابن ماجه . لمحمد يزيد القزويني ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٢هـ ، وكذلك تحقيق/ محمد مصطفى الأعظمي ، بالكمبيوتر .
❖ سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان السبتاني ، تحقيق عزت الدعاس ، بيروت ، دار الحديث للطباعة ، ١٣٨٨هـ .
❖ سنن الترمذي . لأبي عيسى محمد الترمذي ، تحقيق / عبد الرحمن عثمان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، ١٣٩٤هـ .
❖ سنن الدارمي . لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ، نشر دار إحياء السنة النبوية .
❖ سنن النسائي . لأحمد بن شعيب النسائي ، بهامشه حاشية السيوطي والسندي ، دار الكتب العلمية .
❖ السنن الكبرى . لأحمد بن الحسن البيهقي ، بيروت ، دار المعرفة .
❖ سير أعلام النبلاء . للإمام الذهبي ، الطبعة الحادية عشرة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٩هـ .
❖ سيرة عمر بن العزيز . لابن الجوزي ، طبعة بيروت ، دار الفكر .

❖ شخصيات قلقة في الإسلام . د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٨م .

❖ شذرات الذهب . لابن العماد ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٩هـ .

❖ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . للألكائي ، تحقيق د./ أحمد سعد حمدان ، الطبعة الثالثة ، الرياض ، دار طيبة ١٤١٥هـ .

❖ شرح عين العلم وزين الحلم.للملا علي القاري ، بيروت ، دار المعرفة .

❖ شرح العقيدة الطحاوية . لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق الشيخ الألباني ، دار الفكر العربي .

❖ شرح كتاب الفقه الأكبر . للملا علي القاري ، تحقيق / علي محمد دندل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ.

❖ شطحات الصوفية . د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية ، الكويت ، نشر وكالات المطبوعات ، ١٩٧٦م .

❖ شعب الإيمان . للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن بن علي البيهقي.

❖ شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث الهجريين . عطوي علي بخيب ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٩٨١م .

❖ الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٣٩٩هـ.

❖ شفاء السائل في تهذيب المسائل . لابن خلدون ، بحوث ودراسات بمعهد الآداب الشرقية في بيروت ، المطبعةالكاثوليكية .

❖ شيخ الأمة أحمد بن حنبل . عبد العزيز سيد الأهدل ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٢م .

❖ الصارم المنكي في الرد على السبكي . لمحمد بن أحمد عبد الهادي ، الطبعة الأولى، بيروت ، دار الكتب العلمية .

❖ الصحاح . إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٣٩٩م .

❖ صحيح البخاري . للإمام إسماعيل البخاري ، ضبط وتخريج د./ مصطفى ديب البغا، الطبعة الأولى ، دمشق ، وبيروت ، دار القلم ، ١٤٠١هـ.

❖ صحيح الجامع الصغير وزيادته . للشيخ الألباني ، الطبعة الثانية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠٦هـ .

❖ صحيح سنن ابن ماجه . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ١٤٠٧هـ .

❖ صحيح سنن الترمذي . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي، ١٤٠٨هـ .

❖ صحيح سنن النسائي . للشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٨هـ .

❖ صحيح مسلم . للإمام مسلم بن الحجاج القشيري ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٣هـ .

❖ صفة الصفوة . لأبي الفرج ابن الجوزي ، طبعة الهند ، ١٣٨٨هـ .

❖ الصوفية في نظر الإسلام . سميح عاطف الدين ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني .

❖ الصوفية في الإسلام . لينكولسون ، ترجمة نور الدين شريبة ، طبعة مكتبة الخانجي ، ١٩٥١م .

❖ الصوفية (معتقدا ومسلكا) . د./ صابر طعيمة ، الطبعة الأولى، الرياض ، دار عالم الكتب ، ١٤٠٥هـ .

❖ الصوفية : نشأتها وتطورها . محمد العبده وطارق عبد الحليم ، الطبعة الرابعة ، الرياض، مكتبة الكوثر ، ١٤٢٢هـ .

❖ الصوفية والعقل . د./ محمد عبد الله الشرقاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الجيل ١٤١٦هـ .

❖ الصوفية والفقراء . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم د./ محمد جميل غازي ، القاهرة ، مطبعة المدني .

❖ الصلة بين التصوف والتشيع . د./ كامل شيبي ، الطبعة الثانية ، مصر ، دار المعارف.

❖ صلة الله بالكون في التصوف الفلسفي . لسعيد سراج عقيل ، رسالة دكتوراه بجامعة أم القرى . ١٤١٤هـ .

❖ صيد الخاطر . لأبي الفرج ابن الجوزي ، تحقيق / محمد عبد الرحمن عوض ، الطبعة الأولى ، بيروت ،دار الكتاب العربي ، ١٤١٧هـ .

❖ ضعيف الجامع الصغير وزيادته . للشيخ الألباني ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٣٩٩هـ .

❖ طبقات ابن سعد . محمد بن سعد ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٠هـ.

❖ طبقات الأولياء . لابن الملقن ، تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ.

❖ طبقات الحنابلة . للقاضي أبي يعلى ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧١هـ .

❖ الطبقات السنية في تراجم الحنفية . لتقي الدين التميمي الغزي ، تحقيق د./ عبد الفتاح محمد الحلف ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الرفاعي ، ١٤٠٣هـ .

❖ طبقات الشافعية . تاج الدين أبو نصر السبكي . تحقيق / محمود محمد الطناحي ، وعبد الفتاح محمد حلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ،١٣٨٣هـ .

❖ طبقات الصوفية . لأبي عبد الرحمن السلمي ،تحقيق / نورالدين شريبة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٤٠٦هـ .

❖ طبقات الفقهاء . لأبي إسحاق الشيرازي ، تحقيق / إحسان عباس ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٩٧٠م .

❖ الطبقات الكبرى . عبد الوهاب الشعراني ، الطبعة الأولى ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي ، ١٣٧٣هـ.

❖ الطريق إلى ولاية الله . الأمين الحاج محمد أحمد ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار المطبوعات الحديث ، ١٤١٠هـ .

❖ طريق الهجرتين وباب السعادتين . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / أبي الزهراء حازم القاضي ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، مكتة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٥هـ .

❖ ظهر الإسلام . لأحمد أمين ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، دار الكتاب العربي .

❖ العالم الإسلامي في العصر العباسي . د./ حسن أحمد محمود ود./ أحمد إبراهيم الشريف ، الطبعة الخامسة ،دار الفكر .

❖ عبد الله بن المبارك الإمام القدوة . محمد عثمان جمال ، الطبعة الرابعة ، دمشق ، دار العلم ، ١٤١٠هـ .

❖ عبد الله بن المبارك المروزي . د./ عبد الحميد المحتسب ، طبعة عمان ، ١٣٩٢هـ.

❖ عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة . لابن شاس ، تحقيق د./ محمد أبو الأجفان وغيره ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي .

❖ العقل وفهم القرآن . للحارث المحاسبي ، تحقيق / حسين القوتلي ، طبعة بيروت ، ١٩٧١م .

❖ عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان . محمد بن يوسف الصالحي ، الهند ، مطبعة المعارف الشرقية ، ١٣٩٤هـ .

❖ علم القلوب . لأبي طالب المكي ، تحقيق / عبد القادر عطا ، مكتبة القاهرة .

❖ عوارف العارف . أبو حفص شهاب الدين السهروردي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٦م .

❖ عيون الأخبار . لابن قتيبة ، القاهرة ، دار الكتب ، ١٣٤٣هـ .

❖ الغنية لطالبي طريق الحق . عبد القادر الجيلاني ، الطبعة الثالثة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

❖ غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية . محمد إبراهيم النفري ، تحقيق / عبد الحليم محمود ، ود./ محمود الشريف ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، ١٣٩٠هـ.

❖ الفتاوى الكبرى . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق وتعليق / محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ .

❖ فتح الباري شرح صحيح البخاري . لابن حجر العسقلاني ، تحقيق وتصحيح الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ.

❖ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد . عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، الطبعة السادسة ، طبعة دار الفكر ، ١٣٩٧هـ .

❖ في التصوف الإسلامي وتاريخه . لرينولدنيكولسون ، ترجمة أبي العلا عفيفي ، طبعة القاهرة ، ١٣٨٨هـ .

❖ في التصوف والأخلاق . د./ عبد الفتاح عبد الله بركة ، الطبعة الأولى ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٣هـ .

❖ الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأهلية . لابن عجيبة الحسني ، بيروت ، دار المعرفة

❖ الفتوحات المكية . لابن عربي ، تحقيق د./ عثمان يحيى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٢م .

❖ فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام . د./ غالب بن علي عواجي ، الطبعة الخامسة ، مصر ، دار لينة النشر ١٤٢١هـ .

❖ الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٣٩٧هـ .

❖ فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها . د/ أحمد سعد حمدان ، الطبعة الأولى ، الرياض، دار طيبة ، ١٤١٥هـ .

❖ الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة . لعبد الرحمن عبد الخالق ، الطبعة لثانية ، الكويت ، مكتبة ابن تيمية .

❖ فلسفة الحياة الروحية . د./ مقداد يالجن ، الطبعة الثانية ، الرياض ن دار عالم الكتب ١٤١٠هـ .

❖ الفلسفة الصوفية في الإسلام . د./ عبد القادر محمود ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٧م .

❖ الفهرست . لابن النديم ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ.

❖ الفوائد . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / بشير محمد عون ، الطبعة الأولى ، دمشق ، مكتبة دارالبيان ، ١٤٠٧هـ .

❖ قاعدة في الرد على الغزالي في التوكل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / علي بن عبد العزيز الشبل ، الطبعة الأولى ، الرياض دار الصميعي ١٤١٦هـ .

❖ القاموس المحيط . لفيروزآبادي ، بيروت ، طبعة المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

❖ قصة الحضارة . ول ديوزانت ، ترجمة زكي نجيت محمود ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨م

❖ قوت القلوب . لأبي طالب المكي ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، ١٩٣٢م .

❖ كتاب بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم . ليوسف عبد الهادي ، تحقيق د./ وصي الله عباس . الطبعة الأولى ، الرياض ، دار الراية ١٤٠٩هـ .

❖ كتاب التعريفات . للجرجاني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤١٨هـ .

❖ كتاب التوحيد .محمد إسحاق بن خزيمة ، بيروت ، دار الجيل ، ١٤٠٨هـ.

❖ كتاب ختم الأولياء . لمحمد بن علي الحكيم الترمذي ، تحقيق/ عثمان إسماعيل يحيى ، بيروت ، الطبعة الكاثوليكية .

❖ كتاب الزهد . للإمام وكيع بن الجراح ، تحقيق / عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي ، الطبعة الثانية ، الرياض ، دار الصميعي، ١٤١٥هـ .

❖ كتاب الزهد والرقائق . عبد الله بن المبارك ، تحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي ، بيروت، دار الكتب العلمية .

❖ كتاب الزهد الكبير . للبيهقي ، تحقيق د./ تقي الدين الندوي ، الطبعة الثانية ، الكويت ، دار القلم ، ١٤٠٣هـ.

❖ كتاب الصدق . لأبي سعيد الخراز . تصحيح وتعليق حسن السماحي سويدان ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار القادري ، ١٤١٨هـ .

❖ كتاب السنة . لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلاّل .تحقيق د./ عطية بن عتيق الزهراني ، الطبعة الثانية ، الرياض ، دار الراية ، ١٤١٥هـ .

❖ كتاب الصفدية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم .الطبعة الأولى منصورة ، دار الهدى ، والريا ض ، دار الفضيلة ، ١٤٢١هـ .

❖ كتاب الفقه الأكبر . للإمام أبي حنيفة ، الطبعة الثانية ، الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٧٣هـ .

❖ الكتاب المقدس — العهد القديم والعهد الجديد — ترجمة من اللغات الأصلية ، القاهرة، دار الكتاب المقدس .

❖ كتاب الورع . للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق د./ مصطفى محمد حسين الذهبي ، الطبعة الأولى ، مكة ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، ١٤١٨هـ .

❖ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس . لإسماعيل ابن العجلوني ، تصحيح وتعليق / أحمد القلاش ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ .

❖ الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ . محمود عبدالرؤوف قاسم ، الطبعة الثانية ، عمان ، المكتبة الإسلامية ، ١٤١٣هـ .

❖ كشف القناع عن حكم الوجد والسماع . لأحمد بن عمر القرطبي ، تحقيق / عبد الله محمد الطريقي ، الرياض ، ١٤١١هـ.

❖ كشف المحجوب . عثمان بن سعيد الهجويري ، ترجمة د./ سعاد عبد الهادي ، مصر، ١٣٩٥هـ .

❖ الكلام على مسألة السماع . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / راشد بن عبد العزيز الحمد، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار العاصمة ، ١٤٠٩هـ .

❖ كمياء السعادة . ضمن مجموعة رسائل الإمام الغزالي . الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤هـ.

❖ لسان العرب . لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور ، بيروت ، دار صادر .

❖ لسان الميزان . لابن حجر العسقلاني .الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ .

❖ اللمع . لأبي نصر السرج الطوسي ، تحقيق د./ عبد الحليم محمود ، وطه عبدالباقي سرور ، مصر ، دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٠هـ .

❖ مالك بن أنس إمام دار الهجرة . عبد الحليم الجندي ، مصر ، دار المعارف .

❖ مالك ، حياته وعصره . لمحمد أبو زهرة ، طبع دار الفكر العربي .

❖ مجلة الإسلام و التصوف ، السنة الثالثة ، العددان ، ٩، ١٠ ، مصر ، ١٩٦١م .

❖ المجموع شرح المهذب . للإمام أبي زكريا النووي ، بيروت ، دار الفكر .

❖ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . لأبي بكر الهيثمي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٨هـ .

❖ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .

❖ مجموعة الرسائل والمسائل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

❖ مختار الصحاح . لمحمد أبي بكر الرازي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٥هـ.

❖ مختصر منهاج القاصدين . لابن قدامة المقدسي ، تحقيق / عبد الله الليث الأنصاري ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المعرفة ،١٤٠٩هـ .

❖ مدارج السالكين . لابن القيم الجوزية ، تحقيق / محمد معتصم بالله البغدادي ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤١٧هـ .

❖ المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب . لعبد الرزاق محمد أسود ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار العربية للموسوعات ، ١٩٨١م .

- ❖ مدخل إلى التصوف الإسلامي . د./ أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، دار الثقافة للنشر١٩٨٣م .
- ❖ المدخل . لابن الحاج المالكي . بيروت ، دار الفكر .
- ❖ المدهش . لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، بيروت ، المؤسسة العالمية ، ١٩٧٣م
- ❖ المدونة الكبرى . للإمام مالك ، رواية سحنون ، القاهرة ، مطبعة السعادة .
- ❖ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر به من حوادث الزمان . لليافعي ، بيروت، مؤسسة الأعلمي ، ١٩٧٠م .
- ❖ مروج الذهب . علي بن الحسين المسعودي ، تحقيق / محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، دار الفكر ، ١٣٣٣هـ .
- ❖ المسائل في أعمال القلوب والجوارح . للحارث المحاسبي .تحقيق / عبد القادر أحمد عطا ، القاهرة ، عالم الكتب .
- ❖ مسائل الإمام أحمد . رواية ابن هانئ ، تحقيق / زهير الشاوش ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ مستدرك الحاكم على الصحيحين. لأبي عبدالله الحاكم ، بيروت ، دار الكتب العلمية.
- ❖ مسائل الإمام أحمد . رواية عن عبدالله بن أحمد ، تحقيق / زهير الشاوش ، بيروت ، المكتب الإسلامي .
- ❖ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة . د./ عبدالإله الأحمدي ، الطبعة الثانية ، دار طيبة ، ١٤١٦هـ .
- ❖ المسند . للإمام أحمد بن حنبل ، بيروت ، الكتب الإسلامي .
- ❖ مشكاة المصابيح . لمحمد عبدالله التبريزي ، تحقيق الشيخ الألباني ، الطبعة الأولى ، بيروت ودمشق ، المكتب الإسلامي ، ١٣٨٩هـ .
- ❖ المصباح المنير . لأحمد المقري ، الطبعةالأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٤ هـ .
- ❖ مصرع الشرك والخرافة . خالد محمد على الحاج ، تحقيق / عبد الله إبراهيم الأنصاري، قطر ، إدارة الشئون الدينية ، ١٣٩٨هـ .
- ❖ مصادر التلقي عند الصوفية . هارون بن بشير أحمد صديقي ، الطبعة الأولى ، الرياض دار الراية ،١٤١٧هـ .

❖ مظاهر الإنحرافات العقدية عند الصوفبة وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية . إدريس محمود إدريس ، الطبعة الأولى ، الرياض ، مكتبة الرشد ، ١٤١٩هـ .

❖ مع المسلمين الأوائل في نظرتهم للحياة والقيم . د./ مصطفى حلمي ، الطبعةالثانية ، دار الدعوة ، ١٩٨٩م .

❖ معالم في السلوك وتزكية النفوس . لعبد العزيز بن محمد العبد اللطيف ، الطبعة الأولى، الرياض ، دار الوطن ، ١٤١٤هـ .

❖ معجم مقايس اللغة . لأبي الحسن أحمد بن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠هـ .

❖ معجم المؤلفين . لعمر رضا كحالة ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي .

❖ معجم الأدباء . ليقوت الحموي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٠هـ .

❖ معجم مصطلحات الصوفية . د. / عبد المنعم الحفني ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار المسيرة ، ١٤٠٠هـ .

❖ المعيار المعرب والجامع المغرّب . لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي ، خرجه جماعة من الفقهاء ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي .

❖ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة . لابن القيم الجوزية ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

❖ مقدمة ابن خلدون من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . لعبد الرحمن بن خلدون ، القاهرة ، دار المصحف .

❖ مكانة الإمام أبي حنيفة بين المحدثين . د./ محمد قاسم عبده الحارثي ، الطبعة الأولى، مكة ، مطابع الصفاء ، ١٤١٣هـ .

❖ الملل والنحل . لمحمد عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق / عبد العزيز محمد الوكيل ، بيروت ، دار الفكر .

❖ مناقب الإمام أحمد بن حنبل . لابن الجوزي ، الطبعة الثانية ، بتصحيح ناشره محمد أمين الخانجي الكتبي ، بيروت .

❖ مناقب الإمام الشافعي . لأبي بكر أحمد البيهقي ، تحقيق / السيد أحمد صقر ، الطبعةالأولى ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٩٧١م .

❖ مناقب أبي حنيفة . للموفق بن أحمد المكي ، وحافظ الدين الكردي ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨١م .

❖ المنقذ من الضلال . أبو حامد الغزالي ، دار العلم للجميع .

❖ المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد . لأبي اليمن العليمي ، تحقيق / عبد القادر ومحمود الأرناؤوط ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار صادر . ١٩٩٧م .

❖ المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم الجوزية ، تحقيق / أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ،١٤٠٢هـ .

❖ منهاج السنة النبوية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ .

❖ منهج الإمام مالك في إثبات العقيدة . سعود بن عبد العزيز الدعجان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٦هـ .

❖ مواعظ الإمام أبي سليمان الداراني . صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٩هـ .

❖ مواعظ الإمام الشافعي . صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ،المكتب الإسلامي ، ١٤١٩هـ .

❖ الموافقات في أصول الشريعة . لإبراهيم الشاطبي ، بيروت ، دار المعرفة .

❖ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية . لأحمد العسقلاني ، تحقيق / صالح أحمد الشامي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤١٢هـ .

❖ موسوعة أهل السنة والجماعة . لعبد الرحمن دمشقية ، الطبعة الأولى ، الرياض ، دار المسلم ، ١٤١٨هـ .

❖ موسوعة أخلاق القرآن . للدكتور / أحمد الشرباصي ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الرائد العربي ، ١٤٠١هـ .

❖ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، بإشراف د./ صالح بن عبد الله بن حميد وغيره ، الطبعة الأولى ، جدة ، دار الوسيلة ، ١٤١٨هـ .

❖ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ،١٤٠٩هـ .

❖ الموضوعات . لابن الجوزي ، تحقيق / عبد الرحمن محمد عثمان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٧هـ .
❖ الموفي بمعرفة التصوف والصوفي . لكمال الدين الأدفوي ، تحقيق د./ محمد عيسى صالحية ، الطبعة الأولى ، الكويت ، مكتبة دار العروبة ، ١٤٠٨هـ .
❖ موقف الإسلام من الإلهام " والكشف " والرؤي ومن التمائم والكهانة والرقي . للدكتور / يوسف القرضاوي ،الطبعة الأولى ،بيروت ،مؤسسة الرسالة ،١٤١٧هـ.
❖ موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية . د./ أحمد محمد البناني ، الطبعة الأولى، جدة ، دار العلم ،١٤٠٦هـ .
❖ ميزان الاعتدال في نقد الرجال . للحافظ الذهبي ، بيروت ، دار المعرفة .
❖ نشأة التصوف الإسلامي . الدكتور/ إبراهيم بسيوني ، مصر ،دار المعارف ،١٩٦٩م
❖ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . د./ علي سامي النشار ، الطبعة السابعة ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٧٨م .
❖ نظرية الاتصال عند الصوفية في نظر الإسلام . سارة بنت عبد المحسن بن عبدالله بن جلوى آل سعود ، الطبعة الأولى ،جدة ، دارالمنارة ، ١٤١١هـ .
❖ النور من كلمات أبي طيفور ، لأبي الفضل الفلكي ، تحقيق د./ عبد الرحمن بدوي ، الطبعة الثانية ،الكويت ، وكالة المطبوعات مع شطحات الصوفية ، ١٩٧٦م .
❖ النهاية في غريب الحديث .لابن الأثير ، بيروت ، دار الفكر .
❖ وفيات الأعيان . لشمس الدين ابن خلكان ، تحقيق د./ إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧م .
❖ ولاية الله والطريق إليها . الدكتور / إبراهيم هلال ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة.
❖ هذه هي الصوفية . لعبد الرحمن الوكيل ، الطبعة الرابعة ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤م .
❖ اليواقيت والجواهر . لعبد الوهاب الشعراني ، القاهرة ، المطبعة الحجازية ، ١٣٥٣ هـ، بهامشه الكبريت الأحمر للشعراني .

فهرس الموضوعات